الوقف من ذهب
مكتبة القراءة والثقافة الأدبية

الدكتور أحمد فريد رفاعي
مدير إدارة الصحافة والنشر
والثقافة المصرية

مطبوعات دار المأمون

سلسلة المصادر العربية

نفح الطيب

تأليف العلامة احمد المقرى المغربى المالكى الأشعرى

فى عشرين جزءاً

مضبوطة ومشروحة ومعلقاً عليها

راجعت وزارة المعارف العمومية هذا الكتاب

الجزء الأول

طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر



اهداءات ٢٠٠٢

الشيخ/ عبد العزيز توفيق جاويد

شيخ المترجمين- القاهرة

مطبوعات دار المأمون

سلسلة المصادر العربية

نفح الطيب

تأليف العلامة احمد المقرى المغربى المالكى الأشعرى

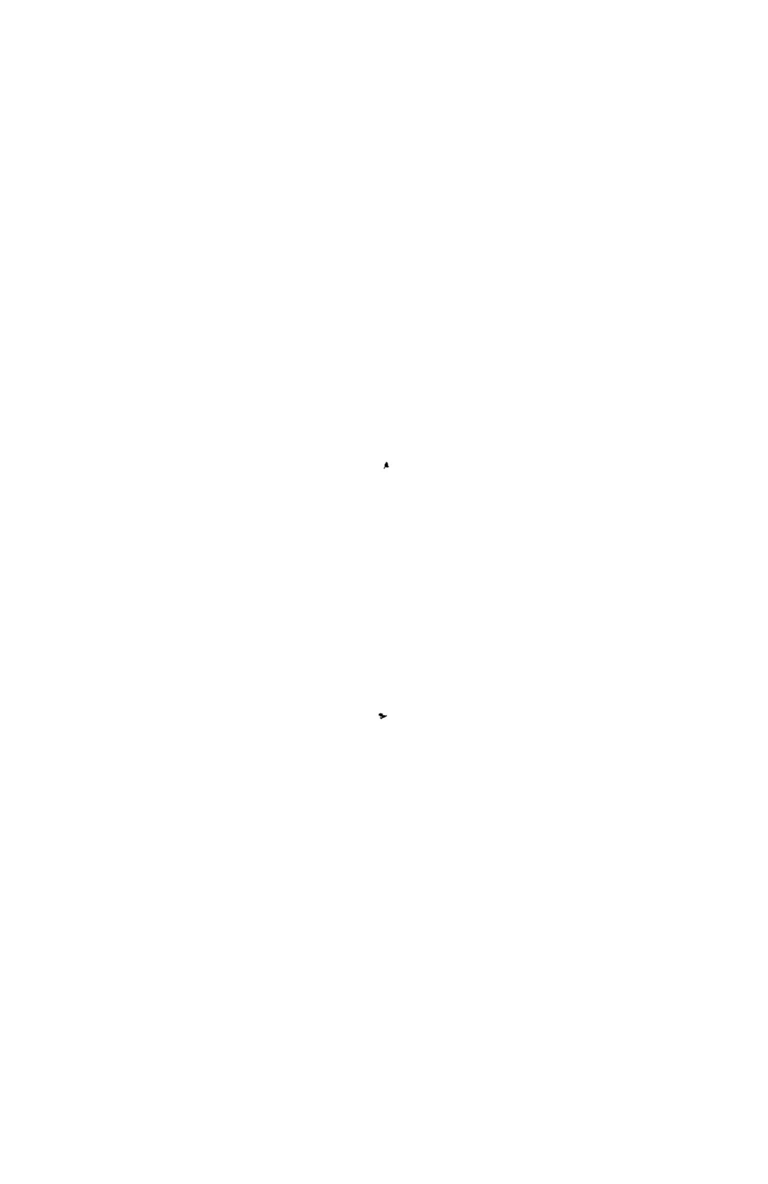
فى عشرين جزءا

مضبوطة ومشروحة ومعلقاً عليها

راجعت وزارة المعارف العمومية هذا الكتاب

الجزء الأول

طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر



اعتراف بالجميل

تدين هذه السلسلة من المصادر العربية لمكتبة القراءة والثقافة الأدبية إلى حضرة صاحب المعالى الأستاذ الجليل على زكى العرابى باشا وزير المعارف ، ووكيله الأستاذ العالم محمد العشماوى بك ، وحضرات معاونيهما الأمجاد فى تقرير مبدأ مراجعة الوزارة لأصولها النهائية خدمة للغة والأدب .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ أَمَّا بَعْدُ

فَقَدْ قَالَ العِمَادُ الأَصْفَهَانِيُّ

إِنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ إِنْسَانٌ كِتَابًا فِي يَوْمِهِ إِلَّا قَالَ فِي غَدِهِ : لَوْ غُيِّرَ هٰذَا لَكَانَ أَحْسَنَ ، وَلَوْ زِيدَ كَذَا لَكَانَ يُسْتَحْسَنُ ، وَلَوْ قُدِّمَ هٰذَا لَكَانَ أَفْضَلَ ، وَلَوْ تُرِكَ هٰذَا لَكَانَ أَجْمَلَ ، وَهٰذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَرِ ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِيلَاءِ النَّقْصِ عَلَى جُمْلَةِ الْبَشَرِ .

العِمَادُ الأَصْفَهَانِي

كلمة الإهداء

الى لياذ اللغة ، ونصير الأدب ، وحامل اللواء ، ومفزع العرب ، وحامي الملة والدين ، والذواد عن الوطن وأمله الركين . الى زين الشباب ، وراعي العلوم والآداب ، وأخي القلم والكتاب .

الى الفرع النضير من الدوحة الباسقة ، والغصن اليانع من السرحة الشامخة ، والثمرة الناضجة من الشجرة الطيبة المورقة والبرهان الساطع ، والآية الناطقة ، على رفعة مصر الثابتة في أجمل الربيع ، وأزكى العنفوان .

الى الذكاء في أشد اتقاده ، والمجد الباذخ في طريفه وتلاده ، والروح المصري الصادق في أبلغ الوضوح ، وأوضح البيان .

الى مصر كلها في فرد ، والفرد كله في بلد ، والصورة الجميلة في أفخم إطار للوطن كله والحمى والذمار ، والخلاصة الوافية ، لمعنى الملكية السامية ، امتزجت بالأمة الوفية المتفانية ، فكانت منهما أقدس وحدة ، وأروع اندماج ، وأسمى تفان .

الى سيد العرش المفدى بالمهج ، وصاحب النيل والشمس والنور والوهج والزرع الباسم والروض المبتهج ، والديار العزيزة ، والنخل الباسق والمرج ، وأرض الحضارة التي علمت الانسان ، ورفعت البنيان ، وكانت شابة ، والدنيا والزمان طفلان يحبوان .

الى وريث الفراعنة والعرب ، والخير العميم الذي منح من الله ووهب ، وسليل البيت الرفيع النسب ، والأسرة العلوية المجيدة الذكر العريقة الحسب .

إلى حضرة صاحب الجلالة مولانا المعظم فاروق الأول ملك مصر

أُهدي

في عهد وزارة الزعامة والدستور والأمة ، وزارة الرئيس المحبوب مصطفى النحاس باشا ، هذه الطبعة الجديدة من « نفح الطيب » في تاريخ الأندلس الرطيب ، الذي خار الله لي ، أن أتوفر على إعادة نشره للناس ، في هذا الثوب الخليق به ، وهذه الحلة الحسنة الموائمة له ، والغلالة التي تفتن الأنظار ، وتأخذ الأعين ، وتعين على المطالعة ، وتغري بالدرس والمراجعة ، وتخلع على الأدب العربي أجمل الألوان .

وإني لأرجو - في معنى الكتاب وما حوى ، وهذا التاريخ الأندلسي وما نشر وطوى خاطراً يلهم القلب ، ويوحي إلى النهى - أن يدعو الله جل وعلا ، أن يجعل عهدكم النضير كعهده ، ومجدكم في مثل مجده ، مزدهر أدب ومجتنى علم ، ومنتعش ثقافة ، ومزداد خير ، ومزيجاً ومكتسباً ، لما تنشده البلاد من عز وحرية واستقلال ....

الخادم المخلص الأمين

أحمد فريد رفاعي

دار المأمون في ٢١ من ربيع الأول سنة ١٣٥٥

١١ من يونيه سنة ١٩٣٦



تَرْجَمَةُ الْمَقَّرِىِّ

صَاحِبِ كِتَابِ نَفْحِ الطِّيبِ

ترجمة المقرى

« الشَّيْخُ أَحْمَدُ[١] » بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَي ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ أَبِي الْعَيْشِ بْنِ مُحَمَّدٍ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمَقَّرِيُّ التِّلِمْسَانِيُّ الْمَوْلِدِ ، الْمَالِكِيُّ الْمَذْهَبِ ، نَزِيلُ فَاسٍ ، ثُمَّ الْقَاهِرَةِ ، حَافِظُ الْمَغْرِبِ ، جَاحِظُ الْبَيَانِ ، وَمَنْ لَمْ يُرَ نَظِيرُهُ فِي جَوْدَةِ الْقَرِيحَةِ ، وَصَفَاءِ الذِّهْنِ ، وَقُوَّةِ الْبَدِيهَةِ ، وَكَانَ آيَةً بَاهِرَةً فِي عِلْمِ الْكَلَامِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ ، وَمُعْجِزًا بَاهِرًا فِي الْأَدَبِ وَالْمُحَاضَرَاتِ ، وَلَهُ الْمُؤَلَّفَاتُ الشَّائِعَةُ ، مِنْهَا : عَرْفُ الطِّيبِ فِي أَخْبَارِ ابْنِ الْخَطِيبِ[٢] . وَفَتْحُ الْمُتَعَالِ ، الَّذِي صَنَّفَهُ فِي أَوْصَافِ نَعْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَإِضَاءَةُ الدُّجُنَّةِ[٣] فِي عَقَائِدِ أَهْلِ السُّنَّةِ . وَأَزْهَارُ الْكِمَامَةِ . وَأَزْهَارُ الرِّيَاضِ فِي أَخْبَارِ الْقَاضِي عِيَاضٍ .

---

(١) راجع تاريخ خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر طبع مصر صفحة ٣٠٢ جزء أول (٢) ذكر فى كشف الظنون أنه سماه بعد ذلك (نفح الطيب) (٣) الدجنة : الظلمة

وَقَطْفُ ٱلْمُهْتَصَرِ ، فِي أَخْبَارِ ٱلْمُخْتَصَرِ . وَإِتْحَافُ ٱلْمُغْرَى فِي تَـكْمِيلِ شَرْحِ ٱلصُّغْرَى . وَعَرْفُ ٱلنَّشْقِ فِي أَخْبَارِ دِمَشْقَ . وَٱلْغَثُّ وَٱلسَّمِينُ ، وَٱلرَّثُّ وَٱلثَّمِينُ . وَرَوْضُ ٱلْآسِ ٱلْعَاطِرِ ٱلْأَنْفَاسِ ، فِي ذِكْرِ مَنْ لَقِيتُهُ مِنْ أَعْلَامِ مَرَّاكُشَ وَفَاسٍ . وَٱلدُّرُّ ٱلثَّمِينُ فِي أَسْمَاءِ ٱلْهَادِي ٱلْأَمِينِ . وَحَاشِيَةُ شَرْحِ أُمِّ ٱلْبَرَاهِينِ . وَكِتَابُ ٱلْبَدْأَةِ وَٱلنَّشْأَةِ ، كُلُّهُ أَدَبٌ وَنَظْمٌ . وَلَهُ رِسَالَةٌ فِي ٱلْوَفْقِ ٱلْمُخَمَّسِ ٱلْخَالِي ٱلْوَسَطِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ . وُلِدَ بِتِلِمْسَانَ ، وَنَشَأَ بِهَا ، وَحَفِظَ ٱلْقُرْآنَ ، وَقَرَأَ وَحَصَّلَ بِهَا عَلَى عَمِّهِ ٱلشَّيْخِ ٱلْجَلِيلِ ٱلْعَالِمِ ، أَبِي عُثْمَانَ سَعِيدِ بْنِ أَحْمَدَ ٱلْمَقَّرِيِّ مُفْتِي تِلِمْسَانَ سِتِّينَ سَنَةً ، وَمِنْ جُمْلَةِ مَاقَرَأَ عَلَيْهِ ، صَحِيحُ ٱلْبُخَارِيِّ سَبْعَ مَرَّاتٍ ، وَرَوَى عَنْهُ ٱلْـكُتُبَ ٱلسِّتَّةَ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ ٱللهِ ٱلتَّنَسِي[1] ، عَنْ وَالِدِهِ حَافِظِ عَصْرِهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ ٱلتَّنَسِي ، عَنِ ٱلْبَحْرِ أَبِي عَبْدِ ٱللهِ ٱبْنِ مَرْزُوقٍ ، عَنْ أَبِي حَيَّانَ ، عَنْ أَبِي جَعْفَرِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ ، عَنْ أَبِي ٱلرَّبِيعِ عَنِ ٱلْقَاضِي عِيَاضٍ ، بِأَسَانِيدِهِ ٱلْمَذْكُورَةِ فِي كِتَابِ ٱلشِّفَا . وَٱلْأَحَادِيثُ ٱلْمُسْنَدَةُ فِي ٱلشِّفَا ، جَمِيعُهَا سِتُّونَ حَدِيثًا ، أَفْرَدَهَا

(١) (تنس) بلدة بالمغرب قرب وهران قريبا من البحر ، وقد خربها الماء وهدمها

بَعْضُهُمْ فِي جُزْءٍ . مَنْ أَرَادَ رِوَايَةَ ٱلْكُتُبِ ٱلسِّتَّةِ مِنْ طَرِيقِهِ ، فَلْيَأْخُذْهَا مِنْ كِتَابِ ٱلشِّفَا ، أَوْ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلْمَذْكُورِ ، وَكَانَ يُخْبِرُ عَنْ بَلَدِهِ تِلِمْسَانَ : أَنَّهَا بَلْدَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ أَحَاسِنِ بِلَادِ ٱلْمَغْرِبِ ، وَأَنَّهَا فِي يَدِ ٱلْعُثْمَانِيِّينَ سَلَاطِينِ مَمْلَكَتِنَا ، وَهِيَ ٱلْحَدُّ ٱلْمَضْرُوبُ بَيْنَ سُلْطَانِنَا وَسُلْطَانِ ٱلْمَغْرِبِ ، وَرَحَلَ إِلَى فَاسٍ مَرَّتَيْنِ ، مَرَّةً سَنَةَ تِسْعٍ بَعْدَ ٱلْأَلْفِ ، وَمَرَّةً سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ ، وَكَانَ يُخْبِرُ أَنَّهَا دَارُ ٱلْخِلَافَةِ لِلْمَغْرِبِ ، وَكَانَ بِهَا ٱلْمَلِكُ ٱلْأَعْظَمُ مَوْلَايَ أَحْمَدُ ٱلْمَنْصُورُ ، ٱلْمَشْهُورُ بِالْفَضْلِ وَٱلْأَدَبِ ، ٱلْمُقَدَّمُ ذِكْرُهُ ، وَأَنَّ ٱلْفَتْوَى صَارَتْ إِلَيْهِ فِي زَمَنِهِ وَمِنْ بَعْدِهِ . لَمَّا ٱخْتَلَّتْ أَحْوَالُ ٱلْمَمْلَكَةِ بِسَبَبِ أَوْلَادِهِ ، إِلَى حَدِيثٍ يَطُولُ ذِكْرُهُ ، ٱرْتَحَلَ تَارِكًا لِلْمَنْصِبِ[1] وَٱلْوَطَنِ ، فِي أَوَاخِرِ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ بَعْدَ ٱلْأَلْفِ ، قَاصِدًا حَجَّ بَيْتِ ٱللهِ ٱلْحَرَامِ ، وَأَنْشَدَ صَاحِبَ مَرَّاكُشَ مُتَمَثِّلًا قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَضْرَمِيِّ :

(١) المنصب : مايتولاه الرجل من العمل كأنه محل لنصبه أى تعبه وجده ، قال ابن الوردى : « نصب المنصب أو هى جلدى » وقد يكون من نصب نفسه للأمر ينصب كضرب يضرب

مَحَبَّتِي تَقْتَضِي مُقَامِي وَحَالَتِي تَقْتَضِي الرَّحِيلَا

فَأَجَابَهُ صَاحِبُ مَرَّاكُش بِقَوْلِهِ :

لَا أَوْحَشَ اللهُ مِنْكَ قَوْمًا تَعَوَّدُوا صُنْعَكَ الْجَمِيلَا

« قُلْتُ » وَبَيْتُ الْحَضْرَمِيِّ أَوَّلُ أَبْيَاتٍ ثَلَاثَةٍ ،

كَتَبَ بِهَا لِعِزِّ الدَّوْلَةِ ابْنِ سَقْمُونَ وَكَانَ فِي خِدْمَتِهِ ، وَبَعْدَهُ :

هَذَانِ خَصْمَانِ لَسْتُ أَقْضِي بَيْنَهُمَا خَوْفَ أَنْ أَمِيلَا

فَلَا يَزَالَانِ فِي خِصَامٍ حَتَّى أَرَى رَأْيَكَ الْجَمِيلَا

فَوَقَّعَ عِزُّ الدِّينِ عَلَى وَرَقَتِهِ : الرَّأْيُ الْجَمِيلُ أَنْ تُمْنَعَ مِنَ الرَّحِيلِ وَتُسَوَّغَ الْإِقَامَةَ فِي ظِلِّ دَوْحَةٍ[1] وَإِحْسَانِ غَمَامَةٍ .

قَالَ الْمَقَّرِيُّ : وَكَتَبَ إِلَيَّ الْفَقِيهُ الْكَاتِبُ ، أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ الْخَزْرَجِيُّ الْفَاسِيُّ الشَّهِيرُ بِالشَّامِيِّ بِمَا كَتَبَهُ أَبُو جَعْفَرٍ أَحْمَدُ بْنُ خَاتِمَةَ الْمُرِّيُّ الْمَغْرِبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَشْيَاخِهِ :

أَشَمْسَ الْغَرْبِ حَقًّا مَا سَمِعْنَا بِأَنَّكَ قَدْ سَئِمْتَ مِنَ الْإِقَامَهْ

وَأَنَّكَ قَدْ عَزَمْتَ عَلَى طُلُوعٍ إِلَى شَرْقٍ سَمَوْتَ[2] بِهِ عَلَامَهْ

لَقَدْ زَلْزَلْتَ مِنَّا كُلَّ قَلْبٍ بِحَقِّ اللهِ لَا تُقِمِ الْقِيَامَهْ

(١) الدوحة : الشجرة الغليظة الملتفة الأغصان (٢) سموت : علوت ورقيت

ثُمَّ وَرَدَ إِلَى مِصْرَ بَعْدَ أَدَاءِ الْحَجِّ فِي رَجَبٍ، سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ وَأَلْفٍ، وَتَزَوَّجَ بِهَا مِنَ السَّادَةِ الْوَفَائِيَّةِ، وَسَكَنَهَا، وَقَدْ سُئِلَ عَنْ حَظِّهِ بِهَا فَقَالَ : قَدْ دَخَلَهَا قَبْلَنَا ابْنُ الْحَاجِبِ، وَأَنْشَدَ فِيهَا قَوْلَهُ :

يَا أَهْلَ مِصْرٍ وَجَدْتُ أَيْدِيَكُمْ فِي بَذْلِهَا بِالسَّخَاءِ مُنْقَبِضَهْ
لَمَّا عَدِمْتُ الْقِرَى[1] بِأَرْضِكُمُ أَكَلْتُ كُتْبِي كَأَنَّنِي أَرَضَهْ[2]

وَأَنْشَدَ هُوَ لِنَفْسِهِ :

تَرَكْتُ رُسُومَ عِزِّي فِي بِلَادِي وَصِرْتُ بِمِصْرَ مَنْسِيَّ الرُّسُومِ
وَنَفْسِي عِفْتُهَا[3] بِالذُّلِّ فِيهَا وَقُلْتُ لَهَا عَنِ الْعَلْيَاءِ صُومِي
وَلِي عَزْمٌ كَحَدِّ السَّيْفِ مَاضٍ وَلَكِنَّ اللَّيَالِيَ مِنْ خُصُومِي

ثُمَّ زَارَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فِي شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ، سَنَةَ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَأَلْفٍ، وَرَجَعَ إِلَى الْقَاهِرَةِ، وَكَرَّرَ مِنْهَا الذَّهَابَ إِلَى مَكَّةَ، فَدَخَلَهَا بِتَارِيخِ سَنَةِ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ خَمْسَ مَرَّاتٍ، وَأَمْلَى بِهَا دُرُوسًا عَدِيدَةً، وَوَفَدَ عَلَى طَيْبَةَ سَبْعَ

(١) القرى : إكرام الضيف (٢) أرضة بالتحريك : دويبة تأكل الخشب والورق (٣) عفتها : كرهتها

مَرَّاتٍ ، وَأَمْلَى ٱلْحَدِيثَ ٱلنَّبَوِيَّ بِمَرْأًى مِنْهُ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَسْمَعٍ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مِصْرَ فِي صَفَرٍ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ ، وَدَخَلَ ٱلْقُدْسَ فِي رَجَبٍ مِنْ تِلْكَ ٱلسَّنَةِ ، وَأَقَامَ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ وَرَدَ مِنْهَا إِلَى دِمَشْقَ ، فَدَخَلَهَا فِي أَوَائِلِ شَعْبَانَ ، وَأَنْزَلَتْهُ ٱلْمَغَارِبَةُ فِي مَكَانٍ لَا يَلِيقُ بِهِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَحْمَدُ بْنُ شَاهِينَ مِفْتَاحَ مَدْرَسَةِ ٱلْجَقْمَقِيَّةِ ، وَكَتَبَ مَعَ ٱلْمِفْتَاحِ هَذِهِ ٱلْأَبْيَاتَ:

كَنَفُ[1] ٱلْمَقَّرِيِّ شَيْخِي مَقَرِّي
وَإِلَيْهِ مِنَ ٱلزَّمَانِ مَفَرِّي

كَنَفٌ مِثْلُ صَدْرِهِ فِي ٱتِّسَاعٍ
وَعُلُومٍ كَٱلْبَحْرِ فِي ضِمْنِ بَحْرِ

أَيَّ بَدْرٍ قَدْ أَطْلَعَ ٱلدَّهْرُ مِنْهُ
مَلَأَ ٱلشَّرْقَ نُورُهُ أَيَّ بَدْرِ ؟ ؟

أَحْمَدٌ سَيِّدِي وَشَيْخِي وَذُخْرِي
وَسَمِيِّي وَذَاكَ أَشْرَفُ فَخْرِي

---

(١) الكنف بالتحريك : الجانب والظل

لَوْ بِغَيْرِ ٱلْأَقْدَامِ يَسْعَى مَشُوقٌ
جِئْتُهُ زَائِرًا عَلَى وَجْهِ شُكْرِي

فَأَجَابَهُ ٱلْمَقَّرِيُّ بِقَوْلِهِ :

أَيُّ نَظْمٍ فِي حُسْنِهِ حَارَ فِكْرِي
وَتَحَلَّى بِدُرِّهِ صَدْرُ ذِكْرِي ؟ ؟

طَائِرٌ(١) ٱلصِّيتِ لِابْنِ شَاهِينَ يُنْمَى
مِنْ بِرَوْضِ ٱلنَّدَى لَهُ خَيْرُ ذِكْرِ(٢)

أَحْمَدُ ٱلْمُمْتَطِينَ(٣) ذِرْوَةَ مَجْدٍ
لِعَوَانٍ(٤) مِنَ ٱلْمَعَالِي وَبِكْرِ

حَلَّ مِفْتَاحُ فَضْلِهِ بَابَ وَصْلٍ
مِنْ مَعَانِي تَعْرِيفِهِ دُونَ نُكْرِ

يَا بَدِيعَ ٱلزَّمَانِ دُمْ فِي ٱزْدِيَادٍ
بِالْعُلَى وَٱزْدِيَادِ تَجْنِيسِ شُكْرِي

---

(١) طائر الصيت : أى شائع الذكر . وينمى : ينسب . والندى : السخاء والعطاء والجود (٢) لعلها (وكر) وهو عش الطائر ؟ (٣) الممتطين : الراكبين . وذروة المجد : أعلاه (٤) العوان : النصف فى سنها من كل شيء . والعوان : الثيب ضد البكر

وَلَمَّا دَخَلَ الَيْهَا أَعْجَبَتْهُ، فَنَقَلَ أَسْبَابَهُ إِلَيْهَا، وَاسْتَوْطَنَهَا مُدَّةَ إِقَامَتِهِ، وَأَمْلَى صَحِيحَ الْبُخَارِيِّ بِالْجَامِعِ، تَحْتَ قُبَّةِ النَّسْرِ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ. وَلَمَّا كَثُرَ النَّاسُ بَعْدَ أَيَّامٍ، خَرَجَ إِلَى صَحْنِ الْجَامِعِ، تُجَاهَ الْقُبَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالْبَاعُونِيَّةِ، وَحَضَرَهُ غَالِبُ أَعْيَانِ عُلَمَاءِ دِمَشْقَ، وَأَمَّا الطَّلَبَةُ فَلَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَكَانَ يَوْمُ خَتْمِهِ حَافِلًا جِدًّا، اجْتَمَعَ فِيهِ الْأُلُوفُ مِنَ النَّاسِ، وَعَلَتِ الْأَصْوَاتُ بِالْبُكَاءِ، فَنُقِلَتْ حَلْقَةُ الدَّرْسِ إِلَى وَسَطِ الصَّحْنِ، إِلَى الْبَابِ الَّذِي يُوضَعُ فِيهِ الْعَلَمُ النَّبَوِيُّ، فِي الْجُمُعَاتِ مِنْ رَجَبٍ وَشَعْبَانَ وَرَمَضَانَ، وَأُتِيَ لَهُ بِكُرْسِيِّ الْوَعْظِ، فَصَعِدَ عَلَيْهِ: وَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ فِي الْعَقَائِدِ وَالْحَدِيثِ، لَمْ يُسْمَعْ نَظِيرُهُ أَبَدًا، وَتَكَلَّمَ عَلَى تَرْجَمَةِ الْبُخَارِيِّ، وَأَنْشَدَ لَهُ بَيْتَيْنِ، وَأَفَادَ أَنْ لَيْسَ لِلْبُخَارِيِّ غَيْرُهُمَا وَهُمَا:

اغْتَنِمْ فِي الْفَرَاغِ فَضْلَ رُكُوعٍ ... فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مَوْتُكَ بَغْتَهْ[1]

كَمْ صَحِيحٍ قَدْ مَاتَ قَبْلَ سَقِيمٍ ... ذَهَبَتْ نَفْسُهُ النَّفِيسَةُ فَلْتَهْ[2]؟

« قُلْتُ »: وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ الْمَجَامِيعِ نَقْلًا عَنِ

(١) بغتة: فجأة (٢) فلتة: بغتة

الْحَافِظِ ابْنِ حَجَرٍ ، أَنَّهُ وَقَعَ لِلْبُخَارِيِّ ذَلِكَ أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ ، وَهَذِهِ مِنَ الْغَرَائِبِ ، انْتَهَى . وَكَانَتِ الْجَلْسَةُ مِنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى قُرْبِ الظُّهْرِ ، ثُمَّ خَتَمَ الدَّرْسَ بِأَبْيَاتٍ قَالَهَا حِينَ وَدَّعَ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهِيَ قَوْلُهُ :

يَا شَفِيعَ الْعُصَاةِ أَنْتَ رَجَائِى
كَيْفَ يَخْشَى الرَّجَاءُ عِنْدَكَ خَيْبَهْ ؟

وَإِذَا كُنْتَ حَاضِرًا بِفُؤَادِى
غَيْبَةُ الْجِسْمِ عَنْكَ لَيْسَتْ بِغَيْبَهْ

لَيْسَ بِالْعَيْشِ فِي الْبِلَادِ انْقِطَاعٌ
أَطْيَبُ الْعَيْشِ مَا يَكُونُ بِطَيْبَهْ[1]

وَنَزَلَ عَنِ الْكُرْسِيِّ ، فَازْدَحَمَ النَّاسُ عَلَى تَقْبِيلِ يَدِهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ نَهَارَ الْأَرْبِعَاءِ ، سَابِعَ عَشَرَ رَمَضَانَ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ وَأَلْفٍ ، وَلَمْ يَتَّفِقْ لِغَيْرِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْوَارِدِينَ إِلَى دِمَشْقَ ، مَا اتَّفَقَ لَهُ مِنَ الْحُظْوَةِ[2] وَإِقْبَالِ النَّاسِ ، وَكَانَ بَعْدَ

(١) طيبة : مدينة يثرب ، وهى المدينة المنورة (٢) الحظوة : المكانة والمنزلة من ذى سلطان ونحوه :

مَا رَأَى مِنْ أَهْلِهَا مَا رَأَى ، أَكْثَرَ ٱلِاهْتِمَامَ بِمَدْحِهَا ، وَقَدْ عَقَدَ فِي كِتَابِهِ عَرْفِ ٱلطِّيبِ فَصْلًا يَتَعَلَّقُ بِهَا وَبِأَهْلِهَا ، وَأَوْرَدَ فِي مَدْحِهَا أَشْعَارًا ، وَمِنْ مَحَاسِنِ شِعْرِهِ فِي حَقِّهَا قَوْلُهُ :

مَحَاسِنُ ٱلشَّامِ جَلَّتْ(١) عَنْ أَنْ تُقَاسَ بِحَدِّ
لَوْلَا حِمَى ٱلشَّرْعِ قُلْنَا وَلَمْ نَقِفْ عِنْدَ حَدِّ
كَأَنَّهَا مُعْجِزَاتٌ مَقْرُونَةٌ بِالتَّحَدِّي(٢)

وَقَوْلُهُ :

قَالَ لِي مَا تَقُولُ فِي ٱلشَّامِ حَبْرٌ(٣)
شَامَ مِنْ بَارِقِ ٱلْعُلَا مَا شَامَهْ ؟
قُلْتُ : مَاذَا أَقُولُ فِي وَصْفِ أَرْضٍ
هِيَ فِي وَجْنَةِ ٱلْمَحَاسِنِ شَامَهْ ؟

وَقَوْلُهُ :

قُلْ لِمَنْ رَامَ(٤) ٱلنَّوَى عَنْ وَطَنٍ
قَوْلَةً لَيْسَ بِهَا مِنْ حَرَجِ(٥)

---

(١) جلت : عظمت وعلت (٢) التحدى . طلب الشيء مقرونا بالاعجاز
(٣) الحبر : العالم ، وشام : نظر . والشامة : علامة تخالف البدن الذى هى فيه (٤) رام : طلب وقصد . والنوى : الرحيل والنزوح والبعد .
(٥) من حرج . أى، من اثم ، أو لوم .

فَرِّجِ ٱلْهَمَّ بِسُكْنَى جِلِّقٍ[١] إِنَّ فِي جِلَّقَ بَابَ ٱلْفَرَجِ

وَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُدَبَائِهَا وَعُلَمَائِهَا مُطَارَحَاتٌ[٢] شَتَّى ، فَمِنْ ذٰلِكَ : مَا كَتَبَهُ إِلَى ٱلشَّاهِينِيِّ مَعَ خَاتَمٍ وَمِسْبَحَةٍ أَرْسَلَهُمَا إِلَيْهِ :

يَا نَجْلَ شَاهِينَ ٱلَّذِي حَازَ ٱلْمَعَالِيَ وَٱلْمَعَالِمْ
يَا مَنْ دِمَشْقُ بِطِيبِ مَا يُبْدِيهِ عَاطِرَةُ ٱلنَّوَاسِمْ[٣]
فَالنَّهْرُ مِنْهَا ذُو صَفَا وَٱلزَّهْرُ مُفْتَرُّ[٤] ٱلْمَبَاسِمْ
وَٱلْغُصْنُ يَثْنِي عِطْفَهُ[٥] طَرَبًا لِتَغْرِيدِ ٱلْحَمَائِمْ
يَا أَحْمَدَ ٱلْأَوْصَافِ يَا مَنْ حَازَ أَنْوَاعَ ٱلْمَكَارِمْ
أَنْتَ ٱلَّذِي طَوَّقْتَنِي مِنَنًا لَهَا تَعْنُو[٦] ٱلْأَعَاظِمْ
فَمَتَى أُؤَدِّي شُكْرَهَا وَٱلْعَجْزُ لِي وَصْفٌ مُلَازِمْ ؟

---

(١) جلق بفتح اللام وكسرها : دمشق أو غوطتها (٢) المطارحة : المناظرة ، والمجاوبة : بأن يلقى كل منهما الأسئلة على الآخر (٣) النواسم : جمع نسيم : كل ريح لينة لاتحرك شجرا ولا تعفى أثرا . ولعل هذا الجمع سماعى أو هو جمع ناسمة من نسمت الريح نسما ونسمانا اذا تنفست ، والنسيم الريح الطيبة (٤) مفتر : مفتح ، والمباسم جمع مبسم وهو مايظهر من ثنايا الانسان عند الضحك (٥) عطف كل شيء : جانبه (٦) تعنو : تخضع .

وَالْعُذْرُ بَادٍ إِنْ بَعَثْـ ... تُ إِلَيْكَ مِنْ جِنْسِ الرَّتَائِمْ[١]
تَسْبِيحَةَ الذِّكْرِ الَّتِي ... جَاءَتْ بِتَصْحِيفٍ مُلَائِمْ
وَبِخَاتَمٍ دَاعٍ إِلَى ... فَيْضِ النَّدَى[٢] مِنْ كَفِّ حَاتِمْ
فَامْدُدْ عَلَى جَهْدِ الْمُقِلِّ[٣] ... م رُوَاقَ صَفْحٍ ذَا دَعَائِمْ
لَا زِلْتَ سَابِقَ غَايَةٍ ... بَيْنَ الْأَعَارِبِ وَالْأَعَاجِمْ

سَيِّدِي لَا يَخْفَاكَ أَنِّي بَعَثْتُ بِهَا رَتِيمَةً ، وَلَوْ أَمْكَنَنِي لَأَهْدَيْتُ مِنَ الْجَوَاهِرِ مَا يَنُوفُ[٤] عَلَى قَدْرِ الْقِيمَةِ . فَهُمَا - أَعْنِي الْخَاتَمَ وَالْمِسْبَحَةَ - تَذْكِيرٌ لِيَدِ الْعُلَى بِخَالِصِ الْوِدَادِ ، وَفِي الْمَثَلِ « لَا كُلْفَةَ بَيْنَ مَنْ تَثْبُتُ بَيْنَهُمُ الْأُلْفَةُ » حَتَّى فِي الْوَرَقِ وَالْمِدَادِ ، وَاللهُ يُبْقِيكَ الْبَقَاءَ الْجَمِيلَ ، وَيُبَلِّغُكَ غَايَةَ التَّأْمِيلِ . وَالْعَفْوُ مَطْلُوبٌ ، وَاللهُ عِنْدَ مُنْكَسِرَةِ الْقُلُوبِ وَهُوَ الْمَسْئُولُ أَنْ يَحْرُسَكُمْ بِعَيْنِ عِنَايَتِهِ الَّتِي لَا تَنَامُ ، بِجَاهِ مَنْ تَرَقَّى إِلَى أَعْلَى مَقَامٍ ، وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ .

(١) الرتائم : جمع رتيمة . وهى : خيط يشد فى الأصبع لتتذكر به الحاجة
(٢) الندى : العطاء (٣) جهد المقل : وسعه وطاقته . والمقل : الفقير وفيه بقية (٤) ينوف : يزيد .

هَدِيَّةُ ٱلْعَبْـدِ عَلَى قَدْرِهِ   وَٱلْفَضْلُ أَنْ يَقبَلَهَا ٱلسَّيِّدُ
فَالْعَيْنُ مَعْ تَعْظِيمِ مِقْدَارِهَا   تَقْبَلُ مَا يُهْدِى لَهَا ٱلْمِرْوَدُ[1]

فَـكَتَبَ إِلَيْهِ ٱلشَّاهِينِىُّ قَصِيدَةً مَطْلَعُهَا :

يَا سَـيِّدًا شِـعْرِى لَهُ   مَا إِنْ يُقَاوِى أَوْ يُقَاوِمْ

« مِنْهَا » وَهُوَ مَحَلُّ ذِكْرِ مَا أَهْدَاهُ إِلَيْهِ :

قَدْ جَاءَ مَا شَرَّفْتَنِى   بِخُصُوصِهِ دُونَ ٱلْأَعَاظِمْ
مِنْ خَاتَمٍ كَفِّى بِهَا   وَرِثَتْ سُلَيْمَانَ ٱلْعَزَائِمْ
وَبِسُبْحَـــةٍ شَبَّهْتُهَا   بِالشُّهْبِ فِى أَسْلَاكِ نَاظِمْ
فَلْتَحْسُدِ ٱلْجَوْزَاءُ[2] مَا   أَحْرَزْتَ مِنْ تِلْكَ ٱلْمَكَارِمْ
هِىَ آلَةٌ لِلذِّكْرِ لَـــكِنْ لَيْسَ ذِكْرًا فِى ٱلْحَيَازِمْ[3]
فَهَوَاكَ فِى قَلْبِى وَمَا   فِى ٱلْقَلْبِ جَلَّ عَنِ ٱلرَّتَائِمْ
مَا ذِى رَتَائِمُ سَيِّـــدِى   بَلْ إِنَّهَا عِنْـدِى تَمَائِمْ[4]
لَوْ أَنَّهَا مِنْ جِنْسِ مَا   يُطْوَى غَدَتْ فَوْقَ ٱلنَّعَائِمْ[5]

---

(١) المرود : الميل يكتحل به (٢) الجوزاء برج فى السماء .
(٣) الحيازم جمع حيزوم : وهو الصدر . لأنه موضع الحزم (٤) تمائم جمع تميمة : وهى خرزة رقطاء تنظم فى السير ثم يعقد فى العنق
(٥) النعائم : منزل من منازل القمر صورته كالنعامة .

لٰكِنَّهَا قَدْ زَيَّنَتْ كَفِّي وَأَزْرَتْ بِالْخَوَاتِمْ

وَاتَّفَقَ لِلْمَقَّرِيِّ مَجْلِسٌ فِي دَعْوَةِ بَعْضِ الْأَعْيَانِ . وَكَانَ الْمُفْتِي الْعِمَادِيُّ وَالشَّاهِينِيُّ صُحْبَتَهُ فِي تِلْكَ الدَّعْوَةِ ، فَمَسَّ ثَلْجًا وَقَالَ : أَلْمَاسُ هٰذَا ؟ فَأَنْشَدَ الشَّاهِينِيُّ مُرْتَجِلًا :

شَيْخُنَا الْمَقَّرِيُّ وَهُوَ النَّاسُ وَالَّذِي بِالْأَنَامِ لَيْسَ يُقَاسُ
مَسَّ ثَلْجًا وَقَالَ أَلْمَاسُ هٰذَا؟ قُلْتُ : أَلْمَاسُ عِنْدَنَا أَلْمَاسُ

ثُمَّ ارْتَجَلَ آخَرَيْنِ فِي الثَّلْجِ :

غَنِيتُ بِالثَّلْجِ عَنْ سَوْدَاءَ كَاحِلَةٍ
مِنْ قَهْوَةٍ لَمْ تَكُنْ فِي الْأَعْصُرِ الْأُوَلِ
وَقُلْتُ لَمَّا غَدَا خِلِّي يُعَنِّفُنِي[١] :
فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ[٢]

فَقَالَ الْعِمَادِيُّ :

يَا بَرْدَهَا ثَلْجَةً جَاءَتْ عَلَى كَبِدٍ
حَرَّاءَ مِنْ فُرْقَةِ الْأَحْبَابِ فِي وَجَلِ

(١) يعنفنى : يؤنبنى (٢) زحل : كوكب من الخنس سمى به لبعده وتنحيه ، وهو مثل فى العلو والبعد . ويقال له شيخ النجوم . وعجز البيت من قول أبى الطيب .

خذ ماتراه ودع شيئا سمعت به فى طلعة الشمس مايغنيك عن زحل

فَقَالَ الْمَقَّرِىُّ :

تَحْلُو إِذَا كُرِّرَتْ ذَوْقاً وَعَادَةُ مَا
أُعِيدَ أَنْ يُلْتَقَى(١) بِالْكُرْهِ وَالْمَلَلِ

فَقَالَ الْعِمَادِىُّ :

لَعَلَّ إِعْلَالَةً(٢) بِالثَّلْجِ ثَانِيَةً
يَدِبُّ مِنْهَا نَسِيمُ الْبُرْءِ فِى عِلَلِى

فَقَالَ الْمَقَّرِىُّ :

إِذَا دَعَانِى بِمِصْرٍ ذِكْرُ مَعْهَدِهَا
أَجَابَ دَمْعِى وَمَا الدَّاعِى سِوَى طَلَلِ(٣)

فَقَالَ الْعِمَادِىُّ :

لَوْ كَانَ فِى مِصْرَ مَاءٌ بَارِدٌ لَكَفَى عَنِ الثُّلُوجِ، وَمَنْ لِلْعُورِ بِالْحَوَلِ

---

(١) التقى الشىء: تلقاه . وقد ضمن قول أبى الطيب فى مطلع قصيدة :
أجاب دمعى وما الداعى سوى طلل دعا فلباه قبل الركب والابل
(٢) العلل محركة : الشرب الثانى . يقال « علل بعد نهل » وأعله وعله : سقاه شربة ثانية ، وينبغى أن يكون عجز البيت : (يدب منها نسيم البرء فى عللى » لأن فى الأبيات كلها تضمينا من أقوال الشعراء ، وهو هنا قد أخذ عجز البيت من قول الطغرائى :
لعل الملمة بالجزع ثانية يدب منها نسيم البرء فى عللى
أو لعله : يدب منها نسيم البرد فى غللى (والغلل شدة العطش)
(٣) الطلل : الشاخص من آثار الديار .

وَمِنْ شِعْرِ ٱلْمَقَّرِيِّ قَوْلُهُ مُضَمِّنًا مَعَ ٱلِاكْتِفَاءِ وَٱلتَّوْرِيَةِ:

لَمْ أَنْسَ يَوْمًا لِلنَّوَاعِيرِ (١) بِهِ
فِي نَهْرِ فَاسٍ شَجَنٌ (٢) هَاجَ ٱلْجَوَى

فَقُلْتُ إِذْ ذَكَّرَنِي مَعَاهِدًا:
لِلّٰهِ مَا قَدْ هِجْتَ يَا يَوْمَ ٱلنَّوَى

وَٱلْمِصْرَاعُ ٱلثَّانِي ضَمَّنَهُ مِنْ مَقْصُورَةِ حَازِمٍ، وَبَعْدَهُ:

« عَلَى فُؤَادٍ مِنْ تَبَارِيحِ (٣) ٱلْجَوَى »

وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ ٱلْمَجَامِيعِ نَقْلًا عَنْ خَطِّ ٱلْمَقَّرِيِّ قَالَ: أَنْشَدَنِي صَاحِبُنَا ٱلْعَلَّامَةُ ٱلْبَلِيغُ ٱلنَّاظِمُ ٱلنَّاثِرُ ٱلْقَاضِي مُحَمَّدٌ ٱلْمُنُوفِيُّ لِبَعْضِ مَنْ قَصَدَهُ ٱلدَّهْرُ بِسِهَامِهِ، وَلَمْ يَجِدْ صَبْرًا لِإِشْكَالِ صَبْرِهِ وَٱنْبِهَامِهِ، قَوْلَهُ:

وَأَخْفَيْتُ صَبْرِي سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ
وَلَكِنَّ عَيْنِي فِي ٱلْأَحَايِينِ تَدْمَعُ

فَقُلْتُ مُضَمِّنًا، وَفِيهِ لُزُومُ مَا لَا يَلْزَمُ:

---

(١) جمع الناعورة: الدولاب ودلو يستقى بها، أو مايديره الماء من المنجنونات (٢) الشجن. الهم والحزن (٣) تباريح الجوى: توهجه، جمع تبريح.

وَقَائِلَةٍ مَالِي رَأَيْتُكَ ذَا شَجًى
وَلَمْ يَكُ قِدْمًا فِيكَ لِلشَّجْوِ مَطْمَعُ!

فَقُلْتُ: أَصَابَتْنِي مِنَ ٱلدَّهْرِ عَيْنُهُ
وَخَالَفْتُ ذَا نُصْحٍ لَهُ كُنْتُ أَسْمَعُ

فَقَالَتْ: تَصَبَّرُوا اكْتُمِ ٱلْأَمْرَ تَسْتَرِحْ
وَلَا تَسْأَمَنْ فَالْخَيْرُ فِي ذَاكَ أَجْمَعُ

فَقُلْتُ لَهَا: أَرْشَدْتِ مَنْ لَيْسَ جَاهِلًا
وَأَنْشَدْتُهَا وَٱلْحَيُّ لِلسَّيْرِ أَزْمَعُوا:

وَأَخْفَيْتُ صَبْرِي سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ
وَلَـكِنَّ عَيْنِي فِي ٱلْأَحَايِينِ تَدْمَعُ

قَالَ: وَكَانَ شَيْخُ مَشَايِخِنَا ٱلْقَاضِي ٱلْأَجَلُّ سَيِّدِي عَبْدُ ٱلْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ ٱلْوَانْشَرِيشِيُّ (١) ٱلتِّلِمْسَانِيُّ ٱلْأَصْلِ، قَاضِي قُضَاةِ فَاسٍ ٱلْمَحْرُوسَةِ نَظَمَ بَيْتًا، وَرَمَزَ فِيهِ لِلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي لَا يُصَلَّى فِيهَا عَلَى ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ:

عَلَى عَاتِقِي حُمِّلْتُ ذَنْبَ جَوَارِحٍ تَعِبْتُ بِهَا وَٱللهُ لِلذَّنْبِ غَافِرُ

(١) وانشريش: بالنون وشينين معجمتين وراء بينها ياء جبل بنواحي المغرب قرب تلمسان، ينسب اليه محمد بن عبد الله الوانشريشى الذى أعان محمد بن تومرت على أمره يوم قام بدعوة عبد المؤمن بن على

وَهَذَا بيَانُ مَا رَمَزَ عَلَى ٱلتَّرْتِيبِ : عُطَاسٌ عَبْرَةٌ ، حَمَامٌ ذَبْحٌ جِمَاعٌ تَعَجُّبٌ بَيْعٌ ، فَقُلْتُ : إِنَّ قَوْلَهُ : وَٱللهُ لِلذَّنْبِ غَافِرٌ ، لَامَحَلَّ لَهُ فِي ٱلرَّمْزِ ، مَعَ أَنَّهُ بَقِيَتْ أَشْيَاءُ أُخَرُ ، لَوْ جُعِلَتْ مَكَانَ هَذَا ٱلْكَلَامِ لَكَانَ أَحْسَنَ . وَأَيْضًا ، فَإِنَّ بَيْتَهُ لَيْسَ فِيهِ مَا يُفْهَمُ مِنْهُ مُرَادُهُ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ وَطَّأْتُ لَهُ بِبَيْتٍ صَرَّحْتُ فِيهِ بِالْمُرَادِ ، وَأَبْدَلْتُ قَوْلَهُ : وَٱللهُ لِلذَّنْبِ غَافِرُ ، بِالرَّمْزِ لِمَا أَغْفَلَهُ ، قُلْتُ - وَٱلْفَضْلُ بِالتَّقَدُّمِ لَهُ - :

يُنَزَّهُ ذِكْرُ ٱلْمُصْطَفَى فِي مَوَاضِعٍ
لَهَا رَمْزُ أَلْفَاظٍ تَبَدَّى شُمُولُهَا

عَلَى عَاتِقِي حُمِّلْتُ ذَنْبَ جَوَارِحٍ
تَعِبْتُ بِهَا قَدْ أَثْقَلَتْنِي حُمُولُهَا

رَمَزْتُ لِلْقَذَرِ وَٱلْأَكْلِ وَحَاجَةِ ٱلْإِنْسَانِ . لَا يُقَالُ : إِنَّ ٱلْحَاجَةَ تَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ حُمِّلْتُ ، لِأَنَّا نَقُولُ : إِنَّهُ كَرَّرَ فِي قَوْلِهِ : عَلَى عَاتِقِي ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يُكْتَفَى بِاللَّفْظِ ٱلْوَاحِدِ . ثُمَّ ظَهَرَ لِي بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ أَنَّ قَوْلِي يُنَزَّهُ إِلَى آخِرِهِ

لَيْسَ فِيهِ ٱلتَّصْرِيحُ بِعَدَمِ ٱلصَّلَاةِ عَلَيْهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ بَدَلَهُ :

صَلَاةٌ عَلَى ٱلْمُخْتَارِ دَعْ فِي مَوَاضِعٍ
لَهَا رَمْزُ أَلْفَاظٍ تَبَدَّى شُمُولُهَا

عَلَيْكَ بِإِكْثَارِ ٱلصَّلَاةِ عَلَى ٱلَّذِي
رِسَالَتُهُ لِلْخَلْقِ بَادٍ شُمُولُهَا

وَدَعْهَا بِعَشْرٍ قُلْتُ فِي رَمْزِ عَدِّهَا
كَلَامًا ، عُيُونِي زَادَ مِنْهُ هُمُولُهَا

عَلَى عَاتِقِي حُمِّلْتُ ذَنْبَ جَوَارِحٍ
تَعِبْتُ بِهَا قَدْ أَثْقَلَتْنِي حُمُولُهَا

وَمِنْ إِمْلَائِهِ لِبَعْضِ فُضَلَاءِ دِمَشْقَ أَنَّهُ قَالَ :

حُكِيَ أَنَّ أَفْلَاطُونَ كَتَبَ إِلَى بِقْرَاطَ قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْهُ : إِنِّي أَسْأَلُكَ عَنْ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ إِنْ أَجَبْتَ عَنْهَا تَلْمَذْتُ لَكَ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ بِقْرَاطُ : سَلْ وَبِاللّٰهِ ٱلتَّوْفِيقُ . فَكَتَبَ إِلَيْهِ : أَخْبِرْنِي مَنْ أَحَقُّ ٱلنَّاسِ بِالرَّحْمَةِ ؟ وَمَتَى يَضِيعُ أَمْرُ ٱلنَّاسِ ؟ وَمَا تُتَلَقَّى بِهِ ٱلنِّعْمَةُ مِنَ ٱللّٰهِ ؟ فَكَتَبَ إِلَيْهِ بِقْرَاطُ : أَمَّا

أَحَقُّ ٱلنَّاسِ بِالرَّحْمَةِ فَثَلَاثَةٌ : ٱلْبَرُّ يَكُونُ فِي سُلْطَانٍ فَاجِرٍ ، فَهُوَ ٱلدَّهْرَ حَزِينٌ لِمَا يَرَى وَيَسْمَعُ . وَٱلْعَاقِلُ فِي تَدْبِيرِ ٱلْجَاهِلِ ، فَهُوَ ٱلدَّهْرَ مُتْعَبٌ مَغْمُومٌ . وَٱلْكَرِيمُ يَحْتَاجُ إِلَى ٱللَّئِيمِ ، فَهُوَ ٱلدَّهْرَ خَاضِعٌ ذَلِيلٌ . وَأَمَّا تَضْيِيعُ أُمُورِ ٱلنَّاسِ : فَإِذَا كَانَ ٱلرَّأْيُ عِنْدَ مَنْ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ ، وَٱلسِّلَاحُ عِنْدَ مَنْ لَا يَسْتَعْمِلُهُ ، وَٱلْمَالُ عِنْدَ مَنْ لَا يُنْفِقُهُ . وَأَمَّا مَا بِهِ تُتَلَقَّى ٱلنِّعْمَةُ مِنَ ٱللهِ : فَبِكَثْرَةِ ٱلشُّكْرِ ، وَلُزُومِ طَاعَتِهِ ، وَٱجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ . فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ أَفْلَاطُونُ وَصَارَ تِلْمِيذًا لَهُ إِلَى أَنْ مَاتَ . قَالَ ٱلْمَقَّرِيُّ : وَقَدْ نَظَمْتُ هَذَا ٱلسُّؤَالَ وَٱلْجَوَابَ فِي قَوْلِي :

أَرْسَلَ أَفْلَاطُونُ وَهْوَ ٱلَّذِي ... قِدْمًا سَمَا فِي ٱلنَّاسِ بِالْحِكْمَهْ
لِشَيْخِهِ بِقْرَاطَ مِنْ قَبْلِ أَنْ ... يَكُونَ مِمَّنْ قَدْ حَوَى عِلْمَهْ
إِنْ أَنْتَ حَقَّقْتَ جَوَابِي عَلَى ... ثَلَاثَةٍ مَحَّضْتُكَ[1] ٱلْخِدْمَهْ
وَكُنْتُ تِلْمِيذًا مُقِرًّا بِمَا ... تُسْدِيهِ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ حُرْمَهْ
فَقَالَ بَيِّنْهَا فَقَالَ : ٱكْشِفَنْ ... عَمَّنْ أَحَقُّ ٱلنَّاسِ بِالرَّحْمَهْ؟

(١) محضتك الخدمة : أخلصت لك فيها

وَعَنْ أُمُورِ ٱلنَّاسِ أَوْضِحْ مَتَى   تَضِيعُ ، وَٱسْتِقْبَالِنَا ٱلنِّعْمَهْ؟؟

مِنْ رَبِّنَا سُبْحَانَهُ مَا ٱلَّذِي   بِهِ تُلَقَّى فَاشْرَحِ ٱلْقِسْمَهْ

فَقَالَ بِقْرَاطُ : أَحَقُّ ٱلْوَرَى   بِرَحْمَةٍ يَا مُوفِيَ[1] ٱلذِّمَّهْ

ذُو ٱلْعَقْلِ فِي تَدْبِيرِ ذِي ٱلْجَهْلِ لَا   يَبْرَحُ طُولَ ٱلدَّهْرِ فِي غُمَّهْ

وَٱلْبَرُّ إِنْ أَضْحَى بِسُلْطَانِ مَنْ   فُجُورُهُ عَمَّ ٱلْوَرَى نِقْمَهْ

يُحْزِنُهُ مَا يَسْمَعُ أَوْ مَا يَرَى   مِنْهُ لِأَنَّ ٱلظُّلْمَ ذُو ظُلْمَهْ

كَذَا كَرِيمُ ٱلنَّفْسِ ذُو حَاجَةٍ   إِلَى لَئِيمٍ سَاقِطِ ٱلْهِمَّهْ

يَغْدُو ذَلِيلًا خَاضِعًا خَاشِعًا   لَهُ وَنَاهِيكَ بِذَا وَصْمَهْ[2]

فَاسْأَلْ مِنَ ٱلرَّحْمَنِ سُبْحَانَهُ   عَنِ ٱلثَّلَاثِ ٱلْحِفْظَ وَٱلْعِصْمَهْ

وَذِي ثَلَاثٌ إِنْ تَكُنْ فِي ٱلْوَرَى   ضَاعَتْ أُمُورُ ٱلنَّاسِ فِي مَهْمَهْ[3]

ٱلْمَالُ فِي كَفِّ ٱمْرِئٍ مُمْسِكٍ   لَهُ يَرَى إِنْفَاقَهُ ثُلْمَهْ[4]

وَٱلرَّأْيُ إِنْ كَانَ لَدَى مَنْ أَبَوْا   مِنْهُ قَبُولًا وَأَبَوْا حَزْمَهْ

وَذُو سِلَاحٍ لَيْسَ مُسْتَعْمِلًا   لَهُ وَلَمْ يَكْسِبْ بِهِ حِشْمَهْ[5]

وَذِي ثَلَاثٌ غَيْرُهَا أَوْضَحَتْ   عَمًّا بِهِ تُسْتَقْبَلُ ٱلنِّعْمَهْ

---

(١) موفى : كامل (٢) الوصمة : العار والعيب (٣) المهمة : المفازة (٤) ثلمة خلل وعيب (٥) حشمة : حشمه وأحشمه : أغضبه ، والاسم الحشمة وهو الاستحياء والغضب أيضا . والمراد هنا لازم الغضب وهو الحمية والاباء وبهما يكون المرء ذا هيبة ووقار .

تَرْكُ ٱلْمَعَاصِي وَلُزُومُ ٱلتُّقَى   وَكَثْرَةُ ٱلشُّكْرِ فَصُنْ نَظْمَهْ

وَذَكَرَ فِي بَعْضِ مُحَاضَرَاتِهِ: أَنَّ لِسَانَ ٱلدِّينِ بْنَ ٱلْخَطِيبِ، ذَكَرَ فِي ٱلْكُنْيَةِ ٱلْكَامِنَةِ فِي أَبْنَاءِ ٱلثَّامِنَةِ جَوَابًا عَنِ ٱلْبَيْتَيْنِ ٱلْمَشْهُورَيْنِ، وَهُمَا قَوْلُهُ:

كَسَرْتُ لَمَّا قَدْ قُلْتَ قَلْبِي   وَلَمْ تُضِفْهُ إِلَى فُلَانِ

مَا يَمْلِكُ ٱلْمُسْتَهَامُ(١) قَلْبًا   يَا ظَالِمَ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعَانِي

قَالَ وَٱلْبَيْتَانِ ٱلْمَشْهُورَانِ ٱللَّذَانِ هَذَانِ جَوَابٌ عَنْهُمَا هُمَا قَوْلُ ٱلْقَائِلِ:

يَا سَاكِنًا قَلْبِيَ ٱلْمُعَنَّى   وَلَيْسَ فِيهِ سِوَاهُ ثَانِي

لِأَيِّ مَعْنًى كَسَرْتَ قَلْبِي   وَمَا ٱلْتَقَى فِيهِ سَاكِنَانِ

وَرَأَيْتُ لِبَعْضِهِمْ جَوَابًا عَنْهُمَا، وَقَدْ أَجَادَ إِلَى ٱلْغَايَةِ بِقَوْلِهِ:

سَكَنْتُهُ وَهْوَ ذُو سُكُونٍ   لَمْ يَثْنِهِ عَنْ هَوَايَ ثَانِي

فَكَانَ كَسْرِي لَهُ قِيَاسًا   لَمَّا ٱلْتَقَى فِيهِ سَاكِنَانِ(٢)

وَأَجَابَ ٱلْمَقَرِيُّ بِقَوْلِهِ:

نَحَلْتَنِي(٣) طَائِعًا فُؤَادِي   فَصَارَ إِذْ حُزْتَهُ مَكَانِي

لَا غَرْوَ إِنْ كَانَ لِي مُضَافًا   إِنِّي عَلَى ٱلْكَسْرِ فِيهِ بَانِي

---

(١) المستهام: الهائم العاشق المتحير (٢) ساكنان: يعني قلبه ومحبوبه
(٣) نحلتني: أعطيتني. وحزته: أخذته.

قُلْتُ : وَذَكَرَ ٱلْخَفَاجِيُّ فِي تَرْجَمَةِ أَحْمَدَ بْنِ ٱلْجَيْعَانِ ، أَنَّهُ ذَكَرَ هَذَا ٱلسُّؤَالَ فِي بَيْتَيْنِ وَقَالَ : إِذَا ٱلْتَقَى سَاكِنَانِ كُسِرَ أَحَدُهُمَا لَا مَحَلُّهُمَا ، وَكَوْنُ ٱلْمُرَادِ بِالْمَحَلِّ ٱلْكَلِمَةَ ٱلَّتِي فِيهَا ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ إِذَا كُسِرَ أَحَدُهُمَا كَانَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى ٱلْكَسْرِ كَأَمْسِ ، لَا تَحْتَمِلُهُ ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : فَقُلْتُ لَهُ هَذَا مِمَّا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ . وَأَحْسَنُ مِنْهُ قَوْلِي فِي هَذَا ٱلْمَعْنَى :

إِنَّ ذَا ٱلدَّهْرَ لَا يَزَالُ يَرَى ... جَمْعَ شَمْلِ ٱلْكِرَامِ مُمْتَنِعَا
فَهْوَ حَتْمًا مُحَرِّكٌ أَبَدًا ... أَحَدَ ٱلسَّاكِنَيْنِ مَا ٱجْتَمَعَا

وَلِسَانُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْخَطِيبِ ، هُوَ ٱلَّذِي أَلَّفَ صَاحِبُ ٱلتَّرْجَمَةِ كِتَابَهُ « عَرْفَ ٱلطِّيبِ » فِي أَخْبَارِهِ . وَمِنْ غَرِيبِ خَبَرِهِ — وَٱلْأَيَّامُ تُرِي ٱلْغَرِيبَ مِنْ أَفْعَالِهَا ، وَتُسْمِعُ ٱلْعَجِيبَ مِنْ أَحْوَالِهَا — أَنَّهُ رَحَلَ مِنْ غِرْنَاطَةَ ، وَدَخَلَ إِلَى مَدِينَةِ فَاسٍ ، فَبَالَغَ سُلْطَانُهَا فِي إِكْرَامِهِ ، فَتَمَكَّنَ مِنْهُ أَعْدَاؤُهُ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَأَثْبَتُوا عَلَيْهِ كَلِمَاتٍ مَنْسُوبَةً إِلَى ٱلزَّنْدَقَةِ[1] تَكَلَّمَ بِهَا ، فَسَجَّلَ[2] ٱلْقَاضِي بِثُبُوتِ زَنْدَقَتِهِ ، وَحَكَمَ بِإِرَاقَةِ

(١) الزندقة : ابطان الكفر واظهار الايمان «النفاق» (٢) سجل : حكم

دَمِهِ ، وَأَرْسَلَ بِهِ إِلَى سُلْطَانِ فَاسٍ فَسُجِنَ بِهَا ، وَدَخَلَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْأَوْغَادِ[١] السِّجْنَ وَقَتَلَهُ خَنْقًا ، وَأَخْرَجُوا رِمَّتَهُ فَدُفِنَتْ ، فَأَصْبَحَ غُدْوَةَ دَفْنِهِ طَرِيحًا عَلَى شَفِيرِ قَبْرِهِ ، وَقَدْ أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ الْأَحْطَابُ ، وَأُضْرِمَتْ فِيهَا النَّارُ فَاحْتَرَقَ شَعَرُهُ وَاسْوَدَّتْ بَشَرَتُهُ ، ثُمَّ أُعِيدَ إِلَى حُفْرَتِهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ سَنَةَ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ . وَمِنْ أَعْجَبِ مَا وَقَعَ لَهُ أَنَّهُ كَانَ نَظَمَ هَذَا الْمَقْطُوعَ وَهُوَ :

قِفْ لِتَرَى مَغْرِبَ شَمْسِ الضُّحَى
بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ
وَاسْتَرْحِمِ اللهَ قَتِيــلًا بِهَا
كَانَ إِمَامَ الْعَصْرِ فِي الْمَغْرِبِ[٢]

فَاتَّفَقَ أَنَّهُ قُتِلَ بَيْنَ هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ ، فَالْمُرَادُ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نَفْسُهُ ، وَقَوْلُهُ : وَاسْتَرْحِمِ اللهَ قَتِيلًا بِهَا ، مَعْنَاهُ أَسْأَلِ اللهَ رَحْمَةً لِلْقَتِيلِ بِشَمْسِ الضُّحَى ، فَضَمِيرُ بِهَا عَائِدٌ إِلَى شَمْسِ الضُّحَى ، عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِخْدَامِ ، وَكِلَا الْمَعْنَيَيْنِ

(١) الأوغاد : الأرذال الحمقى ، جمع وغد (٢) المغرب : بلاد المغرب

مَجَازِيٌّ. وَقَدْ أَطَلْنَا الْكَلَامَ حَسْبَمَا اقْتَضَاهُ الْمَقَامُ، فَلْنَرْجِعْ إِلَى الْغَرَضِ مِنْ ذِكْرِ بَقِيَّةِ خَبَرِ الْمَقَّرِيِّ فَنَقُولُ:

وَكَانَتْ إِقَامَتُهُ بِدِمَشْقَ دُونَ الْأَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ رَحَلَ مِنْهَا فِي خَامِسِ شَوَّالٍ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ إِلَى مِصْرَ، وَعَادَ إِلَى دِمَشْقَ مَرَّةً ثَانِيَةً فِي أَوَاخِرِ شَعْبَانَ سَنَةَ أَرْبَعِينَ، وَحَصَلَ لَهُ مِنَ الْإِكْرَامِ مَا حَصَلَ فِي قَدْمَتِهِ[1] الْأُولَى. وَحِينَ فَارَقَهَا أَنْشَدَ قَوْلَهُ:

إِنْ شَامَ[2] قَلْبِي عَنْكِ بَارِقَ سَلْوَةٍ
يَا شَامُ كُنْتُ كَمَنْ يَخُونُ وَيَغْدِرُ

كَمْ رَاحِلٍ عَنْهَا لِفَرْطِ ضَرُورَةٍ
وَعَلَى الْقَرَارِ بِغَيْرِهَا لَا يَقْدِرُ؟

مُتَصَاعِدُ الزَّفَرَاتِ[3] مَكْلُومُ الْحَشَا[4]
وَالدَّمْعُ مِنْ أَجْفَانِهِ يَتَحَدَّرُ

(١) القدمة: بالضم: السابقة فى الأمر. والقدمة بالفتح: المرة من القدوم قدم من سفره يقدم (٢) شام البرق شيما: نظر اليه أين يقصد. وشام مخايل الشيء اذا تطلع نحوها ببصره منتظرا له (٣) الزفرات: جمع زفرة: استيعاب النفس من شدة الغم والحزن (٤) مكلوم الحشا: مجروح القلب

وَدَخَلَ مِصْرَ وَاسْتَقَرَّ بِهَا مُدَّةً يَسِيرَةً ، ثُمَّ طَلَّقَ زَوْجَتَهُ الْوَفَائِيَّةَ ، وَأَرَادَ الْعَوْدَ إِلَى دِمَشْقَ لِلتَّوَطُّنِ بِهَا ، فَفَاجَأَهُ الْحِمَامُ[1] ، قَبْلَ نَيْلِ الْمَرَامِ . وَكَانَتْ وَفَاتُهُ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَأَلْفٍ . وَدُفِنَ بِمَقْبَرَةِ الْمُجَاوِرِينَ .

وَقَالَ الْأَدِيبُ إِبْرَاهِيمُ الْأَكْرَمِيُّ فِي تَارِيخِ وَفَاتِهِ :

قَدْ خُتِمَ الْفَضْلُ بِهِ   فَأَرِّخُــوهُ خَاتَمْ

وَالْمَقَّرِيُّ بِفَتْحِ الْمِيمِ وَتَشْدِيدِ الْقَافِ وَآخِرُهَا رَاءٌ مُهْمَلَةٌ ، وَقِيلَ بِفَتْحِ الْمِيمِ وَسُكُونِ الْقَافِ لُغَتَانِ أَشْهَرُهُمَا الْأُولَى ـ نِسْبَةٌ إِلَى قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى تِلِمْسَانَ وَإِلَيْهَا نِسْبَةُ آبَائِهِ .

(١) الحمام بالكسر : الموت .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

المقدمة

يَقُولُ ٱلْعَبْدُ ٱلْفَقِيرُ، ٱلذَّلِيلُ ٱلْمُضْطَرُّ ٱلْحَقِيرُ، مَنْ هُوَ مِنْ صَالِحِ ٱلْأَعْمَالِ عَرِيٌّ[1]، أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلشَّهِيرُ بِالْمَقَّرِيِّ ٱلْمَغْرِبِيُّ ٱلْمَالِكِيُّ ٱلْأَشْعَرِيُّ، أَصْلَحَ ٱللّٰهُ تَعَالَى حَالَهُ، وَجَعَلَ فِي مَرْضَاتِهِ حِلَّهُ وَتَرْحَالَهُ، وَمَحَا بِغَيْثِ ٱلطَّاعَةِ وَٱلرِّضْوَانِ إِمْحَالَهُ[2]، وَأَنْجَحَ بِبُلُوغِ آمَالِهِ ٱنْتِحَاءَهُ وَٱنْتِحَالَهُ

(أَحْمَدُ) مَنْ عَرَّفَ مِنْ حُلِيٍّ[3] ٱلْأَمْصَارِ وَعُلِيٍّ[3] ٱلْأَعْيَانِ، عَلَى تَدَاوُلِ ٱلْأَعْصَارِ وَتَطَاوُلِ ٱلْأَحْيَانِ، مَا فِيهِ ذِكْرَى لِأُولِي ٱلْأَبْصَارِ، وَإِرْشَادٌ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلدَّيَّانِ، وَٱعْتِبَارٌ بِأَخْبَارٍ رَاعَ وَصْفُهَا أَوْرَاقَ[4]. «وَشَرَّفَ» مَنْ صَرَفَ ٱلْمَطَامِحَ وَٱلْمَطَامِعَ إِلَى تَفْصِيلِ مَا أَفَادَ لِسَانُ ٱلدِّينِ مِنْ كَلِمٍ جَوَامِعَ، وَتَحْصِيلِ

---

(١) مجرد (٢) الامحال : الجدب (٣) ويصح أن يكون من حلى الأمصار وعلى الأعيان ، الأول جمع حلية ، والثانى جمع عليا ، يريد من أحاسن المدن وأكابر الناس (٤) راق الشيء : حسن .

مَا أَجَادَ مِنْ حِكَمٍ بَوَالِغَ(١)، سُحُبُ بَلَاغَتِهَا هَوَامِعُ(٢)، وَاُقْتِنَاءِ ذَخَائِرِ الْمُهْتَدِينَ، الَّتِي تَشَنَّفَتْ بِدُرَرِهَا اللَّوَامِعِ الْآذَانُ وَالْمَسَامِعُ، مِنْ كُلِّ مُنْحَطٍّ عَنْ رُتْبَةِ الْبَرَاعَةِ أَوْرَاقٍ(٣).

« حَتَّى » تَوَّجَ الْخَطِيبُ الْمَجِيدُ رُؤُوسَ الْمَنَابِرِ بِفَرَائِدِ الْكَلَامِ، وَحَلَّى الْكَاتِبُ الْمُجِيدُ صُدُورَ الْمَزَابِرِ(٤) مِنْ فَوَائِدِ الْأَعْلَامِ، وَكَحَّلَ الْحَكِيمُ الطَّبِيبُ الْأَرِيبُ الْمُفِيدُ مِنْ إِثْمِدِ(٥) الْمَحَابِرِ بِمَرَاوِدِ الْأَقْلَامِ عُيُونَ أَوْرَاقٍ(٦)

« وَأَشْهَدُ » أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي اُبْتَدَأَ الْخَلْقَ مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ وَبَرَا(٧)، وَقَسَّمَ الْعِبَادَ إِلَى حَاضِرٍ وَبَادٍ

---

(١) جمع بالغة (٢) سحابة هامعة وجمعها هوامع : غزيرة المطر (٣) راق من الرقى : أى مرتفع ، مقابل المنحط (٤) الكتب والرسائل — من الزبر وهو الكتابة (٥) نوع من الكحل (٦) جمع ورقة مايكتب فيه . وفى قوله وكحل الحكيم الخ تشبيهات مؤكدة أضيف فيها المشبه به الى المشبه . فشبه المحابر بالاثمد ، والأقلام بالمراود ، والأوراق بالعيون ، ووجه الشبه فى الأخير أن صور المرئيات ترتسم على شبكية العين كما تدون الكتابة على صفحة القرطاس ، وقد يكون اثمد المحابر استعارة لمدادها ، وقد يراد من عيون الأوراق مواضع الكتابة فيها . وقد ذكر ثلاث كلمات بلفظ «أوراق» الأولى فيها أو عاطفة وراق فعل ماض . والثانية فيها أو عاطفة أيضا وراق اسم فاعل . والثالثة جمع ورقة على سبيل الجناس الذى هو أحد المحسنات البديعية اللفظية . وقد كانت مراعاة المحسنات فى الماضى من أنواع البراعة الانشائية . الا أن حياة اللغة قضت عليها (٧) برا : أى خلق ، وأصلها برأ بالهمزة ، وحذفها للموازنة بينها و بين « الكبرا »

وَظَاهِرٍ وَخَامِلٍ ، وَقَاصِرٍ وَكَامِلٍ ، تُشِيرُ إِلَيْهِ بِالْأَنَامِلِ أَيْدِي الْكُبَرَا . وَأَبْدَى فِي اخْتِلَافِ ذَوَاتِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ ، وَتَبَايُنِ أَدوَاتِهِمْ وَأَغْرَاضِهِمْ ، وَتَغَايُرِ أَلْسِنَتِهِمْ وَأَمْكِنَتِهِمْ ، وَأَزْمِنَتِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ وَأَكْوَانِهِمْ ، وَمَنَاصِبِهِمْ وَمَنَاسِبِهِمْ عِبَرًا . وَجَعَلَ الدُّنْيَا لِمَنْ أُتِيحَ صِغَرًا أَوْ كِبَرًا ، وَلَبِسَ مِنْهُمْ مُسُوحًا أَوْ حِبَرَا ، وَأَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ أَوْ صَعِدَ مِنْبَرًا ، جِسْرًا[١] إِلَى الْآخِرَةِ وَمَعْبَرَا . وَحَكَمَ - وَهُوَ الْفَاعِلُ الْمُخْتَارُ - عَلَى الْجَمِيعِ بِالْمَوْتِ ، فَكَانَ لِمُبْتَدَئِهِمْ خَبَرَا ، فَيَا لَهُ مِنْ دَاءٍ أَعْيَا كُلَّ مُعَالِجٍ أَوْ رَاقٍ[٢]

(فَسُبْحَانَهُ) مِنْ إِلٰهٍ انْفَرَدَ بِوُجُوبِ الْقِدَمِ وَالْبَقَا ، وَاخْتَصَّ بِفَضْلِهِ مَنْ شَاءَ فَارْتَقَى ، وَعَمَّ « تَعَالَى » ذَوِي السَّعَادَةِ وَالشَّقَا ، بِالْحُدُوثِ وَالْفَنَا ، وَأَذَاقَ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا كُلٌّ مَنْ فِيهَا بِلَا اسْتِثْنَا . فَمَنْ وُفِّقَ[٣] فَنَفِي

(١) مفعول ثان لجعل (٢) أو عاطفة ، وراق اسم فاعل من رقى المريض رقية : عوذه وقرأ له شيئا من القرآن أو غيره بقصد الشفاء ، وهى مع ماتقدمها من الجناس اللفظى (٣) الأشبه بالسياق أن تكون هذه الفاء مقحمة ومن وفق الخ بدل من قوله « كل من فيها » بدل بعض من كل ، فصل به بين الفعل أذاق ، و بين مفعوله طعم شعوب، ويكون المعنى: وأذاق من فراق الدنيا كل من فيها موفقا كان أو مخذولا طعم الموت الكريه

عَنْ جَفْنِهِ وَسَنًا[١] . أَوْ خُذِلَ ، فَجَرَّ فِي مَيْـدَانِ ٱلِاغْتِرَارِ رَسَنًا[٢] ، وَزُيِّنَ لَهُ ـ عِيَاذًا بِاللهِ ـ سُوءُ عَمَـلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا طَعْمَ شَعُوبَ[٣] ٱلْمُرَّ ٱلْجَنَى[٤] . فَلَمْ يُغْنِ مِنْهُ عَنْ ذَوِي ٱلْغَنَاءِ وَٱلْغِنَى[٥] ، وَأَهْلِ ٱلسَّنَاءِ[٦] وَٱلسَّنَا[٧] مَنِ ٱسْتَظْهَرُوا بِهِ مِنْ أَرْبَابِ ٱلصَّوَارِمِ[٨] وَٱلْقَنَا[٩] ، وَأَصْحَابِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ وَٱلْجِدَالِ وَٱلْفَخْرِ وَٱلْمَدْحِ وَٱلثَّنَا . فَأُولَئِكَ أَلْقَوُا ٱلسِّلَاحَ مُذْعِنِينَ[١٠] ، مُسْتَبْصِرِينَ مُوقِنِينَ ، إِذْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ وَوَلَّى ٱلِامْتِرَا[١١] . وَهٰؤُلَاءِ تَرَكُوا ٱلِاصْطِلَاحَ مُعْلِنِينَ ، عَالِمِينَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِي ٱلتَّمْوِيهِ[١٢] مُحْسِنِينَ . وَكَيْفَ لَا ؟! وَقَدِ ٱضْمَحَلَّ ٱلْغُرُورُ وَٱلِاجْتِرَا . وَذَهَبَ ـ وَٱللهِ ـ ٱلْجَوْرُ وَٱلِافْتِرَا[١٣] ، وَبُدِّلَ مَذْقُ[١٤] ٱلْإِطْرَاءِ بِصِدْقِ ٱلْإِطْرَاقِ

(١) الوسن النوم (٢) حبل تشد به الدابة فى عنقها أو رأسها ، أوما كان من زمام على أنف (٣) اسم للمنية وهى معرفة لا تنصرف (٤) الثمر (٥) الغناء بفتح الغين والمد : الكفاية ، تقول فى هذا غناء عن غيره . أى كفاية (٦) السناء ممدودا: الشرف (٧) السنا مقصورا النور (٨) جمع صارم وهو السيف القاطع (٩) الرماح (١٠) الاذعان : التسليم والخضوع (١١) الشك . مقصور الممدود للموازنة بين الفواصل (١٢) الغش والختل وتصوير الباطل فى صورة الحق (١٣) الكذب والبهتان (١٤) مذق الود أى لم يخلصه . والاطراء: المدح ، والمعنى بدل الثناء الزائف بالسكوت الصادق .

« وَأَشْكُرُهُ » جَلَّ وَعَلا عَلَى أَنْ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ مَا لَمْ نَعْلَمْ ، وَنَبَّهَ بِآثَارِهِ الدَّالَّةِ عَلَى اقْتِدَارِهِ إِلَى سُلُوكِ الطَّرِيقِ الْأَقْوَمِ الْوَاضِحِ الْمَعْلَمِ [١] ، وَأَرْشَدَ مَنْ أَشْرَقَ فِكْرُهُ وَأَضَا ، إِلَى التَّفْوِيضِ لِأَحْكَامِ الْقَضَا ، وَمَنْ ذَا يَرُدُّ مَا أَمْضَى ؟ أَوْ يَنْقُضُ مَا أَبْرَمَ ، وَالتَّسْلِيمُ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَسْلَمُ . وَأَمَرَ - جَلَّ اسْمُهُ - بِالتَّدَبُّرِ [٢] فِي أَنْبَاءِ مَنْ مَضَى ، وَالنَّظَرِ فِي عَوَاقِبِ أَحْوَالِ الَّذِينَ زَالَ أَمْرُهُمْ وَانْقَضَى ، مِنْ صُنُوفِ الْأُمَمِ ، وَوَبَّخَ مَنْ دَجَا [٣] قَلْبُهُ بِالْإِعْرَاضِ عَنْ ذَلِكَ وَأَظْلَمَ ، وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ اللَّاهِي وَالْمُتَذَكِّرِ ، وَالسَّاهِي وَالْمُتَفَكِّرِ ، وَالنَّاجِي وَالْهَالِكِ الْمُتَحَيِّرِ ، وَالدَّاجِي الْحَالِكِ وَالْمُشْرِقِ النَّيِّرِ ، وَمَا يَسْتَوِي الظِّلُّ وَالْحَرُورُ ، وَالْحُزْنُ وَالسُّرُورُ وَالظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ، ذُو الْبَهْجَةِ وَالْإِشْرَاقِ .

« وَأُصَلِّي » أَزْكَى الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ، هَدِيَّةً لِحَضْرَةِ سَيِّدِ الْأَنَامِ ، وَلَبِنَةِ [٤] التَّمَامِ ، مَنْ زُوِيَتْ [٥] لَهُ مِنَ الْأَرْضِ

(١) العلامات والصوى (٢) التأمل والتفكير (٣) أظلم (٤) أى اللبنة التى تم بها بناء صرح الدين (٥) زوى الشيء يزويه زيا : جمعه، أى جمعت له . وفى الحديث الشريف « زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها » .

ٱلْمَغَارِبُ وَٱلْمَشَارِقُ ، وَتَمَّ بِهِ نِظَامُ أَنْبِيَاءِ ٱللهِ وَرُسُلِهِ ٱلْعِظَامِ ، وَأَزَاحَ نُورُهُ ٱلظَّلامَ وَٱلضَّلَالَ ، حَتَّى أَضَاءَتْ بِوَسْمِهِ[1] ٱلْمَسَاجِدُ ، وَٱزْدَانَتْ بِاسْمِهِ ٱلْمَهَارِقُ[2] ، وَأَلْقَى ٱلْمُوَفَّقُ ٱلْمُوَافِقُ لِدَعْوَتِهِ بِيَدِ ٱلِاسْتِسْلَامِ .وَذَلِكَ شَأْنُ ذَوِى ٱلْعُقُولِ ٱلرَّاجِحَةِ وَٱلْأَحْلَامِ[3] ، غَيْرَ خَائِفٍ مِنْ عَتْبٍ وَلَا مُتَرَقِّبٍ لِمَلَامٍ . فَأَمِنَ مِنَ ٱلطَّوَارِئِ[4] وَٱلطَّوَارِقِ[5] . وَتَمَّتْ كَلِمَةُ ٱلْإِسْلَامِ ، ٱلَّذِى ٱتَّضَحَ بُرْهَانُهُ لِذِى بَصَرٍ وَبَصِيرَةٍ لَا يَحْتَاجُ إِلَى زِيَادَةِ ٱلْإِعْلَامِ ، وَعَلَتْ سُيُوفُ تَوْحِيدِ ٱلْمَلِكِ ٱلْعَلَّامِ ، مِنَ ٱلْمُعَانِدِ ٱلْمُفَارِقِ ٱلْمَفَارِقَ[6] ، وَخَضَبَتْهَا بِحِنَّاءِ ٱلنَّجِيعِ[7] ٱلرَّقْرَاقِ .

« ٱلنَّبِيِّ » ٱلْأُمِّيِّ ٱلْأَمِينِ، ٱلدَّاعِي جَمِيعَ ٱلْعَالَمِينَ إِلَى سُلُوكِ

---

(١) بتأثيره ـ يقال وسمه يسمه كوعد اذا أثر فيه بكى أو نحوه . والمراد أن المساجد أضاءت بفضل جهاده وتأييد الله له (٢) جمع مهرق وهو الصحيفة . فارسى معرب (٣) جمع حلم وهو العقل (٤) طرأ عليه : طلع عليه من بلد آخر ، والمراد النوازل (٥) الطوارق جمع طارق : وهو من يأتيك ليلا (٦) جمع مفرق : وسط الرأس ، وموضع فرق الشعر ، أى علت سيوف التوحيد رؤوس المشركين المفارقين لجماعة الاسلام (٧) دم أحمر يخالطه سواد .

مِنْهَاجٍ (١) ، مَالَهُ مِنْ هَاجٍ (٢) ، ذِي أَضْوَاءٍ شَوَارِقَ ، سَيِّدِ الرُّسُلِ الْغُرِّ الْمَيَامِينِ ، مَلْجَإِ الْأُمَّةِ ، جَعَلَنَا اللهُ مِمَّنْ نَجَا بِالْلَّجَإِ إِلَيْهِ آمِينَ . الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ، هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، وَانْشَقَّ لَهُ الزِّبْرِقَانُ (٣) ، وَنَبَعَ الْمَاءُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ زِيَادَةً فِي الْإِيقَانِ (٤) . وَسَلَّمَتْ عَلَيْهِ الْأَحْجَارُ ، وَانْقَادَتْ لِأَمْرِهِ الْأَشْجَارُ ، مُتَفَيِّئَةً (٥) ظِلَالَهُ الشَّرِيفَةَ ، وَخَطَّتْ فِي الْأَرْضِ أَسْطُرًا مُبْدَعَةَ الْإِتْقَانِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مُعْجِزَاتِهِ الْخَوَارِقِ (٦) . فَهُوَ صَاحِبُ الدَّعْوَةِ الْجَامِعَةِ (٧) ، وَالْبَرَاهِينِ اللَّامِعَةِ (٨) ، وَالْأَدِلَّةِ الَّتِي سَقَتِ الشَّجَرَةَ الطَّيِّبَةَ غُيُوثُهَا النَّافِعَةُ الصَّيِّبَةُ (٩) ، الْهَامِيَةُ الْهَامِعَةُ ، الصَّادِقَةُ

---

(١) المنهاج : الطريق (٢) الهاجى : الذام . ولا يخفى ما بين منهاج الأولى ومن هاج الثانية من الجناس ، ولبعض المتصوفة :

وصالكم مذهبي والحب منهاجي … فهل لمنهاج هذا الصب من هاجي

(٣) القمر (٤) اليقين وهو الاعتقاد الجازم عن دليل (٥) تفيأت الظلال تقلبت ، وتفيأت أنافى فيئها . والفيء من فاء اذا رجع ، وهو مابعد الزوال من الظل ، سمى بذلك لرجوعه (٦) جمع خارقة . أى أن المعجزة هى آية الرسل الدالة على صدقهم فيما يبلغونه عن ربهم ، وهى الأمر الخارق لناموس العادة مع التحدى بحيث يعجز البشر عن الاتيان بمثله (٧) أى أنه عليه الصلاة والسلام مرسل الى الناس كافة قال تعالى : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (٨) الواضحة (٩) الصيب : السحاب ذو الصوب . والصوب نزول المطر ، وبابه قال : والهامية ، والهامعة : السحاب الماطر .

ٱلْبَوَارِقِ[١] ، فَأَثْمَرَتِ ٱلنَّجَاةَ وَٱلْفَوْزَ وَٱلْفَلَاحَ ، وَأَوْرَقَتْ بِالْهُدَى أَحْسَنَ إِيرَاقٍ[٢] .

« أَسْنَى[٣] » رَسُولٍ بُعِثَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ، وَأَعْظَمُهُمْ جَلَالَةً وَأَكْثَرُهُمْ تَابِعًا فِي ٱلطُّولِ مِنْهَا وَٱلْعَرْضِ ، وَلِمَ لَا ؟ وَقَدْ ظَهَرَ بِهِ ٱلْحَقُّ لِمَنْ أَمَّهُ[٤] مُسْتَرْشِدًا وَجَلَاهُ[٥] ، وَأَسْمَى مَنْ جَاءَ بِتَبْيِينِ ٱلسُّنَّةِ وَٱلْفَرْضِ ، وَأَعَمُّهُمْ دَلَالَةً ، مُنْقِذُ ٱلْبَرَايَا فِي ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْعَرْضِ ، ٱلْآخِذُ بِحُجَزِهِمْ[٦] عَنِ ٱلنَّارِ وَٱلضَّلَالَةِ ، ٱلدَّاعِي إِلَى تَقْدِيمِ ٱلْخَيْرِ وَحُسْنِ ٱلْقَرْضِ[٧] ، ٱلْحَرِيصُ عَلَى هِدَايَةِ ٱلْخَلْقِ ، ٱلْمُبَلِّغُ لَهُمْ أَحْكَامَ ٱلْحَقِّ ، مِنْ غَيْرِ ضَجَرٍ وَلَا مَلَالَةٍ ، ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ، ٱلَّذِي لَمْ يَخْتَلِفْ فِيهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعُقُولِ ٱثْنَانِ ، وَٱلْمَجْدِ ٱلصَّمِيمِ ، ٱلثَّابِتِ ٱلْأُصُولِ ،

---

(١) البرق الصادق ما أعقبه المطر (٢) مصدر أورق ، وأصلها اوراق وقعت الواو ساكنة اثر كسرة فأبدلت ياء مثل ميلاد وميعاد وميقات وميزان الخ (٣) من السناء : أى أشرف (٤) قصده (٥) وضح وبان ، أى للمسترشد، وفيه تجنيس بينه و بين قوله (وأعظمهم جلالة) (٦) جمع حجزة بوزن غرفة : معقد الازار . وحجزة السراويل أيضا التى فيها التكة وهو من الحديث . . . . فأنا آخذ بحجزكم (٧) المراد المعاملة ، أو لعله عمل البر والاحسان لقوله تعالى « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » .

اَلْبَاسِقِ[1] اَلْأَفْنَانِ[2]، اَلْمُنْتَقَى[3] مِنْ مَحْتِدِ[4] مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ.
اَلْمُنْتَخَبُ مِنْ خَيْرِ عُنْصُرٍ وَأَطْهَرِ سُلَالَةٍ، شَفِيعُنَا وَمَلَاذُنَا،
وَعِصْمَتُنَا وَمَعَاذُنَا[5] وَثِمَالُنَا[6]. اَلَّذِي نَجَحَتْ بِهِ آمَالُنَا،
وَزَكَتْ[7] أَقْوَالُنَا وَأَعْمَالُنَا. وَوَسِيلَتُنَا اَلْكُبْرَى،
وَعُمْدَتُنَا اَلْعُظْمَى، فِي اَلْأُولَى وَاَلْأُخْرَى، وَكَنْزُنَا اَلَّذِي
أَعْدَدْنَاهُ لِإِزَاحَةِ اَلْغُمُومِ ذُخْرًا، وَغَيْثُنَا وَغَوْثُنَا، وَسَيِّدُنَا
وَنَبِيُّنَا، وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٌ اَلطَّيِّبُ اَلْمَنَابِتِ[8] وَاَلْأَعْرَاقِ[9].
صَلَّى اَللهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَوَجَّهَ وُفُودَ اَلتَّعْظِيمِ إِلَيْهِ، مِنْ مُفْرَدٍ
فِي جَمَالِهِ، صَارَ لِجَمْعِ اَلْأَنْبِيَاءِ تَمَامًا، وَفَذٍّ[10] فِي كَمَالِهِ، تَقَدَّمَ
فِي حَضْرَةِ اَلتَّقْدِيسِ اَلَّتِي أُسِّسَتْ عَلَى اَلتَّشْرِيفِ أَعْظَمَ
تَأْسِيسٍ بِالْمُرْسَلِينَ إِمَامًا، وَصَدْرٍ[11] تَحَلَّى بِجَمِيلِ اَلْأَوْصَافِ،
كَالْوَفَاءِ، وَاَلْعَفَافِ، وَاَلصِّدْقِ، وَاَلْإِنْصَافِ، فَزَكَا فِي

---

(١) المرتفع (٢) جمع فنن وهو الغصن، كناية عن رفعة أصوله وفروعه
(٣) المختار (٤) الجرثومة والأصل والأرومة (٥) ملجؤنا (٦) ثمال القوم:
أغاثهم وأطعمهم وسقاهم وقام بأمرهم (٧) خلصت وطهرت (٨) و(٩) المنابت
والأعراق: الأصول حيث ينبت الرجل وتمتد عروق أصوله الى فروعها
(١٠) المنفرد (١١) عظيم يقدم فى صدور المجالس لجلالته .

أَعْمَالِهِ ؛ وَبَلَّغَ ٱلرَّاجِيَ مُنْتَهَى آمَالِهِ ، وَلَمْ يُخْلِفْ وَعْدًا ، وَلَمْ يَخْفِرْ[1] ذِمَامًا ، وَسَيِّدٍ كُسِيَ حُلَلَ ٱلْعِصْمَةِ ، مِنْ كُلِّ مُخَالَفَةٍ وَذَنْبٍ وَوَصْمَةٍ[2] ، فَلَمْ يَصْرِفْ لِغَيْرِ طَاعَةِ مَوْلَاهُ ، ٱلَّذِي أَوْلَاهُ مِنَ ٱلتَّفْضِيلِ مَا أَوْلَاهُ ، ٱهْتِبَالًا[3] وَٱهْتِمَامًا ، وَعَلَى آلِهِ وَعِتْرَتِهِ[4] ٱلْفَائِزِينَ بِأَثَرَتِهِ[5] ، أَنْصَارِ ٱلدِّينِ وَٱلْمُهَاجِرِينَ ٱلْمُهْتَدِينَ وَأَشْيَاعِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، ٱلطَّالِعِينَ نُجُومًا فِي سَمَاءِ شُهْرَتِهِ ، وَأَتْبَاعِهِمُ ٱلْقَائِمِينَ بِحُقُوقِ نُصْرَتِهِ . أَرْبَابِ ٱلْعَقْلِ ٱلرَّصِينِ[6] ؛ ٱلْفَاتِحِينَ بِسُيُوفِ دَعْوَتِهِ أَبْوَابَ ٱلْمَعْقِلِ[7] ٱلْحَصِينِ ، حَتَّى بَلَغَتْ أَحْكَامُ مِلَّتِهِ ، وَأَعْلَامُ بَعْثَتِهِ ، مَنْ بِالْأَنْدَلُسِ وَٱلصِّينِ[8] ، فَضْلًا عَنِ ٱلشَّامِ وَٱلْعِرَاقِ « وَرَضِيَ » ٱللهُ تَعَالَى عَنْ عُلَمَاءِ أُمَّتِهِ ٱلْمُصَنِّفِينَ فِي جَمِيعِ

---

(١) خفر ذمته وذمامه : نكث عهده (٢) الوصمة مايشين (٣) اهتبل الفرصة : اغتنمها ، أى لم يدع فرصة فى سبيل الله الا انتهزها (٤) عترة الرجل : نسله ورهطه الأدنون (٥) الأثرة بفتحتين والأثارة من الشىء بقية منه . أى الفائزين بآثاره الشريفة ، أو الاثرة هنا بكسر الهمزة وضمها وسكون الثاء من الايثار أى التفضيل يقال فلان أثير عند فلان وذو اثرة اذا كان خاصا (٦) المحكم الثابت (٧) المعقل : الحصن ، والحصين المنيع . والمراد به معقل الشرك الذى ثبتت دعائمه على تطاول الدهور فى القلوب ، أو يراد به الحصون الحقيقية التى فتحها المسلمون ويراد من المعقل جنسه (٨) أى من بالمغرب والمشرق .

ٱلْعُلُومِ وَٱلْفُنُونِ ، وَعُظَمَاءِ سُنَّتِهِ ، ٱلْمُوَفِّينَ لِلطُّلَّابِ بِالْأَرَابِ[١] ، ٱلْمُحَقِّقِينَ لَهُمُ ٱلظُّنُونَ . وَحُكَمَاءِ شِرْعَتِهِ ، ٱلْمُتَبَصِّرِينَ بِحُدُوثِ مَنْ مَرَّتْ عَلَيْهِ ٱلْأَيَّامُ وَٱلشُّهُورُ ، وَكَرَّتْ عَلَيْهِ ٱلْآنَاءُ وَٱلدُّهُورُ ، وَٱلْأَعْوَامُ وَٱلسِّنُونَ ، ٱلْمُتَدَبِّرِينَ فِي عَوَاقِبِ مَنْ كَانَ بِهَذِهِ ٱلْبَسِيطَةِ مِنَ ٱلسُّكَّانِ. ٱلْمُتَذَكِّرِينَ عَلَى قَدْرِ ٱلْإِمْكَانِ بِمَنْ طَحَنَتْهُ رَحَا ٱلْمَنُونِ مِنْ أَمْلَاكِ[٢] ٱلْعُصُورِ ٱلْخَالِيَةِ ، وَمُلَّاكِ ٱلْقُصُورِ ٱلْعَالِيَةِ ، وَذَوِى ٱلْأَحْوَالِ ٱلَّتِي هِيَ بِسُلُوكِ ٱلِاخْتِلَافِ حَالِيَةٌ : مِنْ بَصِيرٍ وَأَعْمَى ، وَفَقِيرٍ وَذِي نُعْمَى ، وَمُخْتَالٍ[٣] تَرَدَّى بِكِبْرِيَائِهِ ، وَمُحْتَالٍ عَلَى مَا بِأَيْدِي ٱلنَّاسِ بِسُمْعَتِهِ وَرِيَائِهِ ؛ وَعَاقِلٍ أَحْسَنَ ٱلْعَمَلَ ، وَغَافِلٍ ٱفْتُتِنَ بِالْأَمَلِ ، وَكَارِعٍ[٤] فِي حِيَاضِ ٱلشَّرِيعَةِ ، وَرَاتِعٍ بِرِيَاضِ ٱلْآدَابِ ٱلْمَرِيعَةِ[٥] ، وَذِي وَرَعٍ سَدَّ عَمَّا رَابَهُ ٱلذَّرِيعَةَ[٦] ، وَأَخِي طَمَعٍ فِي أَنْ يُدْرِكَ آرَابَهُ مِنَ ٱلدُّنْيَا ٱلْوَشِيكَةِ[٧] ٱلزَّوَالِ ٱلسَّرِيعَةِ ، وَمُقْتَبِسٍ مِنْ نِبْرَاسِ[٨] ٱلرِّوَايَةِ ، وَمُلْتَبِسٍ بِأَدْنَاسِ ٱلْغَوَايَةِ[٩] ، وَشَاعِرٍ

---

(١) جمع أرب وهو المطلب والحاجة (٢) جمع ملك (٣) معجب فخور (٤) كرع فى الماء : تناوله بفيه من موضعه ، كناية عن الاحاطة بتعاليم الشريعة والعمل بها (٥) المريعة : الخصيبة (٦) الذريعة : الوسيلة (٧) الوشيكة : القريبة (٨) النبراس بالكسر : المصباح (٩) الغواية : الضلال والعماية .

هَامَ فِي كُلِّ وَادٍ ، وَقَالَ مَا لَمْ يَفْعَلْ ، فَكَانَ لِلْغَاوِينَ مِنَ الرُّوَّادِ[١] ، وَجَاهِلٍ عَمَرَ الْخَرَابَ ، وَخُدِعَ بِالسَّرَابِ[٢] عَنْ أَعْذَبِ الشَّرَابِ ، وَمُحَقِّقٍ عَلِمَ أَنَّهُ إِذَا جَاءَ الْقَدَرُ عَمِيَ الْبَصَرُ ، مِمَّنْ كَانَ أَحْذَرَ مِنْ غُرَابٍ ، وَمُوَفَّقٍ تَيَقَّنَ أَنَّ غَيْرَ اللهِ فَانٍ ، وَكُلَّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابٌ . وَمِنْ مُتَخَلِّقٍ مُتَجَرِّدٍ تَصَوَّفَ ، وَمُتَعَلِّقٍ مُتَفَرِّدٍ تَشَوَّقَ إِلَى مَا فِيهِ رِضَا الرَّبِّ وَتَشَوَّفَ[٣] ، وَنَاهٍ ذَكَّرَ بِأَيَّامِ اللهِ وَوَعَظَ وَخَوَّفَ ، وَلَاهٍ اغْتَرَّ بِالْبَاطِلِ ، فَهُوَ بِالْحَقِّ مُمَاطِلٌ ، وَطَالَمَا أَخَّرَهُ وَسَوَّفَ[٤] ، وَأَبْعَدَ الِانْتِجَاعَ[٥] ، ثُمَّ أَوَى مِنْ بَاطِنِهِ إِلَى بَيْتِ قَعِيدَتُهُ[٦] لَكَاعِ ، نَفْسٌ أَمَّارَةٌ بَعْدَ مَا طَوَّفَ ، وَمِنْ مَادِحٍ

(١) جمع رائد : وهو الذى يرسل فى طلب الكلأ ، أى فكان دليل الضلالة (٢) السراب : الذى تراه نصف النهار كأنه ماء (٣) تطلع الى الأمر المرغوب فيه (٤) التسويف : التأخير الى الزمن البعيد ، أى أخره قائلا سوف أفعل (٥) أطال الأمل . والانتجاع أصله طلب المرعى (٦) قعيدة الرجل زوجه ، وامرأة لكاع أى لئيمة ، ورجل لكع . يريد أن اللاهى المخدوع بالدنيا يطيل الأمل ويؤخر العمل تصحبه نفس لئيمة . وشبه هذه النفس بالمرأة الخبيثة يأوى اليها الرجل بعد طوافه فى طلب الرزق فتورثه وصبا وتضنيه عنتا ، قال الشاعر :

أطوف ماأطوف ثم آوى * الى بيت قعيدته لكاع

نَظَمَ الْآلَاءِ[١] نَظْمَ اللَّآلِ[٢] ، وَكَادِحٍ طَمَسَ لَأْلَاءَ[٣] الْعِزِّ بِظُلْمَةِ ذُلِّ السُّـؤَالِ ، فَجَعَلَ الْقَصَائِدَ مَصَايِدَ ، وَالرَّسَائِلَ وَسَائِلَ ، وَالْمُقَطَّعَاتِ مُرَقَّعَاتٍ ، فَآلَ أَمْرُهُ إِلَى مَا آلَ[٤]، وَمِنْ مُخْبِرٍ بِمَا سَمِعَ وَرَأَى ، حِينَ اغْتَرَبَ عَنْ مَكَانِهِ وَنَأَى[٥] ، أَوْ أَقَامَ فِي أَوْطَانِهِ فَبَلَغَ مَا قَدَّرَ وَوَأَى[٦] ، وَمِنْ مُجَازِفٍ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْغَثِّ[٧] وَالسَّمِينِ[٨] وَالْإِمْرَارِ[٩] وَالْإِحْلَاءِ[١٠]، وَعَارِفٍ ثِقَةٍ أَمِينٍ ، نَظَمَ دُرَّ الصَّدَفِ الثَّمِينِ فِي أَسْلَاكِ الْكِتَابَةِ وَالْإِمْلَاءِ ، وَعَاشِقٍ خَنْسَاءِ[١١] فِكْرِهِ ذَاتُ الصِّدَارِ[١٢] مِنَ الشُّجُونِ وَالشِّعَارِ ، تَبْكِي عَلَى صَخْرِ قَلْبِ الْمَحْبُوبِ . وَتَذْكُرُهُ كُلَّمَا طَلَعَتْ شَمْسٌ أَوْ كَانَ

---

(١) جمع الى وهى النعمة ، وفى التنزيل « فبأى آلاء ربكما تكذبان» أى بأى نعمة : مثل معى وأمعاء وحشا وأحشاء (٢) اللآل : جمع لؤلؤة (٣) اللألاء : الاشراق والضياء . شبه به العز ، كما شبه ذل السؤال بالظلمة (٤) أى الى مآل شر مآل (٥) بعد (٦) وعـد : أى أدرك ماقدره وفصله فى نفسه و وعدها به من الآمال (٧) الهزيل (٨) الضخم (٩) مصدر أمر الشيء صار مرا (١٠) مصدر أحلى (١١) الخنساء أخت صخر الشاعرة المشهورة البكاءة (١٢) الصـدار : قميص يغشى الصـدر بلا كمين غير مشقوق تلبسه نساء العرب فى الحزن ، والشعار مايلبس على الجسد فيلامس الشعر

لِلصَّبَا(١) هُبُوبُ ، فَتَأْتِى بِمَا يُطْفِئُ وَقُودَ الْجَوَى الْمَشْبُوبِ(٢) مِنْ بِحَارِ الْأَشْعَارِ ، وَلَيْلَى شَوْقِهِ الْعَفِيفَةُ عَنِ الْعَارِ ، تَرْفُلُ فِي ثَوْبٍ مِنَ التَّصَبُّرِ مُعَارٍ(٣) ، وَقَيْسُ تَوْقِهِ(٤) مِنْ ثَوْبِ السُّلُوِّ عَارٍ ، قَدْ تَوَلَّهَ وَاشْتَاقَ ، خُصُوصًا عِنْدَ انْتِشَاقِ(٥) الْبَشَامِ(٦) وَالْعَرَارِ ، وَقَلِقَ لَمَّا أَرِقَ فَلَمْ يَقَرَّ بِهِ قَرَارٌ ، فَاعْتَرَاهُ مَا بَرَاهُ(٧) ، وَأَلِفَ الْبُكَاءَ بِحُكْمِ الِاضْطِرَارِ ، وَلَبِسَ ثِيَابَ النُّحُولِ وَالِاصْفِرَارِ ، وَأُسِرَ لَمَّا هُزِمَتْ جُيُوشُ صَبْرِهِ ، وَأَزْمَعَتِ الْفِرَارَ ، فَتَحَيَّرَ مِمَّا شَجَاهُ ، وَسَأَلَ النَّجَاةَ مِنْ أَسْرِ الْفِرَاقِ :

سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الْحُظُو ظَ فَلَا عِتَابَ وَلَا مَلَامَهْ
أَعْمَى وَأَعْشَى(٨) ثُمَّ ذُو بَصَرٍ وَزَرْقَاءُ(٩) الْيَمَامَهْ

(١) الصبا : ريح الشمال (٢) المتقد : تقول شببت النار اذا أذكيتها (٣) من العارية (٤) التوق : شدة الشوق (٥) الشم والاستياف (٦) البشام والعرار : من نباتات بلاد العرب كالشيح والقيصوم يذكرونها فى أشعارهم (٧) أهزله وأضناه (٨) الأعشى : الذى لا يبصر ليلا (٩) هى حذام الجديسية وكانت تبصر مدى ثلاثة أيام كما يقولون ، فصارت مضرب المثل فى حدة البصر ، فيقال أبصر من زرقاء اليمامة ، وفى جمهرة الأمثال قصتها مبسوطة مشروحة

وَمُسَدَّدٌ[1] أَوْ جَائِرٌ[2] أَوْ حَائِرٌ يَشْكُو ظُلَامَهْ[3]

لَوْ لَا ٱسْتِقَامَةُ مَنْ هَدَا هُ لَمَا تَبَيَّنَتِ ٱلْعَلَامَهْ

وَمُجَاوِرُ ٱلْغَرَرِ[4] ٱلْمُخِيـفِ لَهُ ٱلْبِشَارَةُ بِالسَّلَامَهْ

وَأَخُو ٱلْحِجَا[5] فِي سَائِرِ ٱلْـأَنْفَاسِ مُرْتَقِبٌ حِمَامَهْ[6]

وَكَمَا مَضَى مَنْ قَبْلَهُ يَمْضِي وَلَمْ يَقْضِ ٱلْتِزَامَهْ[7]

وَٱلْجَاهِلُ ٱلْمُغْتَرُّ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱلتَّقْوَى ٱغْتِنَامَهْ

فَلْيَرْفُضِ ٱلْعِصْيَانَ مَنْ يَخْشَى مِنَ ٱللهِ ٱنْتِقَامَهْ

وَلْيَعْتَبِرْ بِسِوَاهُ مَنْ لِصَلَاحِهِ صَرَفَ ٱهْتِمَامَهْ

فَٱلْعَيْشُ فِي ٱلدُّنْيَا ٱلدَّنِيَّـةِ غَيْرُ مَرْجُوِّ ٱلْإِدَامَهْ

مَنْ أَرْضَعَتْهُ ثَدْيَهَا فِي سُرْعَةٍ تُبْدِي فِطَامَهْ

مَنْ عَزَّ جَانِبُهُ بِهَا تَنْوِي عَلَى ٱلْفَوْرِ ٱهْتِضَامَهْ[8]

وَإِذَا نَظَرْتَ فَأَيْنَ مَنْ مَنَعَتْهُ أَوْ مَنَحَتْ مَرَامَهْ[9]؟

---

(١) سالك طريق السداد (٢) أى الحائد عن النهج القويم (٣) أى المظلمة (٤) الغرر بفتحتين : الخطر (٥) أى العقل (٦) أى الموت (٧) أى ماوجب عليه ولزمه (٨) اهتضمه : ضامه وأذله (٩) أى مايطلب ويرجو . وقد تنازع المفعول كل من الفعلين منعت ومنحت : أى أين من منعوا مطالبهم ومن منحوها ؟ ذهب كل الى الفناء .

وَمَنِ ٱلَّذِى وَهَبَتْهُ وَصْلًا ثُمَّ لَمْ يَخْشَ ٱنْصِرَامَهْ(١)؟
وَمَنِ ٱلَّذِى مَدَّتْ لَهُ حَبْلًا فَلَمْ يَخَفِ ٱنْفِصَامَهْ(٢)؟
كَمْ وَاحِدٍ غَرَّتْهُ إِذْ سَرَّتْهُ مُخْفِيَةَ ٱلدَّمَامَهْ(٣)؟
قَعَدَتْ بِهِ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَعْلَمْ فَلَمْ يَمْلِكْ قِيَامَهْ
أَيْنَ ٱلَّذِينَ قُلُوبُهُمْ كَانَتْ بِهَا ذَاتَ ٱسْتِهَامَهْ(٤)؟
أَيْنَ ٱلَّذِينَ تَفَيَّئُوا(٥) ظِلَّ ٱلسِّيَادَةِ وَٱلزَّعَامَهْ(٦)؟
أَيْنَ ٱلْمُلُوكُ ذَوُو ٱلرِّيَا سَةِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَٱلصَّرَامَهْ(٧)؟
وَبَنُو أُمَيَّةَ حِينَ جَمَّعَ عَصْرُهُمْ لَهُمُ فِئَامَهْ(٨)
وَتَمَكَّنُوا مِمَّنْ يُحَا وِلُ نَقْضَ مَا شَاءُوا ٱنْبِرَامَهْ(٩)
وَتَعَشَّقُوا لَمَّا بَدَا لَهُمُ مُحَيَّا ٱلْأَرْضِ شَامَهْ(١٠)

---

(١) أى انقطاعه (٢) فصم الشىء : قطعه من غير أن يبين (٣) الدمامة: قبح الصورة . أى سرته بزخرف ظاهرها الذى أخفى عن الأعين قبحها قال الحسن بن هانئ :

اذا اختبر الدنيا لبيب تكشفت ✲ له عن عدو فى ثياب صديق

(٤) الولع والحب (٥) أى استظلوا بوارف ظل الرياسة والسلطان (٦) الزعامة : الرياسة (٧) البأس والشدة (٨) الفئام : الجماعة من الناس لا واحد له من لفظه (٩) أى فتله ، أى تغلبوا على معارضيهم (١٠) الشامة : نقطة سوداء فى البشرة تغاير لونها ، قيل هى الخال ، وقيل ان الخال نقطة سوداء بارزة وقد ينبت فيها الشعر ، والشامة نقطة سوداء بمساواة الجلد . والمراد أن الأرض زينت لهم وحسنت فى أعينهم كما يحسن موقع الشامة من النظر

وَتَأَمَّلوا وَجْهَ الْبَسِيطَةِ فَانْثَنَوْا يَهْوُونَ شَامَهْ[1]
حَتَّى تَقَلَّصَ ظِلُّهُمْ وَأَرَاهُمُ الدَّهْرُ اخْتِرَامَهْ[2]
أَيْنَ الْخَلَائِفُ مِنْ بَنِي الْـ عَبَّاسِ وَالْبُرُّ الْقَسَامَهْ[3]؟
أَيْنَ الرَّشِيدُ وَأَهْلُهُ وَبَنُوهُ أَصْحَابُ الشَّهَامَهْ؟
وَوَزِيرُهُ يَحْيَى وَجَعْـ فَرٌ ابْنُهُ الرَّاوِي اخْتِشَامَهْ
وَالْفَضْلُ مُدْنِي مَنْ يَقُو لُ لِمَنْ يَلُومُ عَلَى النَّدَى مَهْ[4]
أَمْ أَيْنَ عَنْتَرَةُ[5] الشُّجَا عُ وَذُو الْجَدَا كَعْبُ[6] بْنُ مَامَهْ؟
وَالزَّاعِمُونَ بِجَهْلِهِمْ أَنَّ الْقُبُورَ صَدًى[7] وَهَامَهْ
وَالْمُكْثِرُونَ مِنَ الْمُجُو[8] نِ إِذَا شَكَا الْفِكْرُ اغْتِمَامَهْ
أَيْنَ الْغَرِيضُ وَمَعْبَدٌ أَوْ أَشْعَبٌ وَأَبُو دُلَامَهْ ؟
أَيْنَ الْأُلَى هَامُوا بِسُعْـ دَى[9] أَوْ بُثَيْنَةَ أَوْ أُمَامَهْ؟
وَبَكَوْا لِفَرْطِ جَوَاهُمُ وَاللَّيْلُ قَدْ أَرْخَى ظَلَامَهْ

---

(١) أى بلاد الشام حيث اتخذوا دمشق قاعدة ملكهم (٢) اخترمهم الدهر واخترمتهم المنية : هلكوا (٣) لعلها محرفة عن : والغر القسامة الغر جمع أغر هو الأبيض. والقسامة: الحسن (٤) مه. أى اكفف، اسم فعل (٥) عنترة العبسى فارس من فرسان الجاهلية وشاعر من أصحاب المعلقات مشهور معروف (٦) بلغ من جوده أن آثر بنصيبه فى الماء حتى مات ظمأ (٧) الصدى: قيل هو والهامة سواء ، وهو طائر صغير تزعم العرب أنه يخرج من رأس الميت (٨) أى الهزل والمزح (٩) هؤلاء أسماء معشوقات تغزل فيهن الشعراء وشبوا بهن

وَتَتَبَّعُوا آثَارَ مَنْ عَشِقُوا بِنَجْدٍ أَوْ تِهَامَهْ
وَتَعَلَّلُوا ـ وَالشَّوْقُ يَلْعَبُ ـ بِالْأَرَاكَةِ(١) وَالْبَشَامَهْ
أَضْنَى النَّوَى قَيْسًا فَقَاسَى لَاعِجًا(٢) أَغْرَى غَرَامَهْ
وَغَوَى هَوَى غَيْلَانَ(٣) مُذْ أَبْدَى بِمَيَّتِهِ هُيَامَهْ
أَيْنَ الْأَكَاسِرُ وَالْقَيَاصِرَةُ الْمُجَلُّونَ(٤) الْغَمَامَهْ؟
أَيْنَ الَّذِى الْهَرَمَانِ(٥) مِنْ بُنْيَانِهِ الْحَاكِى اعْتِزَامَهْ
أَمْ أَيْنَ غُمْدَانٌ وَسَيْفٌ وَالْوُفُودُ بِهِ أَمَامَهْ؟
أَيْنَ الْخَوَرْنَقُ وَالسَّدِيرُ(٦) وَمَنْ شَفَى بِهِمَا أُوَامَهْ؟
وَمَدَائِنُ الْإِسْكَنْدَرِ اللَّاتِى لَهَا أَعْلَى دِعَامَه

(١) الأراك والبشام: نوعان من الشجر يستاك بهما، وأراد بالأراكة والبشامة سواك المحبوبة يتعلل بهما المحب (٢) أى حرقة الهوى. وقيس هو قيس بن الملوح المعروف بمجنون ليلى (٣) غيلان ذو الرمة ومعشوقته مية (٤) جلى: كشف. والغمامة: السحابة. أى الكاشفون للكرب (٥) كشف من الأهرام حتى الآن أربعة. الا أن شعراء الماضى يذكرون الهرمين هرم خوفو. وهرم خفرع. قال أبو الطيب المتنبي:

أين الذى الهرمان من بنيانه ما قومه ما يومه ما المصرع؟

(٦) الخورنق والسدير: قصران للنعمان تذكرهما الشعراء كثيرا قال الاسود بن يعفر:

أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذى الشرفات من سنداد

وقال المنخل:

واذا سكرت فانى رب الخورنق والسدير

وقال غيره:

أبعد المنذرين أرى سواما تروح بالخورنق والسدير

أَيْنَ ٱلْحُصُونُ وَمَنْ يَصُو ... نُ بِهَا مِنَ ٱلْأَعْدَا حُطَامَهْ
أَيْنَ ٱلْمَرَاكِبُ[1] وَٱلْمَوَا ... كِبُ[2] وَٱلْعَصَائِبُ وَٱلْعِمَامَهْ
أَيْنَ ٱلْعَسَاكِرُ وَٱلدَّسَا[3] ... كِرُ وَٱلنَّدَامَى[4] فِي ٱلْمُدَامَهْ
وَسُقَاتُهَا ٱلْمُتَلَاعِبُو ... نَ بِلُبِّ مَنْ أَعْطَوْهُ جَامَهْ[5]
مِنْ كُلِّ أَهْيَفَ[6] يَزْدَرِي ... بِالْغُصْنِ إِنْ يَهْزُزْ قَوَامَهْ
ذِي غُرَّةٍ[7] لَأْلَاؤُهَا ... تَمْحُو عَنِ ٱلنَّادِي ظَلَامَهْ
فَالشَّمْسُ فِي أَزْرَارِهِ[8] ... وَٱلْبَدْرُ فِي يَدِهِ قُلَامَهْ[9]
يُصْمِي ٱلْقُلُوبَ[10] إِذَا رَمَى ... عَنْ قَوْسِ حَاجِبِهِ سِهَامَهْ
وَيَرُوقُ حُسْنًا إِنْ رَنَا[11] ... وَيَفُوقُ آرَامًا[12] بِرَامَهْ
أَنَّى لَهَا ثَغْرٌ حَلَا ... ذَوْقًا لِمَنْ رَامَ ٱلْتِثَامَهْ
أَنَّى لَهَا وَجْهٌ يَشُبُّ ... بِقَلْبِ مُبْصِرِهِ ضِرَامَهْ

---

(١) أى مراكب الملوك وماعليها من حلية (٢) المواكب جمع موكب وهم الجماعة من الناس ـ والقوم الركوب للزينة والتنزه (٣) جمع دسكرة . وهى القرية والملاهى ، أو بناء كالقصر حوله بيوت تجتمع فيه الشطار (٤) جمع نديم : جليس الرجل على الشراب (٥) الجام : الكأس (٦) مخطف الخصر ناحله (٧) أى صفحة الجبين (٨) كناية عن جسمه ووجهه كما يقول الشاعر:

لاتعجبوا من بلى غلالته ... قد رز أزراره على القمر

(٩) قلامة الظفر : مايقص منه (١٠) أصمى الفريسة : قتلها فى مكانها (١١) أى نظر (١٢) جمع رئم : وهو الظبى ، وظباء رامة من أجمل الظباء

أَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ لِلْغْ ... وِ وَلَا يَرَى ٱلشَّرْعُ ٱعْتِيَامَهْ[١]

بَلْ أَيْنَ أَرْبَابُ ٱلْعُلُو ... مِ أُولُو ٱلتَّصَدُّرِ وَٱلْإِمَامَهْ

وَذَوُو ٱلْوِزَارَةِ وَٱلْحِجَا ... بَةِ وَٱلْكِتَابَةِ وَٱلْعَلَامَهْ

كَأَئِمَّةٍ سَكَنُوا بِأَنْـ ... ـدَلُسٍ فَلَمْ يَشْكُوا سَآمَهْ

هِيَ جَنَّةُ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي ... قَدْ أَذْكَرَتْ دَارَ ٱلْمُقَامَهْ[٢]

لَا سِيَّمَا غَرْنَاطَةُ ٱلْ ... غَرَّاءِ رَائِقَةُ ٱلْوَسَامَهْ[٣]

وَهِيَ ٱلَّتِي دُعِيَتْ دِمَشْ ... قَ وَحَسْبُهَا هَذَا فَخَامَهْ

لِنُزُولِ أَهْلِيهَا بِهَا ... إِذْ أَظْهَرَ ٱلْكُفْرُ ٱنْهِزَامَهْ

وَأَتَتْ جُيُوشُ ٱلشَّامِ مِنْ ... بَابٍ نَفَى ٱلْفَتْحُ ٱنْبِهَامَهْ

فَسَلُوا بِهَا عَنْ جِلَّقٍ[٤] ... إِذْ أَشْبَهَتْهَا فِي ٱلضَّخَامَهْ

وَبَدَا لَهُمْ وَجْهُ ٱلْمُنَى ... وَأَرَاهُمُ ٱلثَّغْرُ ٱبْتِسَامَهْ

وَتَبَوَّأُوهَا حَضْرَةً ... تُبْرِي مِنَ ٱلْمُضْنَى سَقَامَهْ

بِرُوَائِهَا وَبِمَائِهَا ... وَهَوَائِهَا ٱلنَّافِي ٱلْوَخَامَهْ[٥]

وَرِيَاضِهَا ٱلْمُهْتَزَّةِ ٱلْ ... أَعْطَافِ مِنْ شَدْوِ ٱلْحَمَامَهْ[٦]

(١) اعتيامه : اختياره (٢) دار المقامة : الجنة (٣) الوسامة : الحسن
(٤) اسم لدمشق (٥) أى النقى (٦) شدت الحمائم تشدو : غنت ورجعت

وَبِمَرْجِهَا[1] ٱلنَّضْرِ ٱلَّذِي قَدْ زَيَّنَ ٱللَّهُ ٱرْتِسَامَهْ
وَقُصُورِهَا ٱلزُّهْرِ ٱلَّتِي يَأْبَى بِهَا ٱلْحُسْنُ ٱنْقِسَامَهْ
يَا لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ مَنْ أَمْضَى بِهَا ٱلْمُلْكُ ٱحْتِكَامَهْ
وَأُبِيحَ فِي حَمْرَائِهَا عِزًّا بِهِ زَانَ ٱتِّسَامَهْ
أَيْنَ ٱلْوَزِيرُ ٱبْنُ[2] ٱلْخَطِيـ ـبِ بِهَا فَمَا أَحْلَى كَلَامَهْ ؟
فَلَكَمْ أَبَانَ ٱلْعَدْلَ فِي أَرْجَائِهَا وَبِهَا أَقَامَهْ
وَلَكَمْ أَجَارَ عِدًا ، وَكَمْ أَجْرَى نَدًى وَالَى ٱنْسِجَامَهْ ؟
رَاعَتْ[3] صُرُوفُ ٱلدَّهْرِ دَوْ لَتَهُ وَمَا رَاعَتْ[4] ذِمَامَهْ
حَتَّى ثَوَى إِثْرَ ٱلتَّوَى[5] فِي حُفْرَةٍ نَثَرَتْ نِظَامَهْ
مَنْ زَارَهَا فِي أَرْضِ فَا سٍ أَذْهَبَتْ شَجْوًا مَنَامَهْ
إِذْ نَبَّهَتْهُ لِكُلِّ شَمْـ ـلٍ شَتَّتَ ٱلْمَوْتُ ٱلْتِئَامَهْ
هٰذَا لِسَانُ ٱلدِّينِ أَسْـ ـكَتَهُ وَأَسْكَنَهُ رِجَامَهْ[6]
وَمَحَا عِبَارَتَهُ فَمَنْ حَيَّاهُ لَمْ يَرْدُدْ سَلَامَهْ
فَكَأَنَّهُ مَا أَمْسَكَ ٱلْـ ـقَلَمَ ٱلْمُطَاعَ وَلَا حُسَامَهْ

---

(١) المرج : مرعى الدواب ، ويريد به هنا مرج راهط وهو بنواحي دمشق وأشهر المروج في الشعر (٢) هو لسان الدين بن الخطيب صاحب المصنفات الجليلة (٣) أي أخافت . من الروع (٤) راعت : من المراعاة (٥) التوى : الهلاك (٦) أي القبر .

وَكَأَنَّهُ لَمْ يَعْلُ مَتْـ نَ مُطَهَّمٍ[1] بَارِي[2] ٱلنَّعَامَهْ
وَكَأَنَّهُ لَمْ يَرْقَ غَا رِبَ[3] ٱلِاعْتِزَازِ وَلَاسَنَامَهْ
وَكَأَنَّهُ لَمْ يَجْلُ وَجْـ هًا حَازَ مِنْ بِشْرٍ تَمَامَهْ
وَكَأَنَّهُ مَا جَالَ فِي أَمْرٍ وَلَا نَهْيٍ وَسَامَهْ[4]
وَكَأَنَّهُ مَا نَالَ مِنْ مَلْكٍ حِبَاهُ[5] وَلَا ٱحْتِرَامَهْ
وَكَأَنَّهُ لَمْ يُلْقِ فِي يَدِهِ لِتَدْبِيرٍ زِمَامَهْ
مُذْ فَارَقَ ٱلدُّنْيَا وَقَوَّ ضَ عَنْ مَنَازِلِهَا خِيَامَهْ
أَمْسَى بِقَبْرٍ مُفْرَدًا وَٱلتُّرْبُ قَدْ جَمَعَتْ عِظَامَهْ
مِنْ بَعْدِ تَثْنِيَةِ ٱلْوَزَا رَةِ جَادَهُ صَوْبُ ٱلْغَمَامَهْ
لَمْ يَبْقَ إِلَّا ذِكْرُهُ كَالزَّهْرِ مُفْتَرَّ ٱلْكِمَامَهْ
وَٱلْعُمْرُ مِثْلُ ٱلضَّيْفِ أَوْ كَالطَّيْفِ[6] لَيْسَ لَهُ إِقَامَهْ
وَٱلْمَوْتُ حَتْمٌ ثُمَّ بَعْـ دَ ٱلْمَوْتِ أَهْوَالُ ٱلْقِيَامَهْ
وَٱلنَّاسُ مَجْزِيُّونَ عَنْ أَعْمَالِ مَيْلٍ وَٱسْتِقَامَهْ
فَذَوُو ٱلسَّعَادَةِ يَضْحَكُو نَ وَغَيْرُهُمْ يَبْكِي نَدَامَهْ

---

(١) جوادمطهم . أصيل (٢) بارى النعامة : حا كاها فى العدو . وفى النعامة هنا تورية تحتمل النعامة المعروفة اذ يقولون : أعدى من نعامة ، ويحتمل النعامة اسم فرس مشهورة كانت للحرث بن عباد (٣) غارب الشيء : أعلاه (٤) سامه : قدره (٥) أى عطاءه (٦) الطيف : الصورة تعرض فى المنام

وَٱللهُ يَفْعَلُ فِيهِمُ ... مَا شَاءَ ذُلًّا أَوْ كَرَامَهْ

وَيُشَفِّعُ ٱلْمُخْتَارَ فِيـ ... ـهِمْ حِينَ يَبْعَثُهُ مَقَامَهْ

وَعَلَيْهِ خَيْرُ صَلَاتِهِ ... مَعَ صَحْبِهِ تَتْلُو سَلَامَهْ

وَٱلتَّابِعِينَ وَمَنْ بَدَا ... بَرْقُ ٱلرَّشَادِ لَهُ فَشَامَهْ[1]

مَا فَازَ بِالرِّضْوَانِ عَبْـ ... ـدٌ كَانَتِ ٱلْحُسْنَى خِتَامَهْ

وَٱللهُ سُبْحَانَهُ ٱلْمَسْئُولُ فِي ٱلْفَوْزِ وَٱلنَّجَاةِ كَرَمًا مِنْهُ وَحِلْمًا . فَبِيَدِهِ ٱلْخَيْرُ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ، ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ، ٱلَّذِى أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا . فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ عَلَى ٱلشُّمُولِ وَٱلِاسْتِغْرَاقِ .

« أَمَّا بَعْدُ » حَمْدًا لِلّٰهِ مَالِكِ ٱلْمُلْكِ ، وَٱلصَّلَاةُ عَلَى رَسُولِهِ ٱلْمُنَجِّي مِنَ ٱلْهُلْكِ ، وَٱلرِّضَا عَنْ آلِهِ وَصَحْبِهِ ٱلَّذِينَ تَجَلَّتْ بِأَنْوَارِهِمُ ٱلظُّلَمُ ٱلْحُلْكُ . وَعَنِ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلْأَعْلَامِ ، ٱلْخَائِضِينَ بِحَارَ ٱلْكَلَامِ ، ٱلْمُسْتَوِينَ[2] مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى ٱلْفُلْكِ . « فَيَقُولُ » ٱلْعَبْدُ ٱلْحَقِيرُ ، ٱلْمُذْنِبُ ٱلَّذِى هُوَ إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ

---

(١) شام البرق : نظر اليه (٢) أى المتمكنين منها من قوله تعالى : « فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك » الآية .

ٱلْغَنِيِّ فَقِيرٌ ، ٱلْمُقَصِّرُ ٱلْمُتَبَرِّئُ مِنَ ٱلْحَوْلِ وَٱلْقُوَّةِ ، ٱلْمُتَمَسِّكُ بِأَذْيَالِ ٱلْخِدْمَةِ لِلسُّنَّةِ وَٱلنُّبُوَّةِ ، وَذٰلِكَ بِفَضْلِ أَمَانٍ وَبَرَاءَةٍ . ٱلضَّعِيفُ ٱلْفَانِي ٱلْخَطَّاءُ ٱلْجَانِي ، مَنْ هُوَ مِنْ لِبَاسِ ٱلتَّقْوَى عَرِي ، أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ ٱلشَّهِيرُ بِالْمَقَّرِيِّ ٱلْمَغْرِبِيُّ ٱلْمَالِكِيُّ ٱلْأَشْعَرِيُّ ، ٱلتِّلِمْسَانِيُّ ٱلْمَوْلِدِ وَٱلْمَنْشَإِ وَٱلْقِرَاءَةِ . نَزِيلُ فَاسٍ ٱلْبَاهِرَةِ ، ثُمَّ مِصْرَ ٱلْقَاهِرَةِ ، أَصْلَحَ ٱللّٰهُ أَحْوَالَهُ ٱلْبَاطِنَةَ وَٱلظَّاهِرَةَ ، وَجَعَلَهُ مِنْ ذَوِي ٱلْأَوْصَافِ ٱلزَّكِيَّةِ وَٱلْخِلَالِ ٱلطَّاهِرَةِ ، وَسَدَّدَ فِي كُلِّ قَصْدٍ أَنْحَاءَهُ وَآرَاءَهُ . وَوَفَّقَهُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ لِلْأَعْمَالِ ٱلصَّالِحَةِ ، وَٱلطَّاعَاتِ ٱلنَّاجِحَةِ ٱلرَّاجِحَةِ ، وَٱلْمَتَاجِرِ ٱلْمَغْبُوطَةِ ٱلرَّابِحَةِ ، وَٱلْمَسَاعِي ٱلْغَادِيَةِ بِالْخَيْرِ ٱلرَّائِحَةِ ، وَوَقَاهُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَوَرَاءَهُ ، وَكَفَاهُ مَكْرَ ٱلْكَائِدِ وَٱفْتِرَاءَهُ ، وَجِدَالَ ٱلْحَاسِدِ ٱلْمُسْتَأْسِدِ[1] وَمِرَاءَهُ ، وَجَعَلَ فِيمَا يُرْضِيهِ سَوْمَهُ وَشِرَاءَهُ . آمِينَ . إِنَّهُ لَمَّا قَضَى ٱلْمَلِكُ ٱلَّذِي لَيْسَ لِعَبِيدِهِ فِي أَحْكَامِهِ تَعَقُّبٌ أَوْ رَدٌّ[2] ، وَلَا مَحِيدَ عَمَّا شَاءَهُ سَوَاءٌ كَرِهَ ذٰلِكَ ٱلْمَرْءُ أَوْ رَدَّ[3] ، بِرِحْلَتِي مِنْ بِلَادِي

---

(١) أي الضاري . ومراؤه : جدله (٢) و (٣) الأنسب بالفواصل والمعنى أن تكون الأولى أو راد . والثانية كره ذلك المرء أو أراد .

وَنُقْلَتِي عَنْ مَحَلٍّ طَارِفٍ[1] وَتِلَادِي[2] بِقُطْرِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى ، الَّذِي تَمَّتْ مَحَاسِنُهُ لَوْلَا أَنَّ سَمَاسِرَةَ الْفِتَنِ سَامَتْ بَضَائِعَ أَمْنِهِ نَقْصًا ، وَطَمَا بِهِ بَحْرُ الْأَهْوَالِ فَاسْتَعْمَلَتْ شُعَرَاءُ الْعَيْثِ[3] فِي كَامِلِ رَوْنَقِهِ مِنَ الزِّحَافِ[4] إِضْمَارًا وَقَطْعًا وَوَقْصًا .

قُطْرٌ كَأَنَّ نَسِيمَهُ نَفَحَاتُ كَافُورٍ وَمِسْكِ
وَكَأَنَّ زَهْرَ رِيَاضِهِ دُرٌّ هَوَى مِنْ نَظْمِ سِلْكِ

وَذَلِكَ أَوَاخِرَ رَمَضَانَ مِنْ عَامِ سَبْعَةٍ وَعِشْرِينَ بَعْدَ الْأَلْفِ ، تَارِكًا الْمَنْصِبَ وَالْأَهْلَ وَالْوَطَنَ وَالْإِلْفَ .

بَلَدٌ طَابَ لِي بِهِ الْأُنْسُ حِينًا
وَصَفَا الْعَوْدُ فِيــهِ وَالْإِبْدَاءُ
فَسَقَتْ عَهْدَهُ الْعِهَادُ[5] وَرَوَّتْ
مِنْهُ تِلْكَ النَّوَادِيَ الْأَنْدَاءُ

(١) أى المال الجديد (٢) أى القديم (٣) أى الفساد (٤) الزحاف والاضمار والقطع والوقص : عيوب من عيوب الشعر . يريد أن الأهوال والحوادث فى الأندلس مكنت ذوى الفساد أن ينقصوا من محاسنه بعد أن كانت تامة وأن يشوهوا من جماله بعد أن كان كاملا . وفى الألفاظ : بحر ، شعراء ، كامل ، وزحاف الخ توجيه من اصطلاح العروض . والاضمار والوقص والقطع من الزحاف الذى يدخل فى بحر الكامل (٥) أى السحائب .

وَمَا عَسَى أَنْ أَذْكُرَ فِي إِقْلِيمٍ ، تَعَيَّنَ لِحُجَّةِ فَضْلِهِ التَّسْلِيمُ

أَضْوَاؤُهُ طِبْقُ الْمُنَى وَهَوَاؤُهُ
يَشْتَاقُهُ الْوَلْهَانُ فِي الْأَسْحَارِ

وَالطَّبْعُ مُعْتَدِلٌ فَقُلْ مَا شِئْتَهُ
فِي الظِّلِّ وَالْأَزْهَارِ وَالْأَنْهَارِ

مَحَلُّ فَتْحِ الْكَمَائِمِ ، وَمَسْقِطِ الرَّأْسِ(١) ، وَقَطْعِ التَّمَائِمِ(٢)

بِهِ كَانَ الشَّبَابُ اللَّدْنُ غَضًّا
وَدَهْرِي كُلُّهُ زَمَنُ الرَّبِيعِ

فَفَرَّقَ بَيْنَنَا زَمَنٌ خَئُونٌ
لَهُ شَغَفٌ بِتَفْرِيقِ الْجَمِيعِ

لَمْ أَنْسَ تِلْكَ النَّوَاسِمَ ، الَّتِي أَيَّامُهَا لِلْعُمْرِ مَوَاسِمُ ، وَثُغُورُهَا بِالسُّرُورِ بَوَاسِمُ ، فَصِرْتُ أُشِيرُ إِلَيْهَا وَقَدْ زُمَّتْ

---

(١) أي موطن ميلاده (٢) جمع تميمة : مايعلق على الطفل وقاية من العين ، وتقطع التمائم اذا شب الغلام ، قال الشاعر :

بلاد بها حل الشباب تمائمي   وأول أرض مس جلدي ترابها ،

ويروى : بلاد بها عق الشباب تميمتي .

لِلرَّحِيلِ ٱلْقُلُصُ ٱلرَّوَاسِمُ[1]

وَلَنَا بِهَاتِيكَ ٱلدِّيَارِ مَوَاسِمٌ كَانَتْ تُقَامُ لِطِيبِهَا ٱلْأَسْوَاقُ
فَأَبَانَنَا عَنْهَا ٱلزَّمَانُ بِسُرْعَةٍ وَغَدَتْ تُعَلِّلُنَا بِهَا ٱلْأَشْوَاقُ

وَأُنْشِدُ قَوْلَ غَيْلَانَ :

أَمَنْزِلَتَيْ مَيٍّ[2] سَلَامٌ عَلَيْكُمَا
هَلِ ٱلْأَزْمُنُ ٱللَّائِى مَضَيْنَ رَوَاجِعُ

وَأَتَمَثَّلُ فِي تِلْكَ ٱلْحَدَائِقِ ٱلَّتِي حَمَائِمُهَا سَوَاجِعُ ، بِقَوْلِ مَنْ جُفُونُهُ مِنَ ٱلْهَوَى غَيْرُ هَوَاجِعَ :

تَشْدُو بِعِيدَانِ ٱلرِّيَاضِ حَمَائِمٌ
شَدْوَ ٱلْقِيَانِ[3] عَزَفْنَ بِٱلْأَعْوَادِ
مَادَ ٱلنَّسِيمُ بِقُضْبِهَا فَتَمَايَلَتْ
مُهْتَزَّةَ ٱلْأَعْطَافِ وَٱلْأَجْيَادِ

---

(١) جمع قلوص : الناقة المستوية الخلق . والرواسم : الابل السائرة رسما. قال الشاعر هدبة بن خشرم العذرى :

متى تقول القلص الرواسما يدنين أم قاسم وقاسما

أو : حازم وحازما (٢) الذى نحفظه :

أيا منزلى سلمى سلام عليكما هل الأزمن اللائى مضين رواجع

(٣) جمع قينة : الجارية المغنية .

هَذِى تُوَدِّعُ تِلْكَ تَوْدِيعَ ٱلَّتِى
قَدْ آذَنَتْ مِنْهَا بِوَشْكِ بِعَادِ

وَٱسْتَعْبَرَتْ لِفِرَاقِهَا عَيْنُ ٱلنَّدَى
فَٱبْتَلَّ مِئْزَرُ عِطْفِهَا ٱلْمَيَّادِ

وَأُحَدِّقُ ٱلنَّظَرَ إِلَى رَوْضٍ ، لِإِنْسَانِ ٱلْعَيْنِ مِنْ فِرَاقِهِ فِى بَحْرِ ٱلدُّمُوعِ سَبْحٌ وَخَوْضٌ .

رَوْضٌ بِهِ أَشْيَاءُ لَيْسَتْ فِى سِوَاهُ تُؤْلَفُ
فَمِنَ ٱلْهَزَارِ(١) تَرَنُّمٌ وَمِنَ ٱلْقَضِيبِ تَعَطُّفٌ(٢)
وَمِنَ ٱلنَّسِيمِ تَلَطُّفٌ وَمِنَ ٱلْغَدِيرِ تَعَطُّفُ

وَأَتَلَفَّتُ كَٱلْمُسْتَرِيبِ ، وَٱلْحَىُّ إِذْ ذَاكَ قَرِيبٌ ، وَحَدِيثُ ٱلْعَهْدِ لَيْسَ بِمُنْكَرٍ وَلَا غَرِيبٍ

أَهَذَا وَلَمَّا تَمْضِ(٣) لِلْبَيْنِ سَاعَةٌ ؟
فَكَيْفَ إِذَا مَرَّتْ عَلَيْهِ شُهُورُ ؟

وَٱلْآثَارُ لَائِحَةٌ ، وَٱلشَّمَالُ غَادِيَةٌ وَرَائِحَةٌ

---

(١) هو طائر يغرد (٢) لعله تغضف (بالغين والضاد المعجمتين) من غضف العود يغضفه ، وعضفه فتغضف : كسره ولم ينعم كسره ، وتغضف عليه أى مال وتثنى وتكسر ، وتغضفت الحية تلوت وتكسرت . ويقال أيضا : تغيف اذا تعطف ومال وتثنى ـ وتقصف الغصن : انكسر (٣) مثله الذى يقول : أشوقا ولما يمض لى غير ليلة فكيف اذا خب المطى بنا عشرا

أَرَى آثَارَهُمْ فَأَذُوبُ شَوْقاً
وَأَسْكُبُ مِنْ تَذَكُّرِهِمْ دُمُوعِي

وَأَسْأَلُ مَنْ قَضَى بِفِرَاقِ حَيٍّ
يَمُنُّ عَلَيَّ مِنْهُمْ بِالرُّجُوعِ

وَالنَّفْسُ مُتَعَلِّلَةٌ بِبَعْضِ الْأُنْسِ، وَالْمَشَاهِدُ الْحَمِيدَةُ لَمْ تُنْسَ.

تِلْكَ الْعُهُودُ بِشَدِّهَا(١) مَخْتُومَةٌ
عِنْدِي كَمَا هِيَ عَقْدُهَا لَمْ يُحْلَلِ

غَيْرَ أَنَّ الرَّحِيلَ عَنِ الرَّبْعِ الْمُحِيلِ(٢)، فُصِلَ بِهِ بَيْنَ الشَّائِقِ وَالْمَشُوقِ وَحِيلَ.

وَقَفْنَا بِرَبْعِ الْحُبِّ وَالْحُبُّ رَاحِلٌ
نُحَاوِلُ رُجْعَاهُ لَنَا وَيُحَاوِلُ

وَأَلْقَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ فِيهِ مَسَائِلًا
لَهَا عَنْ عِبَارَاتِ الْغَرَامِ دَلَائِلُ

---

(١) أي بر باطها (٢) أي الدارس. والمحيل الذى أتت عليه أحوال وغيرته ـ وأحالت الدار وأحولت: أتى عليها أحوال

وَبِالسَّفْحِ (١) مِنْهَا كَمْ سَقَيْتُ لِبَانِهَا
فَمَيَّلْتُهُ وَالسَّفْحُ لِلْبَانِ مَائِلُ
إِذَا نَسْمَةُ الْأَحْبَابِ مِنْهَا تَنَسَّمَتْ
تَطِيبُ بِهَا أَسْحَارُنَا وَالْأَصَائِلُ (٢)
تُثِيرُ شُجُونِي سَاجِعَاتُ غُصُونِهَا
فَمِنْهَا عَلَى الْحَالَيْنِ هَاجَتْ بَلَابِلُ (٣)
مَرَابِعُ لَيْلَى فِي مَرَاتِعِ لَذَّتِي
مَطَالِعُ أَقْمَارِي بِهَا وَالْمَنَازِلُ

فَحَيَّاهَا اللهُ مِنْ مَنَازِلَ ذَاتِ أَقْمَارٍ سَائِرَةٍ فِيهَا ، وَمَنَازِهَ لَا يُحْصِي الْوَاصِفُ مَحَاسِنَهَا وَأَمْدَاحَ أَهْلِهَا وَلَا يَسْتَوْفِيهَا

حَلُّوا عُقُودَ اصْطِبَارِي عِنْدَ مَا رَحَلُوا
وَفِي الْخَمَائِلِ حَلُّوا مِثْلَ أَمْطَارِ
إِنَّ الْمَنَازِلَ قَدْ كَانَتْ مَنَازِهَ إِذْ
بَاتُوا بِهَا وَهْيَ أَوْطَانِي وَأَوْطَارِي

وَرَعَى اللهُ مَنْ بَانَ ، وَشَاقَ حَتَّى الرَّنْدَ (٤) وَالْبَانَ

---

(١) سفح الدمع : صبه وأرسله ــ والسفح : عرض الجبل المضطجع حيث يسفح فيه الماء . والمعنى الأول يناسب ما فى صدر البيت ، والثانى يناسب عجزه (٢) أصائل : جمع أصيل : وهو ما بين العصر والمغرب (٣) جمع بلبل وهو ذلك الطائر الغريد ــ والبلابل أيضا : وسواس الصدر وبرحاؤه وشدة الهم . ففى لفظ «بلابل» تورية (٤) الرند : شجر طيب الرائحة من شجر البادية . والبان : شجر سبط القوام لين يشبه به القد لطوله واعتداله.

بَانُوا لِعَيْــنِيَ أَقْمَارًا تُقِلُّهُمُ
لُدْنُ الْغُصُونِ فَلَمَّا آنَسُوا بَانُوا

عُهُودُهُمْ لَسْتُ أَنْسَاهَا وَكَيْفَ وَقَدْ
رَثَى لِبَيْنِيَ عَنْهَا الرَّنْدُ وَالْبَانُ

وَفِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ تَذُوبُ الْقُلُوبُ الرِّقَاقُ ، كَمَا قَالَ حَائِزُ قَصَبِ السَّبْقِ بِالِاسْتِحْقَاقِ ، الْأَدِيبُ الْأَنْدَلُسِيُّ الشَّهِيرُ بِابْنِ الزَّقَّاقِ :

وَقَفْتُ عَلَى الرُّبُوعِ وَلِي حَنِينٌ
لِسَاكِنِهِنَّ لَيْسَ إِلَى الرُّبُوعِ

وَلَوْ أَنِّي حَنَنْتُ إِلَى مَغَانِي[1]
أَحِبَّائِي حَنَنْتُ عَلَى ضُلُوعِي

وَكَمَا قَالَ بَعْضُ مَنْ لَهُ فِي هَذِهِ الْفِجَاجِ مَسِيرٌ :

دُخُولُكَ مِنْ بَابِ الْهَوَى إِنْ أَرَدْتَهُ
يَسِيرٌ وَلَـكِنَّ الْخُرُوجَ عَسِيرُ

(١) جمع مغنى : وهو المحل يقطنه أهله

وَأَيْنَ مَنْ لَهُ صَفَاةٌ(١) لَا يَطْمَعُ ٱلدَّهْرُ ٱلْقَوِىُّ فِى نَحْتِهَا ،
وَجَنَّاتٌ دُنْيَوِيَّةٌ لَا تَجْرِى أَنْهَارُ ٱلْفِرَاقِ مِنْ تَحْتِهَا ؟

فَسَقَى رَضِيعَ ٱلنَّبْتِ مِنْ ذَاكَ ٱلْحِمَى
بِحَيًا(٢) تَدُورُ عَلَى ٱلرُّبَا كَاسَاتُهُ

سَفْحٌ سَفَحْتُ عَلَيْهِ دَمْعِى فِى ثَرًى
كَالْمِسْكِ ضَاعَ مِنَ ٱلْفَتَاةِ فُتَاتُهُ

وَلَمْ أَزَلْ بَعْدَ ٱنْفِصَالِى عَنِ ٱلْغَرْبِ بِقَصْدِ ٱلشَّرْقِ ،
وَٱتِّصَالِى فِى إِثْرِ ذَلِكَ ٱلْجَمْعِ بِالْفَرْقِ ،

أَحِنُّ إِذَا خَلَوْتُ إِلَى زَمَانٍ تَقَضَّى لِى بِأَفْنِيَةِ ٱلرُّبُوعِ
وَأَذْكُرُ طِيبَ أَيَّامٍ تَوَلَّتْ لَنَا فَتَفِيضُ مِنْ أَسَفٍ دُمُوعِى

وَأَتُوقُ وَقَدِ ٱتَّسَعَ مِنَ ٱلْبُعْدِ ٱلْخَرْقُ ، وَخُصُوصًا إِذَا شَدَا
صَادِحٌ أَوْ أَوْمَضَ بَرْقٌ ، إِلَى دِيَارٍ لَا يَعْدُوهَا ٱخْتِيَارٌ

وَأَرْبُعِ أَحْبَابٍ إِذَا مَاذَكَرْتُهَا
بَكَيْتُ وَقَدْ يُبْكِيكَ مَا أَنْتَ ذَاكِرُ

(١) أى صخرة ، كناية عن قوة الاحتمال والجلد (٢) أى المطر .

بِطَاحٌ وَأَدْوَاحٌ يَرُوقُكَ حُسْنُهَا
بِكُلِّ خَلِيجٍ نَمْنَمَتْهُ الْأَزَاهِرُ

فَمَا هُوَ إِلَّا فِضَّةٌ فِي زَبَرْجَدٍ
تَسَاقَطَ فِيهِ اللُّؤْلُؤُ الْمُتَنَاثِرُ

بِحَيْثُ الصَّبَا[1] وَالتُّرْبُ وَالْمَاءُ وَالْهَوَى
عَبِيرٌ وَكَافُورٌ وَرَاحٌ وَعَاطِرٌ

وَمَا جَنَّةُ الدُّنْيَا سِوَى مَا وَصَفْتُهُ
وَمَا ضَمَّ مِنْهُ الْحُسْنَ نَجْدٌ وَحَاجِرُ

بِلَادِي الَّتِي أَهْلِي بِهَا وَأَحِبَّتِي
وَرُوحِي وَقَلْبِي وَالْمُنَى وَالْخَوَاطِرُ

تُذَكِّرُنِي أَنْجَادُهَا وَوِهَادُهَا
عُهُودًا مَضَتْ لِي وَهْيَ خُضْرٌ نَوَاضِرُ

إِذِ الْعَيْشُ صَافٍ وَالزَّمَانُ مُسَاعِدٌ
فَلَا الْعَيْشُ مَمْلُولٌ وَلَا الدَّهْرُ جَائِرُ

(١) ذكر أربعة أشياء وشبهها بأربعة أشياء على سبيل اللف والنشر المرتب

بِحَيْثُ لَيَالِينَا كَغَضٍّ شَبَابِنَا ... وَأَيَّامُنَا سِلْكٌ وَنَحْنُ جَوَاهِرُ

لَيَالِيَ كَانَتْ لِلشَّبِيبَةِ دَوْلَةٌ ... بِهَا مَلِكُ اللَّذَّاتِ نَاهٍ وَآمِرُ

سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ الْعُهُودِ فَإِنَّهَا ... مَوَارِدُ أَفْرَاحٍ تَلَتْهَا مَصَادِرُ

وَأَتَذَكَّرُ تِلْكَ الْأَيَّامَ الَّتِي مَرَّتْ كَالْأَحْلَامِ، فَأَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ بَعْضِ الْأَكَابِرِ الْأَعْلَامِ.

يَادِيَارَ السُّرُورِ لَا زَالَ يَبْكِي

فِيكِ إِذْ تَضْحَكُ الرِّيَاضُ غَمَامُ

رُبَّ عَيْشٍ صَحِبْتُهُ فِيكِ غَضٍّ ... وَعُيُونُ الْفِرَاقِ عَنَّا نِيَامُ

فِي لَيَالٍ كَأَنَّهُنَّ أَمَانٍ ... فِي زَمَانٍ كَأَنَّهُ أَحْلَامُ

وَكَأَنَّ الْأَوْقَاتَ فِيكِ كُؤُوسٌ

دَائِرَاتٌ وَأُنْسُهُنَّ مُدَامُ[1]

زَمَنٌ مُسْعِدٌ وَإِلْفٌ وَصُولٌ

وَمُنًى تَسْتَلِذُّهَا الْأَوْهَامُ

وَبِقَوْلِ الْحَائِكِ الْأُمِّي، عِنْدَمَا يَكْثُرُ شَجْوِي وَغَمِّي:

---

(١) المدام: الخمر

لَمْ أَنْسَ أَيَّامًا مَضَتْ وَلَيَالِياً
سَلَفَتْ وَعَيْشًا بِالصَّرِيمِ تَصَرَّمَا[1]

إِذْ نَحْنُ لَا نَخْشَى الرَّقِيبَ وَلَمْ نَخَفْ
صَرْفَ الزَّمَانِ وَلَا نُطِيعُ اللُّوَّمَا

وَالْعَيْشُ غَضٌّ وَالْحَوَاسِدُ نُوَّمٌ
عَنَّا وَعَيْنُ الْبَيْنِ قَدْ كُحِلَتْ عَمًى

فِي رَوْضَةٍ أَبْدَتْ ثُغُورُ زُهُورِهَا[2]
لَمَّا بَكَى فِيهَا الْحَمَامُ تَبَسُّمَا

مَدَّ الرَّبِيعُ عَلَى الْخَمَائِلِ نَوْرَهُ
فِيهَا فَأَصْبَحَ كَالْخِيَامِ مُخَيِّمَا

تَبْدُو الْأَقَاحِي[3] مِثْلَ ثَغْرٍ أَشْنَبٍ
أَضْحَى الْمُحِبُّ بِهِ كَئِيباً مُغْرَمَا

وَعُيُونُ نَرْجِسِهَا كَأَعْيُنِ غَادَةٍ
تَرْنُو فَتَرْمِي بِاللَّوَاحِظِ أَسْهُمَا

وَكَذَلِكَ الْمَنْثُورُ مَنْثُورٌ بِهَا لَمَّا رَأَى وَرْدَ الْخُدُودِ مُنَظَّمَا

---

(١) تصرم : تقضى . والصريم موضع (٢) جمع زهر على زهور مولد
(٣) الأقاحى : جمع اقحوانة: نبات أوراق زهره مفلجة يشبهون بها الأسنان

وَأُلطَّيْرُ تَصْدَحُ فِي فُرُوعِ فُنُونِهَا
سَحَرًا فَتُوقِظُ بِالْهَدِيلِ[1] أُلنُّوَّمَا

وَأَمِيلُ إِلَى بِلَادٍ مُحَيَّاهَا جَمِيلٌ
كَسَاهَا أُلْحَيَا بُرْدَ أُلشَّبَابِ فَإِنَّهَا

بِلَادٌ بِهَا عَقَّ[2] أُلشَّبَابُ تَمَائِمِي
ذَكَرْتُ بِهَا عَهْدَ أُلصِّبَا فَكَأَنَّمَا

قَدَحْتُ بِنَارِ أُلشَّوْقِ بَيْنَ أُلْحَيَازِمِ[3]

لَيَالِيَ لَا أَلْوِي عَلَى رُشْدِ نَاصِحٍ
عِنَانِي وَلَا أَثْنِيهِ عَنْ غَيٍّ لَائِمِ

أَنَالُ سُهَادِي مِنْ عُيُونٍ نَوَاعِسٍ
وَأَجْنِي مُرَادِي مِنْ غُصُونٍ نَوَاعِمِ

وَلَيْلٍ لَنَا بِالسَّدِّ بَيْنَ مَعَاطِفٍ
مِنَ أُلنَّهْرِ يَنْسَابُ أُنْسِيَابَ أُلْأَرَاقِمِ[4]

تَمُرُّ إِلَيْنَا ثُمَّ عَنَّا كَأَنَّهَا حَوَاسِدُ تَمْشِي بَيْنَنَا بِالنَّمَائِمِ

(١) الهديل : التغريد (٢) عقه : أي شقه وقطعه (٣) الحيزوم : وسط الصدر وما يضم عليه (٤) جمع أرقم : الحيات التي فيها سواد و بياض .

وبِتْنَا وَلا وَاشٍ نَخَافُ كَأَنَّمَا حَلَلْنَا مَكَانَ السِّرِّ مِنْ صَدْرِ كَاتِمِ

وَأَهْفُو إِلَى قُصُورٍ ذَاتِ بَهْجَةٍ، وَصُرُوحٍ تُوَضِّحُ مَعَالِمُهَا لِلرَّائِدِ نَهْجَهُ.

وَرِيَاضٍ تَخْتَالُ مِنْهَا غُصُونٌ فِي بُرُودٍ مِنْ زَهْرِهَا وَعُقُودِ

فَكَأَنَّ الْأَدْوَاحَ فِيهَا غَوَانٍ تَتَبَارَى زَهْوًا بِحُسْنِ الْقُدُودِ

وَكَأَنَّ الْأَطْيَارَ فِيهَا قِيَانٌ تَتَغَنَّى فِي كُلِّ عُودٍ[1] بِعُودِ[2]

وَكَأَنَّ الْأَزْهَارَ فِي حَوْمَةِ الرَّوْ ضِ سُيُوفٌ تُسَلُّ تَحْتَ بُنُودِ

وَأَصْبُو إِلَى بِطَاحٍ، وَأَدْوَاحٍ[3] تُرَوِّحُ النُّفُوسَ وَالْأَرْوَاحَ.

سَقْيًا لَهَا مِنْ بِطَاحٍ خَزٍّ وَدَوْحِ زَهْرٍ بِهَا مُطِلٍّ

إِذْ لَا تَرَى غَيْرَ وَجْهِ شَمْسٍ أَطَلَّ فِيهِ عِذَارُ ظِلٍّ

وَأَنْهَارٍ جَارِيَةٍ، وَأَزْهَارٍ نَوَاسِمُهَا سَارِيَةٌ. وَأَرْبُعٍ وَمَلَاعِبَ، تُزِيحُ عَنْ مُبْصِرِهَا الْمَتَاعِبَ

تِلْكَ الْمَنَازِلُ وَالْمَلَا عِبُ لَا أَرَاهَا اللهُ مَحْلَا

---

(١) أى فنن وغصن (٢) آلة الطرب «المزهر» (٣) البطاح : الأرض الفسيحة . والأدواح: الأشجار الغليظة الكثيرة الفروع

أَوْطَنْتهَا زَمَنَ ٱلصِّبَا ... وَجَعَلْتُ فِيهَا لِي مَحَلَّا

حَيْثُ ٱلْتَفَتُّ رَأَيْتُ مَا ... ءً سَائِحًا وَرَأَيْتُ ظِلَّا

وَٱلنَّهْرُ يَفْصِلُ بَيْنَ زَهْـ ... ـرِ ٱلرَّوْضِ فِي ٱلشَّطَّيْنِ فَصْلًا

كَبِسَاطِ وَشْيٍ جَرَّدَتْ ... أَيْدِي ٱلْقُيُونِ[1] عَلَيْهِ نَصْلًا[2]

وَإِلَى مَنَازِلَ يَسْتَفِزُّ حُسْنُهَا ٱلرَّائِقُ ٱلْجَادَّ وَٱلْهَازِلَ وَيَشْفِي مَنْظَرُهَا عَلِيلًا ، وَيَكْفِي مَخْبَرُهَا لِلْمُسْتَفْهِمِ دَلِيلًا .

وَجِنَانٍ أَلِفْتُهَا حِينَ غَنَّتْ ... حَوْلَهَا ٱلْوُرْقُ بُكْرَةً وَأَصِيلَا

نَهْرُهَا مُسْرِعًا جَرَى وَتَمَشَّتْ ... فِي رُبَاهَا ٱلصَّبَا قَلِيلًا قَلِيلَا

وَأَتَمَثَّلُ إِنْ ذَكَرْتُ حَالَ وَدَاعِي ، بِقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ ٱلْأَدِيبِ ٱلْوَدَاعِي :

ٱلْغَرْبُ خَيْرٌ وَعِنْدَ سَاكِنِهِ ... أَمَانَةٌ أَوْجَبَتْ تَقَدُّمَهُ

فَٱلشَّرْقُ مِنْ نَيِّرَيْهِ[3] عِنْدَهُمُ ... يُودِعُ دِينَارَهُ وَدِرْهَمَهُ

وَبِقَوْلِ غَيْرِهِ ، إِشَارَةً لِفَضْلِ ٱلْغَرْبِ وَخَيْرِهِ :

أَشْتَاقُ لِلْغَرْبِ وَأَصْبُو إِلَى ... مَعَاهِدٍ فِيهِ وَعَصْرِ ٱلصِّبَا

---

(١) القيون ـ جمع قين : وهو الحداد (٢) النصل : السكين العريضة

(٣) النيران : الشمس والقمر يودعهما الشرق عند الغرب لأمانته. وهذا من أبدع أنواع حسن التعليل . والدينار : الشمس . والدرهم : القمر

يَا صَاحِبَيْ نَجْوَايَ وَٱللَّيْلُ قَدْ أَرْخَى جَلَابِيبَ ٱلدُّجَى وَٱخْتَبَا

لَا تَعْجَبَا مِنْ نَاظِرٍ سَاهِرٍ بَاتَ يُرَاعِي أَنْجُمًا غُيَّبَا

أَلْقَلْبُ فِي آثَارِهَا طَائِرٌ لَمَّا رَآهَا تَقْصِدُ ٱلْمَغْرِبَا

وَأَهِيمُ كُلَّمَا حَلَلْتُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَرْضَى بِمَكَانٍ ، وَقَدْ صَيَّرَ ٱلسَّائِقُ جِدَّ ٱلسَّيْرِ مَعْمُولًا لِمَا ٱنْفَكَّ[1] ، كَمَا جَعَلَهُ خَبَرًا لِكَانَ . بِقَوْلِ قَاضِي ٱلْقُضَاةِ ٱلْعَالِمِ ٱلْكَبِيرِ ٱلشَّمْسِ ٱبْنِ خَلِّكَانَ :

أَيُّ لَيْلٍ عَلَى ٱلْمُحِبِّ أَطَالَهْ سَائِقُ ٱلظُّعْنِ يَوْمَ زَمَّ جِمَالَهْ

يَزْجُرُ ٱلْعِيسَ طَاوِيًا يَقْطَعُ ٱلْمَهْـ ـمَهَ عَسْفًا سُهُولَهُ وَرِمَالَهْ

أَيُّهَا ٱلسَّائِقُ ٱلْمُجِدُّ تَرَفَّقْ بِٱلْمَطَايَا فَقَدْ سَئِمْنَ ٱلرِّحَالَهْ

وَأَنِخْهَا هُنَيْهَةً وَأَرِحْهَا

إِذْ بَرَاهَا ٱلسُّرَى[2] وَفَرْطُ ٱلْكَلَالَهْ

لَا تُطِلْ سَيْرَهَا ٱلْعَنِيفَ فَقَدْ بَرَّ

حَ بِٱلصَّبِّ فِي سُرَاهَا ٱلْإِطَالَهْ

---

(١) أي ماانفك يجد السير . كناية عن دوامه (٢) أي السير ليلا .

وَأَرْثِ لِلنَّازِحِ الَّذِي إِنْ رَأَى رَبْـ ـعاً ثَوَى فِيهِ نَادِبًا أَطْلَالَهْ

يَسْأَلُ الرَّبْعَ عَنْ ظِبَاءِ الْمُصَلَّى
مَا عَلَى الرَّبْعِ لَوْ أَجَابَ سُؤَالَهْ ؛

وَمُحَالٌ مِنَ الْمُحِيلِ جَوَابٌ
غَيْرَ أَنَّ الْوُقُوفَ فِيهِ عُلَالَهْ

هَذِهِ سُنَّةُ الْمُحِبِّينَ يَبْـكُو نَ عَلَى كُلِّ مَنْزِلٍ لَامَحَالَهْ

يَادِيَارَ الْأَحْبَابِ لَا زَالَتِ الْأَعْـ
ـيُنُ فِي تُرْبِ سَاحَتَيْكِ مُذَالَهْ(1)

وَتَمَشَّى النَّسِيمُ وَهُوَ عَلِيلٌ فِي مَغَانِيكِ سَاحِبًا أَذْيَالَهْ

أَيْنَ عَيْشٌ مَضَى لَنَا فِيكِ مَا أَسْـ ـرَعَ عَنَّا ذَهَابَهُ وَزَوَالَهْ ؟

حَيْثُ وَجْهُ الزَّمَانِ طَلْقٌ نَضِيرٌ وَالتَّدَانِي غُصُونُهُ مَيَّالَهْ

وَلَنَا فِيكِ طِيبُ أَوْقَاتِ أُنْسٍ لَيْتَنَا فِي الْمَنَامِ نَلْقَى مِثَالَهْ

وَأُرَدِّدُ قَوْلَ الَّذِي سَحَرَ الْأَلْبَابَ ، مُنَادِيًا مَنْ لَهُ مِنَ الْأَحْبَابِ :

---

(١) ذال الشيء : هان ، وأذاله: أهانه واستخف به ، ضد صانه ، وهو يشير الى قول أبي تمام :

على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب

والمذالة : الأمة ، يريد أن الأعين ذليلة فى ساحته فهى تسكب دموعها كالأمة الذليلة : ويروى . . . لازالت الأدمع الخ .

أَحْبَابَنَا لَوْ لَقِيتُمْ فِي إِقَامَتِكُمْ
مِنَ الصَّبَابَةِ مَا لَاقَيْتُ فِي الظَّعَنِ[1]

لَأَصْبَحَ الْبَحْرُ مِنْ أَنْفَاسِكُمْ يَبَسًا
كَالْبَرِّ مِنْ أَدْمُعِي يَنْشَقُّ بِالسُّفُنِ[2]

وَقَوْلُهُ :

وَمَا تَغَيَّرْتُ عَنْ ذَاكَ الْوِدَادِ وَلَا
حَالَتْ بِيَ الْحَالُ فِي عَهْدِي وَمِيثَاقِي

دَرْسِي غَرَامِي بِكُمْ دَهْرِي أُكَرِّرُهُ
وَقَدْ تَفَقَّهْتُ[3] فِي وَجْدِي وَأَشْوَاقِي

وَقَوْلَ الْمَجْدِ بْنِ شَمْسِ الْخِلَافَةِ ، مُعْلِمًا أَنَّهُ لَا يُرِيدُ بَدَلَ مَعْهَدِهِ وَخِلَافَهُ :

يَا زَمَانَ الْهَوَى عَلَيْكَ السَّلَامُ   وَعَلَيَّ السُّلُوُّ عَنْكَ حَرَامُ
أَيُّ عَيْشٍ قَطَعْتُهُ فِيكَ لَوْ دَا   مَ وَهَلْ يُرْتَجَى لِظِلٍّ دَوَامُ ؟
كُنْتَ حُلْمًا وَالْعَيْشُ فِيكَ خَيَالًا   وَسَرِيعًا مَا تَنْقَضِي الْأَحْلَامُ
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى لَيَالٍ تَقَضَّتْ   سَلَبَتْنِي بُرُودَهَا الْأَيَّامُ

---

(١) أى السفر (٢) مثله قول ابن الفارض :

اذا بكى فى قفار خلتها لججا   فان تنفس عادت كلها يبسا

(٣) تفقه فى الشىء : فهمه فهما جيدا .

فَطَمَتْنِي ٱلْأَقْدَارُ عَنْهَا وَلِيدًا ... وَشَدِيدٌ عَلَى ٱلْوَلِيدِ ٱلْفِطَامُ

لَا تَلُمْنِي عَلَى ٱلْبُكَاءِ عَلَيْهَا ... مَنْ بَكَى شَجْوَهُ(١) فَلَيْسَ يُلَامُ

وَقَوْلَ أَبِي طَاهِرٍ ٱلْخَطِيبِ ٱلْمَوْصِلِيِّ :

حَيِّ نَجْدًا عَنِّي وَمَنْ حَلَّ نَجْدَا ... أَرْبُعًا هِجْنَ لِي غَرَامًا وَوَجْدَا

وَٱقْرِ عَنِّي ٱلسَّلَامَ آرَامَ ذَاكَ ٱلشِّـ

عْبِ وَٱلْأَجْرَعِ ٱلْخَصِيبِ ٱلْمُفَدَّى

وَٱبْكِ عَنِّي حَتَّى تُرَنِّحَ بِالْوَجْـ

دِ أَرَاكًا بِهِ وَبَانًا وَرَنْدَا (٢)

فَلَكَمْ وَقْفَةٍ أَطَلْتُ عَلَى ٱلضَّا

لِ بِدَمْعٍ أَذَاعَ سِرِّي وَأَبْدَى

وَعَلَى ٱلْبَانِ كَمْ مِنَ ٱلْبَيْنِ أَذْرَيْـ

تُ لَآلِي لِلدَّمْعِ مَثْنًى وَوَحْدَا

آهِ وَالْهَفْتِي عَلَى طِيبِ عَيْشٍ

كُنْتُ قَطَّعْتُهُ وِصَالًا وَوُدًّا

---

(١) شجوه : حزنه (٢) الرند : شجر طيب الرائحة .

حَيْثُ عُودُ ٱلشَّبَابِ غَضٌّ نَضِيرٌ
وَيَدُ ٱلْمَكْرُمَاتِ بِٱلْجُودِ تَنْدَى

وَٱلْخَلِيلُ ٱلْوَدُودُ يُنْعِمُ إِسْعَا
فًا وَصَرْفُ ٱلزَّمَانِ يَزْدَادُ بُعْدَا

وَٱللَّيَالِي مُسَاعِدَاتٌ عَلَى ٱلْوَصْـلِ وَعَيْنُ ٱلرَّقِيبِ إِذْ ذَاكَ رَمْدَا

كَمْ بِهَا مِنْ لُبَانَةٍ لِي وَأَوْطَا رٍ تَقَضَّتْ وَجَازَتِ ٱلْحَدَّ حَدَّا

فَاسْتَعَادَ ٱلزَّمَانُ مَا كَانَ أَعْطَى خِلْسَةً لِي بِبُخْلِهِ وَٱسْتَرَدَّا

وَقَوْلَ بَعْضِهِمْ :

سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ ٱلْمَعَاهِدِ إِنَّهَا شَرِيعَةُ وِرْدِي أَوْ مَهَبُّ شَمَالِي

لَيَالِيَ لَمْ نَحْذَرْ حُزُونَ قَطِيعَةٍ وَلَمْ نَمْشِ إِلَّا فِي سُهُولِ وِصَالِ

فَقَدْ صِرْتُ أَرْضَى مِنْ نَوَاحِي جَنَابِهَا
بِخُلَّبِ بَرْقٍ أَوْ بِطَيْفِ خَيَالِ

وَقَوْلَ ٱلْجُرْجَانِيِّ :

لِلْمُحِبِّينَ مِنْ حِذَارِ ٱلْفِرَاقِ عَبَرَاتٌ تَجُولُ بَيْنَ ٱلْمَآقِي

فَإِذَا مَا ٱسْتَقَلَّتِ ٱلْعِيسُ لِلْبَيْـنِ وَسَارَتْ حُدَاتُهَا بِالرِّفَاقِ

اُسْتَهَلَّتْ عَلَى اُلْخُدُودِ اُنْحِدَارًا
كَانْحِدَارِ اُلْجُمَانِ[1] فِي اُلِاتِّسَاقِ
كَمْ مُحِبٍّ يَرَى اُلتَّجَلُّدَ دِيناً
فَهْوَ يُخْفِي مِنَ اُلْهَوَى مَا يُلَاقِي
اُزْدَهَاهُ اُلنَّوَى فَأَعْرَبَ بِالْوَجْـ
ـدِ لِسَانٌ عَنْ دَمْعِهِ اُلْمُهَرَاقِ ؟
وَاُنْحِدَارُ اُلدُّمُوعِ فِي مَوْقِفِ اُلْبَيْـ
ـنِ عَلَى اُلْخَدِّ آيَةُ اُلْعُشَّاقِ
هَوِّنِ اُلْخَطْبَ لَسْتَ أَوَّلَ صَبٍّ فَضَحَتْهُ اُلدُّمُوعُ يَوْمَ اُلْفِرَاقِ

وَقَوْلَ اُلْخَطِيبِ اُلْحَصْكَفِيِّ[2] اُلشَّافِعِيِّ :

سَارُوا وَأَكْبَادُنَا جَرْحَى وَأَعْيُنُنَا
قَرْحَى وَأَنْفُسُنَا سَكْرَى مِنَ اُلْقَلَقِ
تَشْكُو بَوَاطِنُنَا مِنْ بُعْدِهِمْ حُرَقاً
لٰكِنْ ظَوَاهِرُنَا تَشْكُو مِنَ اُلْغَرَقِ

---

(١) الجمان : الدر ، واحدته جمانة (٢) هو أبو الفضل يحيى بن سلامة ابن الحسين (والحصكفي) نسبة الى (حصن كيفا) قلعة حصينة شاهقة بين جزيرة ابن عمر وآمد ، و بها نشأ أبو الفضل ـ ولد سنة ٤٦٠ وتوفى سنة ٥٥١ ـ وقد ذكره العماد الأصفهاني فى كتاب الخريدة وأثنى عليه

كَأَنَّهُمْ فَوْقَ أَكْوَارِ الْمَطِيِّ وَقَدْ
سَارَتْ مُقَطَّرَةً(١) فِي حَالِكِ الْغَسَقِ

دَرَارِئُ الزُّهْرِ فِي الْأَبْرَاجِ زَاهِرَةً
تَسِيرُ فِي الْفَلَكِ الْجَارِي عَلَى نَسَقِ

يَامُوحِشِي الدَّارِ مُذْ بَانُوا كَمَا أَنِسَتْ
بِقُرْبِهِمْ لَا خَلَتْ مِنْ صَيِّبٍ غَدَقِ(٢)

إِنْ غِبْتُمُ لَمْ تَغِيبُوا عَنْ ضَمَائِرِنَا
وَإِنْ حَضَرْتُمْ حَمَلْنَاكُمْ عَلَى الْحَدَقِ

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ بَعْضِهِمْ فِي هٰذَا الْمَعْنَى ، الَّذِي كَرَّرْنَا ذِكْرَهُ وَبِهِ الْمَعْنَا :

سَلَامٌ عَلَى أَهْلِ الْوِدَادِ وَعَهْدِهِمْ
إِذِ الْأُنْسُ رَوْضٌ وَالسُّرُورُ فُنُونُ

رَحَلْنَا فَشَرَّقْنَا وَرَاحُوا فَغَرَّبُوا
فَفَاضَتْ لِرَوْعَاتِ الْفِرَاقِ عُيُونُ

---

(١) قطار الابل ـ بطاء مشدودة ـ قرب بعضها الى بعض على نسق
(٢) الصيب : السحاب ذو المطر .

وَكَمْ أَنْشَدْتُ وَلَيَالِي ٱلنَّوَى عَاتِمَةٌ ، قَوْلَ ٱلْأَنْدَلُسِيِّ ٱبْنِ حَاتِمَةَ :

أَيَّامَنَا بِالْحِمَى مَا كَانَ أَحْلَاكِ ... كَمْ بِتُّ أَرْعَاهُ إِجْلَالًا وَأَرْعَاكِ؟

لَا تُنْكِرِي وَقْفَتِي ذُلًّا بِمَغْنَاكِ ... يَا دَارُ لَوْلَا أَحِبَّائِي وَلَوْلَاكِ

لَمَا وَقَفْتُ وُقُوفَ ٱلْهَائِمِ ٱلْبَاكِي

فَهَلْ لَهُمْ عَطْفَةٌ مِنْ بَعْدِ دَلِّهِمُ ... تَاللهِ مَا تَسْمَحُ ٱلدُّنْيَا بِمِثْلِهِمُ

آهًا لِقَلْبِي عَلَى تَبْدِيدِ شَمْلِهِمُ ... مَا كَانَ أَحْلَاكِ يَا أَيَّامَ وَصْلِهِمُ

وَيَا لَيَالِي ٱلرِّضَا مَا كَانَ أَضْوَاكِ(١)

يَا بَدْرَ تِمٍّ تَنَاءَتْ عَنْهُ أَرْبُعُنَا

وَلَمْ تَزَلْ تَحْتَوِيهِ ٱلدَّهْرَ أَضْلُعُنَا

مَا لِلنَّوَى بِضُرُوبِ ٱلْبَيْنِ يُوجِعُنَا؟

إِذَا تَذَكَّرْتُ دَهْرًا كَانَ يَجْمَعُنَا

تَفَطَّرَتْ كَبِدِي شَوْقًا لِمَرْآكِ

أَحْبَابَ أَنْفُسِنَا كَمْ ذَا ٱلنَّوَى وَكَمِ ... وَيَا مَعَاهِدَ نَجْوَانَا بِذِي سَلَمِ

---

(١) أضواك : أكثر ضوءا . وكان زائدة .

تَاللهِ مَا شُبْتُ[1] دَمْعاً لِلأَسَى بِدَمِ
وَلاَ لَثَمْتُ تُرَابَ ٱلْأَرْضِ مِنْ كَرَمِ
إِلَّا مُرَاعَاةَ خِلٍّ ظَلَّ يَرْعَاكِ

عَلَّ ٱلتَّعَلُّلَ يُدْنِي مِنْهُمُ وَعَسَى
فَيَعْمُرَ ٱلْقُرْبُ مَا بِالْبَيْنِ قَدْ دَرَسَا
كَمْ ذَا أُنَادِي بِرَبْعٍ بِالنَّوَى طَمَسَا[2]
يَا قَلْبُ صَبْرًا فَإِنَّ ٱلصَّبْرَ عَادَ أَسَى
وَيَا مَنَازِلَ سَلْمَى أَيْنَ سَلْمَاكِ ؟

وَقَوْلَ بَعْضِ مَنِ ٱشْتَدَّ بِهِ ٱلْهُيَامُ ، فَخَاطَبَ جِيرَتَهُ مَادِحًا لَيَالِيَ ٱلْقُرْبِ وَذَامًّا تَقَلُّبَ ٱلْأَيَّامِ :

أَيَّامُ أُنْسِيَ قَدْ كَانَتْ بِقُرْبِكُمُ
بِيضًا فَحِينَ نَأَيْتُمْ أَصْبَحَتْ سُودَا
ذَمَمْتُ عَيْشِيَ مُذْ فَارَقْتُ أَرْضَكُمُ
مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ مَغْبُوطًا وَمَحْسُودَا

وَقَوْلَ صَاحِبِ مَصَارِعِ ٱلْعُشَّاقِ ، وَقَدْ شَاقَهُ مِنَ ٱلْهَوَى مَا شَاقَ :

(١) شاب الشيء يشوبه شوبا : خلطه ومزجه (٢) طمس الطريق طموسا ، أي درس وانمحى أثره . وطمسه طمسا ، يتعدى و يلزم

بَانُوا فَأَدْمُعُ مُقْلَتِي وَجْدًا عَلَيْهِمْ تَسْتَهِلُّ
وَحَدَا بِهِمْ حَادِي ٱلْفِرَا قِ عَنِ ٱلْمَنَازِلِ فَاسْتَقَلُّوا
قُلْ لِلَّذِينَ تَرَحَّلُوا عَنْ نَاظِرِي وَٱلْقَلْبَ حَلُّوا
مَا ضَرَّهُمْ لَوْ أَنْهَلُوا[١] مِنْ مَاءِ وَصْلِهِمُ وَعَلُّوا[٢]

وَقَوْلُهُ حِينَ زَحْزَحَتْهُ يَدُ ٱلْفِرَاقِ ، عَنْ أَوْطَانِ ٱلْعِرَاقِ :

قَدْ قُلْتُ وَٱلْعَبَرَاتُ تَسْـــفَحُهَا عَلَى ٱلْخَدِّ ٱلْمَآقِي
حِينَ ٱنْحَدَرْتُ إِلَى ٱلْجَزِيـ رَةِ وَٱنْقَطَعْتُ عَنِ ٱلْعِرَاقِ
وَتَخَبَّطَتْ أَيْـدِي ٱلرِّفَا قِ مَهَامِهَ[٣] ٱلْبِيدِ ٱلرِّقَاقِ
يَا بُؤْسَ مَنْ سَلَّ ٱلزَّمَا نُ عَلَيْهِ سَيْفًا لِلْفِرَاقِ

وَقَوْلُهُ أَيْضًا :

يَامَنْزِلَ ٱلْحَيِّ بِذَاتِ ٱلنَّقَا سَقَاكَ دَمْعٌ مُذْ نَأَوْامَارَقَا[٤]
هَلْ سَلْوَةٌ هَيْهَاتَ لَا سَلْوَةٌ قَدْبَلَغَ ٱلسَّيْلُ ٱلزُّبَى[٥] وَٱرْتَقَى
وَأَنْتَ يَا يَوْمَ ٱلنَّوَى عَاجِلًا أَدَالَ[٦] مِنْكَ ٱللهُ يَوْمَ ٱللِّقَا

---

(١) أنهلوا : شربوا نهلا ، والنهل : أول الشرب (٢) علوا : شربوا عللا والعلل : الشرب بعد الشرب (٣) مهامه جمع مهمه : المفازة . والبيد : الفلاة أيضا — : والرقاق — بكسر الراء. جمع رقة بفتح الراء : كل أرض الى جنب ينبسط الماء عليها أيام المد ثم ينضب (٤) رقأ الدمع : انقطع (٥) بلغ السيل الزبى : مثل يضرب عند مجاوزة الأمر الحد وتفاقم الخطب (٦) أدال منك الخ : نزع الدولة منك يوم اللقاء وحولها الى

وَقَوْلِي مُوَطِّئاً لِلثَّالِثِ ، وَقَدْ تَغَيَّرَ لِي فِيمَنْ تَغَيَّرَ حَارِثٌ[١] :

لَمْ أَنْسَ مَعْهَدَنَا وَالشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ
وَالْعَيْشُ غَضٌّ وَرَوْضُ الْأُنْسِ مِعْطَارُ[٢]

فَهَا أَنَا بَعْدَ بُعْدٍ عَنْهُ فِي قَلَقٍ
وَقَدْ نَبَتْ بِي أَرْجَاؤُهُ وَأَقْطَارُ

تَمْضِي اللَّيَالِي وَأَشْوَاقِي مُجَدَّدَةٌ
وَمَا انْقَضَتْ لِي مِنَ الْأَحْبَابِ أَوْطَارُ[٣]

وَكُلَّمَا مَرَرْتُ بِمَرْأًى يَرُوقُ ، لَمَعَتْ لِي مِنْ نَاحِيَةِ الْمَغْنَى بِالْمُنَى بُرُوقٌ ، فَتَذَكَّرْتُ قَوْلَ بَعْضِ مَنْ لَهُ عَلَى غَيْرِ مَنْ يَهْوَى طُرُوقٌ :

مَا نَظَرَتْ عَيْنِي سِوَاكَ مَنْظَرًا
مُسْتَحْسَنًا إِلَّا عَرَضْتَ[٤] دُونَهُ

وَمَا تَمَنَّيْتُ لِقَاءَ غَائِبٍ
إِلَّا سَأَلْتُ اللهَ أَنْ تَكُونَهُ

وَرُبَّمَا رُمْتُ انْتِحَالِي[٥] مَذْهَبَ السُّلُوِّ وَانْتِحَالِي ، خِلَالَ أَحْوَالِ إِقَامَتِي وَارْتِحَالِي ، فَلَمْ يَنْتَقِلْ عَنْ تِلْكَ الصِّفَاتِ حَالِي ، وَأَنَّى ؟ وَجِيدِي بِقَلَائِدِ الْبَتَاتِ[٦] حَالٍ[٧]

(١) لما انحرف محمد بن عبد الملك الزيات (وزير الخليفة المعتصم والواثق) عن ابراهيم بن العباس الصولي تحاماه الناس أن يلقوه ، وكان الحارث بن بُسْخنر صديقاله مصافيا فهجره فيمن هجره من اخوانه فكتب اليه ابراهيم بن العباس :

تغير لى فيمن تغير حارث
وكم من أخ قد غيرته الحوادث

أحارث ان شوركت فيك فربما
غنينا وما بيني وبينك ثالث

(٢) أي ذكي الرائحة (٣) جمع وطر : اللبانة والحاجة (٤) أي ظهر خيالك لى أقرب منه (٥) لعلها (انتحائى) أي قصدى (٦) البت : القطع (٧) حال : أي متحل

وَالشَّوْقُ أَعْظَمُ أَنْ يُحِيطَ بِوَصْفِهِ   قَلَمٌ وَأَنْ يُطْوَى عَلَيْهِ كِتَابُ
وَاللهِ مَا أَنَا مُنْصِفٌ إِنْ كَانَ لِي   عَيْشٌ يَطِيبُ وَجِيرَتِي غُيَّابٌ

وَكَيْفَ وَلَا مَاقِي صَبٌّ ، وَلِأَتْوَاقِي زِيَادَةٌ إِذَا سَرَى نَسِيمٌ أَوْ هَبَّ .

شَرِبْتُ حُمَيَّا الْبَيْنِ صِرْفًا وَطَالَمَا   جَلَوْتُ مُحَيَّا الْوَصْلِ وَهْوَ وَسِيمُ
فَمِيعَادُ دَمْعِي أَنْ تَنُوحَ حَمَامَةٌ   وَمِيقَاتُ شَوْقِي أَنْ يَهُبَّ نَسِيمُ

فَإِنْ لَاحَ سَنَا بَارِقٍ شَاقَنِي ، أَوْ تَرَنَّمَ شَادٍ حَدَا بِي إِلَى الْهُيَامِ وَسَاقَنِي ، أَوْ رَنَا[1] ظَبْيُ فَلَاةٍ رَاعَنِي وَرَاقَنِي

وَإِنِّي لَيُصْبِينِي سَنَا كُلِّ بَارِقٍ[2]   وَكُلُّ حَمَامٍ فِي الْأَرَاكِ يَنُوحُ
وَأَرْتَاعُ مِنْ ظَبْيِ الْفَلَاةِ إِذَا رَنَا   وَأَرْتَاحُ لِلتَّذْكَارِ وَهْوَ سَنُوحُ
وَلَمْ يَكُ ذَاكَ الْأَمْرُ مِنْ حَيْثُ ذَاتُهُ
وَلَكِنْ لِمَعْنًى فِي الْحَبِيبِ يَلُوحُ

وَلَا أَسْتَطِيعُ الْإِعْرَابَ عَنْ أَمْرِي الْعَجِيبِ ، لِمَا بِي مِنَ النَّوَى الْمُذْهِلِ وَالْجَوَى الْمُدْهِشِ وَالْوَجِيبِ[3]

وَلَا تَسْأَلُوا عَمَّا أُجِنُّ[4] فَلَيْسَ لِي   لِسَانٌ يُؤَدِّي مَا الْغَرَامُ يَقُولُ

---

(١) رنا : نظر (٢) السنا : الضوء (٣) الوجيب : الخفقان والاضطراب
(٤) أجن : أكن وأستر

يُطَارِحُنِي ٱلْبَرْقُ ٱلْأَحَادِيثَ كُلَّمَا
أَضَاءَ كَأَنَّ ٱلْبَرْقَ مِنْهُ رَسُولُ

وَمَا بَالُ خَفَّاقِ ٱلنَّسِيمِ يُمِيلُنِي
هَلِ ٱلرِّيحُ رَاحٌ وَٱلشَّمَالُ شَمُولُ[1]

إِذْ دُمُوعُ شُؤُونِي عِنْدَ ٱلذِّكْرَى لَا تَرْقَا ، وَجُفُونِي لَيْسَ لَهَا عَنِ ٱلْأَرَقِ مَرْقَى ، وَشُجُونِي تَنْمُو إِذَا صَدَحَتْ بِفَنَنِهَا وَرْقَا[2] .

رُبَّ وَرْقَاءَ فِي ٱلدَّيَاجِي تُنَادِي إِلْفَهَا فِي غُصُونِهَا ٱلْمَيَّادَهْ[3]
فَتُثِيرُ ٱلْهَوَى بِلَحْنٍ عَجِيبٍ يَشْهَدُ ٱلسَّمْعُ أَنَّهَا عَوَّادَهْ[4]
كُلَّمَا رَجَّعَتْ تَوَجَّعْتُ حُزْنًا فَكَأَنَّا فِي وَجْدِنَا نَتَبَادَهْ[5]

فَيَالَهَا مِنْ ذَاتِ طَوْقٍ ، مُثِيرَةٍ لِكَامِنِ شَوْقٍ ، جَالِبَةٍ لَهُ مِنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ وَفَوْقٍ .

ذَكَّرَتْنِي ٱلْوَرْقَاءُ أَيَّامَ أُنْسٍ سَالِفَاتٍ فَبِتُّ أُذْرِي ٱلدُّمُوعَا
وَوَصَلْتُ ٱلسُّهَادَ شَوْقًا لِحِبِّي وَغَرَامًا وَقَدْ هَجَرْتُ ٱلْهُجُوعَا

(١) الشمول : الخمر (٢) الورقاء : الحمامة التى يضرب لونها الى الخضرة (٣) أى المائلة (٤) أى تعزف على العود (٥) المبادهة : الاجابة على البديهة من غير تفكير

كَيْفَ يَخْلُو قَلْبِي مِنَ ٱلذِّكْرِ يَوْمًا

وَعَلَى حُبِّهِمْ حَنَيْتُ ٱلضُّلُوعَا

كُلَّمَا أُولِعَ ٱلْعَذُولُ بِعَتْبِي فِي هَوَاهُمْ يَزْدَادُ قَلْبِي وَلُوعَا

وَرُبَّمَا أَتَخَيَّلُ قَوْلَ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا بِالْحُزْنِ بَائِحَةٌ، وَعَلَى فَقْدِ ٱلْإِلْفِ نَائِحَةٌ، فَأُنْشِدُ قَوْلَ خَلِيلٍ، وَهُوَ بِالْحُبِّ مُدْنَفٌ وَعَلِيلٌ:

وَرُبَّ حَمَامَةٍ فِي ٱلدَّوْحِ بَاتَتْ تُجِيدُ ٱلنَّوْحَ فَنًّا بَعْدَ فَنٍّ

أُقَاسِمُهَا ٱلْهَوَى مَهْمَا ٱجْتَمَعْنَا فَمِنْهَا ٱلنَّوْحُ وَٱلْعَبَرَاتُ مِنِّي

وَلَا غَرْوَ أَنْ ظَهَرَ سِرٌّ بَائِحٍ، فَبَاكٍ مِثْلِي مِنَ ٱلشَّجْوِ نَائِحٍ،

فَرَجَعْتُ بَعْدَ فِرَاقِ أَيَّامِ ٱلْهَوَى

أَصِفُ ٱلصَّبَابَةَ لِلْمُحِبِّ ٱلْمُولَعِ

دَامِي ٱلْجُفُونِ إِذَا ٱلْحَمَامَةُ غَرَّدَتْ

مِنْ فَوْقِ خُوطِ[١] ٱلْبَانَةِ ٱلْمُتَرَعْرِعِ

أَسْقِي ٱلدِّيَارَ وَقَدْ تَبَاعَدَ أَهْلُهَا عَنْهَا عَزَالِيَ[٢] ٱلدُّمُوعِ ٱلْهُمَّعِ

وَنَوَاعِبُ[٣] ٱلْأَطْلَالِ لَيْسَ يُجِيبُنِي

مَا بَيْنَهُنَّ سِوَى ٱلصَّدَى بِتَوَجُّعِ

(١) الخوط : الغصن (٢) جمع عزلاء : مصب الماء من السحاب والمزادة وغيرهما . وأنزلت السماء عز اليها : على التشبيه بنزول الماء من أفواه المزادات

(٣) نواعب: جمع ناعب : وهو الغراب يصوت بالبين على زعمهم

وَهَوَاتِفٌ فَوْقَ الْغُصُونِ يُجِيبُنِي   مِنْهُنَّ تَغْرِيدُ الْحَمَامِ السُّجَّعِ

نَاحَتْ عَلَى عَذَبِ الْفُرُوعِ [1] وَإِلْفُهَا

مِنْهَا بِمَرْأًى فَوْقَهَا وَبِمَسْمَعِ

مَا فَارَقَتْ إِلْفاً كَمَا فَارَقْتُهُ

كَلَّا وَلَا أَجْرَتْ سَوَاكِبَ أَدْمُعِي

عَلَى أَوَانٍ عُيُونُ سُعُودِهِ رَوَانٍ ، وَزَمَانٍ مَعْمُورٍ بِأَمَانِيَّ وَأَمَانٍ ، وَآمَالٍ دَوَانٍ ، وَتَهَانٍ مَا بَيْنَ بِكْرٍ [2] وَعَوَانٍ . وَفِي عُذْرِ مَنْ طَالَ لَيْلُهُ فَاضْطَرَبَ فِيهِ لِوَلُوعِهِ ، وَسَكَنَ جَوَاهُ بِجَوَانِحِهِ وَضُلُوعِهِ

إِنْ طَالَ لَيْلِي بَعْدَهُمْ فَلِطُولِهِ   عُذْرٌ وَذَاكَ لِمَا أُقَاسِي مِنْهُمُ

لَمْ تَسْرِ فِيهِ نُجُومُهُ لَكِنَّهَا   وَقَفَتْ لِتَسْمَعَ مَا أُحَدِّثُ عَنْهُمُ

فَأَرَقِي الزَّائِدُ فِي حُرَقِي أَظْهَرَ الْمَكْنُونَ وَأَبَانَ [3] ، وَوَجْدِي بِمَنْ نَأَى وَبَانَ [4] ، لَمْ يُجْدِ فِيهِ تَعَلُّلٌ بِرَنْدٍ [5] وَبَانٍ .

---

(١) أي طرف الفروع (٢) البكر : التي لم تتزوج . والعوان التي تزوجت ، أو ذات الزوج (٣) أي اظهر (٤) أي بعد (٥) الرند والبان : شجر يكثر ببلاد العرب . وهو طيب الرائحة

تنبَّهِي يَا عَـذَبَاتِ الرَّنْدِ
كَمْ ذَا الْـكَرَى هَبَّ نَسِيمُ نَجْدِ

فَلَسْتِ مِثْلِي فِي جَوًى أَوْ أَرَقٍ
وَحُرْقَةٍ مِنْ فُرْقَةٍ أَوْ صَـدِّ

عُوفِيتِ مِمَّا حَلَّ بِي مِنْ جِيرَةٍ
فِي الْغَرْبِ لَمْ يَرْثُوا لِفَرْطِ وَجْدِي

أُعَلِّلُ الْقَلْبَ بِبَانٍ عَنْهُمْ وَهَلْ يَنُوبُ غُصُنٌ عَنْ قَدِّ

بَانُوا فَلَا مَغْنَى السُّرُورِ بَعْدَهُمْ مَغْنًى وَلَا عَهْدُ الرِّضَا بِعَهْدِ

آهًا مِنَ الْبُعْدِ وَمَنْ لَمْ يَدْرِهِ لَمْ يَشْجُهُ[1] تَأَوُّهِي لِلْبُعْدِ

وَفِي شُغْلٍ مَنْ أَبْكَتْهُ الرُّبُوعُ وَالطُّلُولُ، وَذَهَبَتْ بُرْهَةٌ مِنْ زَمَانِهِ بَيْنَ التَّرَحُّلِ وَالْحُلُولِ، فَرَكِبَ مِنَ الْأَخْطَارِ الصَّعْبَ وَالذَّلُولَ، وَحَافَظَ عَلَى الْعُهُودِ وَلَمْ يَسْلُكْ سَبِيلَ الْغَادِرِ الْمَلُولِ.

سَقَاهَا الْحَيَا[2] مِنْ أَرْبُعٍ وَطُلُولِ[3]
حَكَتْ دَنَفِي مِنْ بَعْدِهِمْ وَنُحُولِي

(١) شجاه وأشجاه اذ أحزنه وهيجه (٢) أى الغيث (٣) جمع طلل : ما درس من آثار الديار

ضَمِنَتْ لَهَا أَجْفَانَ عَيْنٍ قَرِيحَةٍ[١]

مِنَ ٱلدَّمْعِ مِدْرَارِ ٱلشُّؤُونِ هَمُولِ[٢]

وَمِنَ ٱلْغَرِيبِ، ٱلَّذِي يُنْكِرُهُ غَيْرُ ٱلْأَرِيبِ، أَنَّ ٱلْحَادِيَ[٣] إِنْ سَرَّ ٱلْقَلْبَ بِكَشْفِ رَيْنٍ[٤]، فَقَدْ تَسَبَّبَ فِي اجْتِمَاعِ أَمْرَيْنِ مُتَنَافِيَيْنِ مُتَنَافِرَيْنِ

تَرَنَّمَ حَادٍ بِالصَّرِيمِ[٥] فَشَاقَنِي

إِلَى ذِكْرِ مَنْ بَاتَتْ ضُلُوعِي تَضُمُّهُ

فَسَرَّ وَسَاءَ ٱلنَّفْسَ شَجْوًا فَرُبَّمَا

كَلِفْتُ بِهِ مِنْ حَيْثُ صِرْتُ أَذُمُّهُ

وَٱرْتَجَلْتُ حِينَ مَلِلْتُ مِنْ طُولِ ٱلسُّرَى، مُضَمِّنًا ذِكْرَ مَا أَرُومُ لَهُ تَيَسُّرًا، وَقَدْ أَكْثَرَ ٱلرِّفَاقُ عِنْدَ رُؤْيَةِ مَا لَمْ يَأْلَفُوهُ مِنَ ٱلْآفَاقِ تَلَهُّفًا وَتَحَسُّرًا

قُلْتُ لَمَّا طَالَ ٱلنَّوَى عَنْ بِلَادِي وَلِأَهْلِ ٱلنَّوَى جَوًى وَعَوِيلُ

هَلْ أَرَى لِلْفِرَاقِ آخِرَ عَهْدٍ إِنَّ عُمْرَ ٱلْفِرَاقِ عُمْرٌ طَوِيلُ

(١) مجروحة (٢) هملت العين الدموع : هطلت (٣) هو الذى يغنى للأبل يبعثها على الاسراع فى السير (٤) الرين: من معانيه الصدأ وما يغشى القلب كالصدأ (٥) الصريم: موضع بعينه ، أو واد باليمن، والأرض السوداء لاتنبت شيئا

ثُمَّ قُلْتُ مُضَمِّنًا :

لَائِمِي فِي ذِكْرِ أَحْبَابٍ نَأَوْا لَا تَلُمْ مَنْ أَضْعَفَ الشَّوْقُ قُوَاهُ
إِنَّ يَوْمًا جَامِعًا شَمْلِي بِهِمْ ذَاكَ عِيدِي لَيْسَ لِي عِيدٌ سِوَاهُ

ثُمَّ قُلْتُ مُضَمِّنًا أَيْضًا :

لَكَ اللهُ مِنْ صَبٍّ أَضَرَّ بِهِ النَّوَى
وَلَيْسَ لَهُ غَيْرَ اللِّقَاءِ طَبِيبُ

وَإِنَّ صَبَاحًا نَلْتَقِي بِمَسَائِهِ
صَبَاحٌ إِلَى قَلْبِي الْمَشُوقِ حَبِيبُ(١)

ثُمَّ عُدْتُ إِلَى التَّصَبُّرِ ، بَعْدَ إِمْعَانِ النَّظَرِ وَالتَّدَبُّرِ

وَإِنِّي لَأَدْرِي أَنَّ فِي الصَّبْرِ رَاحَةً
وَلَكِنَّ إِنْفَاقِي عَلَى الصَّبْرِ مِنْ عُمْرِي

فَلَا تُطْفِ نَارَ الشَّوْقِ بِالشَّوْقِ طَالِبًا
سُلُوًّا فَإِنَّ الْجَمْرَ يُسْعَرُ بِالْجَمْرِ

ثُمَّ سَلَكْتُ مَنْهَجَ التَّفْوِيضِ وَالتَّسْلِيمِ ، مُنْشِدًا قَوْلَ ابْنِ قَطْرَالِ الْمَغْرِبِيِّ فِي مَقَامِ النُّصْحِ وَالتَّعْلِيمِ ، وَوَجَّهْتُ الْقَصْدَ إِلَى سُكَّانِ الضَّمِيرِ بِذَلِكَ التَّكْلِيمِ :

---

(١) البيت الثانى المضمن من قصيدة ابراهيم بن المهدى فى رثائه لابنه

إِنَّ أَيَّامَ ٱلرِّضَا مَعْدُودَةٌ وَٱلرِّضَا أَجْمَلُ شَيْءٍ بِالْعَبِيدْ
لَا تَظُنُّوا عَنْكُمُ لِي سَلْوَةً مَا عَلَى شَوْقِي إِلَيْكُمْ مِنْ مَزِيدْ
رَاجِعُوا أَنْفُسَكُمْ تَسْتَيْقِنُوا
أَنَّكُمْ فِي ٱلْوَقْتِ أَقْصَى مَا أُرِيدْ
إِنَّ يَوْمًا يَجْمَعُ ٱللهُ بِكُمْ فِيهِ شَمْلِي ذَاكَ عِنْدِي يَوْمُ عِيدْ

وَقَوْلَ بَعْضِ مَنْ نَدِمَ عَلَى ٱلْبُعْدِ عَنِ ٱلْمَعَاهِدِ ، وَأَمَّلَ ٱلْعَوْدَ ـ وَٱلْعَوْدُ أَحْمَدُ ـ إِلَى ٱلْمَشَاهِدِ ، وَغَفَرَ لِلدَّهْرِ ذَنْبَهُ إِنْ عَادَ ، وَتَلَهَّفَ أَنْ لَمْ يُعَامِلْهُ بِغَيْرِ ٱلِابْعَادِ :

لَئِنْ عَادَ جَمْعُ ٱلشَّمْلِ فِي ذَلِكَ ٱلْحِمَى
غَفَرْتُ لِدَهْرِي كُلَّ ذَنْبٍ تَقَدَّمَا
وَإِنْ لَمْ يَعُدْ مَنَّيْتُ نَفْسِي بِعَوْدَةٍ
وَمَاذَا عَسَى تُجْدِي ٱلْأَمَانِي وَقَلَّمَا
يَحِقُّ لِقَلْبِي أَنْ يَذُوبَ صَبَابَةً
وَلِلْعَيْنِ أَنْ تَجْرِي مَدَامِعُهَا دَمَا
عَلَى زَمَنٍ مَاضٍ بِهِمْ قَدْ قَطَعْتُهُ
لَبِسْتُ بِهِ ثَوْبَ ٱلْمَسَرَّةِ مُعْلَمَا[1]

---

(١) ثوب معلم : فى حاشيته علامة

وَقَوْلَ آخَرَ يُخَاطِبُ أَحْبَابَهُ ، وَيَذْكُرُ فَوَاصِلَ بَحْرِ النَّوَى الطَّوِيلِ وَأَسْبَابَهُ :

أُعِيذُكُمُ مِنْ لَوْعَتِي وَشُجُونِي   وَنَارِ جَوًى تُذْكَى بِمَاءِ شُؤُونِي
وَبَرْحِ أَسًى لَمْ يُبْقِ فِيَّ بَقِيَّةً   سِوَى حَرَكَاتٍ تَارَةً وَسُكُونِ

أَرَى الْقَلْبَ أَضْحَى بَعْدَ طَارِقَةِ الْأَسَى
أَسِيرَ صَبَابَاتٍ رَهِينَ شُجُونِ

وَكَيْفَ سَبِيلُ الْقُرْبِ مِنْكُمْ وَدُونَكُمْ
رِمَالُ زَرُودٍ[1] وَالْأَجَارِعُ[2] دُونِي

سَلُوا مَضْجَعِي هَلْ قَرَّ مِنْ بَعْدِ بُعْدِكُمْ
وَهَلْ عَرَفَتْ طَعْمَ الرُّقَادِ جُفُونِي؟؟

سَهِرْنَا بِنَعْمَانٍ وَنِمْتُمْ بِبَابِلٍ
فَيَا لَعُيُونٍ مَا وَفَتْ لِعُيُونِ

وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، أَتَسَلَّى بِقَوْلِ بَعْضِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ الْأَعْيَانِ :

---

(١) اسم موضع (٢) جمع أجرع : وهو المكان الواسع فيه حزونة وخشونة

لَا تَـكْتَرِثْ بِفِرَاقِ أَوْطَانِ الصِّبَا
فَعَسَى تَنَالُ بِغَيْرِهِنَّ سُعُودَا

فَالدُّرُّ يُنْظَمُ عِنْدَ فَقْدِ بِحَارِهِ
بِجَمِيلِ أَجْيَادِ الْحِسَانِ عُقُودَا

وَقَوْلِ غَيْرِهِ :

فَعَسَى اللَّيَالِي أَنْ تَمُنَّ بِنَظْمِنَا عِقْدًا كَمَا كُنَّا عَلَيْهِ وَأَكْمَلَا
فَلَرُبَّمَا نُثِرَ الْجُمَانُ تَعَمُّدًا لِيُعَادَ أَحْسَنَ فِي النِّظَامِ وَأَجْمَلَا

وَأَرْغَبُ لِمَنْ أَطَالَ ذُيُولَ الْغُرْبَةِ أَنْ يُقَلِّصَهَا[1]، وَأَطْلُبُ مِمَّنْ أَجَالَ النُّفُوسَ فِي سُيُولِ الْكُرْبَةِ أَنْ يُخَلِّصَهَا .

فَنَلْتَقِي وَعَوَادِي الدَّهْرِ غَافِلَةٌ
عَمَّا نَرُومُ وَعَقْدُ الْبَيْنِ مَحْلُولُ

وَالدَّارُ آنِسَةٌ وَالشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ
وَالطَّيْرُ صَادِحَةٌ وَالرَّوْضُ مَطْلُولُ[2]

وَأَضْرَعُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي تَيْسِيرِ الْعَوْدِ إِلَى أَوْطَانِي ،

---

(١) أى يقصرها (٢) أى مبلول بالطل ، وهو الندى

وَمَعْهَدِى ٱلَّذِى مَطَايَا ٱلْعِزِّ أَوْطَأَنِى[1] ، وَأَنْ يُلْحِقَنِى بِذَلِكَ ٱلْأُفُقِ ٱلَّذِى خَيْرُهُ مَوْفُورٌ ، وَحَقُّ مَنْ فِيهِ مَعْرُوفٌ لَا مُنْكَرٌ وَلَا مَكْفُورٌ .

إِذَا ظَفِرْتُ مِنَ ٱلدُّنْيَا بِقُرْبِهِمُ   فَكُلُّ ذَنْبٍ جَنَاهُ ٱلدَّهْرُ مَغْفُورُ

وَكَأَنِّى بِعَاتِبٍ[2] يَقُولُ : مَا هَذَا ٱلتَّطْوِيلُ ؟ فَأَقُولُ لَهُ : جَوَابِى قَوْلُ ٱبْنِ أَبِى ٱلْإِصْبَعِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلتَّعْوِيلُ :

أَكْثَرْتَ عَذْلِى كَأَنِّى كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ
بَكَى عَلَى مَسْكَنٍ أَوْ حَنَّ لِلسَّكَنِ

لَا تَلْحَ[3] إِنَّ مِنَ ٱلْإِيمَانِ عِنْدَ ذَوِى ٱلْـ
إِيمَانِ مِنَّا حَنِينَ ٱلنَّفْسِ لِلْوَطَنِ

عَلَى أَنَّنِى أَقُولُ : ٱللَّهُمَّ يَسِّرْ لِى مَا فِيهِ ٱلْخِيرَةُ لِى بِٱلْمَشَارِقِ أَوِ ٱلْمَغَارِبِ ، وَجُدْ لِى مِنْ فَضْلِكَ حَيْثُ حَلَلْتُ بِجَمِيعِ مَا فِيهِ رِضَاكَ مِنَ ٱلْمَآرِبِ ، بِجَاهِ نَبِيِّنَا وَشَفِيعِنَا ٱلْمَبْعُوثِ رَحْمَةً لِلْأَحْمَرِ وَٱلْأَسْوَدِ وَٱلْأَعَاجِمِ وَٱلْأَعَارِبِ ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ صَلَاةٍ وَأَزْكَى سَلَامٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ٱلْأَعْلَامِ ، وَٱلتَّابِعِينَ لَهُمْ

(١) أى أوطأنى مطايا العز : أى أركبنيها (٢) يصح أن يكون (بعائب)
(٣) لحى الرجل يلحاه لحيا : لامه وعذله

بِإِحْسَانٍ مَاذَرَّ[١] شَارِقٌ وَتَعَاقَبَ طَالِعٌ وَغَارِبٌ

ثُمَّ جَدَّ بِنَا السَّيْرُ فِي الْبَرِّ أَيَّامًا ، وَنَأَيْنَا عَنِ الْأَوْطَانِ الَّتِي أَطْنَبْنَا فِي الْحَدِيثِ حُبًّا لَهَا وَهُيَامًا ، وَكُنَّا عَنْ تَفَاعِيلِ فَضْلِهَا نِيَامًا ، إِلَى أَنْ رَكِبْنَا الْبَحْرَ ، وَحَلَلْنَا مِنْهُ بَيْنَ السَّحْرِ[٢] وَالنَّحْرِ ، وَشَاهَدْنَا مِنْ أَهْوَالِهِ ، وَتَنَافِي أَحْوَالِهِ ، مَالَا يُعَبَّرُ عَنْهُ ، وَلَا يُبْلَغُ لَهُ كُنْهٌ .

أَلْبَحْرُ صَعْبُ الْمَرَامِ جِدًّا ... لَا جُعِلَتْ حَاجَتِي إِلَيْهِ

أَلَيْسَ مَاءً وَنَحْنُ طِينٌ ... فَمَا عَسَى صَبْرُنَا عَلَيْهِ ؟

فَكَمِ اسْتَقْبَلَتْنَا أَمْوَاجُهُ بِوُجُوهٍ بَوَاسِرَ[٣] وَطَارَتْ إِلَيْنَا مِنْ شِرَاعِهِ عِقْبَانٌ كَوَاسِرُ ، قَدْ أَزْعَجَتْهَا أَكُفُّ الرِّيحِ مِنْ وَكْرِهَا ، كَمَا نَبَّهَتْ اللُّجَجَ مِنْ سُكْرِهَا ، فَلَمْ تُبْقِ شَيْئًا مِنْ قُوَّتِهَا وَمَكْرِهَا ، فَسَمِعْنَا لِلْجِبَالِ صَفِيرًا ، وَلِلرِّيَاحِ دَوِيًّا عَظِيمًا وَزَفِيرًا ، وَتَيَقَّنَّا أَنَّا لَا نَجِدُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا فَضْلَ اللهِ مُجِيرًا وَخَفِيرًا « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ » وَأَيِسْنَا مِنَ الْحَيَاةِ ، لِصَوْتِ تِلْكَ الْعَوَاصِفِ وَالْمِيَاهِ ،

(١) ذر النجم : طلع (٢) السحر : الرئة ، والنحر : موضع القلادة ، والمراد صرنا بين لجحه (٣) أي عوابس

فَلَا حَيَّا ٱللهُ ذَلِكَ ٱلْهَوْلَ ٱلْمُزْعِجَ وَلَا بَيَّاهُ[١]. وَٱلْمَوْجُ يُصَفِّقُ لِسَمَاعِ أَصْوَاتِ ٱلرِّيَاحِ فَيَطْرَبُ بَلْ وَيَضْطَرِبُ، فَكَأَنَّهُ مِنْ كَأْسِ ٱلْجُنُونِ يَشْرَبُ أَوْ شَرِبَ، فَيَبْتَعِدُ وَيَقْتَرِبُ. وَفِرَقُهُ تَلْتَطِمُ وَتَصْطَفِقُ، وَتَخْتَلِفُ وَلَا تَكَادُ تَتَّفِقُ، فَتَخَالُ ٱلْجَوَّ يَأْخُذُ بِنَوَاصِيهَا، وَتَجْذِبُهَا أَيْدِيهِ مِنْ قَوَاصِيهَا، حَتَّى كَادَ سَطْحُ ٱلْأَرْضِ يُكْشَفُ مِنْ خِلَالِهَا، وَعِنَانُ[٢] ٱلسُّحُبِ يُخْطَفُ فِي ٱسْتِقْلَالِهَا. وَقَدْ أَشْرَفَتِ ٱلنُّفُوسُ عَلَى ٱلتَّلَفِ مِنْ خَوْفِهَا وَٱعْتِلَالِهَا، وَآذَنَتِ ٱلْأَحْوَالُ بَعْدَ ٱنْتِظَامِهَا بِٱخْتِلَالِهَا. وَسَاءَتِ ٱلظُّنُونُ، وَتَرَاءَتْ فِي صُوَرِهَا ٱلْمَنُونُ. وَٱلشِّرَاعُ، فِي قِرَاعٍ، مَعَ جُيُوشِ ٱلْأَمْوَاجِ، ٱلَّتِي أُمِدَّتْ مِنْهَا ٱلْأَفْوَاجُ بِٱلْأَفْوَاجِ، وَنَحْنُ قُعُودٌ، كَدُودٍ عَلَى عُودٍ، مَا بَيْنَ فُرَادَى وَأَزْوَاجٍ. وَقَدْ نَبَتْ بِنَا مِنَ ٱلْقَلَقِ أَمْكِنَتُنَا، وَخَرِسَتْ مِنَ ٱلْفَرَقِ أَلْسِنَتُنَا، وَتَوَهَّمْنَا أَنَّهُ لَيْسَ فِي ٱلْوُجُودِ، أَغْوَارٌ[٣]

(١) بياه: أضحكه. وقيل بياه معناه بوأه منزلا، الا أنها لما جاءت مع حياه تركت الهمزة وأبدلت واوه ياء (٢) العنان بالكسر سير اللجام تمسك به الدابة، والعنان (بالفتح) السحاب ـ ولعل الكسر أنسب لتشبيه السحب في سيرها واستقلالها بالدابة (٣) أغوار: جمع غور: وهو المكان المنخفض. ونجود جمع نجد: وهو المكان المرتفع

وَلَا نُجُودٌ ، إِلَّا ٱلسَّمَاءُ ، وَٱلْمَاءُ ، وَذَلِكَ ٱلسَّفِينُ ، وَمَنْ فِي قَبْرِ جَوْفِهِ دَفِينٌ ، مَعَ تَرَقُّبِ هُجُومِ ٱلْعَدُوِّ ، فِي ٱلرَّوَاحِ وَٱلْغُدُوِّ ، لِاجْتِيَازِهِ عَلَى عِدَّةٍ مِنْ بِلَادِ ٱلْحَرْبِ ، دَمَّرَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ مَنْ فِيهَا وَأَذْهَبَ بِفَتْحِهَا عَنِ ٱلْمُسْلِمِينَ ٱلْكَرْبَ ، لَاسِيَّمَا مَالِطَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ ، ٱلَّتِي يَتَحَقَّقُ مَنْ خَلَصَ مِنْ مَعَرَّتِهَا أَنَّهُ أُمِدَّ بِتَأْيِيدٍ إِلَهِيٍّ وَمَعُونَةٍ . فَقَدِ ٱعْتَرَضَتْ فِي لَهَوَاتِ ٱلْبَحْرِ ٱلشَّامِيِّ شَجًا ، وَقَلَّ مَنْ رَكِبَهُ فَأَفْلَتَ مِنْ كَيْدِهَا وَنَجَا ، فَزَادَنَا ذَلِكَ ٱلْحَذَرُ ، ٱلَّذِي لَمْ يُبْقِ وَلَمْ يَذَرْ ، عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنْ هَوْلِ ٱلْبَحْرِ قَلَقًا ، وَأَجْرَيْنَا إِذْ ذَاكَ فِي مَيْدَانِ ٱلْإِلْقَاءِ بِالْيَدِ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ طَلَقًا[1] ، وَتَشَتَّتَتْ أَفْكَارُنَا فِرَقًا ، وَذُبْنَا أَسًى وَنَدَمًا وَفَرَقًا[2] ، إِذِ ٱلْبَحْرُ وَحْدَهُ لَا كَمِيٌّ[3] يُقَارِعُهُ ، وَلَا قَوِيٌّ يُصَارِعُهُ ، وَلَا شَكْلٌ يُضَارِعُهُ . لَا يُؤْمَنُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَلَا يَفْرُقُ بَيْنَ عَاطِلٍ وَحَالٍ . وَلَا بَيْنَ أَعْزَلَ وَشَاكِي[4] ، وَمُتَبَاكٍ وَبَاكٍ

ثَلَاثَةٌ لَيْسَ لَهَا أَمَانُ ٱلْبَحْرُ وَٱلسُّلْطَانُ وَٱلزَّمَانُ

---

(١) الطلق : الشوط الواحد فى جرى الخيل (٢) الفرق : الخوف

(٣) الكمى : الشجاع (٤) الشاكى : المدجج بالسلاح

فَكَيْفَ وَقَدِ ٱنْضَمَّ إِلَيْهِ خَوْفُ ٱلْعَدُوِّ ٱلْغَادِرِ ٱلْخَائِنِ ، ٱلْكَافِرِ ٱلْحَائِنِ[1] ، إِلَى أَنْ قَضَى ٱللهُ بِالنَّجَاةِ وَكُلُّ مَا أَرَادَ فَهُوَ ٱلْكَائِنُ ، وَإِنْ نَهَى عَنْهُ وَأَخْطَأَ ٱلْمَائِنُ[2] . فَرَأَيْنَا ٱلْبَرَّ وَكَأَنَّا قَبْلُ لَمْ نَرَهُ ، وَشُفِيَتْ بِهِ أَعْيُنُنَا مِنَ ٱلْمَرَهِ[3] ، وَحَصَلَ بَعْدَ ٱلشِّدَّةِ ٱلْفَرَجُ ، وَشَمِمْنَا مِنَ ٱلسَّلَامَةِ أَطْيَبَ ٱلْأَرَجِ ، فَيَالَهَا مِنْ نِعْمَةٍ كَشَفَتْ عَنْ وَجْهِهَا ٱلنِّقَابَ ، يَقِلُّ شُكْرًا لَهَا صَوْمُ ٱلْأَحْقَابِ[4] وَعِتْقُ ٱلرِّقَابِ . جَعَلَنَا ٱللهُ بِآيَاتِهِ مُعْتَبِرِينَ ، وَعَلَى طَاعَتِهِ مُصْطَبِرِينَ ، وَلَمْ نَخْلُ فِي ٱلْبَرِّ مِنْ مُعَانَاةِ خُطُوبٍ ، وَمُدَارَاةِ وُجُوهٍ لِلْمَتَاعِبِ ذَاتِ تَجَهُّمٍ وَقُطُوبٍ . فَكَمْ جُبْنَا مِنْهُ مَهَامِهَ فِيحًا ، وَمَسَحْنَا بِالْخُطَا مِنْهَا أَثِيرًا[5] وَصَفِيحًا[6] ، وَفَلَّيْنَا ٱلْفِجَاجَ[7] وَقَرَأْنَا مِنَ ٱلطُّرُقِ خُطُوطًا ذَاتَ ٱسْتِقَامَةٍ وَٱعْوِجَاجٍ ، وَقُلُوبُ ٱلرُّفْقَةِ مِنَ ٱلْفُرْقَةِ فِي ٱضْطِرَابٍ وَٱرْتِجَاجٍ ، وَرُبَّمَا عَمِيَتْ عَلَى ٱلْمُجْتَهِدِ ٱلْأَدِلَّةُ ٱلَّتِي يَحْصُلُ بِهَا

---

(١) أى الهالك (٢) أى الكاذب (٣) مرهت العين : فسدت لترك الكحل وابيضت حماليقها : تقول رجل أمره وامرأة مرهاء (٤) الأحقاب : الدهور (٥) الأثير عند الاقدمين : الفلك التاسع فهو على تشبيه المهامه بالفلك فى اتساعه ، أو الأثير من اثر السيف وهو فرنده ورونقه وديباجته ، وسيف مأثور فى متنه أثر ، ولعل هذا المعنى أنسب (٦) الصفيح . وجه كل شىء عريض ، والسيف العريض (٧) أى بحثناها وتعرفناها

عَلَى الْمَذْهَبِ الِاحْتِجَاجُ ، فَتَرَى الْأَنْفَاسَ تَعْثُرُ فِي زَفْرَةِ الْأَشْوَاقِ ، وَالْأَجْسَامَ قَدْ زُرَّتْ عَلَيْهَا مِنَ التَّعَبِ الْأَطْوَاقُ . هَذَا وَاللَّيْلُ بِصَفْحَةِ الْبَدْرِ مُرْتَابٌ ، وَقَدْ شُدَّتْ رِحَالٌ وَأَقْتَابٌ[١] ، وَزُمَّتْ رِكَابٌ[٢] ، وَرُفِعَتْ أَحْدَاجٌ ، وَفُرِيَتْ مِنَ الدَّعَةِ بِمُدْيَةِ النَّصَبِ أَوْدَاجٌ ، وَتَسَاوَى فِي السَّيْرِ نَهَارٌ مُشْرِقٌ وَلَيْلٌ مُقْمِرٌ أَوْدَاجٍ ، وَأُدِيمَ التَّأْوِيبُ[٣] وَالِإسْئَادُ ، وَحِمْلُ الْغُرْبَةِ قَدْ أَثْقَلَ وَآدَ[٤] ، ثُمَّ وَصَلْنَا بَعْدَ خَوْضِ بِحَارٍ ، يَدْهَشُ فِيهَا الْفِكْرُ وَيَحَارُ ، وَجَوْبِ فَيَافٍ مَجَاهِلَ ، يَضِلُّ فِيهَا الْقَطَا عَنِ الْمَنَاهِلِ ، إِلَى مِصْرَ الْمَحْرُوسَةِ فَشُفِينَا بِرُؤْيَتِهَا مِنَ الْأَوْجَاعِ ، وَشَاهَدْنَا كَثِيرًا مِنْ مَحَاسِنِهَا الَّتِي تَعْجِزُ عَنْ وَصْفِهَا الْقَوَافِي وَالْأَسْجَاعُ ، وَتَمَثَّلْنَا فِي بَدَائِعِهَا الَّتِي لَا نَسْتَوْفِيهَا ، بِقَوْلِ ابْنِ نَاهِضٍ فِيهَا :

شَاطِئُ مِصْرَ جَنَّةٌ ... مَا مِثْلُهَا فِي بَلَدِ

---

(١) جمع قتب وهو اكاف البعير . وقيل هو اكاف صغير على قدر سنام البعير . والاكاف للبعير كالبرذعة للحمار (٢) الركاب : الابل . واحدتها راحلة جمعها ركب وركابات وركائب (٣) التأويب : سير النهار لا تعريج فيه ، والاسآد سير الليل كله لا تعريس فيه (٤) آده الأمر : بلغ منه الجهد

لَا سِيَّمَا مُذْ زُخْرِفَتْ ‏ بِنِيلِهَا ٱلْمُطَّـرِدِ
وَلِلرِّيَاحِ فَوْقَهُ ‏ سَوَابِـغٌ(١) مِنْ زَرَدِ
مَسْرُودَةٌ(٢) مَا مَسَّهَا ‏ دَاوُدُهَا بِمِـبْرَدِ
سَائِلَةٌ وَهْوَ بِهَا ‏ يَرْعُدُ عَارِى ٱلْجَسَدِ
وَٱلْفُلْكُ(٣) كَٱلْأَفْلَاكِ بَيْـ ‏ ـنَ حَادِرٍ وَمُصْعِدِ

وَبِقَوْلِ آخَرَ :

أُنْظُرْ إِلَى ٱلنِّيلِ ٱلَّذِى ‏ ظَهَرَتْ بِهِ آيَاتُ رَبِّى
فَـكَأَنَّهُ فِى فَيْضِهِ ‏ دَمْعِى وَفِى ٱلْخَفَقَانِ قَلْبِى

وَبِقَوْلِ أَبِى ٱلْمَكَارِمِ ٱلْخَطِيرِ ٱلْمَعْرُوفِ بِٱبْنِ مَمَّاتِى(٤) فِى جَزِيرَتِهَا :

جَزِيرَةَ مِصْرٍ لَاعَدَتْكِ مَسَرَّةٌ
وَلَا زَالَتِ ٱللَّذَّاتُ فِيكِ ٱتِّصَالُهَا

فَـكَمْ فِيكِ مِنْ شَمْسٍ عَلَى غُصْنِ قَامَةٍ
يُمِيتُ وَيُحْيِي هَجْرُهَا وَوِصَالُهَا

(١) أى دروع . على تشبيه تجعدات الماء وبريقه بالدروع (٢) من السرد: وهو النسج والنظم (٣) أى السفن (٤) هو القاضى الأسعد أسعد بن الخطير المصرى الكاتب الشاعر كان ناظر الدواوين بالديار المصرية توفى بحلب سنة ٦٠٦

مَغَانِيكِ[1] فَوْقَ ٱلنِّيلِ أَضْحَتْ هَوَادِجًا
وَمُخْتَلِفَاتُ ٱلْمَوْجِ فِيكِ حِبَالُهَا

وَمِنْ أَعْجَبِ ٱلْأَشْيَاءِ أَنَّكِ جَنَّةٌ تُمَدُّ عَلَى أَهْلِ ٱلضَّلَالِ ظِلَالُهَا

لَعَلَّهُ أَرَادَ بِأَهْلِ ٱلضَّلَالِ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَى ٱلْمُسْتَوْلِينَ إِذْ ذَاكَ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ، وَتَذَكَّرْتُ فِي مِصْرَ قَوْلَ ٱلْقَاضِي ٱلْفَاضِلِ :

بِٱللهِ قُلْ لِلنِّيلِ عَنِّي إِنَّنِي لَمْ أَشْفِ مِنْ مَاءِ ٱلْفُرَاتِ غَلِيلَا
وَسَلِ ٱلْفُؤَادَ فَإِنَّهُ لِي شَاهِدٌ إِنْ كَانَ طَرْفِي بِٱلْبُكَاءِ بَخِيلَا
يَاقَلْبُ كَمْ خَلَّفْتَ ثَمَّ بُثَيْنَةً[2]
وَأَظُنُّ صَبْرَكَ أَنْ يَكُونَ جَمِيلَا[3]

وَقَوْلَ أَحْمَدَ بْنِ فَضْلِ ٱللهِ ٱلْعُمَرِيِّ :

لِمِصْرَ فَضْلٌ بَاهِرٌ بِعَيْشِهَا ٱلرَّغْدِ ٱلنَّضِرْ
فِي سَفْحِ رَوْضٍ يَلْتَقِي مَاءُ ٱلْحَيَاةِ وَٱلْخَضِرْ

وَقَوْلَ آخَرَ[4] :

كَأَنَّ ٱلنِّيلَ ذُو فَهْمٍ وَلُبٍّ لِمَا يَبْدُو لِعَيْنِ ٱلنَّاسِ مِنْهُ
فَيَأْتِي حِينَ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ وَيَمْضِي حِينَ يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ

(١) مغانيك : منازلك (٢) هي محبوبة جميل بن معمر (٣) فيه تورية لا تخفى
(٤) هو ناصر الدين ابن النقيب المتوفى سنة ٦٨٧ هـ

وَقَوْلَ آخَرَ :

وَلِلّٰهِ مَجْرَى النِّيلِ مِنْهُ إِذَا الصَّبَا

أَرَتْنَا بِهِ مِنْ مَرِّهَا عَسْكَرًا مَجْرَا(١)

بِشَطٍّ يَهُزُّ السَّمْهَرِيَّةَ(٢) ذُبَّلَا

وَمَوْجٍ يَهُزُّ الْبِيضَ هِنْدِيَّةً بُتْرَا(٣)

إِذَا مَدَّ(٤) حَاكَى الْوَرْدَ لَوْنًا وَإِنْ صَفَا

حَكَى مَاءَهُ لَوْنًا وَلَمْ يَحْكِهِ مَرًّا

وَقَوْلَ آخَرَ :

وَاهًا لِهَذَا النِّيلِ أَىُّ عَجِيبَةٍ ... بِكْرٍ بِمِثْلِ حَدِيثِهَا لَا يُسْمَعُ

يَلْقَى الثَّرَى(٥) فِى الْمَاءِ وَهُوَ مُسَلِّمٌ ... حَتَّى إِذَا مَا مَالَ عَادَ يُوَدِّعُ

مُسْتَقْبَلٌ مِثْلَ الْهِلَالِ فَدَهْرَهُ ... أَبَدًا يَزِيدُ كَمَا يَزِيدُ(٦) وَيَرْجِعُ

(١) الكثير العدد (٢) الرماح السمهرية: نسبة الى قين اسمه سمهر . وذبل جمع ذابل : وهو الرمح الدقيق (٣) السيوف الهندية : المصنوعة فى بلاد الهند. وبتر : جمع باتر :أى قاطع (٤) المد كثرة الماء أيام الزيادة، أى فى مدة الفيضان يحمر ماؤه فيشبه الورد ، فاذا صفا حكى ماء الورد صفاء ولم يحكه فى مروره أى ذهابه وحركته، فالنيل جار مطرد غير راكد (٥) أى الطمى والغرين ، والثرى التراب الندى (٦) لعير يدله

وَقَوْلَ ٱبْنِ ٱلنَّقِيبِ :

ٱلصَّبُّ مِنْ بَعْدِهِمُ مُفْرَدٌ وَدَمْعُهُ ٱلنِّيلُ وَتَعْلِيقُهُ
وَخَدُّهُ لَمَّا بَكَاهُمْ دَمًا مِقْيَاسُهُ وَٱلدَّمْعُ تَخْلِيقُهُ

وَقَوْلَ ٱلصَّفَدِيِّ :

سَقْيًا لِمِصْرَ وَمَا حَوَتْ مِنْ أُنْسِهَا وَأُنَاسِهَا
وَمَحَاسِنٍ فِي مَقْسِهَا(١) تَبْدُو وَفِي مِقْيَاسِهَا
وَمَسَرَّةٍ كَاسَاتُهَا تُجْلَى عَلَى أَكْيَاسِهَا
وَسُطُورِ قُرْطٍ خَطَّهَا ٱلْبَارِي عَلَى قِرْطَاسِهَا
وَدُمًى(٢) كَنَائِسِهَا وَلَا تَنْسَى ظِبَاءَ كِنَاسِهَا
وَلَطَافَةٍ بِجَلَالَةٍ تَبْدُو عَلَى جُلَّاسِهَا
وَنَوَاسِمٍ كُلُّ ٱلْمُنَى لِلنَّفْسِ فِي أَنْفَاسِهَا
وَمَرَاكِبٍ لَعِبَتْ بِهَا ٱلْأَمْوَاجُ فِي وَسْوَاسِهَا

وَقَوْلَ ٱبْنِ جَابِرٍ ٱلْأَنْدَلُسِيِّ :

مَا زِلْتُ أُسْنِدُ مِنْ مَحَاسِنِ أَرْضِهَا خَبَرًا صَحِيحًا لَيْسَ بِٱلْمَقْطُوعِ

---

(١) المقس: موضع كان بين يدى القاهرة على النيل (وكان قبل الاسلام يسمى أم دنين) وكان فيه حصن ومدينة قبل بناء الفسطاط ـ والمقس كان فى القديم يقعد عنده العامل على المكس فقلب وسمى المقس . ومقياسها : مقياس الروضة . ومركز مصر القديمة على نهر النيل (٢) دمى : جمع دمية وهى التماثيل الصغيرة

كَمْ مُرْسَلٍ مِنْ نِيلِهَا وَمُسَلْسَلٍ ... وَمُدَبَّجٍ مِنْ هَضْبِهَا الْمَرْفُوعِ

وَقَوْلَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدُونَ :

وَالنِّيلُ بَيْنَ الْجَانِبَيْنِ كَأَنَّمَا

صَدِئَتْ بِصَفْحَتِهِ صَفِيحَةُ[1] صَيْقَلٍ[2]

يَأْتِيكَ مِنْ كُدْرِ الزَّوَاخِرِ مَدُّهُ

بِمُمَسَّكٍ[3] مِنْ مَائِهِ وَمُصَنْدَلِ

فَكَأَنَّ ضَوْءَ الْبَدْرِ فِي تَمْوِيجِهِ ... بَرْقٌ تَمَوَّجَ فِي سَحَابٍ مُسْبَلِ

وَكَأَنَّ نُورَ السُّرْجِ مِنْ جَنَبَاتِهِ

زُهْرُ الْكَوَاكِبِ تَحْتَ لَيْلٍ أَلْيَلِ

مِثْلُ الرِّيَاضِ مُفَتَّقًا أَنْوَارُهُ ... تَبْدُو لِعَيْنٍ مُشَبِّهٍ وَمُمَثِّلِ

وَقَوْلَ ابْنِ الصَّاحِبِ :

فَرِحَ الْأَنَامُ بِنِيلِهِمْ ... إِذْ صَارَ أَحْمَرَ كَالشَّقِيقْ

وَتَبَرَّكُوا بِشُرُوقِهِ ... فَكَأَنَّهُ وَادِي الْعَقِيقْ[4]

(١) أي السيف العريض (٢) أي الذي يجلو السيوف و يصقلها (٣) أي بماء مزج مسكا وصندلا ، كناية عن كدرته بما خالطه من الطمى (٤) واد بقرب المدينة المنورة ، وفى لفظ العقيق تورية

وَقَوْلَ آخَرَ :

أُحْمَرَّ لِلنِّيلِ خَدٌّ حَتَّى غَدَا كَالشَّقِيقِ
وَقَدْ تَرَنَّمْتُ فِيهِ إِذْ صَارَ وَادِى الْعَقِيقِ

ثُمَّ شَمَّرْتُ عَنْ سَاعِدِ الْعَزْمِ بَعْدَ الْإِقَامَةِ بِمِصْرَ مُدَّةً قَلِيلَةً ، إِلَى الْمُهِمِّ الْأَعْظَمِ وَالْمَقْصِدِ الْأَكْبَرِ الَّذِى هُوَ سِرُّ الْمَطَالِبِ الْجَلِيلَةِ ، وَهُوَ رُؤْيَةُ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ ، وَالْعَلَمَيْنِ الْمُنِيفَيْنِ ، زَادَهُمَا اللهُ تَنْوِيهاً[١] ، وَبَلَّغَ النُّفُوسَ بِبَرَكَةِ مَنْ شَرُفَا بِهِ مَآرِبَ لَمْ تَزَلْ تَنْوِيهَا[٢] ، فَسَافَرْتُ فِى الْبَحْرِ إِلَى الْحِجَازِ ، رَاجِياً مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ فِى الْأَجْرِ الِانْتِجَازَ ، إِلَى أَنْ بَلَغْتُ جُدَّةَ ، بَعْدَ مُكَابَدَةِ خُطُوبٍ اتَّخَذْتُ لَهَا مِنَ الصَّبْرِ عُدَّةً ، فَحِينَ حَصَلَ الْقُرْبُ ، وَاكْتَحَلَتِ الْعَيْنُ بِإِثْمِدِ تِلْكَ التُّرْبِ ، تَرَنَّمْتُ بِقَوْلِ مَنْ قَالَ ، مُحَرِّضًا عَلَى الْوَخْدِ وَالْإِرْقَالِ[٣] :

بَدَا لَكَ الْحَقُّ فَاقْطَعْ ظَهْرَ بَيْدَاءِ وَاهْجُرْ مَقَالَةَ أَحْبَابٍ وَأَعْدَاءِ

---

(١) أى شهرة ورفعة صيت (٢) من النية (٣) الوخد والارقال : نوعان من السير السريع للابل

وَاْقْصِدْ عَلَى عَزْمَةٍ أَرْضَ اْلْحِجَازِ تَجِدْ
بُعْدًا عَنِ اْلسُّخْطِ فِي نُزْلِ اْلْأَوِدَّاءِ

وَقُلْ إِذَا نِلْتَ مِنْ أُمِّ اْلْقُرَى أَرَبًا
وَهْوَ اْلْوُصُولُ بِإِسْرَارٍ وَإِبْدَاءِ

يَامَكَّةَ اْللّٰهِ قَدْ مَكَّنْتِ لِي حَرَمًا
مُؤَمَّنًا لَسْتُ أَشْكُو فِيهِ مِنْ دَاءِ

فَمُذْ رَأَى اْلنَّازِحُ[1] اْلْمِسْكِينُ مَسْكَنَهُ
فِي قُطْرِكِ اْلرَّحْبِ لَمْ يُنْكَبْ بِأَرْزَاءِ[2]

شَوْقُ اْلْفُؤَادِ إِلَى مَغْنَاكِ مُتَّصِلٌ
شَوْقُ اْلرِّيَاضِ إِلَى طَلٍّ وَأَنْدَاءِ[3]

ثُمَّ أَنْشَدْتُ عِنْدَمَا بَدَتْ أَعْلَامُ اْلْبَيْتِ اْلْحَرَامِ ، قَوْلَ بعْضِ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ اْلشَّوْقُ وَاْلْغَرَامُ ، وَقَدْ بَلَغَ مِنْ أَمَانِيهِ اْلْمُوجِبَةِ بَشَائِرَهُ وَتَهَانِيَهُ اْلْمَرَامَ :

---

(١) النازح : المفارق لوطنه (٢) جمع رزء أى مصيبة
(٣) الانداء : جمع الندى ، وهو مايسقط فى الليل من بخار الماء المتكاثف

وَافَى ٱلْحَجِيجُ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ وَقَدْ
سَجَا[١] ٱلدُّجَى فَرَأَوْا نُورًا بِهِ بَزَغَا

عَجُّوا عَجِيجًا وَقَالُوا ٱللّٰهُ أَكْبَرُ مَا
لِلْجَوِّ مُؤْتَلِقًا بِالنُّورِ قَدْ صُبِغَا

قَالَ ٱلدَّلِيلُ أَلَا هَاتُوا بِشَارَتَكُمْ
فَمَنْ نَوَى كَعْبَةَ ٱلرَّحْمٰنِ قَدْ بَلَغَا

نَادَوْا عَلَى ٱلْعِيسِ بِالْأَشْوَاقِ وَٱنْتَحَبُوا
وَحَنَّ كُلُّ فُؤَادٍ نَحْوَهَا وَصَغَا[٢]

وَكُلُّ مَنْ ذَمَّ فِعْلًا نَالَ مَحْمَدَةً
فِي مَكَّةٍ وَمَحَا مَا قَدْ جَنَى وَبَغَى[٣]

وَلَمَّا وَقَعَ بَصَرِى عَلَى ٱلْبَيْتِ ٱلشَّرِيفِ وَكِدْتُ أَغِيبُ عَنِ ٱلْوُجُودِ ، وَٱسْتَشْعَرْتُ قَوْلَ ٱلْعَارِفِ بِاللّٰهِ ٱلشِّبْلِيِّ لَمَّا وَفَدَ إِلَى حَضْرَةِ ٱلْجُودِ :

قُلْتُ لِلْقَلْبِ إِذْ تَرَاءَى لِعَيْنِى رَسْمُ دَارٍ لَهُمْ فَهَاجَ ٱشْتِيَاقِى

---

(١) أى سكن الليل (٢) صغى : مال (٣) بغى : ظلم

هَـذِهِ دَارُهُمْ وَأَنْتَ مُحِبٌّ
مَا احْتِبَاسُ الدُّمُوعِ فِي الآمَاقِ ؟

وَالْمَغَانِي لِلصَّبِّ فِيهَا مَعَانٍ فَهِيَ تُدْعَى مَصَارِعَ الْعُشَّاقِ

حُلَّ عِقْدَ الدُّمُوعِ وَاحْلُلْ رُبَاهَا
وَاهْجُرِ الصَّبْرَ وَارْعَ حَقَّ الْفِرَاقِ

ثُمَّ أَكْمَلْتُ الْعُمْرَةَ ، وَدَعَوْتُ اللّٰهَ أَنْ أَكُونَ مِمَّنْ عَمَرَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ عُمُرَهُ ، وَذَلِكَ أَوَائِلَ الْقَعْدَةِ مِنْ عَامِ ثَمَانِيَةٍ وَعِشْرِينَ وَأَلْفٍ مِنَ الْهِجْرَةِ السَّنِيَّةِ ، وَأَقَمْتُ هُنَالِكَ مُنْتَظِرًا وَقْتَ الْحَجِّ الشَّرِيفِ ، وَمُتَفَيِّئًا ذَلِكَ الظِّلَّ الْوَرِيفَ ، وَمُقْتَطِفًا ثِمَارَ الْقُرَبِ الْجَنِيَّةِ ، إِلَى أَنْ جَاءَ الْأَوَانُ ، فَأَحْرَمْتُ بِالْحَجِّ مِنْ غَيْرِ تَوَانٍ ، وَحِينَ حَلَلْتُ مِمَّا بِهِ أَحْرَمْتُ ، نَوَيْتُ الإِقَامَهَ هُنَالِكَ وَأَبْرَمْتُ ، فَحَالَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ حَائِلٌ ، وَكُنْتُ حَرِيًّا[1] بِأَنْ أُنْشِدَ قَوْلَ الْقَائِلِ :

هَـذِي أَبَاطِحُ مَكَّةٍ حَوْلِي وَمَا جَمَعَتْ مَشَاعِرُهَا مِنَ الْحُرُمَاتِ

(١) حريا : جديرا

أَدْعُو بِهَا لَبَّيْكَ[١] تَلْبِيَةَ أُمْرِئٍ
يَرْجُو الْخَلَاصَ بِهَا مِنَ الْأَزَمَاتِ
نِلْتُ الْمُنَى بِمِنًى لِأَنِّى لَمْ أَخَفْ
بِالْخَيْفِ مِنْ ذَنْب أَحَالَ سِمَاتِي
وَعَرَفْتُ فِي عَرَفَاتَ أَنِّى نَاشِقٌ
لِلْعَفْوِ عَرْفًا عَاطِــرَ النَّسَمَاتِ

وَأَنْ أَتَمَثَّلَ فِي الْمَطَافِ ، إِذْ حَفَّتْنِي الْأَلْطَافُ ، بِقَوْلِ مَنْ رَبْعُهُ بِالتَّقْوَى مَشِيدٌ ، الْبَغْدَادِيِّ الشَّهِيرِ بِابْنِ رَشِيدٍ ،

عَلَى رَبْعِهِـمْ لِلّٰهِ بَيْتٌ مُبَارَكٌ
إِلَيْهِ قُلُوبُ النَّاسِ تَهْوِى[٢] وَتَهْوَاهُ
يَطُوفُ بِهِ الْجَانِي فَيُغْفَرُ ذَنْبُهُ ... وَيَسْقُطُ عَنْهُ جُرْمُهُ وَخَطَايَاهُ
وَكَمْ لَذَّةٍ أَوْ فَرْحَةٍ لِطَوَافِهِ ... فَلِلّٰهِ مَا أَحْلَى الطَّوَافَ وَأَهْنَاهُ

ثُمَّ قَصَدْنَا بَعْدَ قَضَاءِ تِلْكَ الْأَوْطَارِ طَيْبَةَ[٣] الشَّرِيفَةَ الَّتِي

---

(١) لبيك : اجابة لك بعد اجابة (٢) تهوى: تنزل، من هوى بمعنى هبط . وتهوى : أى تحب من هوى (٣) أى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

لهَا الْفَضْلُ عَلَى الْأَقْطَارِ ، وَاسْتَشْعَرْتُ قَوْلَ مَنْ أَنْشَدَ وَطَيْرُ عَزْمِهِ عَنْ أَوْ كَارِهِ قَدْ طَارَ:

حَمِدْتُ مُرَادِى إِذْ بَلَغْتُ مُرَادِى

بِأُمِّ الْقُرَى مُسْتَمْسِكاً بِعِمَادِى

وَمُذْ رَوِيَتْ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ غُلَّتِى فَلَسْتُ بِمُحْتَاجٍ لِمَاءِ ثِمَادِ[1]

فَلِلّٰهِ سُبْحَانَهُ الْحَمْدُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِى جَلَّتْ ، وَمِنَنِهِ الَّتِى نَزَلَتْ بِهَا النُّفُوسُ مَوَاطِنَ التَّشْرِيفِ وَحَلَّتْ ،

مَنْ يَهْدِهِ الرَّحْمَنُ خَيْرَ هِدَايَةٍ

يَحْلُلْ بِمَكَّةَ كَيْ يُتَاحَ[2] الْمَقْصِدَا

وَ إِذَا قَضَى مِنْ حَجِّهِ الْفَرْضَ انْثَنَى

يَشْفِى بِرُؤْيَةِ طَيْبَةٍ دَاءَ الصَّدَى[3]

وَكَانَ حَظِّى فِى هَذِهِ الْحَالِ ، تَذَكُّرَ قَوْلِ بَعْضِ الْوَشَّاحِينَ[4] مِنَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ، الَّذِينَ كَانَ لَهُمُ ارْتِحَالٌ إِلَى تِلْكَ

(١) جمع ثمد وهو الماء القليل الذى لامادة له ، أو الذى يظهر فى الشتاء ويذهب فى الصيف ، والثماد الحفر يكون فيها الماء القليل (٢) أى ينال ويعطى (٣) أى الظمأ (٤) الموشحات : مقطوعات شعرية على غير وزان بحور الشعر المعروفة ، وأول من ابتدعها الأندلسيون وأكثروا منها وأجادوا ، كما أكثروا من الأزجال والمواليا ، وتابعهم الشرقيون

ٱلْمَعَاهِدِ ٱلطَّاهِرَةِ، وَٱلْمَشَاهِدِ ٱلزَّاهِرَةِ، ٱلَّتِي تُشَدُّ إِلَيْهَا ٱلرِّحَالُ

يَا مَنْ لِعَبْدٍ لَهُ ٱفْتِقَارٌ إِلَى أَيَادٍ لَهُ جِسَامْ
فَضْلُكَ مُدْنٍ لِغَيْرِ مُدْنٍ[1] حَلَّ بِهَا سَيِّدُ ٱلْأَنَامْ

لَمْ يَهْفُ قَلْبِي لِحُبِّ لَيْلَى وَلَا سُعَادٍ وَلَا ٱلرَّبَابْ
لَاقَى شُجُونًا وَنَالَ وَيْلًا مَنْ هَامَ فِي ذَلِكَ ٱلْجَنَابْ
بَلْ مَالَ مِنِّي ٱلْفُؤَادُ مَيْلًا لِمَنْ لَهُ ٱلْحُبُّ لَا يُعَابْ
قَلْبِيَ وَٱللهِ مُسْتَطَارٌ مُذْ حَلَّ فِي بَيْتِهِ ٱلْحَرَامْ
ذِي ٱلْحِجْرِ وَٱلرُّكْنِ خَيْرِ رُكْنٍ وَزَمْزَمِ ٱلْخَيْرِ وَٱلْمَقَامْ

ذَابَتْ قُلُوبُ ٱلْمَطِيِّ عِشْقًا وَرَكْبِهَا وَٱسْتَوَى ٱلْمُرَادْ
إِلَى حَبِيبِ ٱلْقُلُوبِ حَقًّا ٱلْحَيُّ وَٱلْمَيْتُ وَٱلْجَمَادْ
إِلَى ٱلَّذِي لَيْسَ فِيهِ يَشْقَى مَنْ حُبُّهُ دَاخِلَ ٱلْفُؤَادْ
شَكَوْا وَقَدْ طَالَتِ ٱلسِّفَارُ هُمْ وَمَطَايَاهُمْ ٱلسَّقَامْ[2]
فَهْيَ قِسِيٌّ مِنَ ٱلتَّثَنِّي وَٱلْقَوْمُ مِنْ فَوْقِهَا سِهَامْ

وَلَسْتُ مِنْ سَكْرَتِي مُفِيقًا حَتَّى أَرَى حُجْرَةَ ٱلرَّسُولْ
فَإِنْ يُسَهَّلْ لِيَ ٱلطَّرِيقَا فَذَاكَ أَقْصَى مُنًى وَسُولْ[3]

---

(١) جمع مدينة . ومدن التي قبلها من أدنى الشيء: قربه : و (لغير) لعلها محرفة عن (لخير) كما يقتضيه المعنى والسياق (٢) السقام : مفعول شكوا (٣) السؤل : المطلوب

مَتَى تَرَى عَيْنِىَ ٱلْعَقِيقَا ... وَيَفْرَحُ ٱلْقَلْبُ بِالْوُصُولْ؟
كَمْ قُلْتُ وَٱلصَّبْرُ مُسْتَعَارْ ... لِلرَّكْبِ إِذْ غَادَرُوا ٱلْمَنَامْ
وَنَسْمَةُ ٱلشَّوْقِ حَرَّكَتْنِى ... وَزَادَ بِى ٱلْوَجْدُ وَٱلْغَرَامْ

قُومُوا فَقَدْ طَالَ ذَا ٱلْجُلُوسُ ... وَبَادِرُوا زَوْرَةَ ٱلْحَبِيبْ
تَاقَتْ[1] إِلَى طِيبَةَ ٱلنُّفُوسُ ... لَا عَيْشَ مِنْ دُونِهَا يَطِيبْ
لَاحَبَّذَا دُونَهَا ٱلْغُرُوسُ[2] ... وَٱلْمَاءُ وَٱلشَّادِنُ[3] ٱلرَّبِيبْ
وَحَبَّذَا ٱلرَّمْلُ وَٱلْقِفَارُ ... وَٱلْعُرْبُ فِى تِلْكُمُ ٱلْخِيَامْ
وَأُمُّ غَيْلَانَ[4] ظَلَّلَتْنِى ... وَٱلْأَيْكُ وَٱلْأَثْلُ وَٱلثُّمَامْ[5]

يَاطَيْبَةً حُزْتِ كُلَّ طِيبٍ ... بِسَيِّدٍ فِيكِ ذِى حُلُولْ
نِدَاءُ مُسْتَضْعَفٍ غَرِيبٍ ... فِى غُرِّ أَمْدَاحِهِ يَقُولْ
وَهْوَ مِنَ ٱلسَّامِعِ ٱلْمُجِيبِ ... لِمَدْحِهِ يَسْأَلُ ٱلْقَبُولْ
أَنْتَ ٱلْغِنَى لِى فَلَا ٱفْتِقَارْ ... وَأَنْتَ عِزِّى فَلَا أُضَامْ
مُسْتَمْسِكٌ مِنْكَ حُسْنُ ظَنِّى ... بِعُرْوَةٍ مَالَهَا ٱنْفِصَامْ

---

(١) أى اشتد شوقها (٢) جمع غرس : أى المغروس من شجر وزرع (٣) أى الظبى (٤) أم غيلان : شجر السمر (٥) الأيك : الشجر الكثير الملتف . والأثل من الطرفاء ، واحدته أثلة . والثمام : نبت ضعيف قد يسد به خصاص البيوت

بِسَـــيِّدِ ٱلْعَالَمِينَ أَجْمَعْ بِأَحْمَدَ ٱلْمُجْتَبَى[١] ٱلرَّسُولْ
وَمَنْ هُوَ ٱلشَّافِـعُ ٱلْمُشَفَّعْ فِي مَوْقِفِ ٱلْمَحْشَرِ ٱلْمَهُولْ
إِذْ لَا كَلَامٌ هُنَاكَ يُسْمَعْ لِلْغَـيْرِ وَٱلنَّاسُ فِي ذُهُولْ
إِذِ ٱلسَّمَاءُ لَهَا ٱنْفِطَارْ وَٱلشُّهْبُ مَنْثُورَةُ ٱلنِّظَامْ
كَذَا ٱلْجِبَالُ ٱنْثَنَتْ كَعِهْنٍ[٢] سَرِيعَةَ ٱلْمَرِّ كَٱلْغَمَامْ

يَا أَوَّلَ ٱلرُّسْلِ فِي ٱلْفَضِيلَهْ وَإِنْ تَأَخَّرْتَ فِي ٱلزَّمَنْ
شَفَاعَةً نِلْتَ مَعْ وَسِيلَهْ فَمَنْ يُضَاهِي عُلَاكَ مَنْ ؟
عَلَتْ بِكَ ٱلرُّتْبَةُ ٱلْجَلِيلَهْ وَطِبْتَ فِي ٱلسِّرِّ وَٱلْعَلَنْ
فَأَنْتَ مِنْ خَيْرِهِمْ خِيَارْ فَمَنْ يُضَاهِيكَ فِي ٱلْمَقَامْ؟
وَٱلرُّسْلُ نَالَتْ بِكَ ٱلتَّمَنِّي وَأَنْتَ بَدْرٌ لَهُمْ تَمَامْ

اَلْوَجْدُ قَدْ قَرَّ فِي فُؤَادِي فَمَا لِصَـبْرٍ بِهِ قَـرَارْ
وَلَاعِجِي[٣] صَاعِدُ ٱتِّقَادِ وَدَمْعُ عَيْنِي لَهُ ٱنْهِمَارْ[٤]
وَهَا أَنَا جِئْتُ مِنْ بِلَادِي لِطَيْبَةٍ أَبْتَغِي ٱلْجِوَارْ
فَحَبَّذَا تِلْـكُمُ ٱلدِّيَارُ وَٱلْمُصْطَفَى مِسْكَةُ ٱلْخِتَامْ

---

(١) المختار (٢) العهن: الصوف (٣) لاعج الشوق : حرقة القلب من الهوى
(٤) الانهمار : الانسكاب

عَلَيْهِ أَزْكَى ٱلصَّلَاةِ مِنِّي وَصَحْبِهِ ٱلْغُرِّ وَٱلسَّلَامْ

وَقَوْلِ أَبِي جَعْفَرٍ ٱلرُّعَيْنِيِّ ٱلْغَرْنَاطِيِّ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى وَهُوَ مِنَ ٱلتَّشْرِيعِ أَحَدِ أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ :

يَارَاحِلًا يَبْغِي زِيَارَةَ طَيْبَةٍ نِلْتَ ٱلْمُنَى بِزِيَارَةِ ٱلْأَخْيَارِ

حَيِّ ٱلْعَقِيقَ إِذَا وَصَلْتَ وَصِفْ لَنَا

وَادِي مِنًى يَا طَيِّبَ ٱلْأَخْبَارِ

وَإِذَا وَقَفْتَ لَدَى ٱلْمُعَرَّفِ دَاعِيًا زَالَ ٱلْعَنَا وَظَفِرْتَ بِٱلْأَوْطَارِ

وَلَمَّا مَنَّ ٱللهُ عَلَيْنَا بِٱلْحُلُولِ فِي ٱلْمَشَاهِدِ ٱلَّتِي قَامَ ٱلدِّينُ بِهَا وَظَهَرَ. وَٱلْمَعَاهِدِ ٱلَّتِي بَانَ ٱلْحَقُّ فِيهَا وَٱشْتَهَرَ. وَٱلْمَوَاطِنِ ٱلَّتِي هَزَمَ ٱللهُ تَعَالَى حِزْبَ ٱلشَّيْطَانِ فِيهَا وَقَهَرَ. وَنُصِرَتِ ٱلنُّبُوَّةُ وَعُضِدَتْ. وَقُطِعَتْ غُصُونُ ٱلْكُفْرِ وَحُصِدَتْ، وَرُصَّتْ[1] قَوَاعِدُ ٱلتَّوْحِيدِ وَنُضِّدَتْ. وَقَرَّتِ ٱلْعُيُونُ، وَقُضِيَتِ ٱلدُّيُونُ. أَنْشَدَ لِسَانُ ٱلْحَالِ، قَوْلَ بَعْضِ مَنْ جِيدُهُ بِمَحَاسِنِ طَيْبَةَ حَالٍ[2] :

---

(١) يريد بقوله رصت ونضدت : وضع دعائم الدين الاسلامي وتثبيت قواعده . ورص المتاع وتنضيده : وضع بعضه بجانب بعض على نظام ومثاكله، ورص البنيان أحكمه وجمعه وضم بعضه الى بعض، ومنه « كأنهم بنيان مرصوص » (٢) من التحلي وهو التزين

يَا مَنْ بِهِ طَيْبَةٌ طَابَتْ حُـلًى وَعُـلًا
وَمَنْ بِتَشْرِيفِهِ قَـدْ شُرِّفَ الْعَرَبُ

يَا أَحْمَدُ الْمُصْطَفَى قَـدْ جِئْتُ مِنْ بَلَدٍ
قَاصٍ[1] وَلِى خَلَدٌ[2] قَاسٍ وَلِى أَرَبُ[3]

وَقَدْ دَهَتْنِى ذُنُوبٌ قُلْتُ إِذْ عَظُمَتْ
لِلّٰهِ مِنْهَا وَطَـهَ الْمُرْتَجَى الْهَرَبُ

وَنَسِينَا بِمُشَاهَدَةِ ذَلِكَ الْجَنَابِ مَا كُنَّا فِيهِ . وَسَبَقَ الدَّمْعُ الَّذِى لَا يُعَارِضُ الْفَرَحَ وَلَا يُنَافِيهِ

أَيُّهَا الْمُغْرَمُ الْمَشُوقُ هَنِيئًا ... مَا أَنَالُوكَ مِنْ لَذِيذِ التَّلَاقِى
قُلْ لِعَيْنَيْكَ تَهْمِلَانِ[4] سُرُورًا ... طَالَمَا أَسْعَدَاكَ يَوْمَ الْفِرَاقِ
وَاجْمَعِ الْوَجْدَ وَالسُّرُورَ ابْتِهَاجًا ... وَجَمِيعَ الْأَشْجَانِ وَالْأَشْوَاقِ
وَأْمُرِ الْعَيْنَ أَنْ تَفِيضَ انْهِمَالًا ... وَتُوَالِى بِدَمْعِهَا الْمُهَرَاقِ

---

(١) بعيد (٢) الخلد: القلب والضمير . تقول دار هذا الأمر فى خلدى : أى فى عقلى ونفسى . ومقر العقل القلب ، قال تعالى « أفلم يسير وافى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » (٣) الأرب : الحاجة والمطلب (٤) همل المطر : هطل . يريد بكاء السرور . قال الشاعر :

هجم السرور على حتى انه ... من فرط ما قد سرنى أبكانى
ياعين قد صار البكا لك عادة ... تبكين فى فرح وفى أحزان

هَـذِهِ دَارُهُمْ وَأَنْتَ مُحِبٌّ　　مَا بَقَاءِ الدُّمُوعِ فِي الْآمَاقِ

وَمِلْنَا عَنِ الْأَكْوَارِ (١)، وَثَمِلْنَا (٢) مِنْ عَرْفِ تِلْكَ الْأَنْجَادِ وَالْأَغْوَارِ (٣)، وَتَمَلَّيْنَا مِنْ هَاتِيكَ الْأَنْوَارِ، وَتَخَلَّيْنَا عَنِ الْأَغْيَارِ (٤)، وَتَحَلَّيْنَا بِحُلَى الْأَخْيَارِ، وَكَيْفَ لَا وَطَيْبَةُ مَرْكَزٌ لِلزُّوَّارِ؟

إِذَا لَمْ تَطِبْ فِي طَيْبَةٍ عِنْدَ طَيِّبٍ
بِهِ طَيْبَةٌ طَابَتْ فَأَيْنَ تَطِيبُ؟

وَإِنْ لَمْ يُجِبْ فِي أَرْضِهَا رَبُّنَا الدُّعَا
فَفِي أَيِّ أَرْضٍ لِلدُّعَاءِ يُجِيبُ؟

أَيَا سَاكِنِي أَكْنَافِ (٥) طَيْبَةَ كُلُّكُمْ
إِلَى الْقَلْبِ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ حَبِيبُ

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ عَالِمِ الْأَنْدَلُسِ الْمَالِكِيِّ اللَّبِيبِ، عَبْدِ الْمَلِكِ السُّلَمِيِّ الْمَشْهُورِ بِابْنِ حَبِيبٍ،

لِلَّهِ دَرُّ عِصَابَةٍ صَاحَبْتُهَا　　نَحْوَ الْمَدِينَةِ تَقْطَعُ الْفَلَوَاتِ

---

(١) جمع كور: وهو الرحل (٢) ثمل: من باب طرب: سكر (٣) جمع غور: الوهاد، وما انخفض من الأرض. والنجد ما ارتفع منها (٤) جمع غير: السوى (٥) جمع كنف: ما حولها وما يكتنفها

وَمَهَامِهٍ(١) قَدْ جُبْتُهَا وَمَفَاوِزٍ(٢) مَازِلْتُ أَذْكُرُهَا بِطُولِ حَيَاتِي

حَتَّى أَتَيْنَا الْقَبْرَ قَبْرَ مُحَمَّدٍ خَصَّ الْإِلَهُ مُحَمَّدًا بِصِلَاتِ(٣)

خَيْرَ الْبَرِيَّةِ وَالنَّبِيَّ الْمُصْطَفَى هَادِي الْوَرَى لِطَرَائِقٍ لِنَجَاةِ

لَمَّا وَقَفْتُ بِقُرْبِهِ لِسَلَامِهِ

جَادَتْ دُمُوعِي وَاكِفَ(٤) الْعَبَرَاتِ

وَرَأَيْتُ حُجْرَتَهُ وَمَوْضِعَهُ الَّذِي

قَدْ كَانَ يَدْعُو فِيهِ فِي الْخَلَوَاتِ

مَعْ رَوْضَةٍ قَدْ قَالَ فِيهَا إِنَّهَا مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَوْضَةِ الْجَنَّاتِ

وَبِمَنْزِلِ(٥) الْأَنْصَارِ وَسْطَ قِبَابِهِمْ

بَيْتُ الْهِدَايَةِ كَاشِفُ الْغَمَرَاتِ

وَبِطَيْبَةٍ طَابُوا وَنَالُوا رَحْمَةً

مَغْنَى الْكِتَابِ وَمُحْكَمِ الْآيَاتِ

---

(١) جمع مهمه : وهو الفلاة الواسعة (٢) جمع مفازة : الصحراء المهلكة ، سميت مفازة رجاء أن يفوز قاطعها بالسلامة ، كما تسمى القافلة قافلة وهي ذاهبة رجاء أن تذهب ثم تقفل أي ترجع (٣) جمع صلة : وهي العطية (٤) وكف المطر والدمع : قطر وسال قليلا قليلا (٥) المنزل المأهول بأهله الذي هبط اليه جبريل بالقرآن

وَ بِقَبْرِ حَمْزَةَ[١] وَالصَّحَابَةِ حَوْلَهُ فَاضَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ مُنْهَمِرَاتٍ

سَقْيًا لِتِلْكَ مَعَاهِدًا شَاهَدْتُهَا وَشَهِدْتُهَا بِالْخَطْرِ وَاللَّحَظَاتِ

لَا زِلْتُ زَوَّارًا لِقَبْرِ نَبِيِّنَا وَمَدِينَةٍ زَهْرَاءِ بِالْبَرَكَاتِ

صَلَّى الْإِلَهُ عَلَى النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى

هَادِي الْبَرِيَّةِ كَاشِفِ الْكُرُبَاتِ

وَعَلَى ضَجِيعَيْهِ[٢] السَّلَامُ مُرَدَّدًا

مَا لَاحَ نُورُ الْحَقِّ فِي الظُّلُمَاتِ

وَقَوْلِ كَمَالِ الدِّينِ نَاظِرِ قُوصٍ :

أَنِخْ هَـذِهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ يَثْرِبُ[٣]

فَبُشْرَاكَ قَدْ نِلْتَ الَّذِي كُنْتَ تَطْلُبُ

فَعَفِّرْ بِهَذَا التُّرْبِ وَجْهَكَ إِنَّهُ

أَحَقُّ بِهِ مِنْ كُلِّ طِيبٍ وَأَطْيَبُ

وَقَبِّلْ رُبُوعًا حَوْلَهَا قَدْ تَشَرَّفَتْ

بِمَنْ جَاوَرَتْ وَالشَّيْءُ بِالشَّيْءِ يُحْبَبُ

(١) عم المصطفى عليه الصلاة والسلام (٢) أبى بكر الصديق وعمر رضوان الله عليهما (٣) اسم المدينة المنورة

وَسَكِّنْ فُؤَادًا لَمْ يَزَلْ بِاشْتِيَاقِهِ
إِلَيْهَا عَلَى جَمْرِ الْغَضَى(١) يَتَقَلَّبُ
وَكَفْكِفْ دُمُوعًا طَالَمَا قَدْ سَفَحْتَهَا
وَبَرِّدْ جَوًى نِيرَانُهُ تَتَلَهَّبُ

وَقَوْلِ الرُّعَيْنِيِّ الْغَرْنَاطِيِّ :

هَـذِهِ رَوْضَةُ الرَّسُولِ فَدَعْنِي
أَبْذُلِ الدَّمْعَ فِي الصَّعِيدِ(٢) السَّعِيدِ
لَا تَلُمْنِي عَلَى انْسِكَابِ دُمُوعِي
إِنَّمَا صُنْتُهَا لِهَذَا الصَّعِيـــدِ

وَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى سَيِّدِ الْأَنَامِ، عَلَيْهِ مِنَ اللهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ ، ذُبْتُ حَيَاءً وَخَجَلًا ، لِمَا أَنَا عَلَيْـهِ مِنِ ارْتِكَابِ مَا يَقْتَضِي وَجَلًا(٣) ، غَيْرَ أَنِّي تَوَسَّلْتُ بِجَاهِهِ

---

(١) شجر يتخذ وقودا حار الجمر. قال ابن الفارض :

لو قال تيهاقف على جمر الغضا   لوقفت ممتثلا ولم أتوقف

وقال البحترى :

فسقى الغضا والنازليه وان همو   شبوه بين جوانح وقلوب

(٢) التراب . وفى التنزيل « فتيمموا صعيدا طيبا » (٣) الوجل: الخوف

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَنْ أَكُونَ مِمَّنْ وَضَحَ لَهُ وَجْهُ الصَّفْحِ وَجَلَا[1] ،

إِلَيْكَ أَفِرُّ مِنْ زَلَلِي فِرَارَ الْخَائِفِ الْوَجِلِ
وَكَانَ مَزَارُ قَبْرِكَ بِالْـــمَدِينَةِ مُنْتَهَى أَمَلِي
فَوَفَّى اللهُ مَا طَمَحَتْ لَهُ نَفْسِي بِلَا خَلَلِ
فَخُذْ بِيَدَيْ غَرِيقٍ فِي بِحَارِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ
وَهَبْ لِي مِنْكَ عَارِفَةً[2] تُعَرِّفُ مَا تَنَكَّرَ لِي
وَتَهْدِينِي إِلَى رَشَدِي وَتَمْنَعُنِي مِنَ الزَّلَلِ[3]
وَتَحْمِلُنِي عَلَى سَنَنٍ[4] يُؤَمِّنُنِي مِنَ الْوَجَلِ
فَأَنْتَ دَلِيلُ مَنْ عَمِيَتْ عَلَيْهِ مَسَالِكُ السُّبُلِ
وَإِنَّكَ شَافِعٌ بَرٌّ وَمَوْئِلُنَا[5] مِنَ الْوَهَلِ[6]
وَإِنَّكَ خَيْرُ مُبْتَعَثٍ وَإِنَّكَ خَاتَمُ الرُّسُلِ
فَيَا أَزْكَى الْوَرَى شَرَفًا وَشَافِيهِمْ مِنَ الْعِلَلِ
وَيَا أَنْدَى الْأَنَامِ يَدًا وَأَكْرَمَ نَاصِرٍ وَوَلِي
نِدَاءَ مُقَصِّرٍ وَجِلٍ بِثَوْبِ الْفَقْرِ مُشْتَمِلِ

(١) جلاله الأمر : وضح (٢) العارفة : العطية والاحسان واسم ما تبذله وتسديه ، وجمعها عوارف (٣) أى العثار (٤) السنن : الطريق (٥) الموئل : المرجع والمعاد (٦) أى شدة الخوف

عَلَى جَدْوَاكَ مُعْتَمَدِي فَأَنْقِذْنِي مِنَ الدَّخَلِ (١)
وَأَلْحِقْنِي بِجَنَاتٍ لَدَى دَرَجَاتِهَا الْأُوَلِ
بِصِدِّيقٍ (٢) وَفَارُوقٍ (٣) وَعُثْمَانَ الرِّضَى وَعَلِي
فَأَنْتَ مَلَاذُ مُعْتَصِمٍ وَأَنْتَ عِمَادُ مُتَّكِلِ
عَلَيْكَ صَلَاةُ رَبِّكَ جَلَّ م فِي الْغَدَوَاتِ وَالْأُصُلِ

وَمُذْ شَمِمْنَا (٤) مِنْ أَرَجِ تِلْكَ الْأَرْجَاءِ الذَّاكِيَةِ، وَاسْتَضَأْنَا بِسُرُجِ تِلْكَ الْأَضْوَاءِ الزَّاكِيَةِ، ظَهَرَ مِنَ الشَّوْقِ مَا كَانَ بَطَنَ، وَلَمْ يَخْطُرْ بِبَالِنَا سَكَنٌ وَلَا وَطَنٌ، وَيَا سَعَادَةَ مَنْ أَقَامَ بِتِلْكَ الْبِقَاعِ الشَّرِيفَةِ وَقَطَنَ (٥)

مَرَّ النَّسِيمُ بِرَبْعِهِمْ فَتَلَذَّذَا
حَتَّى كَأَنَّ النَّشْرَ (٦) صَارَ لَهُ غِذَا

فَصَحَا وَصَحَّ وَصَاحَ لَا أَشْكُو أَذَى
قُلْ لِلصَّبَا مَاذَا حَمَلْتِ مِنَ الشَّذَا (٧)

أَمَسِسْتِ طِيباً أَمْ عَلَاكِ عَبِيرُ

---

(١) دخل أمر فلان دخلا : فسد داخله (٢) أبى بكر رضى الله عنه
(٣) عمر بن الخطاب رضى الله عنه (٤) بابه نصر وعلم (٥) أى أقام
(٦) النشر : العرف والأرج (٧) أى العرف أيضا

يَـٰأَيُّهَا ٱلْحَادِى ٱلَّذِى مِنْ وَسْمِهِ   قَصْدُ ٱلْحَبِيبِ وَأَنْ يُلِمَّ بِرَسْمِهِ
هَذِى مَنَازِلُهُ فَزَمْزِمْ[1] بِٱسْمِهِ   بِأَبِى ٱلَّذِى لَمْ تَذْوِ زَهْرَةُ جِسْمِهِ
لَـكِنَّهُ غَضُّ ٱلْجَمَالِ نَضِيرُ

لِلّٰهِ شَوْقٌ قَـدْ تَجَاوَزَ حَدَّهُ   أَوْفَى عَلَى ٱلصَّبْرِ ٱلْمَشِيدِ فَهَدَّهُ
يَا نَاشِقَ ٱلْـكَافُورِ لَا تَتَعَدَّهُ   طُوبَى لِمُشْتَاقٍ يُعَفِّرُ خَدَّهُ
فِى رَوْضَةِ ٱلْهَادِى إِلَيْهِ يُشِيرُ

فَهُنَاكَ يَبْذُلُ فِى ٱلتَّوَسُّلِ وُسْعَهُ
وَيُصِيخُ[2] نَحْوَ خَطِيبِ طَيْبَةَ سَمْعَهُ
وَيُرِيقُ فَوْقَ حَصَى ٱلْمُصَلَّى دَمْعَهُ
وَيَرَى مَعَالِمَ مَنْ يُحِبُّ وَرَبْعَهُ
وَمُحَمَّدٌ لِلْعَالَمِينَ بَشِيرُ

صَلَّى عَلَيْهِ ٱللهُ خَـيْرَ صَلَاتِهِ   وَحَبَا مَعَالِيَهُ جَلِيلَ صِلَاتِهِ[3]
مَاحَنَّ ذُو ٱلْأَشْوَاقِ فِى حَالَاتِهِ   وَأَتَى مَغَانِيَـهُ عَلَى عِـلَّاتِهِ
فَأُتِيحَ[4] حُسْنَ ٱلْخَتْمِ وَهْوَ قَرِيرُ

---

(١) زمزم : ترنم (٢) أصاخ : أنصت وأصغى وأمال (٣) أى عطاياه
(٤) أعطى ومنح ، وقد تـكون فأبيج

وَوَقَفْنَا بِبَابِ طَلَبِ الْآمَالِ خَاشِعِينَ، وَتَوَسَّلْنَا إِلَى اللهِ بِذَلِكَ الْمَقَامِ الْعَلِيِّ خَاضِعِينَ، وَغَبَطْنَا قَوْمًا سَكَنُوا هُنَالِكَ فَكَانُوا لِخُدُودِهِمْ مَتَى شَاءُوا عَلَى تِلْكَ الْأَعْتَابِ وَاضِعِينَ.

أَكْرِمْ بِعَبْدٍ نَحْوَ طَيْبَةَ مُنْتَدِى مُتَوَسِّلٍ مُسْتَشْفِعٍ مُسْتَرْشِدِ
يَفْلِي[1] الْفَلَاةَ لَهَا بِعَزْمٍ أَيِّدِ[2] وَافَى إِلَى قَبْرِ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ
وَلِرَبْعِهِ الْأَسْمَى يَرُوحُ وَيَغْتَدِي

أَزْجَاهُ[3] صَادِقُ حُبِّهِ الْمُتَمَكِّنِ
وَحَدَاهُ سَائِقُ عَزْمِهِ الْمُتَعَيِّنِ

فَحَكَى لَدَى شَجْوٍ حَمَامَ الْأَغْصُنِ
هَزَجًا[4] يُرَدِّدُ فِيهِ صَوْتَ مُلَحِّنِ
وَيَعُدُّ لِلْإِطْرَابِ صَوْتَ الْمُنْشِدِ

وَيَقُولُ جِئْتُ بِعَزْمَةٍ نَزَّاعَةٍ وَنَهَضْتُ وَالدُّنْيَا تَمُرُّ كَسَاعَةٍ
لِمَحَلِّ أَحْمَدَ قَائِلًا بِإِذَاعَةٍ هَـذَا النَّبِيُّ الْمُرْتَجَى لِشَفَاعَةٍ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ ذَاكَ الْمَشْهَدِ

---

(١) فلى الأمر: قطعه وتتبعه، و بحثه. وهو مجاز كقولهم فليت الشعر اذا تدبرته و بحثت عن أسراره واستخرجت معانيه وغريبه (٢) أى قوى (٣) أى ساقه (٤) هزج للغنى، من باب طرب، هزجا: ترنم وأنشد الهزج. يقال: له هزج مطرب

هَذَا ٱلرَّءوفُ بِجَارِهِ وَنَزِيلِهِ هَــذَا سِرَاجُ ٱللهِ فِي تَنْزِيلِهِ
هَذَا ٱلَّذِي لَا رَيْبَ فِي تَفْضِيلِهِ هَذَا حَبِيبُ ٱللهِ وَٱبْنُ خَلِيلِهِ(١)

هَذَا ٱبْنُ بَانِي ٱلْبَيْتِ أَوَّلِ مَسْجِدِ

هَذَا ٱلَّذِي ٱصْطَفَتِ ٱلنُّبُوَّةُ خِيمَهُ(٢)

هَذَا ٱلَّذِي ٱعْتَامَ(٣) ٱلْهُدَى تَقْدِيمَهُ

هَذَا ٱلَّذِي نُسْقَى غَــدًا تَسْنِيمَهُ

هَذَا ٱلَّذِي جِبْرِيلُ كَانَ خَدِيمَهُ

فِي حَضْرَةِ ٱلتَّشْرِيفِ أَزْكَى مَصْعَدِ

هَذَا ٱلَّذِي شَهِدَ ٱلْوُجُودُ بِخَصِّهِ بِمَزِيَّةِ ٱلتَّفْضِيلِ مِنْ مُخْتَصِّهِ

وَأَبَانَهُ مِنْ وَحْيِــهِ فِي نَصِّهِ

هَذَا ٱلَّذِي ٱرْتَفَعَ ٱلْبُرَاقُ(٤) بِشَخْصِهِ

فِي لَيْلَةِ ٱلْإِسْرَاءِ أَشْرَفِ مَشْهَدِ

---

(١) يريد أنه عليه الصلاة والسلام من ولد اسماعيل أبى العرب ابن خليل الله ابراهيم عليهما السلام (٢) الخيم : الطبيعة والسجية . قال حاتم الطائى :

ومن يبتدع ماليس من خيم نفسه يدعه ويغلبه على النفس خيمها

(٣) اعتام الرجل اعتياما : اختار (٤) البراق: دابة فوق الحمار ودون البغل ركبها المصطفى عليه السلام والسلام ليلة الاسراء

هَذَا الَّذِى غَدَتِ الطُّلُولُ حَدِيقَةً

بِجِوَارِهِ وَغَدَتْ تَرُوقُ أَنِيقَةً

هَذَا الْمُكَمَّلُ خِلْقَةً وَخَلِيقَةً هَذَا الَّذِى سَمِعَ النِّدَاءَ حَقِيقَةً

وَدَنَا وَلَمْ يَكُ قَبْلَ ذَاكَ بِمُبْعَدِ(١)

فَهُنَاكَ كَمْ رُسُلٍ بِهِ تَتَوَسَّلُ وَعَلَى حِمَاهُ لَدَى الْمَعَادِ يُعَوَّلُ؟

يَا أَرْحَمَ الرُّحَمَاءِ أَنْتَ الْمَوْئِلُ يَا خَاتَمَ الْإِرْسَالِ أَنْتَ الْأَوَّلُ

فَتَرَقَّ فِى أَعْلَى الْمَكَارِمِ وَاصْعَدِ

اللهُ رَفَّعَ فِى سُرَاهُ مَنَارَهُ وَأَبَانَ فِى السَّبْعِ الْعُلَا أَنْوَارَهُ

فَقَفَتْ(٢) مَلَائِكَةُ السَّمَا آثَارَهُ وَأَرَاهُ جَنَّتَهُ هُنَاكَ وَنَارَهُ

فَمُؤَبَّدٌ(٣) وَمُخَلَّدٌ(٤) لِمُخَلَّدِ

كَمْ ذَادَ مِنْ وَجَلٍ وَجَلَّى ظُلْمَةً

وَامْتَنَّ بِالرُّحْمَى وَمَتَّنَ(٥) حُرْمَةً

(١) بضم الميم (اسم مفعول من أبعد) : ويصح أن يكون بفتحها اسم مكان من البعد ، كمسمع فى قول الشاعر :

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعى فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

أى فأنت بمكان تراك فيه سعاد وتسمعك ، فمرأى ومسمع اسما مكان من الرؤية والسمع (٢) قفاه واقتفاه : تبعه (٣) مؤبد أى فى النار (٤) مخلد فى دار الخلد ، ولعله يريد بالمؤبد والمخلد الجنة والنار وأنهما دائمتان لا نهاية لهما (٥) أى قوى

لمَّا دَجَا أُفْقُ ٱلضَّلَالَةِ دُهْمَةً بَعثَ ٱلْإِلٰهُ بِهِ لِيَرْحَمَ أُمَّةً

لَوْلَاهُ كَانَتْ بِالضَّلَالَةِ تَرْتَدِى

حَازَ ٱلشُّفُوفَ[1] فَكُلُّ خَلْقٍ دُونَهُ

فَالْغَيْثُ يَسْأَلُ إِذْ يَسِيلُ يَمِينَهُ

وَٱلشَّمْسُ تَسْتَهْدِى ٱلشُّرُوقَ جَبِينَهُ

وَٱللهُ فَضَّلَهُ وَأَظْهَرَ دِينَـــهُ

وَوَفَى لَنَا فِيهِ بِصِدْقِ ٱلْمَوْعِدِ

نُطْقٍ يُغَادِى ذِكْرَهُ وَيُرَاوِحُ وَبِهِ يُنَافِجُ مِسْكَهُ وَيُنَافِحُ[2]

تُعْيِي ٱللِّسَانَ مَحَامِدٌ وَمَمَادِحُ طُوبَى لِمَنْ قَدْ عَاشَ وَهْوَ يُكَافِحُ

عَنْهُ يُنَاضِلُ بِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ

هُوَ صَفْوَةُ ٱلْعَرَبِ ٱلْأُلَى أَحْسَابُهُمْ

أَسْيَافُهُمْ قُرِنَتْ بِهَا أَسْبَابُهُمْ

فَهُمُ لُبَابُ ٱلْمَجْدِ وَهْوَ لُبَابُهُمْ مِنْ آلِ بَيْتٍ لَمْ تَزَلْ أَنْسَابُهُمْ

تُنْبِي لَهُمْ عَنْ طِيبِ عُنْصُرِ مَوْلِدِ

شَرَفُ ٱلنُّبُوَّةِ قَدْ رَسَا فِى أَهْلِهَا وَسَمَا عَلَى ٱلزُّهْرِ ٱلْعُلَا بِمَحَلِّهَا

---

(١) الشفوف : جمع شف وهوالفضل والربح والزيادة (٢) نفجت الريح اذا جاءت بقوة ، والنافجة الريح تأتى بشدة ، والنافجة وعاء المسك ، و يقال : نافجة نافحة ونوافج نوافح اذا فاح شذاها وتضوع أرجها

سَاقَ ٱلسَّوَابِقَ لِلْفَخَارِ بِرُسْلِهَا

نَطَقَ ٱلْكِتَابُ كَمَا عَلِمْتَ بِفَضْلِهَا

وَقَضَى بِهِ نَصُّ ٱلْحَدِيثِ ٱلْمُسْنَدِ

فَوْقَ ٱلسِّمَاكِ تَوَطَّنَتْ وَتَوَطَّدَتْ

وَتَفَرَّدَتْ بِالْمُصْطَفَى وَتَوَحَّدَتْ

فَهِيَ ٱلْخُلَاصَةُ صُفِّيَتْ فَتَجَرَّدَتْ

مِنْ مَعْدَنٍ فِيهِ ٱلرِّسَالَةُ قَدْ بَدَتْ

مِنْ عَصْرِ آدَمِنَا لِعَصْرِ مُحَمَّدِ

طَالُوا فَلَمْ يَبْقُو الِمَجْدِ مَصْعَدَا صَالُوا فَفِي أَيْمَانِهِمْ حَتْفُ ٱلْعِدَا

سُئِلُوا فَهُمْ لِعُفَاتِهِمْ[1] غَيْثُ ٱلْجَدَا

أَهْلُ ٱلسِّقَايَةِ[2] وَٱلرِّفَادَةِ[3] وَٱلنَّدَى

وَٱلْكَعْبَةِ ٱلْبَيْتِ ٱلْحَرَامِ ٱلْمَقْصِدِ

الْمُطْعِمُونَ وَقَدْ طَوَى أَلَمُ ٱلطَّوَى[4]

النَّاهِضُونَ إِذَا ٱلصَّرِيخُ لَهُمْ نَوَى

---

(١) جمع عاف : وعفاه يعفوه قصد طالبا معروفه وفضله (٢) سقاية الحجيج (٣) الرفادة : شيء كانت تترافد به قريش فى الجاهلية تخرج فيما بينها مالا تشترى به للحاج طعاما وزبيبا للنبيذ ، وكانت الرفادة والسقاية لبنى هاشم . والسدانة (خدمة الكعبة) واللواء لبنى عبدالدار (٤) الطوى: الجوع ، ويقال طوى نهاره جائعا

الْعَاطِفُونَ إِذَا الطَّرِيقُ بِهِمْ لَوَى   أَهْلُ السِّدَانَةِ وَالْحِجَابَةِ وَاللِّوَا

أَهْلُ الْمَقَامِ وَزَمْزَمٍ وَالْمَسْجِدِ

الْمُصْلِحُونَ إِذَا الْجُمُوعُ تَخَاذَعَتْ[1]

الْمُنْجِحُونَ إِذَا الْمَسَاعِي دَافَعَتْ

الدَّافِعُونَ إِذَا الْأَعَادِي قَارَعَتْ   الْمُؤْثِرُونَ إِذَا السِّنُونَ تَتَابَعَتْ

وَفْدَ الْحَجِيجِ بِنَيْلِ كُلِّ تَفَقُّدِ

لَا يَقْرُبُ الْخَطْبُ الْمُلِمُّ مَنِيعَهُمْ

لَا يَطْرُقُ الْكَرْبُ الْمُخِيفُ قَرِيعَهُمْ

وَاللهُ شَرَّفَ بِالنَّبِيِّ جَمِيعَهُمْ   مَنْ نَالَ رُتْبَتَهُمْ وَحَازَ صَنِيعَهُمْ

نَالَ الشُّفُوفَ وَحَازَ مَعْنَى السُّؤْدُدِ

حَلُّوا مِنَ الطَّوْدِ الْأَشَمِّ بِمَنْعَةٍ   فِي خَيْرِ مُعْتَصَمٍ وَأَسْمَى رِفْعَةٍ

فَهُمْ بِجَنَّةِ أَمْنِهِ فِي هَجْعَةٍ[2]   اللهُ خَصَّصَهُمْ بِأَشْرَفِ بُقْعَةٍ

مَحْجُوجَةٍ مَحْفُوفَةٍ بِالْأَسْعُدِ

لَمَّا أَتَيْتُ لِرَامَةٍ[3] أَصِلُ السُّرَى   مِنْ بَعْدِ قَصْدِي مَكَّةَ أُمَّ الْقُرَى

---

(١) تخذعت : تفرقت وتقاطعت ، وقد يكون (تخادعت) بدال مهملة أى خدع بعضهم بعضا ، وأكثر مايكون ذلك فى الحرب (٢) الهجعة : النومة الخفيفة من أول الليل، يريد فى سكون ودعة وراحة (٣) رامة : موضع بالبادية وهو فى طريق البصرة الى مكة

أَنْشَدْتُ جَهْرًا فِيهِا أَنْثُرُ جَوْهَرًا وَإِلَيْكَهَا يَاخَيْرَ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى

عَذْرَاءَ تَزْرِى بِالْعَذَارَى الْخُرَّدِ

كُلُّ الْحِسَانِ لِحُسْنِهَا قَدْ أُدْهِشَا مَا مِثْلُهَا فِي تِرْبِهَا شَادٍ نَشَا

سَفَرَتْ بِعَزْمٍ مَا أَجَدَّ[1] وَأَطْيَشَا

نَشَأَتْ بِطَىِّ الْقَلْبِ وَارْتَوَتِ الْحَشَا

زَهْرَاءَ مَنْ يَرَهَا يُهِلَّ[2] وَيَسْجُدِ

أَمَّتْكَ تَشْأُو[3] فِي مَدَاهَا الْأَلْسُنَا

وَتُرِى إِجَادَتَهَا الْمُجِيدَ الْمُحْسِنَا

تَعْدُو وَلَا تَثْنِي الْعِنَانَ عَنِ الثَّنَا

وَأَتَتْكَ تَمْرَحُ كَالْقَضِيبِ إِذَا انْثَنَى

مُتَرَنِّحًا بَيْنَ الْغُصُونِ الْمُيَّدِ

قَدْ أَعْمَلَتْ فِي الْمَدْحِ ثَاقِبَ ذِهْنِهَا

تَرْجُو الْحُلُولَ لَدَى قَرَارَةِ أَمْنِهَا

(١) لعلها : ماأحد (بحاء مهملة) من الحدة أى بعزم قوى ، وقد يكون هذا أشد مناسبة لمابعده (٢) أهل : أى رفع صوته ، وهو من قول النابغة يذكر درة أخرجها غواصها من البحر :

أودرة صدفية غواصها بهج متى يرها يهل و يسجد

يعنى باهلاله رفعه صوته بالدعاء والحمدلله اذ رآها (٣) شأى القوم يشئوهم شأوا : سبقهم

وعسَى إِذَا غُذِيَتْ بِتُرْبَةِ عَدْنِهَا يَحْلُو لَكَ الإِحْسَانُ بَارِعَ حُسْنِهَا

وَالْحُسْنُ يَجْلُوهَا وَإِنْ لَمْ تُنْشَدِ

مَدْحِي لِخَيْرِ الْعَالَمِينَ عَقِيدَتِي وَمَطِيَّتِي بَلْ طِيبَتِي[1] وَنَشِيدَتِي

وَنَتِيجَتِي وَهُدَى الْيَقِينِ مُفِيدَتِي

وَلَئِنْ مَدَحْتُ مُحَمَّدًا بِقَصِيدَتِي

فَلَقَدْ مَدَحْتُ قَصِيدَتِي بِمُحَمَّدِ

يَا خَيْرَ خَلْقِ اللهِ دَعْوَةَ حَائِرِ

يَشْكُو إِلَيْكَ صُرُوفَ دَهْرٍ جَائِرِ

وَاللهُ يَعْلَمُ فِي هَوَاكَ سَرَائِرِي وَهُوَ الَّذِي أَرْجُو لِعَفْوِ جَرَائِرِي

مُتَوَسِّلًا بِجَنَابِكَ الْمُتَأَطِّدِ[2]

لَوْلَا حُقُوقٌ عُيِّنَتْ بِمَغَارِبِ

لَمَكَثْتُ عِنْدَكَ كَيْ تُتَاحَ مَآرِبِي

وَيَكُونَ فِي الزَّرْقَاءِ[3] عَذْبُ مَشَارِبِي

حَتَّى أُحَلَّى مِنْ ثَرَاكَ تَرَائِبِي

---

(١) أظنها (طيبتى) والطية الحاجة والوطر (٢) أى المتوطد ، أى الثابت .
تقول توطدت له عنده منزلة: أى ثبتت (٣) عين ماء بالمدينة المنورة

وَأَنَالَ دَفْنًا فِي بَقِيعِ ٱلْغَرْقَدِ

وَعَلَيْكَ مِنْ رَبٍّ حَبَاكَ صَلَاتُهُ

وَسَلَامُهُ وَهِبَاتُهُ وَصِلَاتُهُ

مَا أَمَّ بَابَكَ مَنْ هَدَتْهُ فَلَاتُهُ ‏ لِعُلَاكَ حَتَّى زُحْزِحَتْ عِلَّاتُهُ

فَأُتِيحَ(١) حُسْنَ ٱلْخَتْمِ دُونَ تَرَدُّدِ

ثُمَّ وَدَّعْتُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَٱلْقَلْبُ مِنْ فِرَاقِهِ سَقِيمٌ ، وَوَقَعْتُ مِنَ ٱلْبُعْدِ عَنْ تِلْكَ ٱلْمَعَاهِدِ فِي ٱلْمُقْعِدِ ٱلْمُقِيمِ(٢) ، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَكْلُ(٣) مَنْطِقِي غَيْرَ عَقِيمٍ ، وَأَنْ أُحْشَرَ فِي زُمْرَةِ مَنْ سَلَكَ ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ.

يَاشَفِيعَ ٱلْعُصَاةِ أَنْتَ رَجَائِي ‏ كَيْفَ يَخْشَى ٱلرَّجَاءُ عِنْدَكَ خَيْبَهْ

وَإِذَا كُنْتَ حَاضِرًا بِفُؤَادِي ‏ غَيْبَةُ ٱلْجِسْمِ عَنْكَ لَيْسَتْ بِغَيْبَهْ

لَيْسَ بِالْعَيْشِ فِي ٱلْبِلَادِ ٱنْتِفَاعٌ ‏ أَطْيَبُ ٱلْعَيْشِ مَا يَكُونُ بِطَيْبَهْ

ثُمَّ عُدْتُ إِلَى مِصْرَ ، وَقَدْ زَالَ عَنِّي بِبَرَكَتِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلْإِصْرُ(٤) ، وَذَلِكَ فِي ٱلْمُحَرَّمِ سَنَةَ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَأَلْفٍ.

---

(١) لعلها (فأبيح) أى منح (٢) أى الأمر الجلل الذى يقعد صاحبه ويقيمه . كناية عن خطورته (٣) الشكل العقيم فى علم المنطق : الذى لاينتج ، كناية عن الرجاء فى قبول مدائحه ونسكه (٤) أى الثقل والذنب

ثُمَّ قَصَدْتُ زِيَارَةَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فِي شَهْرِ رَبِيعٍ مِنْ هَذَا الْعَامِ ، وَقَدْ شَمِلَتْنِي بِفَضْلِ اللهِ جَوَائِزُ الْإِنْعَامِ ، وَتَذَكَّرْتُ عِنْدَ مُشَاهَدَةِ تِلْكَ الْمَسَالِكِ الصَّعْبَةِ ، قَوْلَ حَافِظِ الْحُفَّاظِ ابْنِ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، وَهُوَ مِمَّا زَادَنِي فِي هَذِهِ الزِّيَارَةِ رَغْبَةً :

إِلَى الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ جِئْتُ أَرْجُو
جِنَانَ الْخُلْدِ نُزْلًا مِنْ كَرِيمِ
قَطَعْنَا فِي مَسَافَتِهِ عِقَابًا[1]
وَمَا بَعْدَ الْعِقَابِ سِوَى النَّعِيمِ

فَلَمَّا دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى ، وَأَبْصَرْتُ بَدَائِعَهُ الَّتِي لَا تُسْتَقْصَى ، بَهَرَنِي جَمَالُهُ الَّذِي تَجَلَّى اللهُ بِهِ عَلَيْهِ ، وَسَأَلْتُ عَنْ مَحَلِّ الْمِعْرَاجِ الشَّرِيفِ فَأُرْشِدْتُ إِلَيْهِ ، وَشَاهَدْتُ مَحَلًّا أَمَّ فِيهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرُّسُلَ الْكِرَامَ الْهُدَاةَ ، وَكَانَ حَقِّي أَنْ أُنْشِدَ هُنَالِكَ مَا قَالَهُ بَعْضُ الْمُوَفَّقِينَ وَهُوَ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ تُزَمْزِمَ[2] بِهِ الْحُدَاةُ[3] :

---

(١) جمع عقبة : المرقى الصعب من الجبال ، وفى (العقاب) فى عجز البيت تورية (٢) زمزم الرجل : سمع صوته من بعيد ، وفرس مزمزم فى صوته اذا كان يطرب فيه (٣) الحداة جمع حاد : الذى يحدو للابل ، أى يغنى وراءها وهو يسوقها

إِنْ كُنْتَ تَسْأَلُ أَيْنَ قَدْ ... رُ مُحَمَّدٍ بَيْنَ الْأَنَامْ

فَأَصِخْ إِلَى آيَاتِهِ ... تَظْفَرْ بِرِيِّكَ فِي الْأُوَامْ(١)

أَكْرِمْ بِعَبْدٍ سَلَّمَتْ ... تَقْدِيمَهُ الرُّسْلُ الْكِرَامْ

فِي حَضْرَةٍ لِلْقُدْسِ وَا ... فَاهَا بِعِزٍّ وَاحْتِرَامْ

صَفُّوا(٢) وَصَلَّوْا خَلْفَهُ ... إِنَّ الْجَمَاعَةَ بِالْإِمَامْ

لِلشُّهْبِ نُورٌ بَيِّنٌ ... وَالْفَضْلُ لِلْقَمَرِ التَّمَامْ

سِلْكُ النُّبُوَّةِ بَاهِرٌ ... وَبِأَحْمَدٍ خُتِمَ النِّظَامْ

هَذَا الْكِتَابُ دَلَالَةٌ ... تَبْقَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامْ

شَهِدَتْ لَهُ مِنْ بَعْدِ عَجْـ ... ـزٍ أَلْسُنُ اللُّدِّ(٣) الْخِصَامْ

خَيْرُ الْوَرَى وَأَجَلُّ آ ... يَاتٍ لَهُ خَيْرُ(٤) الْكَلَامْ

فَعَلَيْهِ مِنْ رَبِّ الْوَرَى ... أَزْكَى صَلَاةٍ مَعْ سَلَامْ

وَرُبَّمَا يَقُولُ مَنْ يَقِفُ عَلَى سَرْدِ هَذِهِ الْأَمْدَاحِ النَّبَوِيَّةِ ، إِلَى مَتَى ؟ وَهَذَا الْمَيْدَانُ تَكِلُّ فِيهِ فُرْسَانُ الْبَدِيهَةِ(٥) وَالرَّوِيَّةِ ، فَأُنْشِدُهُ فِي الْجَوَابِ ، قَوْلَ بَعْضِ مَنْ أَمَّ نَهْجَ الصَّوَابِ :

---

(١) أي شدة الظمأ (٢) صف القوم يصفون صفا واصطفوا وتصافوا: صاروا صفا (٣) جمع ألد : وهو شديد الخصومة (٤) خير الكلام : القرآن الكريم (٥) أي الارتجال ، وهو الاتيان بالكلام من غير أن تسبقه روية ولا تفكير

لَأُدِيمَنَّ مَدِيحَ الْمُصْطَفَى فِعْلَ مَنْ فِي اللهِ قَوَّى طَمَعَهْ
فَعَسَى أَنْعَمُ فِي الدُّنْيَا بِهِ وَعَسَى يَحْشُرُنِي اللهُ مَعَهْ

وَإِذَا كَانَ الْقَرِيضُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كَذِباً صُرَاحاً ، وَالْمُوَفَّقُ مَنْ تَرَكَهُ وَالْحَالَةُ هَذِهِ رَغْبَةً عَنْهُ وَلَهُ اطِّرَاحاً ، فَخَيْرُهُ مَا كَانَ حَقّاً وَهُوَ مَدْحُ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَبِذَلِكَ يَحْصُلُ لِلعَبْدِ مُنْتَهَى سُولِهِ

لَيْسَ كُلُّ الْقَرِيضِ يَقْبَلُهُ السَّمْـ ـعُ وَتُصْغِي لِذِكْرِهِ الْأَفْهَامُ
إِنَّ بَعْضَ الْقَرِيضِ مَا كَانَ هُزْءاً لَيْسَ شَيْئاً وَبَعْضُهُ أَحْكَامُ
وَأَجَلُّ الْكَلَامِ مَا كَانَ فِي مَدْ ـحِ شَفِيعِ الْوَرَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
طَيِّبُ الْعَرْفِ دَائِمُ الذِّكْرِ لَا تَأْ ـتِي اللَّيَالِي عَلَيْـهِ وَالْأَيَّامُ[1]
مِثْلُ زَهْرٍ قَدْ شُقَّ عَنْهُ كِمَامٌ[2] أَوْ كَمِسْكٍ قَدْ فُضَّ عَنْهُ خِتَامُ
لَيْسَ تُحْصَى صِفَاتُ أَحْمَدَ بِالْعَدِّ ـمِ كَمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ الْأَوْهَامُ[3]

(١) أتت عليه الليالى : أفنته ولاشته (٢) جمع كم: غلاف الزهرة قبل أن تنفتح (٣) أى الخواطر

وَلَوَ أَنَّ ٱلْبِحَارَ حِبْرٌ وَمَا فِي ٱلْ أَرْضِ مِنْ كُلِّ نَابِتٍ أَقْلَامُ

فَطَوِيلُ ٱلْمَدِيحِ فِيهِ قَصِيرٌ وَحُسَامٌ مَاضٍ لَدَيْهِ كَهَامُ(١)

وَلِسَانُ ٱلْبَلِيغِ لِلْعِيِّ(٢) يُنْمَى(٣) وَكَذَا صَيِّبُ ٱلْفَصِيحِ جَهَامُ(٤)

كَيْفَ يُحْصَى مَدِيحُ مَوْلًى عَلَيْهِ ٱللّٰ

هُ أَثْنَى وَذِكْرُهُ مُسْتَدَامُ

وَلَهُ ٱلْمُعْجِزَاتُ وَٱلْآيُ تَبْدُو لَا يُغَطَّى وُجُوهَهُنَّ لِثَامُ

فَمِنَ ٱلْمُعْجِزاتِ أَنْ سَارَ لَيْلًا وَجَمِيعُ ٱلْأَنَامِ فِيهِ نِيَامُ

رَاكِبًا لِلْبُرَاقِ حَتَّى أَتَى ٱلْقُدْ

سَ وَفِيهِ رُسْلُ ٱلْإِلَهِ ٱلْكِرَامُ

فَاسْتَوَوْا خَلْفَهُ صُفُوفًا وَقَالُوا صَلِّ يَا أَحْمَدُ فَأَنْتَ ٱلْإِمَامُ

فَعَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ صَلَوَاتٌ زَاكِيَاتٌ(٥) مَعْ صَحْبِهِ وَسَلَامُ

ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ ، وَكَرَّرْتُ مِنْهَا ٱلذَّهَابَ إِلَى ٱلْبِقَاعِ ٱلطَّاهِرَةِ ، فَدَخَلْتُ لِهَذَا ٱلتَّارِيخِ ٱلَّذِي هُوَ عَامُ تِسْعَةٍ وَثَلَاثِينَ وَأَلْفٍ مَكَّةَ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، وَحَصَلَتْ لِي بِالْمُجَاوَرَةِ فِيهَا ٱلْمَسَرَّاتُ ، وَأَمْلَيْتُ فِيهَا عَلَى قَصْدِ ٱلتَّبَرُّكِ دُرُوسًا

(١) سيف كهام : كليل لا يقطع (٢) أى اللكنة والحصر (٣) أى ينسب
(٤) أى لامطر فيه (٥) من زكا : اذا نما

عَدِيدَةً ، وَاللهُ يَجْعَلُ أَيَّامَ الْعُمْرِ بِالْعَوْدِ إِلَيْهَا مَدِيدَةً ، وَوَفَدْتُ عَلَى طَيْبَةَ الْمُعَظَّمَةِ مُيَمِّمًا[1] مَنَاهِجَهَا السَّدِيدَةَ سَبْعَ مِرَارٍ ، وَأَطْفَأْتُ بِالْعَوْدِ إِلَيْهَامَا بِالْأَكْبَادِ الْحِرَارِ . وَاسْتَضَأْتُ بِتِلْكَ الْأَنْوَارِ ، وَأَلِفْتُ بِحَضْرَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضَ مَا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ الْجِوَارِ ، وَأَمْلَيْتُ الْحَدِيثَ النَّبَوِيَّ بِمَرْأًى مِنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمَسْمَعٍ ، وَنِلْتُ بِذَلِكَ وَغَيْرِهِ ـ وَلِلَّهِ الْمِنَّةُ ـ مَا لَمْ يَكُنْ لِي فِيهِ مَطْمَحٌ وَلَا مَطْمَعٌ ، ثُمَّ أُبْتُ إِلَى مِصْرَ مُفَوِّضًا لِلَّهِ جَمِيعَ الْأُمُورِ ، مُلَازِمًا خِدْمَةَ الْعِلْمِ الشَّرِيفِ بِالْأَزْهَرِ الْمَعْمُورِ ، وَكَانَ عَوْدِي مِنَ الْحَجَّةِ[2] الْخَامِسَةِ بِصَفَرَ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ وَأَلْفٍ لِلْهِجْرَةِ ، فَتَحَرَّكَتْ هِمَّتِي أَوَائِلَ رَجَبٍ هَذِهِ السَّنَةَ لِلْعَوْدِ لِلْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، وَتَجْدِيدِ الْعَهْدِ بِالْمَحَلِّ الَّذِي هُوَ عَلَى التَّقْوَى مُؤَسَّسٌ ، فَوَصَلْتُ أَوَاسِطَ رَجَبٍ ، وَأَقَمْتُ فِيهِ نَحْوَ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ يَوْمًا بَدَا لِي فِيهَا بِفَضْلِ اللهِ وَجْهُ الرُّشْدِ وَمَا

(١) قاصدا (٢) الحجة بفتح الحاء على القياس ، وبالكسر : الاسم من حج

ٱحْتَجَبَ ، وَأَلْقَيْتُ عِدَّةَ دُرُوسٍ بِالْأَقْصَى وَٱلصَّخْرَةِ ٱلْمُنِيفَةِ ، وَزُرْتُ مَقَامَ ٱلْخَلِيلِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ ذَوِى ٱلْمَقَامَاتِ ٱلشَّرِيفَةِ ، وَكُنْتُ حَقِيقًا بِأَنْ أُنْشِدَ قَوْلَ ٱبْنِ مَطْرُوحٍ ، فِي ذَلِكَ ٱلْمَقَامِ ٱلَّذِي فَضْلُهُ مَعْرُوفٌ وَأَمْرُهُ مَشْرُوحٌ :

خَلِيلَ ٱللهِ قَدْ جِئْنَاكَ نَرْجُو ... شَفَاعَتَكَ ٱلَّتِي لَيْسَتْ تُرَدُّ

أَنِلْنَا دَعْوَةً وَٱشْفَعْ تُشَفَّعْ ... إِلَى مَنْ لَا يَخِيبُ لَدَيْهِ قَصْدُ

وَقُلْ يَارَبِّ أَضْيَافٌ وَوَفْدٌ ... لَهُمْ بِمُحَمَّدٍ صِلَةٌ وَعَهْدُ

أَتَوْا يَسْتَغْفِرُونَكَ مِنْ ذُنُوبٍ ... عِظَامٍ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحَدُّ

إِذَا وُزِنَتْ بِيَذْبُلَ[1] أَوْ شَمَامٍ ... رَجَحْنَ وَذُو نُهَارَ رَضْوَى وَأُحْدُ

وَلَكِنْ لَا يَضِيقُ ٱلْعَفْوُ عَنْهُمْ ... وَكَيْفَ يَضِيقُ وَهْوَ لَهُمْ مُعَدُّ

وَقَدْ سَأَلُوا رِضَاكَ عَلَى لِسَانِي ... إِلٰهِي مَا أُجِيبُ وَمَا أَرُدُّ ؟؟

فَيَا مَوْلَاهُمُ عَطْفًا عَلَيْهِمْ ... فَهُمْ جَمْعٌ أَتَوْكَ وَأَنْتَ فَرْدُ

ثُمَّ ٱسْتَوْعَبْتُ أَكْثَرَ تِلْكَ ٱلْمَزَارَاتِ ٱلْمُبَارَكَةِ كَمَزَارِ

(١) يذبل ، وشمام ، ورضوى ، وأحد : أسماء جبال ببلاد العرب

مُوسَى ٱلْكَلِيمِ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِمْ وَعَلَى سَائِرِ ٱلْمُرْسَلِينَ وَٱلْأَنْبِيَاءِ أَجْمَعِينَ أَفْضَلُ ٱلصَّلَاةِ وَٱلتَّسْلِيمِ . ثُمَّ حَدَثَ لِي مُنْتَصَفَ شَعْبَانَ ، عَزْمٌ عَلَى ٱلرِّحْلَةِ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ٱلَّتِي ظَهَرَ فَضْلُهَا وَبَانَ ، دِمَشْقِ ٱلشَّامِ ، ذَاتِ ٱلْحُسْنِ وَٱلْبَهَاءِ وَٱلْحَيَاءِ وَٱلِاحْتِشَامِ، وَٱلْأَدْوَاحِ[1] ٱلْمُتَنَوِّعَةِ، وَٱلْأَرْوَاحِ[2] ٱلْمُتَضَوِّعَةِ، حَيْثُ ٱلْمُشَاهِدُ ٱلْمُكَرَّمَةُ وَٱلْمَعَاهِدُ ٱلْمُحْتَرَمَةُ ،وَٱلْغُوطَةُ[3] ٱلْغَنَّاءِ وَٱلْحَدِيقَةُ ، وَٱلْمَكَارِمُ ٱلَّتِي يُبَارِي فِيهَا ٱلْمَرْءُ شَانِئَهُ وَصَدِيقَهُ ، وَٱلْأَظْلَالُ ٱلْوَرِيفَةُ[4] ، وَٱلْأَفْنَانُ ٱلْوَرِيقَةُ ، وَٱلزَّهْرُ ٱلَّذِي تَخَالُهُ مَبْسِمًا وَٱلنَّدَى رِيقَهْ ، وَٱلْقُضْبَانُ ٱلْمُلْدُ[5] ٱلَّتِي تُشَوِّقُ رَائِيهَا بِجَنَّةِ ٱلْخُلْدِ

بِحَيْثُ ٱلرَّوْضُ وَضَّاحُ ٱلثَّنَايَا ⁂ أَنِيقُ ٱلْحُسْنِ مَصْقُولُ ٱلْأَدِيمِ

---

(١) الدوح : الشجر الملتف الكثير (٢) جمع ريح، والمتضوعة ذات الضوع: وهو العرف والرائحة الذكية (٣) الغوطة : موضع بالشام كثير الماء والشجر وهو غوطة دمشق وهي احدى الجنان الأربع . وبعضهم يقول غوطة بدون ال (٤) ورف الظل اذا اتسع وامتد (٥) جمع أملد : الناعم الغض

وَهِيَ ٱلْمَدِينَةُ ٱلْمُسْتَوْلِيَةُ عَلَى ٱلطِّبَاعِ ، ٱلْمَعْمُورَةُ ٱلْبِقَاعِ ، بِالْفَضْلِ وَٱلرِّبَاعِ[1] :

تَزِيدُ عَلَى مَرِّ ٱلزَّمَانِ طَلَاوَةً
دِمَشْقُ ٱلَّتِي رَاقَتْ بِحُلْوِ ٱلْمَشَارِبِ

لَهَا فِي أَقَالِيمِ ٱلْبِلَادِ مَشَارِقٌ
مُنَزَّهَةٌ أَقْمَارُهَا عَنْ مَغَارِبِ

وَدَخَلْتُهَا أَوَاخِرَ شَعْبَانَ ٱلْمَذْكُورِ ، وَحَمِدْتُ ٱلرِّحْلَةَ إِلَيْهَا ، وَجَعَلَهَا ٱللهُ مِنَ ٱلسَّعْيِ ٱلْمَشْكُورِ

وَجَدْتُ بِهَا مَا يَمْلَأُ ٱلْعَيْنَ قُرَّةً[2]
وَيُسْلِي عَنِ ٱلْأَوْطَانِ كُلَّ غَرِيبِ

وَشَاهَدْتُ بَعْضَ مَغَانِيهَا ٱلْحَسَنَةِ ، وَمَبَانِيهَا ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ ،

نَزَلْنَا بِهَا نَنْوِي ٱلْمُقَامَ[3] ثَلَاثَةً
فَطَابَتْ لَنَا حَتَّى أَقَمْنَا بِهَا شَهْرًا

وَرَأَيْنَا مِنْ مَحَاسِنِهَا مَالَا يَسْتَوْفِيهِ مَنْ تَأَنَّقَ فِي ٱلْخِطَابِ ، وَأَطَالَ فِي ٱلْوَصْفِ وَأَطَابَ ، وَإِنْ مَلَأَ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْوِطَابَ[4] ، كَمَا قُلْتُ :

(١) لعلها (الرياع) بالياء المثناة أى الريع والنماء والزيادة ــ وراع الشئ : زكا و زاد (٢) أى سرورا (٣) أى الاقامة (٤) جمع وطب وهو وعاء اللبن

مَحَاسِنُ ٱلشأْمِ أَجْلَى مِنْ أَنْ تُحَاطَ بِحَدٍّ
لَوْلَا حِمَى ٱلشَّرْعِ قُلْنَا وَلَمْ نَقِفْ عِنْدَ حَدٍّ
كَأَنَّهَا مُعْجِزَاتٌ مَقْرُونَةٌ بِالتَّحَدِّي

فَالْجَامِعُ ٱلْجَامِعُ لِلْبَدَائِعِ يَبْهَرُ ٱلْفِكَرَ ، وَٱلْغُوطَةُ ٱلْمَنُوطَةُ بِالْحُسْنِ تَسْحَرُ ٱلْأَلْبَابَ لا سِيَّمَا إِذَا حَيَّاهَا ٱلنَّسِيمُ وَٱبْتَكَرَ :

أُحِبُّ ٱلْحِمَى مِنْ أَجْلِ مَنْ سَكَنَ ٱلْحِمَى
حَدِيثٌ حَدِيثٌ فِي ٱلْهَوَى وَقَدِيمُ

فَلِلّٰهِ مَرْآهَا ٱلْجَمِيلُ ٱلْجَلِيلُ ، وَبُيُوتُهَا ٱلَّتِي لَمْ تَخْرُجْ عَنْ عَرُوضِ ٱلْخَلِيلِ ، وَمَخْبَرُهَا ٱلَّذِي هُوَ عَلَى فَضْلِهَا وَفَضْلِ أَهْلِهَا أَدَلُّ دَلِيلٍ ، وَمَنْظَرُهَا ٱلَّذِي يَنْقَلِبُ ٱلْبَصَرُ عَنْ بَهْجَتِهِ وَهُوَ كَلِيلٌ(١)

وَٱلرَّوْضُ قَدْرَاقَ ٱلْعُيُونَ بِحُلَّةٍ قَدْحَاكَهَا بِسَحَابِهِ آذَارُ(٢)
وَعَلَى غُصُونِ ٱلدَّوْحِ خُضْرُ غَلَائِلٍ
وَٱلزَّهْرُ فِي أَكْمَامِهِ أَزْرَارُ

(١) أى حسير (٢) هو شهر رومى يقع فى أول الربيع

فَكَمْ لَهَا مِنْ حُسْنٍ ظَاهِرٍ وَكَامِنٍ ، كَمَا قُلْتُ مُوَطِّئًا لِلْبَيْتِ الثَّامِنِ :

أَمَّا دِمَشْقُ فَجَنَّةٌ لَعِبَتْ بِأَلْبَابِ الْخَلَائِقْ

هِيَ بَهْجَةُ الدُّنْيَا الَّتِي مِنْهَا بَدِيعُ الْحُسْنِ فَائِقْ

لِلَّهِ مِنْهَا الصَّالِحِيَّةُ فَاخَرَتْ بِذَوِي الْحَقَائِقْ

وَالْغُوطَةُ الْغَنَّاءُ حَيَّتْ بِالْوُرُودِ وَبِالشَّقَائِقْ

وَالنَّهْرُ صَافٍ وَالنَّسِيمُ اللَّدْنُ لِلْأَشْوَاقِ سَائِقْ

وَالطَّيْرُ بِالْعِيدَانِ أَبْدَتْ فِي الْغِنَا أَحْلَى الطَّرَائِقْ

وَلَآلِئُ الْأَزْهَارِ حَلَّتْ جِيدَ غُصْنٍ فَهْوَ رَائِقْ

وَمَرَاوِدُ الْأَمْطَارِ قَدْ كُحِلَتْ بِهَا حَدَقُ الْحَدَائِقْ

لَا زَالَ مَغْنَاهَا مَصُونًا آمِنًا كُلَّ الْبَوَائِقْ

وَكَمَا قُلْتُ مُرْتَجِلاً أَيْضًا مُضَمِّنًا الرَّابِعَ وَالْخَامِسَ

دِمَشْقُ رَاقَتْ رُوَاءً[1] وَبَهْجَةً وَغَضَارَهْ[2]

فِيهَا نَسِيمٌ عَلِيلٌ صَحَّ فَوَافَتْ بِشَارَهْ

وَغُوطَةٌ كَعَرُوسٍ تُزْهَى بِأَعْجَبِ شَارَهْ

(١) الرواء : حسن المنظر (٢) الغضارة : البهجة والحسن

يَاحُسْنَهَا مِنْ رِيَاضٍ مِثْلِ ٱلنُّضَارِ[1] نَضَارَهْ

كَالزُّهْرِ[2] زَهْرًا وَعَنْهَا عَرْفُ ٱلْعَبِيرِ عِبَارَهْ

وَٱلْجَامِعُ ٱلْفَرْدُ مِنْهَا أَعْلَى ٱلْإِلَهُ مَنَارَهْ

وَحَاصِلُ ٱلْقَوْلِ فِيهَا لِمَنْ أَرَادَ ٱخْتِصَارَهْ

تَذْكِيرُهَا مَنْ رَآهَا عَدْنًا وَحَسْبِي إِشَارَهْ

دَامَتْ تَفُوقُ سِوَاهَا إِنَالَةً وَإِنَارَهْ

وَكَمَا ٱرْتَجَلْتُ فِيهَا أَيْضًا

قَالَ لِي مَا تَقُولُ فِي ٱلشَّامِ حَبْرٌ

كُلَّمَا لَاحَ بَارِقُ ٱلْحُسْنِ شَامَهْ

قُلْتُ مَاذَا أَقُولُ فِي وَصْفِ قُطْرٍ

هُوَ فِي وَجْنَةِ ٱلْمَحَاسِنِ شَامَهْ

وَقُلْتُ أَيْضًا :

قَالَ لِي صِفْ دِمَشْقَ مَوْلًى رَئِيسٌ

جَمَّلَ ٱللّٰهُ خَلْقَهُ وَٱحْتِشَامَهْ

---

(١) النضار : الذهب الخالص (٢) أى الكواكب الساطعة

قُلْتُ كَلَّ ٱللِّسَانُ فِى وَصْفِ قُطْرٍ

هُوَ فِى وَجْنَةِ ٱلْبَسِيطَةِ شَامَه[١]

وَقُلْتُ أَيْضًا :

وَإِذَا وَصَفْتَ مَحَاسِنَ ٱلدُّنْيَا فَلَا   تَبْدَأْ بِغَيْرِ دِمَشْقَ فِيهَا أَوَّلَا

بَلَدٌ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ نَحْوَهُ   لَمْ تَلْقَ إِلَّا جَنَّـةً أَوْ جَدْوَلَا

ذَا وَصْفُ بَعْضِ صِفَاتِهَا وَهِىَ ٱلَّتِى

يَعْيَا ٱلْبَلِيغُ وَإِنْ أَجَادَ وَطَوَّلَا

وَٱلْغَايَةُ فِى هَـذَا ٱلْبَابِ ، مِنَ ٱلْوَصْفِ لِبَعْضِ مَحَاسِنِهَا ٱلْفَاتِنَةِ ٱلْأَلْبَابِ ، قَوْلُ أَبِى ٱلْوَحْشِ سَبعِيٍّ ٱبْنِ خَلَفٍ ٱلْأَسَدِيِّ يَصِفُ أَرْضَهَا ٱلْمُشْرِقَةَ ، وَرِيَاضَهَا ٱلْمُورِقَةَ ، وَنَسِيمَهَا ٱلْعَلِيلَ ، وَزَهْرَهَا ٱلْبَلِيلَ[٢] :

سَقَى دِمَشْقَ ٱلشَّأمِ غَيْثٌ مُمْرِعٌ[٣]

مِنْ مُسْتَهِلٍّ[٤] دِيمَةٍ[٥] دَفَّاقِهَا

(١) شامة : الشامة علامة تخالف البدن الذى هى فيه (٢) البليل: الندى
(٣) ممرع: مخصب (٤) استهل المطر : ارتفع صوت وقعه (٥) هى مطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق

مَدِينَةٌ لَيْسَ يُضَاهِى حُسْنُهَا فِى سَائِرِ ٱلدُّنْيَا وَلَا آفَاقِهَا

تَوَدُّ زَوْرَاءُ[١] ٱلْعِرَاقِ أَنَّهَا تُعْزَى إِلَيْهَا لَا إِلَى عِرَاقِهَا

فَأَرْضُهَا مِثْلُ ٱلسَّمَاءِ بَهْجَةً وَزَهْرُهَا كَالزُّهْرِ فِى إِشْرَاقِهَا

نَسِيمُ رَيَّا رَوْضِهَا مَتَى سَرَى فَكَّ أَخَا ٱلْهُمُومِ مِنْ وَثَاقِهَا

قَدْ رَبَعَ ٱلرَّبِيعُ فِى رُبُوعِهَا وَسِيقَتِ ٱلدُّنْيَا إِلَى أَسْوَاقِهَا

لَا تَسْأَمُ ٱلْعُيُونُ وَٱلْأُنُوفُ مِنْ رُؤْيَتِهَا يَوْمًا وَلَا ٱنْتِشَاقِهَا[٢]

وَقَوْلُ شَمْسِ ٱلدِّينِ ٱلْأَسَدِىِّ ٱلطِّيبِىِّ :

إِذَا ذُكِرَتْ بِقَاعُ ٱلْأَرْضِ يَوْمًا فَقُلْ سَقْيًا لِجِلِّقَ ثُمَّ رَعْيَا

وَقُلْ فِى وَصْفِهَا لَا فِى سِوَاهَا بِهَا مَا شِئْتَ مِنْ دِينٍ وَدُنْيَا

وَكَأَنَّ لِسَانَ ٱلدِّينِ ذَا ٱلْوِزَارَتَيْنِ ٱبْنَ ٱلْخَطِيبِ ، عَنَاهَا بِقَوْلِهِ ٱلْمُصِيبِ :

بَلَدٌ تَحُفُّ بِهِ ٱلرِّيَاضُ كَأَنَّهُ وَجْهٌ جَمِيلٌ وَٱلرِّيَاضُ عِذَارُهُ

وَكَأَنَّمَا وَادِيهِ مِعْصَمُ غَادَةٍ
وَمِنَ ٱلْجُسُورِ ٱلْمُحْكَمَاتِ سِوَارُهُ

وَكُنْتُ قَبْلَ رِحْلَتِى إِلَيْهَا وَوِفَادَتِى عَلَيْهَا كَثِيرًا

---

(١) زوراء العراق : بغداد (٢) أى شم أرجها

مَا أَسْمَعُ عَنْ أَهْلِهَا ـ زَادَ ٱللهُ فِي ٱرْتِقَائِهِمْ ـ مَا يُشَوِّقُنِي إِلَى رُؤْيَتِهَا وَلِقَائِهِمْ ، وَيُنْشِقُنِي عَلَى ٱلْبُعْدِ أَرِيجَ ٱلْأَدَبِ ٱلْفَائِقِ مِنْ تِلْقَائِهِمْ[١] ، حَتَّى لَقِيتُ بِمَكَّةَ ٱلْمُعَظَّمَةِ ، أَوْحَدَ كُبَرَائِهَا ٱلَّذِينَ فَرَائِدُهُمْ بِلَبَّةِ[٢] ٱلدَّهْرِ مُنَظَّمَةٌ ، عَيْنَ ٱلْأَعْيَانِ ، وَصَدْرَ أَرْبَابِ ٱلتَّفْسِيرِ بِهَا وَٱلْبَيَانِ ، صَاحِبَ ٱلْقَلَمِ ٱلَّذِي طَبَّقَ[٣] ٱلْكُلَى وَٱلْمَفَاصِلَ ، وَٱلْفَتَاوَى ٱلَّتِي حُكْمُهَا بَيْنَ ٱلْحَقِّ وَٱلْبَاطِلِ فَاصِلٌ ، وَٱلتَّآلِيفِ ٱلَّتِي وَصْفُهَا بِالْإِجَادَةِ مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ ٱلْحَاصِلِ ، وَارِثُ ٱلْعِلْمِ عَنْ غَيْرِ كَلَالَةٍ ، ذُو ٱلْحَسَبِ ٱلْمُشْرِقِ بَدْرُهُ فِي سَمَاءِ ٱلْجَلَالَةِ ، صَاحِبُ ٱلْمَعَارِفِ ٱلَّتِي زَانَتْ خِلَالَهُ ، وَسَاحِبُ أَذْيَالِ ٱلْعَوَارِفِ ٱلَّتِي أَبَانَتْ عَنْ فَضْلِهِ دَلَالَةً . مُفْتِي ٱلسُّلْطَانِ فِي تِلْكَ ٱلْأَوْطَانِ ، عَلَى مَذْهَبِ ٱلْإِمَامِ ٱلنُّعْمَانِ ، مَوْلَانَا ٱلشَّيْخُ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱبْنُ شَيْخِ ٱلْإِسْلَامِ عِمَادِ ٱلدِّينِ ، لَا زَالَ سَالِكًا سَبِيلَ ٱلْمُهْتَدِينَ ، فَكَانَ ـ جَمَّلَ ٱللهُ بِهِ عَصْرًا وَأَوَانًا ـ لِقَضِيَّةِ هٰذَا ٱلْقِيَاسِ عُنْوَانًا ، فَلَمَّا حَلَلْتُ بِدَارِهِمْ ، وَرَأَيْتُ مَا أَذْهَلَنِي مِنْ سَبْقِهِمْ لِلْفَضْلِ وَبِدَارِهِمْ ،

(١) أي ناحيتهم (٢) اللبة : المنحر (٣) طبق الكلى والمفاصل : كناية عن البلاغة وقوة التأثير

صَدَقَ الْخَبَرُ ، وَتَمَثَّلْتُ فِيهِمْ بِقَوْلِ بَعْضِ مَنْ غَبَرَ[1] :

أَلَمَّتْ بِنَا أَوْصَافُهُمْ فَامْتَلَا الْفَضَا

عَبِيرًا وَأَضْحَى نُورُهُ مُتَأَلِّقَا[2]

وَقَدْ كَانَ هٰذَا مِنْ سَمَاعِ حَدِيثِهِمْ

بَلَاغًا فَصَحَّ النَّقْلُ إِذْ حَصَلَ اللِّقَا

وَقَابَلُونِي ـ أَسْمَاهُمُ[3] اللّٰهُ ـ بِالِاحْتِفَالِ وَالِاحْتِفَاءِ ، وَعَرَّفَنِي بَدِيعُ بِرِّهِمِ فَنَّ الِاكْتِفَاءِ :

غَمَرَتْنِي الْمَكَارِمُ الْغُرُّ مِنْهُمْ وَتَوَالَتْ عَلَيَّ مِنْهَا فُنُونُ

شَرْطُ إِحْسَانِهِمْ تَحَقَّقَ عِنْدِي

لَيْتَ شِعْرِي الْجَزَاءُ كَيْفَ يَكُونُ؟

وَقَابَلُونِي بِالْقَبُولِ مُغْضِينَ[4] عَنْ جَهْلِي

وَمَا زَالَ بِي إِحْسَانُهُمْ وَجَمِيلُهُمْ وَبِرُّهُمُ حَتَّى حَسِبْتُهُمُ أَهْلِي

بَلِ الْأَوْلَى أَنْ أَتَمَثَّلَ فِيهِمْ بِمَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا الْمَقُولِ فِي آلِ الْمُهَلَّبِ ، وَهُوَ قَوْلُ بَعْضِ مَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ

---

(١) أى مضى (٢) تألق النور : أضاء (٣) أى رفعهم (٤) هو مدح فى آل المهلب بن أبى صفرة ، وقبله :

نزلت على آل المهلب شاتيا غريبا عن الأوطان فى زمن محل

بَرْقُ قَصْدِهِمْ غَيْرُ خُلَّبٍ(١)، فِي زَمَنٍ بِهِ تَقَلُّبَ :

وَلَمَّا نَزَلْنَا فِي ظِلَالِ بُيُوتِهِمْ

أَمِنَّا وَنِلْنَا الْخِصْبَ فِي زَمَنِ الْمَحْلِ(٢)

وَلَوْ لَمْ يَزِدْ إِحْسَانُهُمْ وَجَمِيلُهُمْ

عَلَى الْبِرِّ مِنْ أَهْلِي حَسِبْتُهُمُ أَهْلِي

لَا سِيَّمَا الْمَوْلَى الَّذِي أَمْدَاحُهُ تُحَلِّي أَجْيَادَ(٣) الطُّرُوسِ الْعَاطِلَةَ ، وَسَمَاحُهُ يُخْجِلُ أَنْوَاءَ الْغُيُوثِ الْهَاطِلَةِ ، صَدْرُ الْأَكَابِرِ الْأَعَاظِمِ ، الْحَائِزُ قَصَبَ السَّبْقِ فِي مَيْدَانِ الْإِجَادَةِ بِشَهَادَةِ كُلِّ نَاثِرٍ وَنَاظِمٍ ، الصَّدِيقُ الَّذِي بِوُدِّهِ اغْتَبِطُ ، وَالصَّدُوقُ الَّذِي بِأَسْبَابِ عَهْدِهِ أَرْتَبِطُ ، الْأَوْحَدُ الَّذِي ضَرَبَتِ(٤) الْبَلَاغَةُ رُوَاقَهَا بِنَادِيهِ ، وَالْمَاجِدُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ بَدِيعُ الْبَلَاغَةِ مِنْ كَثَبٍ(٥) يُنَادِيهِ . السَّرِيُّ الْحَائِزُ مِنَ الْخِلَالِ مَا أَبَانَ تَفْضِيلَهُ ، اللَّوْذَعِيُّ(٦) الَّذِي لَمْ تَزَلْ أَوْصَافُهُ

---

(١) البرق الخلب : الذى لا يعقبه مطر (٢) المحل : القحط والجدب (٣) أجياد جمع جيد : العنق (٤) كناية عن اختصاصها به (٥) أى قرب : تقول هو على كثب منى : أى على قرب (٦) أى اللبيب

تَحْـكُمُ لَهُ بِالسُّؤْدُدِ وَتَقْضِي لَهُ - وَالْحَقُّ أَبْلَجُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى زِيَادَةِ بَرَاهِينَ - الْأَجَلُّ الْمَوْلَى أَحْمَدُ أَفَنْدِي ابْنُ شَاهِينَ ، لَا زَالَتِ الْعِزَّةُ مُقِيمَةً بِوَادِيهِ ، وَلَا بَرِحَتْ حَضْرَتُهُ جَامِعَةً لِبَوَاطِنِ الْفَخْرِ وَبَوَادِيهِ[١] ، وَالسَّـعْدُ يُرَاوِحُ مُقَامَهُ وَيُغَادِيهِ ، وَالْمَجْدُ يَتَرَنَّمُ بِذِكْرِهِ حَادِيهِ . فَكَمْ لَهُ - أَسْمَاهُ اللهُ - وَلِغَـيْرِهِ مِنْ أَعْيَانِ دِمَشْقَ لَدَيَّ مِنْ أَيَادٍ ، يَعْجِزُ عَنِ الْإِبَانَةِ عَنْهَا لَوْ أَرَادَ وَصْفَهَا قُسُّ[٢] إِيَادٍ ، وَلَوْ تَعَرَّضْتُ لِأَسْمَائِهِمْ وَحُلَاهُمْ - أَدَامَ اللهُ تَعَالَى سُؤْدُدَهُمْ وَعُلَاهُمْ - لَضَاقَ عَنْ ذَلِكَ هَذَا النِّطَاقُ ، وَكَانَ مِنْ شِبْهِ التَّـكْلِيفِ بِمَا لَا يُطَاقُ . فَلَيْتَ شِـعْرِي بِأَيِّ أُسْلُوبٍ ، أُؤَدِّي بَعْضَ حَقِّهِمُ الْمَطْلُوبِ ؟ أَمْ بِأَيِّ لِسَانٍ ، أُثْنِي عَلَى مَزَايَاهُمُ الْحِسَانِ ؟ وَمَا عَسَى أَنْ أَقُولَ فِي قَوْمٍ نَسَـقُوا الْفَضَائِلَ وِلَاءً ، وَتَعَاطَوْا أَكْوَابَ الْمَحَامِدِ مِلَاءً[٣] ، وَسَحَبُوا مِنَ الْمَجْدِ مَطَارِفَ وَمُلَاءً[٤] ، وَحَازُوا الْمَـكَارِمَ وَبَذُّوا الْمُوَادِدَ[٥] وَالْمُصَارِمَ[٦] سُؤْدُدًا وَعَلَاءً[٧]

(١) أى ظواهره (٢) هو قس بن ساعدة خطيب عكاظ (٣) أى مفعمة، وهو جمع ملآن، ومؤنثه ملأى (٤) ملاء جمع ملاءة، وهى الازار (٥) الموادد: ذوالود والواجب فى مثله الأدغام و يشذ الفك (٦) أى المقاطع (٧) العلاء: الشرف

فَمَا رِيَاضُ زَهَرِ ٱلرَّبِيعِ إِذَا بَدَتْ فِى وَشْيِهَا[1] ٱلْبَدِيعِ

ضَاحِكَةً عَنْ شَنَبِ ٱلْأَقَاحِ[2] عِنْدَ سُفُورِ طَلْعَةِ ٱلصَّبَاحِ

غَنَّى بِهَا مُطَوَّقُ ٱلْحَمَامِ وَصَافَحَتْهَا رَاحَةُ ٱلْغَمَامِ

وَبَاكَرَتْهَا نَسْمَةٌ مِنَ ٱلصَّبَا فَأَصْبَحَتْ كَأَنَّهَا عَهْدُ ٱلصِّبَا

نَضَارَةً وَرَوْنَقًا وَبَهْجَهْ تُفْدَى بِكُلِّ نَاظِرٍ وَمُهْجَهْ

أَطْيَبُ مِنْ ثَنَائِهِمْ عَبِيرَا بَيْنَ ٱلْوَرَى فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرَا

دَامَتْ مَعَالِيهِمْ عَلَى طُولِ ٱلزَّمَنْ

يُرْوَى حَدِيثُ ٱلْفَضْلِ عَنْهَا عَنْ حَسَنْ

وَثَابِتٍ وَقُرَّةٍ وَسَعْدِ وَأَسْعِفُوا بِنَيْلِ كُلِّ وَعْدِ

فَهُمُ ٱلَّذِينَ نَوَّهُوا بِقَدْرِى ٱلْخَامِلِ، وَظَنُّوا مَعَ نَقْصِى أَنَّ بَحْرَ مَعْرِفَتِى وَافِرٌ كَامِلٌ، حَسْبَمَا ٱقْتَضَاهُ طَبْعُهُمُ ٱلْعَالِى. فَلَوْ شَرَيْتُ بِعُمْرِى سَاعَةً ذَهَبَتْ مِنْ عَيْشِى مَعَهُمْ مَا كَانَ

(١) وشى الثوب : حلاه ونمنم أطرافه (٢) الشنب : ماء الأسنان وبريقها. والأقاح جمع أقحوانة : نبت له زهر أبيض فى وسطه كتلة صغيرة صفراء، وأوراق زهره مفلجة صغيرة يشبهون بها الأسنان، فيقال افترت عن نور الأقحوان

بِالْغَالِي . فَمُتَعَيِّنٌ حَقِّهِمْ لَا يُتْرَكُ ، وَحُبُّهُمْ لَا يُخَالَطُ بِغَيْرِهِ وَلَا يُشْرَكُ ، وَإِنْ أَطَلْتُ الْوَصْفَ فَالْغَايَةُ فِي ذٰلِكَ لَا تُدْرَكُ :

يَزْدَادُ فِي مَسْمَعِي تَرْدَادُ ذِكْرِهِمُ
طِيبًا وَيَحْسُنُ فِي عَيْنِي مُكَرَّرُهُ

وَإِذَا كَانَ الْمَدِيحُ الصَّادِقُ لَا يَزِيدُهُمْ رِفْعَةَ قَدْرٍ، فَهُمْ كَمَا قَالَ الْأَعْرَابِيُّ الَّذِي ضَلَّتْ نَاقَتُهُ فِي مَدْحِ الْبَدْرِ . وَالْبَلِيغُ وَذُو الْحَصَرِ[1] فِي ذٰلِكَ سِيَّانِ ، وَالْحَقُّ أَبْلَجُ[2] ، وَالْبَاطِلُ لَجْلَجَ ، وَلَيْسَ الْخَبَرُ كَالْعِيَانِ[3] :

هَبِ الرَّوْضَ لَا يُثْنِي عَلَى الْغَيْثِ نَشْرُهُ[4]
أَتَحْسَبُهُ تَخْفَى مَآثِرُهُ الْحُسْنَى؟

وَقَدْ تَذَكَّرْتُ بِلَادِي النَّائِيَةَ، بِذَلِكَ الْمَرْأَى الشَّامِيِّ الَّذِي يَبْهَرُ رَائِيَهُ ، فَمَا شِئْتَ مِنْ أَنْهَارٍ ذَاتِ انْسِجَامٍ ،

(١) الحصر : العي في المنطق (٢) من بلج الحق : ظهر واتضح (٣) العيان: المشاهدة (٤) نشره : ريحه الطيبة

أُتْرِعَ[١] فِيهَا مِنْ جِرْيَالِ[٢] ٱلْأُنْسِ جَامٌ[٣]، وَأَزْهَارٍ مُتَوَّجَةٍ لِلْأَدْوَاحِ، مُرَوِّحَةٍ لِلنُّفُوسِ بِعَاطِرِ ٱلْأَرْوَاحِ. وَحَدَائِقَ تَغْشَى[٤] أَنْوَارُهَا ٱلْأَحْدَاقَ، وَعِيَانُهَا لِلْخَبَرِ عَنْهَا مِصْدَاقٌ وَأَيُّ مِصْدَاقٍ؟

فَهِيَ ٱلَّتِي ضَحِكَ ٱلنَّهَارُ صَبَاحَهَا

وَبَكَتْ عَشِيَّتَهَا عُيُونُ ٱلنَّرْجِسِ

وَٱخْضَرَّ جَانِبُ نَهْرِهَا فَكَأَنَّهُ

سَيْفٌ يُسَلُّ وَغِمْدُهُ مِنْ سُنْدُسِ

وَجِنَانٍ، أَفْنَانُهَا فِي ٱلْحُسْنِ ذَوَاتُ أَفْنَانٍ

صَافَحَتْهَا ٱلرِّيَاحُ فَاعْتَنَقَ ٱلسَّرْ ... وُ وَمَالَتْ طِوَالُهُ لِلْقِصَارِ

لَائِذٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ كَقَوْمٍ ... فِي عِتَابٍ مُكَرَّرٍ وَٱعْتِذَارِ

وَبِطَاحٍ رَاقَ سَنَاهَا، وَكَمُلَ حُسْنُهَا وَتَنَاهَى، كَمَا قُلْتُ مُضَمِّنًا فِي ذٰلِكَ ٱلْمَنْحَى، لِقَوْلِ بَعْضِ مَنْ نَالَ فِي ٱلْبَلَاغَةِ مُنًى وَمِنَحًا:

دِمَشْقٌ لَا يُقَاسُ بِهَا سِوَاهَا

وَيَمْتَنِعُ ٱلْقِيَاسُ مَعَ ٱلنُّصُوصِ

---

(١) أترع: ملئ (٢) جريال: الخمرة أولونها (٣) جام: اناء من فضة (٤) لعلها: تُغْشِي

حُلَاهَا رَاقَتِ ٱلْأَبْصَارَ حُسْنًا
عَلَى حُكْمِ ٱلْعُمُومِ أَوِ ٱلْخُصُوصِ
بِسَاطُ زُمُرُّدٍ نُثِرَتْ عَلَيْهِ
مِنَ ٱلْيَاقُوتِ أَلْوَانُ ٱلْفُصُوصِ

وَلِلّٰهِ دَرُّ ٱلْقَائِلِ، فِي وَصْفِ تِلْكَ ٱلْفَضَائِلِ:

إِنْ تَكُنْ جَنَّةُ ٱلْخُلُودِ بِأَرْضٍ
فَدِمَشْقٌ وَلَا يَكُونُ سِوَاهَا
أَوْ تَكُنْ فِي ٱلسَّمَاءِ فَهِيَ عَلَيْهَا قَدْ أَمَدَّتْ[1] هَوَاءَهَا وَهَوَاهَا
بَلَدٌ طَيِّبٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَاغْتَنِمْهَا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا

وَعِنْدَ رُؤْيَتِي لِتِلْكَ ٱلْأَقْطَارِ، ٱلْجَلِيلَةِ ٱلْأَوْصَافِ ٱلْعَظِيمَةِ ٱلْأَخْطَارِ، تَفَاءَلْتُ بِالْعَوْدِ إِلَى أَوْطَانٍ لِي بِهَا أَوْطَارٌ[2]، إِذِ ٱلتَّشَابُهُ بَيْنَهُمَا قَرِيبٌ فِي ٱلْأَنْهَارِ وَٱلْأَزْهَارِ ذَاتِ ٱلْعَرْفِ ٱلْمِعْطَارِ، وَزَادَتْ هٰذِهِ بِالتَّقْدِيسِ ٱلَّذِي هَمَعَتْ[3] عَلَيْهَا مِنْهُ ٱلْأَمْطَارُ، وَتَمَثَّلْتُ بِقَوْلِ ٱلْأَصْفَهَانِي، وَإِنْ غَيَّرْتُ يَسِيرًا مِنْهُ لَمَّا أَسْفَرَتْ وُجُوهُ ٱلتَّهَانِي:

---

(١) لعلها: أمرّت (٢) الأوطار جمع وطر: الحاجة والبغية (٣) همعت: سالت

لَمَّا وَرَدْتُ ٱلصَّالِحِيَّـــةَ حَيْثُ مُجْتَمَعُ ٱلرِّفَاقِ
وَشَمِمْتُ مِنْ أَرْضِ ٱلشَّآ م نَسِيمَ أَنْفَاسِ ٱلْعِرَاقِ
أَيْقَنْتُ لِي وَلِمَنْ أُحِبُّ م بِجَمْعِ شَمْلٍ وَٱتِّفَاقِ
وَضَحِكْتُ مِنْ فَرَحِ ٱللِّقَا ءِ كَمَا بَكَيْتُ مِنَ ٱلْفِرَاقِ
لَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا تَجَشُّـــمُ أَزْمُنِ ٱلسَّفَرِ ٱلْبَوَاقِي
حَتَّى يَطُولَ حَدِيثُنَا بِصِفَاتِ مَا كُنَّا نُلَاقِي

وَكُنْتُ قَبْلَ حُلُولِي بِالْبِقَاعِ ٱلشَّامِيَّةِ مُولَعًا بِالْوَطَنِ لَا سِوَاهُ ، فَصَارَ ٱلْقَلْبُ بَعْدَ ذٰلِكَ مُقَسَّمًا بِهَوَاهُ

وَلِي بِالْحِمَى أَهْلٌ وَبِالشِّعْبِ (١) جِيرَةٌ
وَفِي حَاجِرٍ (٢) خِلٌّ وَفِي ٱلْمُنْحَنَى (٣) صَحْبُ
تَقَسَّمَ (٤) ذَا ٱلْقَلْبُ ٱلْمُتَيَّمُ بَيْنَهُمْ
سَأَلْتُكُمُ بِاللّٰهِ هَلْ يُقْسَمُ ٱلْقَلْبُ

فَيَالَكَ مِنْ صَبٍّ مُرَاعٍ لِلذِّمَامِ (٥) ، مُنْقَادٍ لِشَوْقِهِ بِزِمَامٍ ،

---

(١) الشعب : الطرق فى الجبل ، وماء بين العقبة والقاع فى طريق مكة ، ومكان آخر بظاهر المدينة المنوره (ويسمى شعب العجوز) والشعب (بضم الشين) واد بين مكة والمدينة (٢) حاجر : منزل للحاج بالبادية فى طريق مكة (٣) المنحنى : موضع قرب مكة المكرمة (٤) أو (تُقُسِّمَ) .
(٥) الذمام : العهد والحرمة والحق وكل حرمة تلزمك اذا ضيعتها المذمة

يُخَيَّلُ لَهُ أَنَّهُ سَمِعَ صَوْتَ قِيَانٍ بِقَوْلِ ٱلْأَوَّلِ :

إِلَى ٱللهِ أَشْكُو بِالْمَدِينَةِ حَاجَةً   وَبِالشَّامِ أُخْرَى كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ ؟

وَفَرْدٍ تَعَدَّدَتْ جُمُوعُهُ ، وَوَشَتْ[1] بِمَا أَكَنَّتْ ضُلُوعُهُ دُمُوعُهُ ، فَأَنْشَدَ وَقَدْ تَحَيَّرَ ، مَا بَدَّلَ فِيهِ مِنْ عِظَمِ مَا بِهِ وَغَيَّرَ :

كَتَمْتُ شَأْنَ ٱلْهَوَى يَوْمَ ٱلنَّوَى فَوَشَى
بِسِرِّهِ مِنْ جُفُونِي أَيُّ نَمَّامِ ؟
كَانَتْ لَيَالِيَّ بِيضًا فِي دُنُوِّهِمُ
فَلَا تَسَلْ بَعْدَهُمْ عَنْ حَالِ أَيَّامِي
ضَنِيتُ[2] وَجْدًا بِهِمْ وَٱلنَّاسُ تَحْسَبُ بِي
سُقْمًا فَأُبْهِمَ حَالِي عِنْـــدَ لُوَّامِي
وَلَيْسَ أَصْلُ ضَنَى جِسْمِي ٱلنَّحِيلِ سِوَى
فَرْطِ ٱشْتِيَاقِي لِأَهْلِ ٱلْغَرْبِ[3] وَٱلشَّامِ

وَحَصَلَ ٱلتَّحَيُّرُ ، حَيْثُ لَمْ يُمْكِنِ ٱلْجَمْعُ وَلَا ٱلْخُلُوُّ عِنْدَ ٱلتَّخَيُّرِ ، كَمَا قَالَ ٱبْنُ دَقِيقِ ٱلْعِيدِ ، فِي مِثْلِ هٰذَا ٱلْغَرَضِ ٱلْبَعِيدِ :

(١) أي نمت ودلت ، من الوشاية (٢) ضنى — من باب فرح — : هزل وضعف
(٣) يريد بلاد الأندلس وطنه

إِذَا كُنْتُ فِي نَجْدٍ وَطِيبِ نَعِيمِهِ
تَذَكَّرْتُ أَهْلِي بِاللِّوَى[١] فَمُحَسِّرِ
وَإِنْ كُنْتُ فِيهِمْ زِدْتُ شَوْقاً وَلَوْعَةً
إِلَى سَاكِنِي نَجْدٍ وَعِيلَ تَصَبُّرِي
فَقَدْ طَالَ مَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مَوْقِفِي
فَمَنْ لِي بِنَجْدٍ بَيْنَ أَهْلِي وَمَعْشَرِي

وَبِالْجُمْلَةِ : فَالِاعْتِرَافُ بِالْحَقِّ فَضِيلَةٌ ، وَمَحَاسِنُ الشَّامِ وَأَهْلِهِ طَوِيلَةٌ وَعَرِيضَةٌ ، وَرِيَاضُهُ بِالْمَفَاخِرِ وَالْكَمَالَاتِ أَرِيضَةٌ[٢] وَهُوَ مَقَرُّ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ ، وَلَا يَجْهَلُ فَضْلَهُ إِلَّا الْأَغْمَارُ الْأَغْبِيَاءُ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ مَرِيضَةٌ :

أَنَّى يَرَى الشَّمْسَ خُفَّاشٌ[٣] يُلَاحِظُهَا
وَالشَّمْسُ تَبْهَرُ أَبْصَارَ الْخَفَافِيشِ

وَلِلَّهِ دَرُّ مَنْ قَالَ فِي مِثْلِ هٰذَا مِنَ الْأَرْضِيَاءِ :

(١) اللوى ومحسر : موضعان ببلاد العرب (٢) أرض أريضة : أى كريمة لينة تمرح بالنبات ، ويقال نزلنا أرضا أريضة أى معجبة للعين . قال امرؤ القيس :

بلاد عريضة وأرض أريضة مدافع ماء فى فضاء عريض

اهـ من اللسان (٣) أى الوطواط ، وهو لا يبصر نهارا

وَهَبْنِي قُلْتُ هٰذَا ٱلصُّبْحُ لَيْلٌ ... أَيَعْمَى ٱلْعَالَمُونَ عَنِ ٱلضِّيَاءِ

وَقَالَ آخَرُ، فِيمَنْ عَنِ ٱلْحَقِّ يَنْفِرُ:

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ عَيْنٌ بَصِيرَةٌ

فَلَا غَرْوَ أَنْ يَرْتَابَ وَٱلصُّبْحُ مُسْفِرُ[1]

وَحَسْبُ ٱلْفَاضِلِ ٱللَّبِيبِ، أَنْ يَرْوِيَ قَوْلَ ٱلْبَدْرِ بْنِ حَبِيبٍ:

عَرِّجْ[2] إِذَا مَا شِمْتَ[3] بَرْقَ ٱلشَّآمْ

وَحَيِّ أَهْلَ ٱلْحَيِّ وَٱقْرِ ٱلسَّلَامْ

وَٱنْزِلْ بِإِقْلِيمٍ جَزِيلِ ٱلْحَيَا ... بَارَكَ فِيهِ ٱللهُ رَبُّ ٱلْأَنَامْ

ٱلْعِزُّ وَٱلنَّصْرُ لَدَيْهِ وَمَا ... لِعُرْوَةِ ٱلْإِسْلَامِ عَنْهُ ٱنْفِصَامْ

مِنْ أَوْلِيَاءِ ٱللهِ كَمْ قَدْ حَوَى ... رُكْنًا بِمَرْآهُ يَطِيبُ ٱلْمُقَامْ؟

وَهْوَ مَقَرُّ ٱلْأَنْبِيَاءِ ٱلْأُلَى ... وَٱلْأَصْفِيَاءِ ٱلْأَتْقِيَاءِ ٱلْكِرَامْ

كَمْ مِنْ شَهِيدٍ فِي حِمَاهُ وَكَمْ ... مِنْ عَالِمٍ فَرْدٍ وَكَمْ مِنْ إِمَامْ؟؟

وَلِذَلِكَ ٱعْتَنَتِ ٱلْجَهَابِذَةُ بِتَخْلِيدِ أَخْبَارِهِ فِي ٱلدَّوَاوِينِ،

---

(١) أسفر الصبح: أنار وأضاء (٢) عرج: مال وعطف (٣) شام البرق: رآه

وَابْتَنَتِ الْأَسَاتِذَةُ بُيُوتَ افْتِخَارِهِ الْمُنِيفَةَ الْأَوَاوِينِ[1] ، وَتَنَاقَلَتْ أَنْبَاءهُ الْبَدِيعَةَ أَلْسُنُ الرَّاوِينَ ، وَهَامَتْ بِأَمَا كِنِهِ الْمَرِيعَةِ هُدَاةُ الشَّرِيعَةِ فَضْلًا عَنِ الشُّعَرَاءِ الْغَاوِينَ ، وَمَعَ ذٰلِكَ هُمْ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ عَجَائِبِهِ غَيْرُ مُتَسَاوِينَ ، أَوَلَا تَرَى أَنَّهُمْ يَأْتُونَ مِنْ مَقُولِهِمْ ، عَلَى قَدْرِ رَأْيِهِمْ وَعُقُولِهِمْ ، وَلَمْ يَبْلُغْ جَمْعٌ مِنْهُمْ مَا كَانُوا لَهُ نَاوِينَ :

عَلَى قَدْرِكَ الصَّهْبَاءِ تُولِيكَ نَشْوَةً

بِهَا سِيءَ أَعْـدَاءٌ وَسُرَّ صِحَابُ

وَلَوْ أَنَّهَا تُعْطِيكَ مِنْهَا بِقَدْرِهَا

لَضَاقَتْ بِكَ الْأَكْوَانُ وَهْيَ رِحَابُ

•

وَكُنَّا فِي خِلَالِ الْإِقَامَةِ بِدِمَشْقَ الْمَحُوطَةِ ، وَأَثْنَاءِ التَّأَمُّلِ فِي مَحَاسِنِ الْجَامِعِ وَالْمَنَازِلِ وَالْقُصُورِ وَالْغُوطَةِ ، كَثِيرًا مَا نَنْظِمُ فِي سِلْكِ الْمُذَاكَرَةِ دُرَرَ الْأَخْبَارِ الْمَلْقُوطَةِ ، وَنَتَفَيَّأُ مِنْ ظِلَالِ التِّبْيَانِ مَعَ أُولٰئِكَ الْأَعْيَانِ فِي مَجَالِسَ

(١) الأواوين : جمع إيوان . أى شيدت مفاخره ورفعت مآثره وأبدعت فى وصف متنزهاته

مَغْبُوطَةٍ ، تَتَجَاذَبُ فِيهَا أَهْدَابَ ٱلْآدَابِ، وَنَشْرَبُ مِنْ سَلْسَالِ ٱلِاسْتِرْسَالِ وَتَتَهَادَى لُبَابَ ٱلْأَلْبَابِ ، وَنَمُدُّ بِسَاطَ ٱلِانْبِسَاطِ وَنَسْدِلُ أَطْنَابَ ٱلْإِطْنَابِ، وَنَتَقَضِي أَوْطَارَ ٱلْأَقْطَارِ ، وَنَسْتَدْعِي أَعْلَامَ ٱلْأَعْلَامِ ، فَيَنْجَرُّ بِنَا ٱلْكَلَامُ، وَٱلْحَدِيثُ شُجُونٌ ، وَبِالتَّفَنُّنِ يَبْلُغُ ٱلْمُسْتَفِيدُونَ مَا يَرْجُونَ ، إِلَى ذِكْرِ ٱلْبِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِيَّةِ ، وَوَصْفِ رِيَاضِهَا ٱلسُّنْدُسِيَّةِ ٱلَّتِي هِيَ بِٱلْحُسْنِ مَنُوطَةٌ ، وَقَضَايَاهَا ٱلْمُوَجَّهَةِ ٱلَّتِي لَا يَسْتَوْفِيهَا ٱلْمَنْطِقُ مَعَ أَنَّهَا ضَرُورِيَّةٌ وَمُمْكِنَةٌ وَمَشْرُوطَةٌ[١]، وَٱلْفِطَرُ ٱلسَّلِيمَةُ ، وَٱلْأَفْهَامُ ٱلْمُسْتَقِيمَةُ ، بِتَسْلِيمِ بَرَاهِينِهَا قَاضِيَةٌ ، لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَتْ بِٱلْإِنْصَافِ مَرْبُوطَةً ، فَصِرْتُ أُورِدُ مِنْ بَدَائِعِ بُلَغَائِهَا مَا يَجْرِي عَلَى لِسَانِي مِنَ ٱلْفَيْضِ ٱلرَّحْمَانِيِّ ، وَأَسْرُدُ مِنْ كَلَامِ وَزِيرِهَا لِسَانِ ٱلدِّينِ أَبْنِ ٱلْخَطِيبِ ٱلسَّلْمَانِيِّ ، صَبَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِ شَآبِيبَ[٢] رُحْمَاهُ ، وَبَلَّغَهُ مِنْ رِضْوَانِهِ ٱلْأَمَانِيَّ ، مَا تُثِيرُهُ

(١) قوله الموجهة وضرورية وممكنة ومشروطة الخ صفات للقضايا المنطقية وألفاظ فنية مصطلح عليهافى علم المنطق ذكرهاعلى وجه التورية والتوجيه كما لا يخفى على الملم بمصطلحات المنطق (٢) جمع شؤبوب : وهو الدفعة من المطر

ٱلْمُنَاسَبَةَ وَتَقْتَضِيهِ ، وَتَمِيلُ إِلَيْهِ ٱلطِّبَاعُ ٱلسَّلِيمَةُ وَتَرْتَضِيهِ مِنَ ٱلنَّظْمِ ٱلْجَزْلِ ، فِي ٱلْجِدِّ وَٱلْهَزْلِ ، وَٱلْإِنْشَاءِ ، ٱلَّذِي يُدْهِشُ بِهِ ذَاكِرُهُ ٱلْأَلْبَابَ إِنْ شَاءَ ، وَتَصَرُّفِهِ فِي فُنُونِ ٱلْبَلَاغَةِ حَالَي ٱلْوِلَايَةِ وَٱلْعَزْلِ ، إِذْ هُوَ ـ أَعْنِي لِسَانَ ٱلدِّينِ ـ فَارِسُ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ ، فِي ذٰلِكَ ٱلْعَصْرِ ، وَٱلْمُنْفَرِدُ بِالسَّبْقِ فِي تِلْكَ ٱلْمَيَادِينِ بِأَدَاةِ ٱلْحَصْرِ ، وَكَيْفَ لَا؟ وَنَظْمُهُ لَمْ تَسْتَوْلِ عَلَى مِثْلِهِ أَيْدِي ٱلْهَصْرِ [1] ، وَنَثْرُهُ تُزْرِي صُورَتُهُ بِٱلْخَرِيدَةِ [2] وَدُمْيَةِ ٱلْقَصْرِ ، فَلَمَّا تَكَرَّرَ ذٰلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ عَلَى أَسْمَاعِهِمْ ، لَهِجُوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِ حَتَّى صَارَ كَأَنَّهُ كَلِمَةُ إِجْمَاعِهِمْ ، وَعَلِقَ بِقُلُوبِهِمْ ، وَأَضْحَى مُنْتَهَى مَطْلُوبِهِمْ ، وَمُنْيَةَ آمَالِهِمْ وَأَطْمَاعِهِمْ ، وَصَارُوا يَقْطِفُونَ بِيَدِ ٱلرَّغْبَةِ فُنُونَهُ ، وَيَعْتَرِفُونَ بِبَرَاعَتِهِ وَيَسْتَحْسِنُونَهُ . وَيَسْتَنْشِقُونَ مِنْ أَزْهَارِهِ كُلَّ ذَاكٍ ، فَطَلَبَ مِنِّي ٱلْمَوْلَى أَحْمَدُ ٱلشَّاهِينِيُّ إِذْ ذَاكَ ، وَهُوَ ٱلْمَاجِدُ ٱلْمَذْكُورُ ، ذُو ٱلسَّعْيِ ٱلْمَشْكُورِ ، أَنْ أَتَصَدَّى لِلتَّعْرِيفِ بِلِسَانِ ٱلدِّينِ فِي مُصَنَّفٍ يُعْرِبُ عَنْ بَعْضِ أَحْوَالِهِ وَأَنْبَائِهِ ، وَبَدَائِعِهِ وَصَنَائِعِهِ

(١) هصر الشيء : أدناه وأماله . والهصر : عطف الشيء الرطب كالغصن ونحوه وجذبه وكسره دون أن يبين (٢) أي العذراء وفيه مع (دمية القصر) توجيه وتورية باسم كتابين معروفين

وَوَقَائِعِهِ مَعَ مُلُوكِ عَصْرِهِ وَعُلَمَائِهِ وَأُدَبَائِهِ، وَمَفَاخِرِهِ ٱلَّتِي قَلَّدَ بِهَا جِيدَ ٱلزَّمَانِ وَلَبَّتَهُ، وَمَآثِرِهِ ٱلَّتِي أَرَّجَ[1] بِهَا مَسْرَى[2] ٱلشَّمَالِ وَهَبَّتَهُ، وَبَعْضِ مَالَهُ مِنَ ٱلنِّثَارِ وَٱلنِّظَامِ، وَٱلْمُؤَلَّفَاتِ ٱلْكِبَارِ ٱلْعِظَامِ، ٱلرَّائِقَةِ لِلْأَبْصَارِ، ٱلْفَائِقَةِ عَلَى كَلَامِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ، ٱلسَّائِرَةِ مَسِيرَ ٱلْقَمَرِ وَٱلشَّمْسِ، ٱلْمَعْقُودِ عَلَيْهَا بِٱلْخَنَاصِرِ بَلِ ٱلْخَمْسِ، كَيْمَا يَكُونَ ذٰلِكَ لِهٰذِهِ ٱلْأَغْرَاضِ مُشِيعًا[3] وَيَخْلَعَ عَلَى مُطَالِعِهِ بِهٰذِهِ ٱلْبِلَادِ ٱلْمَشْرِقِيَّةِ مِنْ أَغْرَاضِهِ ٱلْبَدِيعَةِ وَمَنَازِعِهِ وَشِيعًا[4]، فَأَجَبْتُهُ أَسْمَى ٱللّٰهُ قَدْرَهُ ٱلْكَبِيرَ، وَأَدَامَ عَرْفَ فَضَائِلِهِ ٱلْمُزْرِيَ بِٱلْعَنْبَرِ وَٱلْعَبِيرِ، بِأَنَّ هٰذَا ٱلْغَرَضَ غَيْرُ سَهْلٍ، وَلَسْتُ — عَلِمَ ٱللّٰهُ — لَهُ بِأَهْلٍ، مِنْ جِهَاتٍ عَدِيدَةٍ : أَوَّلُهَا قُصُورِي عَنْ تَحَمُّلِ تِلْكَ ٱلْأَعْبَاءِ ٱلشَّدِيدَةِ، إِذْ لَا يُوَفَّى بِهٰذَا ٱلْغَرَضِ إِلَّا ٱلْمَاهِرُ بِطُرُقِ ٱلْمَعَارِفِ ٱلسَّدِيدَةِ، وَثَانِيهَا عَدَمُ تَيَسُّرِ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُسْتَعَانِ بِهَا عَلَى هٰذَا ٱلْمَرَامِ لِأَنِّي

(١) أى عطر (٢) مسرى الشمال : حيث يهب ريح الصبا . وهو ألطف هواء (٣) أى مذيعا وناشرا (٤) الوشيع : علم الثوب ، ووشع الثوب رقمه بعلم ونحوه ، والوشيعة : الطريقة فى البرد

خَلَّفْتُهَا بِالْمَغْرِب ، وَأَكْثَرُهَا فِى الْمَشْرِقِ كَعَنْقَاءِ(١) مُغْرِب ، وَثَالِثُهَا شُغْلُ الْخَاطِرِ بِأَشْجَانِ الْغُرْبَةِ ، الْجَالِبَةِ لِلْفِكْرِ غَايَةَ الْكُرْبَةِ . وَتَقَسُّمُ الْبَالِ ، بَيْنَ شُغْلٍ عَائِقٍ وَبَلْبَالٍ . وَأَنَّى يُطِيقُ سُلُوكَ هٰذَا الْمَضِيقِ مَنِ اكْتَحَلَتْ جُفُونُهُ بِالسُّهَادِ ، وَنَبَتْ جُنُوبُهُ عَنِ الْمِهَادِ . سَدَّدَ نَحْوَهُ الْأَسَفُ سَهْمَهُ ، وَشَغَلَ بَالَهُ وَوَهْمَهُ . وَبَثَّ فِى قَلْبِهِ تَبْرِيحًا(٢) ، وَعَنَاءً لَمْ يَجِدْ مِنْهُ — إِلَّا أَنْ يَلْطُفَ اللّٰهُ — تَسْرِيحًا . فَمَا شَامَ بَارِقَةَ أَمَلٍ إِلَّا فِى النَّادِرِ ، وَلَا وَرَدَ مَنْهَلَ صَفَاءٍ إِلَّا وَكَدَّرَهُ مَكْرُ غَادِرٍ . وَقَدْ كَثُرَ الْجَفَاءُ ، وَبَرِحَ بِلَاشَكٍّ الْخَفَاءُ ، وَاسْتَوْخَمَتِ الْمَوَارِدُ وَالْمَصَادِرُ . وَالْقَلْبُ مَكْلُومٌ ، وَذُو اللُّبِّ غَيْرُ مَلُومٍ ، إِذَا كَانَ عَلَى تَلْفِيقِ مَا يَلِيقُ غَيْرَ قَادِرٌ . وَلَا مُؤْنِسٌ إِلَّا شَاكِى دَهْرٍ بِلِسَانٍ صَرِيحٍ ، أَوْ بَاكِى قَاصِمَةِ(٣) ظَهْرٍ بِجَفْنٍ قَرِيحٍ ، أَوْ مُنَاضِلٌ فِى مُعْتَرَكِ الْعَجْزِ طَرِيحٌ ، أَوْ فَاضِلٌ دُفِنَ مِنَ الْخُمُولِ فِى ضَرِيحٍ ، إِذْ رَمَتْهُ سِهَامُ الْأَوْهَامِ الصَّوَائِبُ ، وَعَضَّتْ مِنْهُ إِبْهَامَ الْإِبْهَامِ بِنَابِهَا

(١) يضرب بها المثل فى ندرة الشىء ، يقال أندر من عنقاء مغرب . بضم الميم (٢) التبريح : الحاح العذاب والمشقة ، والتباريح : الشدائد ، وتباريح الشوق : توهجه . وشدته ، وبرّح به الأمر : جهده (٣) أى ملمة فادحة . والقصم : الكسر

ٱلنَّوَى وَٱلنَّوَائِبُ ، فَقُلُوبُهُ مِنْ تَقَلُّبَاتِ أَحْوَالِهِ ذَوَائِبُ ،
وَكَمْ شَابَتْ مِنْ أَمْثَالِهِ بِصُرُوفِ ٱلدَّهْرِ وَأَهْوَالِهِ ذَوَائِبُ ،

عَلَى أَنَّهَا ٱلْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا
عَجَائِبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ

وَأَدْمَعَ[1] أَحْجَارَهَا تَسَلُّطُ فُجَّارِهَا . فَكَمْ مِنْ عَدُوٍّ مِنْهُمْ فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ ، وَحَسُودٍ فِي نَظَرِهِ إِلَى نِعَمِ ٱللهِ عَلَى عِبَادِهِ تَحْدِيقٌ . لَا تَخْدَعُهُ ٱلْمُدَارَاةُ ، وَلَا تَرْدَعُهُ ٱلْمُمَارَاةُ . يَتَتَبَّعُ ٱلْعَثَرَاتِ ، وَيَقْنَعُ بِأَلَمِ ٱلْبَثْرَاتِ . وَيَتَبَسَّمُ ، وَقَلْبُهُ مِنَ ٱلْغِلِّ يَتَقَسَّمُ ، وَيَتَوَدَّدُ ، وَمَكَايِدُهُ تَتَجَدَّدُ فَتَتَعَدَّدُ :

لَا تَرُمْ مِنْ مُمَاذِقٍ[2] ٱلْوُدِّ خَيْرًا ... فَبَعِيدٌ مِنَ ٱلسَّرَابِ ٱلشَّرَابُ

رَوْنَقٌ كَٱلْحُبَابِ[3] يَعْلُو عَلَى ٱلْمَا
ءِ وَلَكِنْ تَحْتَ ٱلْحُبَابِ ٱلْحُبَابُ[4]

عَظُمَتْ فِي ٱلنِّفَاقِ أَلْسِنَةُ ٱلْقَوْ
مِ وَفِي ٱلْأَلْسُنِ ٱلْعِذَابِ ٱلْعَذَابُ

---

(١) لعله : وأدمع من أحجارها ، أو (أدمع عين أحجارها) يعنى أن تسلط الفجار فى الدنيا أسال دموع الجماد والأحجار بله العقلاء ذوى الاحساس من بنى الانسان ! ! (٢) المماذق : الذى لم يخلص فى الود (٣) الحباب : الفقاقيع التى تعلو الكأس (٤) أى الحية

وَٱلصَّدِيقُ ٱلصَّدُوقُ فِي هَذَا ٱلزَّمَنِ قَلِيلٌ، وَقَدْ أَلَّفَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ شِفَاءَ ٱلْغَلِيلِ، فِي ذَمِّ ٱلصَّاحِبِ وَٱلْخَلِيلِ. وَهُوَ غَيْرُ مَحْمُولٍ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ، وَإِنْ قَالَ بِهِ بَعْضُ مَنْ رَهَنَهُ مِنْ أَبْنَاءِ عَصْرِهِ ذُو إِغْلَاقٍ:

أَبْنَاءَ دَهْرِكَ فَٱلْقَهُمْ   مِثْلَ ٱلْعِدَا بِسِلَاحِكَا
لَا تَغْتَرِرْ بِتَبَسُّمٍ   فَالسَّيْفُ يَقْتُلُ ضَاحِكَا

وَدَاءُ ٱلْحَسَدِ أَعْيَا ٱلْأَوَّلَ وَٱلْآخِرَ، وَقَدْ عَظُمَ ٱلْأَمْرُ فِي هَذَا ٱلْأَوَانِ وَكَثُرَ ٱلْمُزْدَرِي[1] وَٱلسَّاخِرُ، مَعَ أَنَّ أَسْوَاقَ ٱلدَّفَاتِرِ كَاسِدَةٌ[2] وَأَمْزِجَةَ ٱلْمَحَابِرِ فَاسِدَةٌ:

وَٱلدَّهْرُ دَهْرُ ٱلْجَاهِلِيـ   ـنَ وَأَمْرُ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ فَاتِرْ
لَاسُوقَ أَكْسَدُ فِيهِ مِنْ   سُوقِ ٱلْمَحَابِرِ وَٱلدَّفَاتِرْ

فَٱلْمَنْسُوبُ لِلْعِلْمِ فِي هَذَا ٱلزَّمَنِ زَمِنٌ[3]، وَهُوَ بِأَنْ يُنْشِدَ قَوْلَ ٱلْأَوَّلِ قَمِنٌ[4]:

---

(١) ازدراه: احتقره. وسخر منه: استهزأ به (٢) كسدت السوق وكسد الشيء: لم يقبل عليه المشترى. فان كثر البيع والشراء قيل راجت ونفقت (٣) زمن زمنا: مرض، فهو زمن. والجمع زمنى (٤) قمن: جدير

لِأَىٍّ وَمِيضِ بَارِقَةٍ أَشِيمُ ... وَرَعْىُ ٱلْفَضْلِ عِنْدَهُمُ هَشِيمُ[1]

وَلَيْتَ شِعْرِى عَلَامَ يُحْسَدُ مَنْ أَبْدَلَ ٱلاغْتِرَابُ شَارَتَهُ، وَأَضْعَفَ ٱلاضْطِرَابُ إِشَارَتَهُ. وَأَنْهَلَ بِالدُّمُوعِ أَنْوَاءَهُ، وقَلَّلَ أَضْوَاءَهُ، وَكَثَّرَ عِلَلَهُ وَأَدْوَاءَهُ، وَغَيَّرَ عِنْدَ ٱلتَّأَمُّلِ رُوَاءَهُ. وَثَنَى[2] عَنِ ٱلْمَأْمُولِ عِنَانَهُ، وَأَرْهَفَ بِالْخُمُولِ سِنَانَهُ، حَتَّى قَدَحَ ٱلذِّكْرُ جَنَانَهُ، وَمَلَأَ ٱلْفِكْرُ جَأْشَهُ[3] وَجَنَانَهُ فَهُوَ فِى مَيْدَانِ ٱلنُّزُوحِ مُسْتَبِقٌ، وَمِنْ رَاحَةِ ٱلتَّعَبِ مُصْطَبِحٌ[4] وَمُغْتَبِقٌ

لَهُ أَنَّةُ ٱلْمُشْتَاقِ فِى كُلِّ سَاعَةٍ ... تَمُرُّ وَمَا ٱللثَّاكِلَاتِ مِنَ ٱلْحُزْنِ

وَمِنْ مُرْسَلَاتِ ٱلدَّمْعِ وَاقِعَةُ ٱلْأَسَى

وَمِنْ عَادِيَاتِ ٱلْبَيْنِ قَارِعَةُ[5] ٱلسِّنِّ

. تُثِيرُ ٱلذِّكْرَى مِنْهُ كَوَامِنَ ٱلشُّجُونِ، وَتُدِيرُ عَلَيْهِ جَامَ[6] ٱلْهُيَامِ وَلَوْ كَانَ بَيْنَ ٱلصَّفَا وَٱلْحُجُونِ،

(١) الهشيم: النبت اليابس المتكسر (٢) أى صرف عنه (٣) جأشه: قلبه وصدره (٤) الاصطباح: الشرب صباحا. والاغتباق: الشرب مساء (٥) قرع سنه: أى ندم، وفى ألفاظ: مرسلات، واقعة، عاديات، قارعة توجيه بأسماء سور من القرآن الكريم (٦) الجام: الكاس

وَتَحْتَ ضُلُوعِ ٱلْمُسْتَهَامِ كَآبَةٌ
يَخَافُ عَلَى ٱلْأَحْشَاءِ مِنْهَا ٱلتَّفَطُّرَا[١]
وَلَوْ أَنَّ أَحْشَاءً تَبُوحُ بِمَا حَوَتْ
لَتَمْتَلِئَنَّ ٱلْأَرْضُ كُتْبًا وَأَسْطُرَا

وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ ٱلاقْتِرَابِ وَٱلاغْتِرَابِ، وَٱلسُّكُونِ فِي ٱلرُّكُونِ وَٱلنُّبُوِّ عَنْهَا وَٱلاضْطِرَابِ. فَذَاكَ تَسْهُلُ غَالِبًا فِيهِ ٱلْأَغْرَاضُ وَٱلْمَآرِبُ، وَهَذَا تَتَعَفَّرُ فِيهِ ٱلْمَقَاصِدُ وَتَتَكَدَّرُ ٱلْمَشَارِبُ

وَمَا أَنَا عَنْ تَحْصِيلِ دُنْيَا بِعَاجِزٍ
وَلَكِنْ أَرَى تَحْصِيلَهَا بِالدَّنِيَّةِ[٢]
وَإِنْ طَاوَعَتْنِي رِقَّةُ ٱلْحَالِ مَرَّةً أَبَتْ فِعْلَهَا أَخْلَاقُ نَفْسٍ أَبِيَّةٍ[٣]

وَكَمَا قُلْتُ، عِنْدَ مَا صِرْتُ إِلَى ٱلاغْتِرَابِ وَأُلْتُ:

تَرَكْتُ رُسُومَ عِزِّي فِي بِلَادِي
وَصِرْتُ بِمِصْرَ مَنْسِيَّ ٱلرُّسُومِ
وَرُضْتُ ٱلنَّفْسَ بِالتَّجْرِيدِ زُهْدًا وَقُلْتُ لَهَا عَنِ ٱلْعَلْيَاءِ صُومِي

---

(١) التقطع والتمزق (٢) بالدنية : أى بتعريض النفس للخسة والدناءة والخصال المذمومة (٣) أبية : مترفعة عن الدنايا

مَخَافَةَ أَنْ أُرَى بِالْحِرْصِ مِمَّنْ   يَكُونُ زَمَانُهُ أَحَدَ الْخُصُومِ

وَكَمَا قَالَ بَعْضُ الْأَكَابِرِ، مِنْ أَهْلِ الزَّمَانِ الْغَابِرِ :

لَاعَارَ إِنْ عَطِلَتْ يَدَاىَ مِنَ الْغِنَى

كَمْ سَابِقٍ فِي الْخَيْلِ غَيْرُ مُحَجَّلِ[1]

صَانَ[2] اللَّئِيمُ وَصُنْتُ وَجْهِي مَالَهُ

دُونِي فَلَمْ يَبْذُلْ وَلَمْ أَتَبَذَّلِ

أَبْكِي لِهَمٍّ ضَافَنِي مُتَأَوِّبًا   إِنَّ الدُّمُوعَ قِرَى الْهُمُومِ النُّزَّلِ

لَاتُنْكِرُوا شَيْبًا أَلَمَّ بِفَرْقِي   عَجِلًا كَأَنَّ سَنَاهُ سَلَّةُ مُنْصُلِ[3]

فَلَقَدْ دُفِعْتُ إِلَى الْهُمُومِ تَنُوبُنِي

مِنْهَا ثَلَاثُ شَدَائِدٍ جُمِّعْنَ لِي

أَسَفٌ عَلَى مَاضِي الزَّمَانِ وَحَيْرَةٌ

فِي الْحَالِ مِنْهُ وَوَحْشَةُ الْمُسْتَقْبَلِ

---

(١) المحجل . الذى فى أرجله بياض (٢) فى البيت تعقيد لفظى نشأ من التقديم لما حقه التأخير وبالعكس. ونظامه : صان اللئيم ماله دونى فلم يبذل وصنت وجهى فلم أتبذل (٣) سل السيف واستله : أخرجه من غمده ، والمنصل : السيف

مَا إِنْ وَصَلْتُ إِلَى زَمَانٍ آخِرٍ ... إِلَّا بَكَيْتُ عَلَى ٱلزَّمَانِ ٱلْأَوَّلِ

لِلّٰهِ عَهْدٌ بِالْحِمَى لَمْ أَنْسَهُ ... أَيَّامَ أَعْصِى فِي ٱلصَّبَابَةِ عُذَّلِي

وَيَرْحَمُ ٱللّٰهُ ٱبْنَ قَلَاقِسَ ٱلِاسْكَنْدَرِيَّ ، إِذْ قَالَ فِي مَعْنَى ٱلتَّمَنِّي ٱلْمَصْدَرِيِّ :

لَعَلَّ زَمَانِي بِالْعُذَيْبِ يَعُودُ ... فَيَقْرُبَ قُرْبٌ أَوْ يَصُدَّ صُدُودُ

وَأُبْصِرُ كُثْبَانًا وَهَزَّ رَوَادِفٍ ... عَلَيْهِنَّ أَغْصَانٌ وَهُنَّ قُدُودُ

وَأَقْطِفُ وَرْدَ ٱلْخَدِّ وَهُوَ مُضَرَّجٌ
وَأَجْنِي أَقَاحَ(١) ٱلثَّغْرِ وَهُوَ بَرُودُ(٢)

وَأُدْنِي ذِرَاعِي لِلْعِنَاقِ ذَرِيعَةً ... فَتَنْهَى عَنِ ٱلْإِفْرَاطِ فِيهِ نُهُودُ

وَيَسْرِي إِلَيَّ ٱلْبَدْرُ وَهُوَ مُمَنَّعٌ ... وَيَغْدُو إِلَيَّ ٱلظَّبْيُ وَهُوَ شَرُودُ

وَنَكْرَعُ فِي شَكْوَى ٱلْفِرَاقِ كَأَنَّنَا
فَوَارِطُ هِيمٍ(٣) رَاقَهُنَّ وُرُودُ

وَأُكْبِرُ مِقْدَارَ ٱلْهَوَى عَنْ كَبِيرَةٍ
وَأَحْمِي عَفَافِي دُونَهُ وَأَذُودُ

---

(١) أقاح جمع أقحوان : وهو نبات أوراق زهره مفلجة صغيرة يشبهون بها الأسنان (٢) وصف من برد الشيء برودة، وماء بَرْد، وبارد، وبَرود (٣) الابل الهيم : العطاش، والفوارط جمع فارط ، وفارطة، وهو السابق المتقدم الى الماء

وَفَرْقٌ مَا بَيْنَ ٱلْجَوْهَرِ وَٱلْعَرَضِ، وَٱلصِّحَّةِ ٱلْبَيِّنَةِ وَٱلْمَرَضِ. وَٱلدُّرِّ وَٱلْحَصَا، وَٱلْحُسَامِ وَٱلْعَصَا. وَٱلرُّجُوعُ إِلَى ٱلتَّفْوِيضِ لِلْأَقْدَارِ، فِي امُورِ هَذِهِ ٱلدَّارِ، ٱلْكَثِيرَةِ ٱلْأَكْدَارِ، هُوَ ٱلْمَطْلُوبُ، وَٱلْمَرْجُو مِنَ ٱللهِ سُبْحَانَهُ جَبْرُ ٱلْقُلُوبِ:

يَا رَبِّ نَفِّسْ هُمُومِي   وَٱكْشِفْ كُرُوبِي جَمِيعَا
فَقَدْ رَجَوْتُ كَرِيمًا   وَقَدْ دَعَوْتُ سَمِيعَا

وَلَمْ يَجْعَلْ لِي ٱلْمَذْكُورُ ـ حَفِظَهُ ٱللهُ ـ فُسْحَةً وَلَا مَنْدُوحَةً، بَعْدَ هَذِهِ ٱلْأَعْذَارِ ٱلْمَحْمُودَةِ فِي ٱلصِّدْقِ ٱلْمَمْدُوحَةِ. وَلِسَانُ حَالِي وَقَالِي، يُثْبِتَانِ عَجْزِي عَنْ أَدَاءِ هَذَا ٱلْحَقِّ بِشَهَادَةِ مَنْ هُوَ وَادٌّ وَقَالِي. إِذْ مَنْ كَانَ بِصِفَةٍ غَيْرِ مُتَمَكِّنَةٍ مِمَّا تَكُونُ بِهِ مُتَّصِفَةً، وَٱتَّسَمَ بِنُعُوتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَٱرْتَسَمَ فِي غَيْرِ ذَوِي ٱلْأَحْوَالِ ٱلْمُؤْتَلِفَةِ، كَيْفَ يَحِيرُ فِي ٱلتَّصْنِيفِ جَوَابًا، أَوْ يَنْتَحِي مِنَ ٱلتَّأْلِيفِ صَوَابًا. وَمَنْ جَفْنُهُ هَامٍ هَامِلٌ، وَقُصُورُهُ عَامٌّ شَامِلٌ، كَيْفَ يَقْبِضُ بِٱلْأَنَامِلِ، عَلَى مَاءِ ٱلْبَحْرِ ٱلْوَافِرِ

ٱلْكَامِلِ ،وَمَنْ لَبِسَ مِنَ ٱلْعِيِّ مُلَاهُ ، لَا يُعَبِّرُ عَمَّنْ طَبَّقَ مَفَاصِلَ ٱلْكَلَامِ وَكُلَاهُ ، وَقَصُرَتْ أَلْسُنُ ٱلْبُلَغَاءِ عَنْ عُلَاهُ ، وَزَانَتْ صُدُورَ ٱلدَّوَاوِينِ حُلَاهُ . وَجَمَعَ خِلَالًا حِسَانًا ، وَكَانَ لِلدِّينِ لِسَانًا . وَزَاحَمَتْ مَفَاخِرُهُ بِالْمَنَاكِبِ ٱلْكَوَاكِبَ ، وَٱزْدَانَتْ بِمَرْآهُ ٱلنَّوَادِي وَٱلْمَوَاكِبُ . وَنَفَحَاتُ ٱلْأَزْهَارِ مِنْ آدَابِهِ ، وَنَسَمَاتُ ٱلْأَسْحَارِ عِطْرُ أَذْيَالِهِ وَأَهْدَابِهِ . وَٱلسِّحْرُ مِنْ كِتَابَتِهِ ، وَٱلسَّحَرُ مِنْ كِنَايَتِهِ وَرَوْحُ ٱلنَّسِيمِ مِنْ تَعْرِيضِهِ ، وَٱلنَّثْرَةُ مِنْ نَثْرِهِ وَٱلشِّعْرَى[1] مِنْ شِعْرِهِ وَقَرِيضِهِ ، وَحُلَلُ ٱلْمَجْدِ لِبَاسُهُ ،وَأَنْوَارُ ٱلْعِلْمِ ٱقْتِبَاسُهُ:

لَهُ ذِهْنٌ يَغُوصُ بِبَحْرِ عِلْمٍ ... فَيَأْتِي مِنْهُ بِالدُّرِّ ٱلنَّظِيمِ
مَعَانِيهِ ٱلرِّيَاضُ لِأَجْلِ هَذَا ... سَرَتْ أَلْفَاظُهُ مِثْلَ ٱلنَّسِيمِ

وَمُبَاهِيهِ ٱلنُّجُومُ ، وَمُضَاهِيهِ ٱلْغَيْثُ ٱلسَّجُومُ ، إِلَى آبَاءٍ يَحْسُدُهُمُ ٱلْقَمَرُ وَٱلشَّمْسُ، وَإِبَاءٍ[2] لَوْ كَانَ لِلْمَشْرَفِيِّ لَمَا تَحَيَّفَهُ[3] لَمْسٌ. وَشَرَفٍ لَا مُدَّعًى وَلَا مُنْتَحَلٍ ، وَهِمَّةٍ لَوْ نَالَهَا ٱلْبَدْرُ

---

(١) النثرة والشعرى : كوكبان (٢) امتناع من الضيم . والمشرفى السيف
(٣) تحيفه : تنقصه

لَاسْتَخْذَى[١] لَهُ زُحَلُ ، وَبَرَاعَةٍ أَرْهَفَتْ سِنَانَ قَلَمِهِ ، وَيَرَاعَةٍ سَارَتْ أُمَرَاؤُهَا تَحْتَ عَلَمِهِ ، فَكَمْ فَتَحَ بِفِكْرِهِ أَقْفَالَهَا ، وَوَسَمَ بِذِهْنِهِ ٱلثَّاقِبِ أَغْفَالَهَا . وَسَبَكَ مَعَانِيهَا فِي قَالَبِ قَلْبِهِ إِبْرِيزًا ، وَرَقَمَ بَيَانُ لِسَانِهِ بُرُودَ إِحْسَانِهِ بِلَفْظِهِ ٱلْبَدِيعِ تَطْرِيزًا . فَرُفِعَ فِي مَيْدَانِ ٱلْإِجَادَةِ لِوَاؤُهُ ، وَأُتِيحَ مِنْ أَنْهَارِ ٱلْبَرَاعَةِ ٱلْعَذْبَةِ إِرْوَاؤُهُ ، وَنَالَ سَبْقًا وَتَبْرِيزًا :

وَمَا زَمَنُ ٱلشَّبَابِ وَأَنْتَ تَجْرِى

مَعَ ٱلْأَحْبَابِ فِي لَهْوٍ وَطِيبِ

وَوَصْلٍ مِنْ حَبِيبٍ بَعْدَ هَجْرٍ

بِأَحْلَى مِنْ كَلَامِ ٱبْنِ ٱلْخَطِيبِ

فَقَصَائِدُهُ أَرْخَصَتْ جَوَاهِرَ ٱلْبُحُورِ ، ٱلْمَنْظُومَةِ فِي قَلَائِدِ ٱللَّبَّاتِ وَٱلنُّحُورِ ، مِنْ حِسَانِ ٱلْعَقَائِلِ ٱلْحُورِ :

مَعَانٍ وَأَلْفَاظٌ تُنَظَّمُ مِنْهُمَا عُقُودُ لَآلٍ فِي نُحُورِ ٱلشَّمَائِلِ

وَزَهْرُ كَلَامٍ كَالْحَدَائِقِ نَسْجُهُ

غَنِينَا بِهِ عَنْ حُسْنِ زَهْرِ ٱلْخَمَائِلِ

(١) استخذى : خضع

وَكَلِمَاتُهُ غَدَتْ لِلْإِبْدَاعِ إِقْلِيدًا[١] وَجَمَعَتْ طَرِيفًا مِنَ الْبَلَاغَةِ وَتَلِيدًا :

كَسَوْنَ عَبِيدًا[٢] ثِيَابَ الْعَبِيدِ ... وَأَضْحَى لَبِيدٌ[٣] لَدَيْهَا بَلِيدَا

وَمُقَطَّعَاتُهُ أَلَذُّ فِي الْأَسْمَاعِ ، مِنْ مُطْرِبِ السَّمَاعِ ، وَأَبْهَى فِي الْأَحْدَاقِ وَالنَّوَاظِرِ ، مِنَ الْحَدَائِقِ ذَوَاتِ الْأَغْصَانِ الْمُلْدِ النَّوَاضِرِ ، يَعْتَرِفُ بِفَضْلِهَا مَنِ انْتَحَلَ الْإِنْصَافَ دِينًا ، وَانْتَخَلَ[٤] الْأَوْصَافَ فَاخْتَارَ الْعَدْلَ مِنْهَا خَدِينًا[٥] :

رَقِيقَاتُ الْمَقَاطِعِ مُحْكَمَاتٌ ... لَوَ انَّ الشِّعْرَ يُلْبَسُ لَارْتُدِينَا

وَرَسَائِلُهُ كَنُقَطِ[٦] الْعَرُوسِ اللَّائِحَةِ فِي الْبَيَاضِ ، أَوْ كَوَشْيِ الرَّبِيعِ أَوْ قِطَعِ الرِّيَاضِ . بَرَزَتْ أَغْصَانُهَا الْحَالِيَةُ وَتَبَرَّجَتْ[٧] ، وَتَضَوَّعَتْ[٨] أَفْنَانُهَا الْعَالِيَةُ وَتَأَرَّجَتْ ، وَقَدْ

---

(١) الاقليد : القلادة والمفتاح (٢) هو عبيد بن الأبرص شاعر جاهلي مشهور من أصحاب المعلقات (٣) هو لبيد بن ربيعة العامري (٤) انتخل الشيء ، نخله وتنخله : صفاه واختاره واستقصى أفضله وتخير أجوده (٥) رفيقا وصاحبا (٦) نقطت المرأة خدها بالسواد تتجمل بذلك (٧) أظهرت زينتها (٨) تضوعت : انتشر أرجها ، وتأرجت كذلك

أَلْبَسَهَا ٱلْقَطْرُ زَهَرًا ، وَفَجَّرَ خِلَالَهَا نَهَرًا ، فَأَخَذَتْ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ ، وَلَاحَتْ مَحَاسِنُهَا غَيْرَ مُحْتَجِبَةٍ وَتَبَيَّنَتْ ، فَبَهَرَتْ مَنْ لَهَا قَابَلْ ، أَسْتَغْفِرُ ٱللهَ لَا بَلْ :

هِيَ ٱلْحَدِيقَةُ إِلَّا أَنَّ صَيِّبَهَا

صَوْبُ ٱلنُّهَى وَجَنَاهَا زَهْرَةُ ٱلْكَلِمِ

وَقَوَافِيهِ ، رِيشَتْ بِهَا قَوَادِمُ[1] ٱلْإِتْقَانِ وَخَوَافِيهِ[2] ، بَنَانُ مُجَارِيهَا يَسْتَدْثِرُ ٱلْحَصَرَ[3] ، وَبَاعُ مُبَارِيهَا يَسْتَشْعِرُ ٱلْقِصَرَ :

خَطُّهَا رَوْضَةٌ وَأَلْفَاظُهَا ٱلْأَزْ ... هَارُ يَضْحَكْنَ وَٱلْمَعَانِي ثِمَارُ

تُبْدِي لِمُبْصِرِهَا وَتُرِي ، مَا قَالَهُ أَبُو عُبَادَةَ ٱلْبُحْتُرِي :

وَكَلَامٍ كَأَنَّهُ ٱلزَّهَرُ ٱلنَّا ... ضِرُ فِي رَوْنَقِ ٱلرَّبِيعِ ٱلْجَدِيدِ

مُشْرِقٍ فِي جَوَانِبِ ٱلسَّمْعِ مَا يُخْـ ... ـلِقُهُ عَوْدُهُ عَلَى ٱلْمُسْتَعِيدِ

---

(١) أى الريش فى مقدم جناح الطائر (٢) خوافيه ـ جمع خافية ـ : ريش مؤخر الجناح ، قال الشاعر :

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فان الخوافى قوة للقوادم

(٣) الحصر بفتح الصاد : العى

وَمَعَانٍ لَوْ فَصَّلَتْهَا ٱلْقَوَافِي

هَجَّنَتْ مَا لِجَرْوَلٍ[1] مِنْ نَشِيدِ

حُزْنَ مُسْتَعْمَلَ ٱلْكَلَامِ ٱخْتِيَارًا

وَتَجَنَّبْنَ ظُلْمَةَ ٱلتَّعْقِيدِ

بَلْ هِيَ أَجَلُّ مِمَّا وَصَفَ عِنْدَ ٱلتَّحْقِيقِ ، وَإِمْعَانِ ٱلنَّظَرِ ٱلصَّحِيحِ وَٱلتَّدْقِيقِ :

أَيْنَ زَهْرُ ٱلرِّيَاضِ وَهْوَ إِذَامَا

طَالَ عَهْدًا بِالْغَيْثِ عَادَ هَشِيمَا

مِنْ قَوَافٍ كَأَنَّهَا ٱلْأَنْجُمُ ٱلزُّهْـرُ سَنَاهَا[2] زَانَ ٱلظَّلَامَ ٱلْبَهِيمَا

وَنَاهِيكَ بِمَنْ أَطْلَعَتْهُ ٱلْعُلُومُ عَلَى جَلَائِلِهَا وَدَقَائِقِهَا ، وَأَرَتْهُ ٱلْفُنُونُ مَاشَاءَ مِنْ يَانِعَاتِ حَدَائِقِهَا ، وَحَبَتْهُ ٱلْحِكَمُ ٱلرِّيَاضِيَّةُ بِأَزَاهِرِهَا وَشَقَائِقِهَا ، وَأَرْضَعَتْهُ ٱلْوِزَارَةُ مِنْ ثُدِيِّهَا ، وَحَلَّتْ بِهِ ٱلْإِمَارَةُ صَدْرَ نَدِيِّهَا[3] ، وَجَعَلَتْهُ ٱلْمَرْجُوعَ إِلَيْهِ فِي تَمْيِيزِ جَيِّدِ ٱلْأُمُورِ وَرَدِيِّهَا ، فَغَرَسَ فِي أَرْضِ

---

(١) جرول : لقب الحطيئة شاعر أموى هجاء (٢) السنا مقصورا : النور

(٣) النادى والندى : مجتمع القوم

ٱلرِّيَاسَةِ مِنْ نَخْلِ ٱلسِّيَاسَةِ وَوَدِيِّهَا[١] . وَأَعْلَى عَلَمَ ٱلْعَدْلِ وَأَغْمَدَ سَيْفَ ٱلِانْتِقَامِ ، وَدَفَعَ تِنِّينَ ٱلْفِتْنَةِ ٱلَّذِى فَغَرَ[٢] فَاهُ لِلِٱلْتِقَامِ . وَٱلْعَهْدُ إِذْ ذَاكَ قَرِيبٌ ، فِى وَطَنِ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلْغَرِيبِ ، بِٱخْتِلَالِ ٱلْحَالِ ، وَتَوَالِى ٱلْإِمْحَالِ[٣] ، وَٱلتَّجَرِّى عَلَى قَتْلِ ٱلْمُلُوكِ ، وَٱلتَّحَرِّى لِقَطْعِ ٱلطُّرُقِ وَمَنْعِ ٱلسُّلُوكِ حَيْثُ أَهْوَاءُ ٱلْمَارِقِينَ ذَاتُ ٱفْتِرَاقٍ ، وَضُلُوعُ ٱلصَّادِقِينَ فِى قَلَقٍ وَٱحْتِرَاقٍ. وَأَيْدِى ٱلْإِحَنِ[٤] بَاطِشَةٌ ، وَسُيُوفُ ٱلْمِحَنِ[٥] إِلَى ٱلدِّمَاءِ عَاطِشَةٌ ، وَعَرْشُ ٱلْحِمَايَةِ مَثْلُولٌ[٦] ، وَصَارِمُ ٱلْكِفَايَةِ مَفْلُولٌ ، وَنِطَاقُ ٱلرِّعَايَةِ مَطْلُولٌ[٧] ، وَجَيْبُ ٱلنَّصِيحَةِ مَمْلُولٌ . وَٱلتَّنُّورُ ٱلسُّلْطَانِىُّ بِنَارِ ٱخْتِلَافِ ٱلْكَلِمَةِ مُلْتَهِبٌ ، وَٱلْعَدُوُّ يَنْتَهِزُ ٱلْفُرْصَةَ وَيَسْتَلِبُ ٱلْأَنْفُسَ وَٱلْأَمْوَالَ وَيَنْتَهِبُ . وَلَيْسَ لَهُ فِى غَيْرِ قَطْعِ شَأْفَةِ ٱلْمُسْلِمِينَ ٱبْتِغَاءٌ ، وَإِنْ عَقَدَ ٱلْمُهَادَنَةَ فِى بَعْضِ ٱلْأَحْيَانِ

---

(١) الودى : صغار النخل الواحدة ودية وهو دون الفسيل ، سمى به لأنه يخرج من النخل ثم يقطع منه فيغرس (٢) فغر فاه : أى فتحه (٣) الامحال : الجدب والقحط (٤) جمع احنه : وهى الحقد والسخيمة (٥) جمع محنة وهى المصيبة النازلة (٦) ثل عرشه : هدم ملكه . ويقال للقوم ذهب عزهم : ثل عرشهم (٧) قد يكون محرفا عن (محلول)

فَهُوَ يُسِرُّ حَسْوًا[1] فِي ٱرْتِغَاءٍ . وَكِلَابُ ٱلْبَاطِلِ فِي دِمَاءِ أَهْلِ ٱلْحَقِّ وَالِغَةٌ ، وَلِلّٰهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ فِي خَلْقِهِ إِرَادَةٌ نَافِذَةٌ وَحِكْمَةٌ بَالِغَةٌ . فَرَقَّعَ لِسَانُ ٱلدِّينِ ثَوْبَ ٱلْأَنْدَلُسِ وَرَفَاهُ ، وَأَرْغَمَ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ ٱلْكُفْرَ ٱلَّذِي فَغَرَ فَاهُ . وَشَمَّرَ عَنْ سَاعِدِ ٱجْتِهَادِهِ ، وَحَضَّ بِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ عَلَى دِفَاعِهِ وَجِهَادِهِ ، حَتَّى لَاحَتْ لِلنَّصْرِ بَوَارِقُ ، وَأُمِنَتْ بِالْحَزْمِ ٱلطَّوَارِئُ وَٱلطَّوَارِقُ ، ثُمَّ ضَرَبَ ٱلدَّهْرُ ضَرَبَانَهُ ، وَأَحْرَقَ ٱلْحَاسِدُ بِنَارِ أَحْقَادِهِ أَنْضَرَ بَانَةٍ . وَأَظْهَرَ مَا فِي قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِ ٱلدِّينِ وَأَبَانَهُ . وَتَقَرَّبَ ٱلْوُشَاةُ وَهُمْ مِمَّنْ كَانَ يَخْدُمُهُ وَيَغْشَاهُ ، إِلَى سُلْطَانِهِ ٱلَّذِي كَانَ عِزَّةَ أَوْطَانِهِ ٱلَّذِي يَأْمَنُهُ وَلَا يَخْشَاهُ ، حَتَّى فَسَدَ عَلَيْهِ ضَمِيرُهُ ، وَتَكَدَّرَ ـ وَمَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ[2] ـ نَمِيرُهُ[3] ، فَأَحَسَّ بِظَاهِرِ ٱلتَّغَيُّرِ ، وَصَارَ فِي ٱلْبَاطِلِ مَنْ أَهْلِ ٱلتَّحَيُّرِ . وَأَجَالَ قِدَاحَ آرَائِهِ ، وَٱلْتَفَتَ إِلَى

---

(١) يشرب اللبن وهو يريك أنه إنما يشرب الرغوة . مثل يضرب لمن يضمر خلاف ما يظهر (٢) يخل : يظن (٣) النمير الماء الصافى ، وجملة من يسمع يخل اعتراض بين الفعل وفاعله (أى وتكدر نميره) وهو مثل معناه ان القول يترك أثرا فى السامع صدقا أو كذبا

جهةِ الْعَدُوِّ مِنْ وَرَائِهِ ، فَفَرَّ مُشَمِّرًا عَنْ ذَيْلِهِ ، فِي لمَّةٍ[١] مِنْ خَيْلِهِ ، إِلَى أَسَدِ الْعَرِينِ[٢] ، سُلْطَانِ بَنِي مَرِينَ ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ بِتِلِمْسَانَ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ، فَاهْتَزَّ لِمَقْدَمِهِ، وَلَقِيَهُ بِخَاصَّتِهِ وَخَدَمِهِ ، وَأَكْرَمَ مَثْوَاهُ، وَجَعَلَهُ صَاحِبَ نَجْوَاهُ . ثُمَّ أَدْرَكَ السُّلْطَانَ الْحِمَامُ ، وَكُسِفَ بَدْرُهُ وَقْتَ التَّمَامِ ، فَرَجَعَ لِسَانُ الدِّينِ إِلَى فَاسَ ، وَاسْتَنْشَقَ بِهَا أَطْيَبَ الْأَنْفَاسِ ، وَكَثُرَتْ بَعْدَ ذَلِكَ الْأَهْوَالُ ، وَتَغَيَّرَتْ بِسَبَبِهِ بَيْنَ رُؤَسَاءِ الْعُدْوَةِ وَالْأَنْدَلُسِ الْأَحْوَالُ . فَمَا نَجَا مِنْ مَكْرِ الْعِدَا وَلَا سَلِمَ ، وَآلَ أَمْرُهُ مِنَ الِاغْتِيَالِ وَمَا نَفَعَ الِاحْتِيَالُ إِلَى مَا عُلِمَ ، عَلَى يَدَيْ بَعْضِ أَعْدَائِهِ ، الَّذِينَ كَانُوا يَتَرَبَّصُونَ الدَّوَائِرَ لِإِرْدَائِهِ[٣] . فَأَصْبَحَ كَأَمْسِ الذَّاهِبِ ، وَصَارَتْ أَمْوَالُهُ وَضِيَاعُهُ عُرْضَةً لِلنَّاهِبِ ، وَغُصَّ بِذَلِكَ مَنْ كَانَ مِنْ أَوِدَّائِهِ . وَأَخَذَ اللَّهُ ثَارَهُ ، مِنْ بَعْضِ مَنْ حَرَّكَ عَلَيْهِ الْمَكْرَ وَأَثَارَهُ ، وَتَسَبَّبَ فِي هَلَاكِهِ ، حَتَّى انْتَثَرَتْ

---

(١) اللمة: الجماعة . والأصحاب (٢) أي بيت الأسد وعرينه (٣) أي اهلاكه

جَوَاهِرُ أَسْلَاكِهِ ، وَمَاتَ بِدَائِهِ فَالْعُيُونُ إِلَى هٰذَا الْوَقْتِ عَلَى لِسَانِ الدِّينِ بَاكِيَةٌ ، وَنُفُوسُ الْأَكَابِرِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّا فُعِلَ بِهِ شَاكِيَةٌ ، وَالْأَلْسِنَةُ وَالْأَقْلَامُ لِمَقَامَاتِهِ فِي الْإِسْلَامِ حَاكِيَةٌ ، فَمَنْ كَانَ بِهٰذِهِ السِّمَاتِ[1] وَأَكْثَرَ مِنْهَا مَوْصُوفًا ، لَا يَقْدِرُ مِثْلِي عَلَى تَحْبِيرِ التَّعْبِيرِ عَنْهُ وَيَخْشَى أَنْ تَكُونَ فِكْرَتُهُ كَخَرْقَاءَ[2] نَقَضَتْ قُطْنًا أَوْ صُوفًا .

ثُمَّ إِنِّي لَمَّا تَكَرَّرَ عَلَيَّ فِي هٰذَا الْغَرَضِ الْإِلْحَاحُ ، وَلَمْ تُقْبَلْ أَعْذَارِي الَّتِي زَنْدُهَا شَحَاحٌ[3] ، عَزَمْتُ عَلَى الْإِجَابَةِ لِمَا لِلْمَذْكُورِ عَلَيَّ مِنَ الْحُقُوقِ ، وَكَيْفَ أُقَابِلُ بِرَّهُ — حَفِظَهُ اللهُ — بِالْعُقُوقِ ، وَهُوَ الَّذِي يَرْوِي مِنْ أَحَادِيثِ الْفَضْلِ الْحِسَانَ وَالصِّحَاحَ . فَوَعَدْتُهُ بِالشُّرُوعِ فِي الْمَطْلَبِ عِنْدَ الْوُصُولِ إِلَى الْقَاهِرَةِ الْمُعِزِّيَّةِ[4] ، وَأَزْمَعْتُ السَّيْرَ عَنْ دِمَشْقَ الْمَعْرُوفَةِ الْمَزِيَّةِ ، وَأَلْبَسَنِي

(١) جمع سمة . وهي العلامة ، أي الصفات (٢) يقال ذلك لمن يفسد ما أصلح وفي التنزيل « ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » (٣) زند شحاح — بفتح الشين — : لا يورى ، أي لا يخرج نارا . كأنه يشح بالنار (٤) نسبة الى المعز لدين الله الفاطمي

السَّفَرُ مِنْهَا مِنَ الْخِلَعِ زِيَّهُ(١) ، وَرَحَلْنَا عَنْ تِلْكَ الْأَرْجَاءِ الْمُتَأَلِّقَةِ ، وَالْقُلُوبُ بِهَا وَبِمَنْ فِيهَا مُتَعَلِّقَةٌ :

حَلَلْنَا دِيَارًا لِلْغَرَامِ سَرَتْ بِهَا ... إِلَيْنَا صَبَا نَجْدٍ بِطِيبِ نَسِيمِ

وَبَانَ رِدَا(٢) الْأَشْجَانِ لَمَّا تَجَاذَبَتْ ... أَكُفُّ الْمُنَى فِيهَا رِدَاءَ نَعِيمِ

فَمَا أَنْشَبَتْنَا(٣) الْعِيسُ أَنْ قَذَفَتْ بِنَا ... إِلَى فُرْقَةٍ وَالْعَهْدُ غَيْرُ قَدِيمِ

فَإِنْ نَكُ وَدَّعْنَا الدِّيَارَ وَأَهْلَهَا ... فَمَا عَهْدُ نَجْدٍ عِنْدَنَا بِذَمِيمِ

فَخَرَجَ مَعَنَا - أَسْمَاهُ اللهُ - مَعَ جُمْلَةٍ مِنَ الْأَعْيَانِ إِلَى دَارِيَّا(٤) ، الْمُضَاهِيَةِ لِدَارِينَ(٥) فِي رَيَّاهَا : وَحَبَّذَا رَيَّا ، فَأَلْفَيْنَاهَا :

رَيَّا مِنَ الْأَنْدَاءِ طَيِّـبَةً ... لَهَا الْقَدْرُ الْجَلِيلْ

تُهْدِي لَنَا أَرْجَاؤُهَا ... أَرَجًا مِنَ الزَّهْرِ الْبَلِيلْ

وَبِهَا الْغُصُونُ تَمَايَلَتْ ... مَيْلَ الْخَلِيلِ عَلَى الْخَلِيلْ

(١) الزّى - بالكسر - : الهيئة ، والملابس ، تقول أقبل فى زى العرب وفى زى غريب (٢) قد تكون (ردى) مصدر ردى : أى هلك ، يريد أن أشجانهم زالت وأحزانهم انقضت حين نالوا مناهم وفازوا بآمالهم بسكناهم ديارا فيها هواهم ، تجاذبوا فيها أردية النعيم ونعموا فيها بما يشتهون (٣) يقال : لم ينشب أن فعل كذا : أى لم يلبث (٤) قرية بالغوطة من قرى دمشق (٥) فرضة بالبحرين يجلب اليها المسك من الهند

وَوَصَلْنَا عِنْدَ الظَّهِيرَةِ ، وَسَرَّحْنَا الْعُيُونَ فِي مَحَاسِنِهَا الشَّهِيرَةِ :

مَنْزِلٌ كَالرَّبِيعِ حَلَّتْ عَلَيْهِ حَالِيَاتُ السَّحَابِ عِقْدَ النِّطَاقِ
يُمْتِعُ الْعَيْنَ مِنْ طَرَائِقِ حُسْنٍ نَتَجَافَى[1] بِهَا عَنِ الإِطْرَاقِ

وَقُلْنَا بِهَا ، لَمَّا نَزَلْنَا بِجَانِبِهَا :

وَبِتْنَا وَالسُّرُورُ لَنَا نَدِيمٌ وَمَاءُ عُيُونِهِ الصَّافِي مُدَامُ
يُسَايِرُهُ النَّسِيمُ إِذَا تَغَنَّتْ حَمَائِمُهُ وَيَسْقِيهِ الْغَمَامُ

فَيَالَكِ مِنْ لَيْلَةٍ أَرْبَتْ فِي طِيبِ النَّفْحِ ، عَلَى لَيْلَةِ الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ بِالسَّفْحِ[2] :

وَنَحْنُ فِي رَوْضَةٍ مُفَوَّفَةٍ
قَدْ وُشِّيَتْ بِالْغَمَائِمِ الْوُكُفِ[3]
نُغْفِي عَلَى زَهْرِهَا فَيُوقِظُنَا
وَهْنًا هَدِيرُ الْحَمَائِمِ الْهُتُفِ[4]
وَدَوْحُهَا مِنْ نَدَاهُ فِي وُشُحٍ وَمِنْ لآلِي الأَزْهَارِ فِي شُنُفِ[5]

---

(١) نتجافى : نتباعد (٢) يشير الى قول الشريف :
ياليلة السفح ألا عدت ثانية سقى زمانك هطال من الديم
(٣) وكف المطر : سال قليلا قليلا (٤) هتفت الحمامة : غردت (٥) الشنف : القرط فى أعلى الأذن أو فى الأنف على عادة العرب

وَالْغُصْنُ مِنْ فَوْقِهِ حَمَامَتُهُ   كَأَنَّهَا هَمْزَةٌ عَلَى أَلِفِ

وَمَا أَقْرَبَ قَوْلَ الْوَزِيرِ ابْنِ عَمَّارٍ، مِنْ وَصْفِ ذٰلِكَ الْمِضْمَارِ، الْجَامِعِ لِلْأَقْمَارِ:

يَا لَيْلَةً بِتْنَا بِهَا   فِي ظِلِّ أَكْنَافِ النَّعِيمْ
مِنْ فَوْقِ أَكْمَامِ الرِّيَا   ضِ وَتَحْتَ أَذْيَالِ النَّسِيمْ

وَنَاهِيكَ بِمَحَلٍّ قَرُبَ مِنْ دِمَشْقَ الْغَرَّاءِ، فَخَلَعَتْ عَلَيْهِ حُلَلَ الْحُبُورِ وَالسَّرَّاءِ، وَأَمَدَّتْهُ بِضِيَائِهَا، وَأَوْدَعَتْهُ بَرْقَ حَيَاهَا وَمَاءَ حَيَائِهَا، فَصَارَ نَاضِرَ الدَّوْحَاتِ، عَاطِرَ الْغَدَوَاتِ وَالرَّوْحَاتِ، مُونِقَ الْأَنْفَاسِ وَالنَّفَحَاتِ، مُشْرِقَ الْأَسِرَّةِ[1] وَالصَّفَحَاتِ، هٰذَا وَالْقُلُوبُ مِنَ الْفِرَاقِ فِي قَلَقٍ، وَلِسَانُ الْحَالِ يُنْشِدُ:

وَبِي عَلَاقَةُ وَجْدٍ لَيْسَ يَعْلَمُهَا
إِلَّا الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقِ

---

(١) أسرة الوجه وأسراره وأسارير: هى الخطوط التى فى الجبهة من التكسر فيها، واحده سرر، وقيل الأسرة: الخدان والوجنتان ومحاسن الوجه، وهى شآبيب الوجه أيضا وسبحات الوجه. وفى حديث عائشة فى صفته صلى الله عليه وسلم: تبرق أسارير وجهه. وفى حديث على عليه السلام: كأن ماء الذهب يجرى فى صفحة خده، ورونق الجلال يطرد فى أسرة جبينه

وَيَحُثُّ عَلَى انْتِهَازِ فُرْصَةِ اللِّقَاءِ إِذْ هِيَ غَنِيمَةٌ ، وَيُذَكِّرُ بِقَوْلِ مَنْ قَالَ - وَأَكُفُّ الدَّهْرِ مُوقِظَةٌ وَمُنِيمَةٌ - :

تَمَتَّعْ بِالرُّقَادِ عَلَى شِمَالٍ[1] فَسَوْفَ يَطُولُ نَوْمُكَ بِالْيَمِينِ

وَمَتِّعْ مَنْ يُحِبُّكَ بِاجْتِمَاعٍ فَأَنْتَ مِنَ الْفِرَاقِ عَلَى يَقِينِ

ثُمَّ حَضَرَ بَعْدَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ مَوْقِفُ الْوَدَاعِ ، وَالْكُلُّ مَا بَيْنَ وَاجِمٍ[2] وَبَاكٍ وَدَاعٍ ، فَتَمَثَّلْتُ بِقَوْلِ مَنْ قَلْبُهُ لِفِرَاقِ الْأَحْبَابِ فِي انْصِدَاعٍ :

وَدَّعْتُهُمْ وَدُمُوعِي عَلَى الْخُدُودِ غِزَارُ

فَاسْتَكْثَرُوا دَمْعَ عَيْنِي لَمَّا اسْتَقَلُّوا[3] وَسَارُوا!

وَقَوْلِ آخَرَ :

يَا وَحْشَةً مِنْ جِيرَةٍ قَدْ[4] نَأَوْا عُلُوُّ قَدْرِي فِي الْهَوَى انْحَطَّا

---

(١) يجوز أن يكون (شمال) جمع شملة : وهى كساء دون القطيفة يشتمل به ، ومئزر من صوف أو وبر أو شعر يؤتزر به ، فاذا لفق لفقين فهى مشملة يشتمل بها الرجل اذا نام بالليل، وفى حديث على قال الأشعث بن قيس : ان أبا هذا كان ينسج الشمال بيمينه ، وهى من أحسن الألفاظ وألطفها بلاغة (٢) الوجوم : العبوس والاطراق لشدة الحزن ، والسكوت على غيظ (٣) أى رحلوا راكبين المطايا وفيه مع قوله (استكثروا) ايهام التضاد (٤) أظن (قد) محرفة عن (مذ) الظرفية حتى تربط صدر البيت بعجزه

حَكَتْ دُمُوعِي الْبَحْرَ مِنْ بُعْدِهِمْ
لَمَّا رَأَتْ مَنْزِلَهُمْ شَطَّا(١)

وَحُقَّ لِي أَنْ أَتَمَثَّلَ فِي ذٰلِكَ بِقَوْلِ الْفَزَارِيِّ :

لَا تَسَلْنِي عَمَّا جَنَاهُ الْفِرَاقُ   حَمَّلَتْنِي يَدَاهُ مَالَا يُطَاقُ
أَيْنَ صَبْرِي أَمْ كَيْفَ أَمْلِكُ دَمْعِي
وَالْمَطَايَا بِالظَّاعِنِينَ تُسَاقُ ؟ ؟
قِفْ مَعِي نَنْدُبُ الطُّلُولَ فَهٰذِي
سُنَّةٌ قَبْلُ سَنَّهَا الْعُشَّاقُ
وَأَعِدْ لِي ذِكْرَ الْغُوَيْرِ(٢) فَكَمْ مَا
لَ بِعِطْفِي نَسِيمُهُ الْخَفَّاقُ(٣)
فِي سَبِيلِ الْغَرَامِ مَا فَعَلَتْ بِالْـ   ـعَاشِقِينَ الْقُدُودُ وَالْأَحْدَاقُ
يَوْمَ وَلَّتْ طَلَائِعُ الصَّبْرِ مِنَّا   ثُمَّ شَنَّتْ غَارَاتِهَا الْأَشْوَاقُ

وَبِقَوْلِ غَيْرِهِ :

كُنَّا جَمِيعًا وَالدَّارُ تَجْمَعُنَا   مِثْلَ حُرُوفٍ لِلْجَمْعِ مُلْتَصِقَهْ

---

(١) شط : بعد، تقول : شط المزار وشحط ،وفيه تورية بالشط وهو الشاطئ.
(٢) الغوير : ماء لبني كلب بأرض السماوة بين العراق والشام — أو ماء بين العقبة والقاع في طريق مكة ، والغوير أيضا على الفرات ، وفيه قالت الزباء : عسى الغوير أبؤسا (٣) الخفاق : المضطرب

وَالْيَوْمَ صَارَ الْوَدَاعُ يَجْعَلُنَا مِثْلَ حُرُوفِ الْوَدَاعِ[1] مُفْتَرِقَهْ

وَقَوْلِ آخَرَ :

حِينَ هَمَّ الْحَبِيبُ بِالتَّوْدِيعِ عَيَّرُونِي أَنِّي سَفَحْتُ دُمُوعِي[2]

لَمْ يَذُوقُوا طَعْمَ الْفِرَاقِ وَلَا مَا

أَحْرَقَتْ لَوْعَةُ الْأَسَى مِنْ ضُلُوعِي

كَيْفَ لَا أَسْفَحُ الدُّمُوعَ عَلَى رَبْـ

ـعٍ حَوَى خَيْرَ سَاكِنٍ وَجُمُوعِ

هَبْكَ أَنِّي كَتَمْتُ حَالِي أَتَخْفَى زَفَرَاتُ الْمُتَيَّمِ الْمَصْدُوعِ ؟

إِنَّمَا يَعْرِفُ الْغَرَامُ بِمَنْ لَا حَ عَلَيْهِ الْغَرَامُ بَيْنَ الرُّبُوعِ

وَقَوْلِ مَنْ قَالَ :

أَقُولُ لَهُ عِنْدَ تَوْدِيعِهِ وَكُلٌّ بِعَبْرَتِهِ مُبْلِسُ[3]

لَئِنْ قَعَدَتْ عَنْكَ أَجْسَادُنَا لَقَدْ سَافَرَتْ مَعَكَ الْأَنْفُسُ

وَقَوْلِ الصَّابِيِّ :

وَلَمَّا حَضَرْتُ لِتَوْدِيعِهِ وَطَرْفُ النَّوَى نَحْوَنَا أَشْوَسُ[4]

---

(١) أى كلمة وداع ، كل حرف منها غير متصل بما قبله ولا بما بعده فهى متفرقة ، كما أن حروف كلمة (جمع) كلها متصلة (٢) سفح الدمع والدم: أراقه (٣) أبلس . تحير وحزن وسكت من حزن أو خوف (٤) الشوس : النظر بمؤخر العين وشقها تكبرا وتيها أو تغيظا وحقدا

عَكَسْتَ لَهُ بَيْتَ شِعْرٍ مَضَى
يَلِيقُ بِهِ ٱلْحَالُ إِذْ يُعْكَسُ
لَئِنْ سَافَرَتْ عَنْكَ أَجْسَادُنَا
لَقَدْ قَعَدَتْ مَعَكَ ٱلْأَنْفُسُ

وَقَوْلِ ٱلْمُهَذَّبِ بْنِ أَسْعَدَ ٱلْمَوْصِلِيِّ :

دَعْنِي وَمَا شَاءَ ٱلتَّفَرُّقُ وَٱلْأَسَى
وَٱقْصِدْ بِلَوْمِكَ مَنْ يُطِيعُكَ أَوْ يَعِي
لَا قَلْبَ لِي فَأَعِي ٱلْمَلَامَ فَإِنَّنِي
أَوْدَعْتُهُ بِٱلْأَمْسِ عِنْدَ مُوَدِّعِي
هَلْ يَعْلَمُ ٱلْمُتَحَمِّلُونَ لِنُجْعَةٍ[1]
أَنَّ ٱلْمَنَازِلَ أَخْصَبَتْ مِنْ أَدْمُعِي ؟
كَمْ غَادَرُوا حَرَضًا[2] وَكَمْ لِوَدَاعِهِمْ
بَيْنَ ٱلْجَوَانِحِ مِنْ غَرَامٍ مُوَدِّعِ ؟
وَٱلسُّقْمُ آيَةُ مَا أُجِنُّ مِنَ ٱلْجَوَى وَٱلدَّمْعُ بَيِّنَةٌ عَلَى مَا أَدَّعِي

(١) النجعة : طلب الكلإ فى موضعه ، ونجع البلد أتاه (٢) حرض حرضا : فسد بدنه ومرض حتى أشفى على الهلاك وصار لايقدر على النهوض ، وفى الآية الكريمة (حتى تكون حرضا) أى مدنفا، وحرضه الموت وأحرضه اذا أدنفه حتى أشرف على الموت، والحرض أيضا الذى أذابه الحزن والعشق

وَقَوْلِ ٱلْكَمَالِ ٱلتَّنُوخِيِّ :

كَمْ لَيْلَةٍ قَدْ بِتُّهَا أَرْعَى ٱلسُّهَا[1] جَزَعًا لِفُرْقَتِهِمْ بِمُقْلَةِ أَرْمَدِ
قَضَّيْتُهَا مَا بَيْنَ نَوْمٍ نَافِرٍ وَزَفِيرِ مَهْجُورٍ وَقَلْبٍ مُكْمَدِ

لَمْ أَنْسَ أَيَّامَ ٱلسُّرُورِ وَطِيبَهَا
بَيْنَ ٱلسَّدِيرِ وَبَيْنَ بُرْقَةِ ثَهْمَدِ[2]
وَٱلرَّوْضُ قَدْ أَبْدَى بَدَائِعَ نَوْرِهِ
مِنْ أَزْرَقٍ وَمُفَضَّضٍ وَمُوَرَّدِ

وَٱلْمَاءُ يَبْدُو كَٱلصَّوَارِمِ سَارِيًا فَيُعِيدُهُ مَرُّ ٱلصَّبَا كَٱلْمِبْرَدِ
وَٱلطَّيْرُ بَيْنَ مُسَجِّعٍ وَمُرَجِّعٍ وَمُغَرِّدٍ وَمُعَدِّدٍ وَمُرَدِّدِ

وَقَوْلِ ٱلْقَاضِي بَهَاءِ ٱلدِّينِ ٱلسِّنْجَارِيِّ :

أَحْبَابَنَا مَالِي عَلَى بُعْدِ ٱلْمَدَى جَلَدٌ، وَمَنْ بَعْدَ ٱلنَّوَى يَتَجَلَّدُ؟

لِلّٰهِ أَوْقَاتُ ٱلْوِصَالِ وَمَنْظَرٌ
نَضِرٌ وَغُصْنُ ٱلْوَصْلِ غُصْنٌ[3] أَمْلَدُ[4]

---

(١) نجم صغير لايراه الا حديد البصر . وفى المثل: «أريها السها وتريني القمر »(٢) هى لبنى دارم ، ذكره طرفة بن العبد صاحب المعلقة فى مطلعها

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

والسدير : أرض باليمن وموضع بالحيرة (٣) قد تكون محرفة عن (غض)
(٤) الأملد : الناعم

أَنَّى يُطِيقُ أَخُو اَلْهَوَى كِتْمَانَهُ

وَاَلْخَدُّ بِالدَّمْعِ اَلْمَصُونِ مُخَدَّدُ(١)؟

مَا بَعْدَ مُفْتَرَقِ اَلرِّكَابِ تَصَبُّرٌ

عَمَّنْ أُحِبُّ فَهَلْ خَلِيلٌ يُسْعِدُ(٢)؟

يَاسَعْدُ سَاعِدْ بِالْبُكَاءِ أَخَا هَوًى

يَوْمَ اَلْوَدَاعِ بَكَى عَلَيْهِ اَلْحُسَّدُ

وَقَوْلِ اُبْنِ اَلْأَثِيرِ :

لَمْ أَنْسَ لَيْلَةَ وَدَّعُوا صَبًّا وَسَارُوا بِالْحُمُولْ

وَاَلدَّمْعُ مِنْ فَرْطِ اَلْأَسَى يَجْرِي فَيَعْثُرُ بِالذُّيُولْ

وَقَوْلِ اَلْأَرَّجَانِيِّ :

وَلَمَّا وَقَفْنَا لِلْوَدَاعِ عَشِيَّةً

وَطَرْفِي وَقَلْبِي هَامِعٌ وَخَفُوقُ

بَكَيْتُ فَأَضْحَكْتُ اَلْوُشَاةَ(٣) شَمَاتَةً

كَأَنِّي سَحَابٌ وَاَلْوُشَاةُ بُرُوقُ

---

(١) أي فيه أخاديد وشقوق (٢) أي يعين و يساعد بالبكاء معي (٣) الوشاة: الساعون بين الناس بالتفريق

وَقَوْلِ ٱبْنِ نُبَاتَةَ ٱلسَّعْدِيِّ :

وَلَمَّا وَقَفْنَا لِلْوَدَاعِ عَشِيَّةً ... وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا شَامِتٌ وَغَيُورُ

وَقَفْنَا فَمِنْ بَاكٍ يُكَفْكِفُ دَمْعَهُ

وَمُلْتَزِمٍ قَلْباً يَكَادُ يَطِيرُ

وَقَوْلِ بَعْضِهِمْ :

لَمَّا حَدَا ٱلْحَادِي بِتَرْحَالِهِمْ ... هَيَّجَ أَشْوَاقِي وَأَشْجَانِي[1]

وَرَاحَ يَثْنِي ٱلْقَلْبَ عَنْ غَيْرِهِمْ ... فَهْوَ لَهُمْ حَادٍ وَلِي ثَانِي

وَقَوْلِ ٱلصَّفَدِيِّ :

لَمَّا ٱعْتَنَقْنَا لِوَدَاعِ ٱلنَّوَى ... وَكِدْتُ مِنْ حَرِّ ٱلْجَوَى أُحْرَقُ

رَأَيْتُ قَلْبِي سَارَ قُدَّامَهُمْ ... وَأَدْمُعِي تَجْرِي وَلَا تَلْحَقُ

وَقَوْلِهِ أَيْضًا :

تَذَكَّرْتُ عَيْشًا مَرَّ حُلْوًا بِقُرْبِكُمْ

فَهَلْ لِلَيَالِينَا ٱلذَّوَاهِبِ وَاهِبُ ؟

وَمَا ٱنْصَرَفَتْ آمَالُ نَفْسِي لِغَيْرِكُمْ

وَلَا أَنَا عَنْ هٰذِي ٱلرَّغَائِبِ غَائِبُ

---

(١) أشجانى : همومى وأحزانى

سَأَصْبِرُ كُرْهًا فِي ٱلْهَوَى غَيْرَ طَائِعٍ
لَعَلَّ زَمَانِي بِالْحَبَائِبِ آئِبُ

وَقَوْلِ ٱبْنِ نُبَاتَةَ ٱلْمِصْرِيِّ :

فِي كَنَفِ ٱللهِ وَفِي حِفْظِهِ مَسْرَاكَ وَٱلْعَوْدُ بِعَزْمٍ صَرِيحْ
لَوْ جَازَ أَنْ تُسْلَكَ أَجْفَانُنَا[1] كُنَّا فَرَشْنَا كُلَّ جَفْنٍ قَرِيحْ
لَكِنَّهَا بِالْبُعْدِ مُعْتَلَّةٌ وَأَنْتَ لَا تَسْلُكُ[2] إِلَّا ٱلصَّحِيحْ

وَقَوْلِ ٱلْحَافِظِ أَبِي ٱلْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ ٱلْفَضْلِ :

عَجِبْتُ لِنَفْسِي بَعْدَهُمْ مَا بَقَاؤُهَا
وَلَمْ أَحْظَ مِنْ لُقْيَاهُمُ بِمُرَادِي
لَعَمْرُكَ مَا فَارَقْتُهُمْ مُنْذُ وَدَّعُوا
وَلَكِنَّمَا فَارَقْتُ طِيبَ رُقَادِي
وَقَدْ مَنَعُوا مِنِّي زِيَارَةَ طَيْفِهِمْ
وَكَيْفَ يَزُورُ ٱلطَّيْفُ حِلْفَ سُهَادِ
وَأَعْجَبُ مَا فِي ٱلْأَمْرِ شَوْقِي إِلَيْهِمُ
وَهُمْ فِي سَوَادَيْ نَاظِرِي وَفُؤَادِي

---

(١) أي تجعل طريقا مسلوكا (٢) في الجملة تورية واضحة

وَقَوْلِهِ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ تعَالَى ـ :

رَعَى ٱللهُ أَيَّامَ ٱلْمُقَامِ بِرَوْضَةٍ تَرُوحُ عَلَيْنَا بِالسُّرُورِ وَتَغْتَدِى
كَأَنَّ ٱلشَّقِيقَ ٱلْغَضَّ بَيْنَ بِطَاحِهَا نُجُومُ عَقِيقٍ فِى سَمَاءِ زَبَرْجَدِ

وَقَوْلِ ٱلْقَاضِى ٱلرَّشِيدِ ٱلْأُسْوَانِىِّ(١) :

رَحَلُوا فَلَا خَلَتِ ٱلْمَنَازِلُ مِنْهُمُ
وَنَأَوْا فَلَا سَلَتِ ٱلْجَوَانِحُ عَنْهُمُ
وَسَرَوْا وَقَدْ كَتَمُوا ٱلْغَدَاةَ مَسِيرَهُمْ
وَضِيَاءُ نُورِ ٱلشَّمْسِ مَالَا يُكْتَمُ
وَتَبَدَّلُوا أَرْضَ ٱلْعَقِيقِ عَنِ ٱلْحِمَى
رَوَّتْ جُفُونِى أَىَّ أَرْضٍ يَمَّمُوا ؟
نَزَلُوا ٱلْعُذَيْبَ وَإِنَّمَا هُوَ مُهْجَتِى
رَحَلُوا وَفِى قَلْبِ ٱلْمُتَيَّمِ خَيَّمُوا
مَاضَرَّهُمْ لَوْ وَدَّعُوا مَنْ أَوْدَعُوا نَارَ ٱلْغَرَامِ وَسَلَّمُوا مَنْ أَسْلَمُوا(٢)

(١) هو أبو الحسين أحمد بن القاضى الرشيد أبى الحسن على بن ابراهيم ابن محمد ابن الحسين بن الزبير الغسانى الأسوانى : كان من أهل الفضل والنباهة والرياسة جامعا بين جودة النظم والنثر توفى سنة ٥٦٣ ، وهو منسوب الى مدينة أسوان بصعيد مصر (٢) أسلمه : خذله ولم ينصره

هُمْ فِي ٱلْحَشَا إِنْ أَعْرَقُوا(١) أَوْ أَيْمَنُوا
أَوْ أَشْأَمُوا أَوْ أَنْجَدُوا أَوْ أَتْهَمُوا

وَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ أَبِي طَاهِرٍ ٱلْأَصْفَهَانِيِّ، ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلْوَثَّانِي :

أَشَاعُوا فَقَالُوا وَقْفَةٌ وَوَدَاعُ ... وَزُمَّتْ مَطَايَا لِلرَّحِيلِ سِرَاعُ
فَقُلْتُ وَدَاعٌ لَا أُطِيقُ عِيَانَهُ ... كَفَانِي مِنَ ٱلْبَيْنِ ٱلْمُشِتِّ سَمَاعُ
وَلَمْ يَمْلِكِ ٱلْكِتْمَانَ قَلْبٌ مَلَكْتُهُ
وَعِنْدَ ٱلنَّوَى سِرُّ ٱلْكَتُومِ مُذَاعُ

وَقَوْلِ أَبِي ٱلْمَجْدِ قَاضِي مَارِدِينَ :

رَعَى ٱللّٰهُ رَبْعاً أَنْتُمُ فِيهِ أَهْلُهُ ... وَجَادَ عَلَيْهِ هَاطِلٌ وَهَتُونُ(٢)
وَلَا زَالَ مُخْضَرَّ ٱلْجَوَانِبِ مُتْرَعَ ٱلْ
حِيَاضِ وَفِيهِ لِلنَّعِيمِ فُنُونُ
لَئِنْ قَدَّرَ ٱللّٰهُ ٱللِّقَاءَ وَأَيْنَعَتْ
غُصُونُ ٱلتَّدَانِي فَٱلْبِعَادُ يَهُونُ
وَإِنْ حَكَمَتْ أَيْدِي ٱلْفِرَاقِ بِعُسْرَةٍ
فَكَمْ قُضِيَتْ لِلْمُعْسِرِينَ دُيُونُ

---

(١) أعرقوا وما بعدها : ذهبوا الى العراق أو اليمن أوالشام أو نجدأوتهامة
(٢) الهتون من المطر : المنصب الدائم التسكاب

وَقَوْلِ آخَرَ :

غِبْتُمْ فَمَالِى فِى ٱلتَّصَبُّرِ مَطْمَعُ

عَظُمَ ٱلْجَوَى وَٱشْتَدَّتِ ٱلْأَشْوَاقُ

لَا ٱلدَّارُ بَعْدَكُمُ كَمَا كَانَتْ وَلَا

ذَاكَ ٱلْبَهَاءِ بِهَا وَلَا ٱلْإِشْرَاقُ

أَشْتَاقُكُمْ وَكَذَا ٱلْمُحِبُّ إِذَا نَأَى

عَنْهُ أَحِبَّةُ قَلْبِهِ يَشْتَاقُ

وَقَوْلِ أَبِى ٱلْحَسَنِ ٱلْهَمَذَانِىِّ :

وَيَوْمٍ وَلَّتِ ٱلْأَظْعَانُ عَنَّا وَقَوَّضَ حَاضِرٌ وَأَرَنَّ[1] بَادِى

مَدَدْتُ إِلَى ٱلْوَدَاعِ يَدًا وَأُخْرَى

حَبَسْتُ بِهَا ٱلْحَيَاةَ عَلَى فُؤَادِى

وَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلصَّائِغِ :

قَدْ أَوْدَعُوا ٱلْقَلْبَ لَمَّا وَدَّعُوا حُرَقًا[2]

فَظَلَّ فِى ٱللَّيْلِ مِثْلَ ٱلنَّجْمِ حَيْرَانَا

(١) رن وأرن : صاح ورفع صوته بالبكاء (٢) جمع حرقة : وهى حرارة القلب من العشق

رَاوَدْتُهُ يَسْتَعِيرُ ٱلصَّبْرَ بَعْدَهُمُ

فَقَالَ إِنِّي ٱسْتَعَرْتُ[1] ٱلْيَوْمَ نِيرَانَا

وَقَوْلِ ٱلصَّدْرِ بْنِ ٱلْأَدَمِيِّ مُكْتَفِياً :

يَوْمَ تَوْدِيعِي لِأَحْبَابِي غَدَا ذِكْرُهُمْ شَاغِلِي عَنْ كُلِّ شَيْ

فَرَنَتْ نَحْوِي وَقَالَتْ يَا تُرَى أَنْتَ حَيٌّ فِي هَوَانَا قُلْتُ مَيْ[2]؟

وَقَوْلِ غَيْرِهِ :

وَلِي فُؤَادٌ مُذْ نَأَى شَخْصُهُمْ ظَلَّ كَئِيباً مُدْنَفاً مُوجَعَا

وَمُقْلَةٌ مَهْمَا تَذَكَّرْتُهُمْ تَذْرِفُ دَمْعاً أَرْبَعاً أَرْبَعَا

وَلَيْسَ لِي مِنْ حِيلَةٍ كُلَّمَا لَجَّتْ بِيَ ٱلْأَشْوَاقُ إِلَّا ٱلدُّعَا

أَسْأَلُ مَنْ أَلَّفَ مَا بَيْنَنَا وَقَدَّرَ ٱلْفُرْقَةَ أَنْ يَجْمَعَا

وَقَوْلِ ٱلرُّعَيْنِيِّ ٱلْغَرْنَاطِيِّ :

مَحَاسِنُ رَبْعٍ قَدْ مَحَاهُنَّ مَا جَرَى

مِنَ ٱلدَّمْعِ لَمَّا قِيلَ قَدْ رَحَلَ ٱلرَّكْبُ

تَنَاقَضَ حَالِي مُذْ شَجَانِي فِرَاقُهُمْ

فَمِنْ أَضْلُعِي نَارٌ وَمِنْ أَدْمُعِي سَكْبُ

---

(١) من استعرت النار اذا اشتد لهيبها ، أو من الاستعارة ففيه تورية

(٢) أي ميت ففيه اكتفاء ، أو يريد به اسم محبوبته ففيه تورية

وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُهُ أَيْضًا[١] :

وَقَائِلَةٍ مَا هٰذِهِ الدُّرَرُ الَّتِي
تُسَاقِطُهَا عَيْنَاكَ سِمْطَيْنِ سِمْطَيْنِ[٢]؟
فَقُلْتُ لَهَا هٰذَا الَّذِي قَدْ حَشَا بِهِ
أَبُو مُضَرٍ أُذْنِي تَسَاقَطَ مِنْ عَيْنِي

وَقَوْلُ الزَّمَخْشَرِيِّ[٣] :

لَمْ يُبْكِنِي إِلَّا حَدِيثُ فِرَاقِهِمْ ... لَمَّا أَسَرَّ بِهِ إِلَيَّ مُوَدِّعِي
هُوَ ذٰلِكَ الدُّرُّ الَّذِي أَوْدَعْتُمُ ... فِي مَسْمَعِي أَجْرَيْتُهُ مِنْ مَدْمَعِي

وَقَوْلُ الزَّغَارِيِّ[٤] :

قَدْ بِعْتُهُمْ قَلْبِي يَوْمَ بَيْنِهِمْ ... بِنَظْرَةِ التَّوْدِيعِ وَهْوَ يَحْتَرِقْ
وَلَمْ أَجِدْ مِنْ بَعْدِهَا لِرَدِّهِ ... وَجْهًا وَكَانَ الرَّدُّ لَوْ لَمْ نَفْتَرِقْ

وَقَوْلُ بَعْضِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ :

سَارُوا فَوَدَّعَهُمْ طَرْفِي وَأَوْدَعَهُمْ ... قَلْبِي فَمَا بَعُدُوا عَنِّي وَلَا قَرُبُوا

---

(١) المعروف أن هذين البيتين من شعر جار الله الزمخشري يرثي شيخه أبا مضر، وروى البيت الثاني هكذا :

فقلت هو الدر الذي كان قد حشا ... أبو مضر أذني تساقط من عيني

(٢) السمط بكسر السين : الخيط مادام فيه اللؤلؤ فان خلا منه فهو سلك

(٣) والمعروف أن هذين البيتين للقاضي أبي بكر الأرجاني، وكان معاصرا للزمخشري فلا يدري أيهما أخذ من الآخر (٤) هو شرف الدين حسن الغزي الشهير بالزغاري، وكان معاصرا لجمال الدين بن نباتة المصري (في القرن الثامن الهجري)

هُمُ الشُّمُوسُ فِي عَيْنِي إِذَا طَلَعُوا

فِي الْقَادِمِينَ وَفِي قَلْبِي إِذَا غَرَبُوا

وَقُلْتُ أَنَا مُضَمِّنًا بَدِيهَةً :

لَا كَانَ يَوْمُ فِرَاقٍ   سَاقَ الشُّجُونَ إِلَيْنَا

فَكَمْ أَذَلَّ نُفُوسًا   يَا مَنْ[1] يَعِزُّ عَلَيْنَا

وَقُلْتُ أَيْضًا مُضَمِّنًا :

سَلَا[2] أَحِبَّتَهُ مَنْ لَمْ يَذُبْ كَمَدًا

يَوْمَ الْوَدَاعِ وَإِنْ أَجْرَى الدُّمُوعَ دَمَا

يَامَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ

مِنْ بَعْدِكُمْ هُدَّ رُكْنُ الصَّبْرِ وَانْهَدَمَا

وَإِنْ نَأَى الْجِسْمُ كُرْهًا عَنْ مَنَازِلِكُمْ

فَالْقَلْبُ ثَاوٍ[3] بِهَا لَمْ يَصْحَبِ الْقَدَمَا

---

(١) جزء من شطر بيت للمتنبي من قصيدة يعاتب فيها سيف الدولة ابن حمدان مطلعها :

واحر قلباه ممن قلبه شبم   ومن بجسمي وحالي عنده سقم

ومنها   يامن يعز علينا أن نفارقهم   وجداننا كل شيء بعدكم عدم

(٢) سلا : هجر (٣) ثاو : مقيم

وَمَا نَسِينَا عُهُودًا لِلْهَوَى كَرُمَتْ

نَعَمْ قَرَعْنَا عَلَيْهَا سِنَّنَا نَدَمَا

وَأَظْلَمَتْ بِالنَّوَى أَرْجَاءُ مَقْصِدِنَا

وَصَارَ وِجْدَانُ إِلْفٍ غَيْرِكُمْ عَدَمَا

وَقُلْتُ أَيْضًا مُضَمِّنًا :

لَمْ أَنْسَ بِالشَّامِ أُنْسًا شِمْتُ بَارِقَهُ

جَادَتْ مَعَاهِدَهُ أَنْوَاءُ نِيْسَانِ[1]

لَهْفِي لِعَيْشٍ قَضَيْنَا فِي مَشَاهِدِهَا

مَا بَيْنَ حُسْنٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِحْسَانِ

وَقُلْتُ كَذَلِكَ :

يَاجِيرَةً بَانُوا وَأَبْقَوْا حَسْرَةً

تُجْرِي دُمُوعِي بَعْدَهُمْ وَفْقَ الْقَضَا

كَمْ قُلْتُ إِذ وَدَّعْتُهُمْ وَالْأُنْسُ لَا

يُنْسَى وَعَهْدُ وِدَادِهِمْ لَنْ يُرْفَضَا

---

(١) شهر رومى

يَامَوْقِفَ ٱلتَّوْدِيعِ إِنَّ مَدَامِعِي
فُضَّتْ[١] وَفَاضَتْ فِي ثَرَى ذَاكَ ٱلْفَضَا

وَكَمْ تَفَاءلْتُ بِقَوْلِ ٱلْأَوَّلِ ، مَعَ عِلْمِي بِأَنَّ عَلَى ٱللهِ ٱلْمُعَوَّلَ :

إِذَا رَأَيْتَ ٱلْوَدَاعَ فَاصْبِرْ وَلَا يُهِمَّنَّكَ ٱلْبِعَادُ
وَٱنْتَظِرِ ٱلْعَوْدَ عَنْ قَرِيبٍ فَإِنَّ قَلْبَ[٢] ٱلْوَدَاعِ عَادُوا

وَضَاقَتْ بِي ٱلرِّحَابُ ، عِنْدَ مُفَارَقَةِ أَعْيَانِ ٱلْأَحْبَابِ وَٱلصِّحَابِ ، وَكَاثَرَتْ دُمُوعِي مِنْ بَيْنِهِمُ ٱلسَّحَابَ ، وَزَنْدُ ٱلتَّذَكُّرِ يَقْدَحُ ٱلْأَسَفَ فَيَهِيجُ ٱلانْتِحَابَ ، وَقَدْ تَمَثَّلْنَا إِذْ ذَاكَ - وَٱلْجَوَانِحُ مِنَ ٱلْجَوَى فِي ٱلْتِهَابٍ ، وَذَخَائِرُ ٱلصَّبْرِ ذَاتُ ٱنْتِهَابٍ - بِقَوْلِ بَعْضِ مَنْ مَزَّقَ ٱلْبُعْدُ مِنْهُ ٱلْإِهَابَ :

وَلَمَّا نَزَلْنَا مَنْزِلًا طَلَّهُ ٱلنَّدَى أَنِيقًا[٣] وَبُسْتَانًا مِنَ ٱلنَّوْرِ حَالِيَا
أَجَدَّ لَنَا طِيبُ ٱلْمَكَانِ وَحُسْنُهُ مُنًى فَتَمَنَّيْنَا فَكُنْتِ ٱلْأَمَانِيَا

---

(١) أي حل وكاؤها (٢) اذا قلبت حروف وداع كانت عادوا (٣) أنيقا : حسنا معجبا

وَقَدْ طُفْتُ فِي شَرْقِ الْبِلَادِ وَغَرْبِهَا
وَسَيَّرْتُ خَيْلِي بَيْنَهَا وَرِكَابِيَا
فَلَمْ أَرَ مِنْهَا مِثْلَ بَغْدَادَ مَنْزِلًا وَلَمْ أَرَ فِيهَا مِثْلَ دِجْلَةَ وَادِيَا
وَلَا مِثْلَ أَهْلِيهَا أَرَقَّ شَمَائِلًا وَأَعْذَبَ أَلْفَاظًا وَأَحْلَى مَعَانِيَا

وَبِقَوْلِ مَنْ تَأَسَّفَ عَلَى مَغَانِي التَّدَانِي، وَهُوَ أَبُو الْحَجَّاجِ الْأَنْدَلُسِيُّ الدَّانِي :

أَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ أُفَارِقَ مَنْزِلًا يُطَالِعُنِي وَجْهُ الْمُنَى فِيهِ سَافِرَا
كَأَنَّ عَلَى الْأَيَّامِ حِينَ غَشِيتُهُ[1] يَمِينًا فَلَمْ أَحْلُلْهُ إِلَّا مُسَافِرَا

وَتَخَيَّلْنَا أَنَّ إِقَامَتَنَا بِدِمَشْقَ وَقَاهَا اللهُ كُلَّ صَرْفٍ ، مَا كَانَتْ إِلَّا خَطْرَةَ طَيْفٍ مُلِمٍّ أَوْ لَمْحَةَ طَرْفٍ ،

وَقَفْنَا سَاعَةً ثُمَّ ارْتَحَلْنَا وَمَا يُغْنِي الْمَشُوقَ وُقُوفُ سَاعَهْ
كَأَنَّ الشَّمْلَ لَمْ يَكُ فِي اجْتِمَاعٍ إِذَا مَا شَتَّتَ الْبَيْنُ اجْتِمَاعَهْ

وَطَالَمَا عَلَّلْتُ النَّفْسَ بِالْعَوْدِ إِلَيْهَا ثُمَّ إِلَى بِقَاعِي ، مُنْشِدًا قَوْلَ الْأَدِيبِ الشَّهِيرِ بِابْنِ الْفِقَاعِي :

---

(١) غشيته : أتيته

مَتَى عَايَنَتْ عَيْنَاىَ أَعْلَامَ حَاجِرٍ
جَعَلْتُ مَوَاطِى ٱلْعِيسِ فَوْقَ مَحَاجِرِى

وَإِنْ لَاحَ مِنْ أَرْضِ ٱلْعَوَاصِمِ بَارِقٌ
رَجَعْتُ بِأَحْشَاءٍ صَوَادٍ صَوَادِرِ

سَقَى ٱللهُ هَاتِيكَ ٱلْمَوَاطِنَ وَٱلرُّبَا
مَوَاطِرَ أَجْفَانٍ هَوَامٍ(١) هَوامِرِ(٢)

وَحَيَّا ٱلْخِيَامَ سَاكِنِى ٱلْحَىِّ أَوْجُهًا
سَفَرْنَ بِأَنْوَارٍ زَوَاهٍ زَوَاهِرِ

بِحَيْثُ زَمَانُ ٱلْوَصْلِ غَضٌّ وَرَوْضُهُ
أَرِيضٌ بِأَزْهَارٍ بَوَاهٍ بَوَاهِرِ

وَحَيْثُ جُفُونُ ٱلْحَاسِدِينَ غَضِيضَةٌ
رَمَقْنَ بِآمَاقٍ سَوَاهٍ سَوَاهِرِ

ثُمَّ حَاوَلْتُ خَاطِرِى ٱلْكَلِيلَ، فِيمَا يَشْفِى بَعْضَ ٱلْغَلِيلِ فَقَالَ عَلَى طَرِيقِ ٱلتَّضْمِينِ ، وَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ ٱلشَّوْقُ وَٱلتَّخْمِينُ :

---

(١) همى المطر : سح (٢) همر : غزر

بِأَبِي مَنْ أَوْدَعُوا مُذْ وَدَّعُوا

قَلْبِيَ ٱلشَّوْقَ وَلِلْعِيسِ ذَمِيلْ[1]

جِيرَةٌ غُرٌّ كِرَامٌ خِيرَةٌ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُمُ يَبْدُو جَمِيلْ

وَعَلَى ٱلْجُمْلَةِ مَالِي غَيْرُهُمْ لَوْ أَرَادُوا أَنْ يَمِيلُوا أَوْ يَمِيلْ

ثُمَّ قُلْتُ وَقَدْ سَدَّدَ ٱلتَّنَائِي إِلَيَّ نَبْلَهُ ، مُوَطِّئًا لِلْبَيْتِ ٱلثَّالِثِ كَمَا فِي ٱلْأَبْيَاتِ قَبْلَهُ :

يَادِمَشْقًا حَيَّاكِ غَيْثٌ غَزِيرُ وَوَقَاكِ ٱلْإِلٰهُ مِمَّا يَضِيرُ

حُسْنُكِ ٱلْفَرْدُ وَٱلْبَدَائِعُ جَمْعٌ مُتَنَاهٍ فِيهِ فَعَزَّ ٱلنَّظِيرُ

أَيْنَ أَيَّامُنَا بِظِلِّكِ وَٱلشَّمْلُ جَمِيلٌ وَٱلْعَيْشُ غَضٌّ نَضِيرُ؟

ثُمَّ أَكْثَرْتُ ٱلِالْتِفَاتَ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ ، وَقَدْ شَبَّهْتُ ٱلْبَيْدَاءَ وَٱلشَّوْقَ بِبَدَلِ ٱلْكُلِّ وَٱلِاشْتِمَالِ ، وَتَنَسَّمْتُ مِنْ نَوَاحِي تِلْكَ ٱلْأَرْجَاءِ أَرِيجَ ٱلشَّمَالِ ، وَضَمَّنْتُ فِي ٱلْمَعْنَى قَوْلَ بَعْضِ مَنْ ثَنَى ٱلْحُبُّ عِطْفَهُ وَأَمَالَ :

تَنَسَّمْتُ أَرْوَاحًا سَرَتْ مِنْ دِيَارِ مَنْ

بِهِمْ كَانَ جَمْعُ ٱلشَّمْلِ لَمْحَةَ حَالِمِ

(١) العيس : الابل الرواحل ، والذميل : السير اللين

وَجَاوَبْتُ مَنْ يَلْحَى عَلَى ذَاكَ جَاهِلًا

بِقَوْلِ لَبِيبٍ بِالْعَوَاقِبِ عَالِمِ

وَمَا أَنْشَقُ ٱلْأَرْوَاحَ إِلَّا لِأَنَّهَا

تَمُرُّ عَلَى تِلْكَ ٱلرُّبَا وَٱلْمَعَالِمِ

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ ٱلْآخَرِ :

سَرَتْ مِنْ نَوَاحِي ٱلشَّامِ لِي نَسْمَةُ ٱلصَّبَا

وَقَدْ أَصْبَحَتْ حَسْرَى مِنَ ٱلسَّيْرِ ظَالِعَهْ[1]

وَمِنْ عَرَقٍ مَبْلُولَةُ ٱلْجَيْبِ بِالنَّدَى

وَمِنْ تَعَبٍ أَنْفَاسُهَا مُتَتَابِعَهْ

وَقُلْتُ أَنَا :

حَمِدْتُ وَحَقَّ ٱللهِ لِلشَّامِ رِحْلَةً أَتَاحَتْ لِعَيْنَيَّ ٱجْتِلَاءَ مُحَيَّاهُ

وَبَعْدَ ٱلتَّنَائِي صِرْتُ أَرْتَاحُ لِلصَّبَا

لِأَنَّ ٱلصَّبَا تَسْرِي بِعَاطِرِ رَيَّاهُ[2]

فَلِلّٰهِ عَهْدٌ قَدْ أَتَاحَ بِجِلَّقٍ[3] سُرُورًا فَحَيَّاهُ ٱلْإِلٰهُ وَحَيَّاهُ[4]

(١) الظلع : العرج (٢) الريا : الرائحة الذكية (٣) اسم دمشق (٤) ربما كانت : وبياه

وَٱسْتَحْضَرْتُ عِنْدَ جِدِّ ٱلسَّيْرِ، قَوْلَ صَفْوَانَ بْنِ إِدْرِيسَ ٱلْمُرْسِيِّ ذَكَرَهُ ٱللهُ تَعَالَى بِالْخَيْرِ :

أَيْنَ أَيَّامُنَا ٱللَّوَاتِى تَقَضَّتْ   إِذْ زَجَرْنَا[1] لِلْوَصْلِ أَيْمَنَ طَيْرِ

ثُمَّ قَوْلَ غَيْرِهِ مِمَّنْ حَنَّ وَأَنَّ ، وَقَلِقَ قَلْبُهُ وَمَا ٱطْمَأَنَّ :

أَحِنُّ إِلَى مَشَاهِدِ أُنْسِ إِلْفِى
وَعَهْدِى مِنْ زِيَارَتِهِ قَرِيبُ
وَكُنْتُ أَظُنُّ قُرْبَ ٱلْعَهْدِ يُطْفِى
لَهِيبَ ٱلشَّوْقِ فَٱزْدَادَ ٱللَّهِيبُ

وَرُبَّمَا تَجَلَّدْتُ مُغَالِطًا ، مُتَعَلِّلًا بِقَوْلِ مَنْ كَانَ لِإِلْفِهِ مُخَالِطًا :

حَضَرْتَ فَكُنْتَ فِى بَصَرِى مُقِيماً
وَغِبْتَ فَكُنْتَ فِى وَسَطِ ٱلْفُؤَادِ

---

(١) زجر الطير من العيافة : فاذا زجرها من أراد أمرا فطارت يمنة فهى سانحة ، وذلك خير ، أو يسرة فهى بارحة وذلك شر . والعيافة باطلة قال الشاعر :

لعمرك ماتدرى الطوارق بالحصا   ولا زجرات الطير ما الله صانع

وَمَا شَطَّتْ بِنَا دَارٌ وَلٰكِنْ نُقِلْتَ مِنَ ٱلسَّوَادِ إِلَى[1] ٱلسَّوَادِ

وَقَوْلِ غَيْرِهِ :

وَكُنْ كَمَا شِئْتَ مِنْ قُرْبٍ وَمِنْ بُعُدٍ
فَٱلْقَلْبُ يَرْعَاكَ إِنْ لَمْ يَرْعَكَ ٱلْبَصَرُ

وَبِقَوْلِ ٱلْوَدَاعِي[2] :

يَا عَاذِلِي فِي وَحْدَتِي بَعْدَهُمْ وَأَنَّ رَبْعِي مَا بِهِ مِنْ جَلِيسْ
وَكَيْفَ يَشْكُو وَحْدَةً مَنْ لَهُ دَمْعٌ حَمِيمٌ وَأَنِينٌ أَنِيسْ

ثُمَّ رَدَدْتُ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةَ ، بِقَوْلِ بَعْضِ مَنْ لَمْ يُبْلِمْهُ ٱلسُّلُوُّ رِيقَهُ :

لَا رَعَى ٱللهُ عَزْمَةً ضَمِنَتْ لِي سَلْوَةَ ٱلْقَلْبِ وَٱلتَّصَبُّرَ عَنْهُمْ
مَا وَفَتْ غَيْرَ سَاعَةٍ ثُمَّ عَادَتْ مِثْلَ قَلْبِي تَقُولُ لَا بُدَّ مِنْهُمْ

وَبِقَوْلِ ٱبْنِ آجُرُّومَ ، فِي مِثْلِ هَذَا ٱلْغَرَضِ ٱلْمَرُومِ :

يَا غَائِبًا كَانَ أُنْسِي رَهْنَ طَلْعَتِهِ
كَيْفَ ٱصْطِبَارِي وَقَدْ كَابَدْتُ بَيْنَهُمَا
دَعْوَايَ أَنَّكَ فِي قَلْبِي يُعَارِضُهَا
شَوْقِي إِلَيْكَ فَكَيْفَ ٱلْجَمْعُ بَيْنَهُمَا ؟

---

(١) يريد أنه انتقل من سواد عينه الى سويداء قلبه (٢) هو علاء الدين على الوداعى الكندى توفى سنة ٧١٦

ثُمَّ جَدَّ بِي ٱلسَّيْرُ إِلَى مِصْرَ وَٱسْتَمَرَّ ، فَتَذَكَّرْتُ قَوْلَ ٱلصَّفَدِيِّ ، وَقَدِ ٱشْتَدَّ بِالرَّمْلِ ٱلْحَرُّ

أَقُولُ وَحَرُّ ٱلرَّمْلِ قَدْ زَادَ وَقْدُهُ
وَمَالِى إِلَى شَمِّ ٱلنَّسِيمِ سَبِيلُ
أَظُنُّ نَسِيمَ ٱلْجَوِّ قَدْ مَاتَ وَٱنْقَضَى
فَعَهْدِى بِهِ فِى ٱلشَّامِ وَهْوَ عَلِيلُ

وَقَوْلَ ٱبْنِ ٱلْخَيَّاطِ :

قَصَدْتُ مِصْرًا مِنْ رُبَا جِلَّقٍ بِهِمَّةٍ تَجْرِى بِتَجْرِيبِى
فَلَمْ أَرَ ٱلطُّرَّةَ حَتَّى جَرَتْ دُمُوعُ عَيْنِى بِالْمُرَيْزِيبِ (١)

وَحِينَ وَصَلْتُ مِصْرَ لَمْ أَنْسَ عَهْدَ ٱلشَّامِ ٱلْمَرْعِيَّ ، وَأَنْشَدْتُ قَوْلَ ٱلشِّهَابِ ٱلْحَنْبَلِيِّ ٱلزرْعِيِّ :

أَحِبَّتَنَا وَٱللهِ مُذْ غِبْتُ عَنْكُمُ
سُهَادِى سَمِيرِى وَٱلْمَدَامِعُ مِدْرَارُ
وَوَٱللهِ مَا ٱخْتَرْتُ ٱلْفِرَاقَ وَإِنَّهُ
بِرَغْمِى وَلِى فِى ذَلِكَ ٱلْأَمْرِ أَعْذَارُ

---

(١) المريزيب : تصغير مرزاب (لغة فى الميزاب) وليست فصيحة : وهو المسراب الذى يسيل منه ماء المطر

إِذَا شَامَ بَرْقَ ٱلشَّامِ طَرْفِي تَتَابَعَتْ
سَحَائِبُ جَفْنِي وَٱلْفُؤَادُ بِهِ نَارُ
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَعُودَنَّ شَمْلُنَا
جَمِيعاً وَتَحْوِينَا رُبُوعٌ وَأَقْطَارُ؟!

وَقَوْلَ ٱبْنِ عُنَيْنٍ[١] :

دِمَشْقُ بِنَا شَوْقٌ إِلَيْكِ مُبَرِّحٌ
وَإِنْ لَجَّ وَاشٍ أَوْ أَلَحَّ عَذُولُ
بِلَادٌ بِهَا ٱلْحَصْبَاءُ[٢] دُرٌّ وَتُرْبُهَا
عَبِيرٌ وَأَنْفَاسُ ٱلرِّيَاحِ شَمُولُ[٣]
تَسَلْسَلُ مِنْهَا مَاؤُهَا وَهْوَ مُطْلَقٌ
وَصَحَّ نَسِيمُ ٱلرَّوْضِ وَهْوَ عَلِيلُ

وَقَوْلَ آخَرَ :

نَفْسِي ٱلْفِدَاءُ لِأُنْسٍ كُنْتُ أَعْهَدُهُ
وَطِيبِ عَيْشٍ تَقَضَّى كُلُّهُ كَرَمُ

---

(١) هو أبو المحاسن شرف الدين محمد بن نصر الدين بن نصر بن الحسين ابن عنين الكوفى الأصل الدمشقى المولد شاعر مجيد أديب ولكنه كان هجاء خبيث اللسان — ولد سنة ٥٤٩ وتوفى سنة ٦٣٠ هـ بدمشق
(٢) أى الدر والحصا (٣) من أسماء الخمر

وَجِيرَةٍ كَانَ لِي إِلْفٌ بِوَصْلِهِمُ
وَالْأُنْسُ أَفْضَلُ مَا بِالْوَصْلِ يُغْتَنَمُ
بِالشَّامِ خَلَّفْتُهُمْ ثُمَّ انْصَرَفْتُ إِلَى
سِوَاهُمُ فَاعْتَرَانِي بَعْدَهُمْ أَلَمُ
كَانُوا نَعِيمَ فُؤَادِي وَالْحَيَاةَ لَهُ
وَالْآنَ كُلُّ وُجُودٍ بَعْدَهُمْ عَدَمُ

فَإِنْ أَنْشَدَ لِسَانُ الْحَالِ، فِيمَا اقْتَضَاهُ مَعْنَى الْبُعْدِ عَنْهَا وَالِارْتِحَالِ:

يَاغَائِباً قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ قَلْبَهُ
بِسِوَى دِمَشْقَ وَأَهْلِهَا لَا يَعْلَقُ
إِنْ كَانَ صَدَّكَ نِيلُ مِصْرٍ عَنْهُمُ
لَا غَرْوَ فَهْوَ لَنَا الْعَدُوُّ الْأَزْرَقُ(١)

أَتَيْتُ فِي جَوَابِهِ، بِقَوْلِ بَعْضِ مَنْ بَرَّحَ الْجَوَى بِهِ:

لِلَّهِ دَهْرٌ جَمَعْنَا شَمْلَ لَذَّتِهِ
بِالشَّامِ أَعْذَبُ مِنْ أَمْنٍ عَلَى فَرَقِ

(١) أي شديد العداوة وزرقة الماء كناية عن صفائه ففي (الأزرق) تورية

مَرَّتْ لَيَالِيهِ وَٱلأَيَّامُ فِي خُلَسٍ[1]

كَأَنَّمَا سَلَبَتْهُ كَفُّ مُسْتَرِقِ

مَا كَانَ أَحْسَنَهَا لَوْ لَا تَنَقُّلُهَا

مِنَ ٱلنَّعِيمِ إِلَى ذَاكٍ[2] مِنَ ٱلْحُرَقِ

رَقَّ ٱلْعَذُولُ لِحَالِي بَعْدَهَا وَرَثَى

لِي فِي ٱلْجَوَى وَٱلنَّوَى وَٱلشَّجْوِ وَٱلْأَرَقِ

وَبِالْجُمْلَةِ فَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ مِنْ مَوَاسِمِ ٱلْعُمْرِ مَحْسُوبَةٌ، وَٱلسُّعُودُ إِلَى طَوَالِعِهَا مَنْسُوبَةٌ :

وَكَانَتْ فِي دِمَشْقَ لَنَا لَيَالٍ سَرَقْنَاهُنَّ مِنْ رَيْبِ ٱلزَّمَانِ

جَعَلْنَاهُنَّ تَارِيخَ ٱللَّيَالِي وَعُنْوَانَ ٱلْمَسَرَّةِ وَٱلْأَمَانِي

وَهِيَ مَغَانِي ٱلتَّهَانِي ٱلَّتِي مَا نَسِينَاهَا، وَأَمَانِي زَمَانِي ٱلَّتِي نَعِمْتُ بِطُورِ سِينَاهَا، عَلَيْهَا وَعَلَى وَطَنِي مَقْصُورَةٌ، وَٱلْقَلْبُ فِي ٱلْمَعْنَى مُقِيمٌ بِهِمَا وَإِنْ كَانَ فِي غَيْرِهِمَا بِالصُّورَةِ، وَٱلْأَشْوَاقُ إِلَيْهِمَا قَضَايَاهَا مُوَجَّهَةٌ وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ مَحْصُورَةٍ.

---

(١) الخلسة : النهزة ، يقال الفرصة خلسة (٢) أي ملتهب: من ذكت النار إذا التهبت

وَلِلهِ عَهْدٌ قَدْ تَقَضَّى وَإِنْ يَعُدْ فَإِنِّي عَنِ ٱلْأَيَّامِ أَعْفُو وَأَصْفَحُ

بِقَلْبِيَ مِنْ ذِكْرَاهُ مَا لَيْسَ يَنْقَضِي

وَمِنْ بُرَحَاءِ ٱلشَّوْقِ مَا لَيْسَ يَبْرَحُ

إِذَا مَسَحَتْ كَفِّي ٱلدُّمُوعَ تَسَتُّرًا

بَدَتْ زَفْرَةٌ بَيْنَ ٱلْجَوَانِحِ تُقْدَحُ

فَإِنْ جَمَعَتْ شَمْلِي ٱللَّيَالِي بِقُرْبِهِمْ

تَجَمَّعَ غَيْلَانٌ[1] وَمَيٌّ وَصَيْدَحُ[2]

عَلَى أَنَّهَا ٱلْأَيَّامُ جِدٌّ مِزَاحُهَا وَرُبَّ مُجِدٍّ فِي ٱلْأَذَى وَهْوَ يَمْزَحُ

وَكَثِيرًا مَا يَلْهَجُ ٱللِّسَانُ بِقَوْلِ مَنْ قَالَ :

وَمَا تَفْضُلُ ٱلْأَوْقَاتُ أُخْرَى لِذَاتِهَا

وَلَـٰكِنَّ أَوْقَاتَ ٱلْحِسَانِ حِسَانُ

وَيُرَدِّدُ قَوْلَ مَنْ شَوْقُهُ مُتَجَدِّدٌ :

سَقَى مَعْهَدَ ٱلْأَحْبَابِ نَاقِعُ صَيِّبٍ

مِنَ ٱلْمُزْنِ عَنْ مَغْنَاهُ لَيْسَ يَرِيمُ[3]

---

(١) هو اسم ذى الرمة الشاعر (٢) هو اسم ناقة ذى الرمة (٣) أى يتحول

وَإِنْ لَمْ أَكُنْ مِنْ سَاكِنِيهِ فَإِنَّهُ
يَحُلُّ بِهِ خِلٌّ عَلَيَّ كَرِيمُ

وَيُنْشِدُ مَنْ يَلُومُ، قَوْلَ مَنْ فِي حَشَاهُ وَلَهٌ وَفِي قَلْبِهِ كُلُومٌ[1]:

قَدْ أُصْبِحَ آخِرُ الْهَوَى أَوَّلَهُ ... فَالْعَاذِلُ فِي هَوَاكَ مَالِي وَلَهُ
بِاللهِ عَلَيْكَ خَلِّ مَا أَوَّلَهُ[2] ... وَارْحَمْ دَنِفًا الَّذِي حَشَاهُ وَلَهُ[3]

وَقَدِ امْتَدَّ بِنَا الْكَلَامُ، وَرُبَّمَا يَجْعَلُهُ اللَّاحِي ذَرِيعَةً لِزِيَادَةِ الْمَلَامِ، فَلْنَرْجِعْ إِلَى مَا كُنَّا بِصَدَدِهِ مِنْ إِجَابَةِ الْمَوْلَى الشَّاهِينِيِّ - أَمَدَّهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِمَدَدِهِ - فَأَقُولُ، مُسْتَمِدًّا مِنْ وَاهِبِ الْعُقُولِ.

إِنِّي شَرَعْتُ بَعْدَ الِاسْتِقْرَارِ بِمِصْرَ فِي الْمَطْلُوبِ، وَكَتَبْتُ مِنْهُ نُبْذَةً تَسْتَحْسِنُهَا مِنَ الْمُحِبِّينَ الْأَسْمَاعُ وَالْقُلُوبُ، وَسَلَكْتُ فِي تَرْتِيبِهِ أَحْسَنَ أُسْلُوبٍ، وَعَرَضْتُ فِي سُوقِهِ كُلَّ نَفِيسٍ غَرِيبٍ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ مَجْلُوبٍ. تَسْتَحْسِنُ الْأَبْصَارُ مَا عَلَيْهِ احْتَوَى،

---

(١) كلوم: جروح (٢) من التأويل: وهو التفسير (٣) أى شدة الحب

وَتَعْرِفُ ٱلْأَفْكَارُ أَنَّهُ غَيْرُ مُجْتَوَى[١] ، ثُمَّ وَقَفَ بِي مَرْكَبُ ٱلْعَزْمِ عَنِ ٱلتَّمَامِ وَٱسْتَوَى ، فَأَخَّرْتُهُ تَأْخِيرَ ٱلْغَرِيمِ ، لِدَيْنِ ٱلْكَرِيمِ . وَصَدَّتْنِي أَعْرَاضٌ ، عَنْ تَكْمِيلِ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ أَغْرَاضٍ . وَأَضْرَبْتُ بُرْهَةً عَمَّا لَهُ مِنْ مَنْحَى ، لِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ ٱلدَّهْرِ نَفْعاً وَدَفْعاً وَمَنْعاً وَمَنْحًا . وَمَرَقَتْ عَنْ هَدَفِ ٱلْإِصَابَةِ نِبَالٌ ، وَطَرَقَتْ فِي سُدَفِ[٢] لَيَالِي ٱلْكِتَابَةِ أُمُورٌ لَمْ تَكُنْ تَخْطُرُ بِبَالٍ . فَجَاءَتْنِي مِنَ ٱلْمَوْلَى ٱلْمَذْكُورِ آنِفاً ، رِسَالَةٌ دَلَّتْ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَنِ ٱنْتِجَازِ ٱلْوَعْدِ مُتَجَانِفاً[٣] ، فَعُدْتُ لِقَضَاءِ ٱلْوَطَرِ مُسْتَقْبِلاً وَلِلْجُمْلَةِ مُسْتَأْنِفاً . وَحَدَا بِي خِطَابُهُ ٱلْجَسِيمُ لِلْإِتْمَامِ وَسَاقَنِي ، وَرَاقَنِي كِتَابُهُ ٱلْكَرِيمُ لِتِلْكَ ٱلْأَيَّامِ وَشَاقَنِي ، وَذَكَّرَنِي تِلْكَ ٱللَّيَالِيَ ٱلَّتِي لَمْ أَنْسَهَا ، وَحَرَّكَنِي لِتِلْكَ ٱلْمَعَاهِدِ ٱلَّتِي لَمْ أَزَلْ أَذْكُرُ أُنْسَهَا

وَٱلْإِلْفُ لَا يَصْبِرُ عَنْ إِلْفِهِ ... إِلَّا كَمَا يَطْرِفُ بِٱلْعَيْنِ
وَقَدْ صَبَرْنَا عَنْهُمُ مُدَّةً ... مَا هَكَذَا شَأْنُ ٱلْمُحِبَّيْنِ

(١) اجتواه : كرهه وأبغضه (٢) السدف والسدف : الظلمة (٣) أى مائلا معرضا

فَيَالَهُ مِنْ كِتَابٍ كَرِيمٍ ، أَعْرَبَ عَنْ وُدٍّ صَمِيمٍ ، وَذِكْرٍ بِعَهْدٍ غَيْرِ ذَمِيمٍ ، وَوُدٍّ طَيِّبِ الْعَرْفِ وَالشَّمِيمِ ، يُخْجِلُ ابْنُ الْمُعْتَزِّ لِبَلَاغَتِهِ وَابْنُ الْمُعِزِّ تَمِيمٌ(١)

وَلَمْ تَرَ عَيْنَايَ مِنْ قَبْلِهِ ... كِتَابًا حَوَى بَعْضَ مَا قَدْ حَوَى
كَأَنَّ الْمَبَاسِمَ مِيمَاتُهُ ... وَلَامَاتِهِ الصُّدْغُ لَمَّا الْتَوَى
وَأَعْيُنُهُ كَعُيُونِ الْحِسَانْ ... تُغَازِلُنَا عِنْدَ ذِكْرِ الْهَوَى
كِتَابٌ ذَكَرْنَا بِأَلْفَاظِهِ ... عُهُودًا زَكَتْ بِالْحِمَى وَاللِّوَى

فَكَأَنَّهُ الرَّوْضُ الْمُطَّرِدُ الْأَنْهَارِ ، وَالدَّوْحُ الْمُدَبَّجُ الْأَزْهَارِ .

رَأَيْنَا بِهِ رَوْضًا تَدَبَّجَ وَشْيُهُ ... إِذَا جَادَ مِنْ تِلْكَ الْأَيَادِي غَمَائِمُ
بِهِ أَلِفَاتٌ كَالْغُصُونِ وَقَدْ عَلَا ... عَلَيْهَا مِنَ الْهَمْزِ الْمُطِلِّ حَمَائِمُ

وَقَدْ سُقِيَتْ بِأَنْهَارِ الْبَرَاعَةِ السَّلْسَالَةِ ، حَدَائِقُ حَلَّتْ بِهَا غَانِيَةُ تِلْكَ الرِّسَالَةِ ، لِتَشْفِيَ صَبَّهَا بِالزِّيَارَةِ ، وَتُشَرِّفَ بِدُنُوِّهَا دِيَارَهُ :

زَارَتِ الصَّبَّ فِي لَيَالٍ مِنَ الْبُعْـ ... ـدِ فَلَمَّا دَنَتْ رَأَى الصُّبْحَ يَلْمَحْ
قَلَّدَتْ بِالْعِقْيَانِ جِيدَ بَيَانٍ ... لَيْسَ فِيهِ لِلْفَتْحِ مِنْ بَعْدُ مَطْمَحْ(٢) .

(١) تميم بن المعز لدين الله الفاطمى كان شاعرا مجيدا، توفى بمصر سنة ٣٧٤

(٢) فى ألفاظ : قلدت ، وعقيان ، والفتح ، ومطمح ، تورية وتوجيه باسم الفتح بن خاقان الأندلسى وكتابيه قلائد العقيان ومطمح الأنفس

فَشَفَتِ ٱلنَّفْسَ مِنْ آلَامِهَا ، وَأَحْيَتْ مَيِّتَ ٱلْهَوَى مُذْ حَيَّتْ بِعَذْبِ كَلَامِهَا :

كَلَامٌ كَالْجَوَاهِرِ حِينَ يَبْدُو ... وَكَالنَّدِّ[1] ٱلْعَبِيرِ إِذَا يَفُوحُ

لَهُ فِي ظَاهِرِ ٱلْأَلْفَاظِ جِسْمٌ ... وَلٰكِنَّ ٱلْمَعَانِيَ فِيهِ رُوحُ

فَصَيَّرْتُ لِي ذٰلِكَ ٱلْكِتَابَ سَمِيرًا ، وَوَرَدْتُ مِنَ ٱلسُّرُورِ مَشْرَعًا نَمِيرًا ، وَتَمَثَّلْتُ بِقَوْلِ بَعْضِ مَنْ أَخْلَصَ فِي ٱلْوُدِّ ضَمِيرًا :

يَامُفْرَدًا أَهْدَى إِلَيَّ كِتَابَهُ ... جُمَلًا يَحَارُ ٱلذِّهْنُ فِي أَثْنَائِهَا

كَالدُّرِّ أَشْرَقَ فِي سُمُوطِ عُقُودِهِ
وَٱلزَّهْرِ وَٱلْأَنْوَارِ[2] غِبَّ سَمَائِهَا

فَأَفَادَنِي جَذَلًا وَبَالِيَ كَاسِدٌ
وَأَجَارَ نَفْسِي مِنْ جَوَى بُرَحَائِهَا[3]

وَحَسِبْتُ أَيَّامَ ٱلشَّبَابِ رَجَعْنَ لِي
فَلَبِسْتُ حَلْيَ جَمَالِهَا وَبَهَائِهَا

(١) الند : عود يتبخر به وضرب من الطيب يدخن به ، و يقال للعنبر الند ، وفي بعض نسخ الأصل : وكالند المعنبر اذ يفوح ، والعبير نوع من الطيب يجمع من أخلاط ـ وقيل هو الزعفران (٢) جمع نور : هو الزهر أيضا عند بدء تفتحه . والغب : العاقبة . والمراد بالسماء المطر (٣) البرحاء : شدة الاذى والمشقة

لَا يَعْدَمُ الْإِخْوَانُ مِنْكَ مَحَاسِنًا
كُلُّ الْمَفَاخِرِ قَطْرَةٌ مِنْ مَائِهَا

فَأَكْرِمْ بِهِ مِنْ كِتَابٍ جَاءَ مِنَ السَّرِيِّ الْعَلِيِّ، وَالْمَاجِدِ الْأَخِ الْوَلِيِّ:

فَضَضْتُ خِتَامَهُ فَتَبَيَّنَتْ[١] لِي ... مَعَانِيهِ عَنِ الْخَبَرِ الْجَلِيِّ
وَكَانَ أَلَذَّ فِي عَيْنِي وَأَنْدَى ... عَلَى كَبِدِي مِنَ الزَّهَرِ الْجَنِيِّ
وَضُمِّنَ صَدْرُهُ مَالَمْ تُضَمَّنْ ... صُدُورُ الْغَانِيَاتِ مِنَ الْحُلِيِّ

وَأَعْرَبَ عَنِ اعْتِمَادٍ مُتَمَادٍ، وَوِدَادٍ مُزْدَادٍ، وَأَطَابَ حِينَ أَطَالَ، وَأَدَّى دَيْنَ الْفَصَاحَةِ دُونَ مِطَالٍ. وَاشْتَمَلَ مِنْ فُصُولِ الْعِبَارَةِ عَلَى أَحْسَنَ مِنَ الْحَدَقِ الْمِرَاضِ، وَأَتَى مِنْ أُصُولِ الْبَرَاعَةِ بِبَرَاهِينِ ابْنِ شَاهِينَ الَّتِي لَا خُلْفَ فِيهَا وَلَا اعْتِرَاضَ. وَرَوِينَا مِنْ غَيْثِ أَنَامِلِهِ الْهَتُونِ[٢]، وَرَوَيْنَا عَنْهُ مُسْنَدَ أَحْمَدَ حَسَنَ الْأَسَانِيدِ وَالْمُتُونِ. وَحَثَّنَا عَلَى الْعَوْدِ وَالرُّجُوعِ، وَكَانَ أَجْدَى مِنَ الْمَاءِ الزُّلَالِ لِذِي ظَمَإٍ وَالْمُشْتَهَى مِنَ الطَّعَامِ لِذِي سَغَبٍ[٣] وَجُوعٍ:

---

(١) ويروى : .... فتبلجت لى ... غرائبه عن الخبر الجلى
والأبيات من قصيدة لأبى تمام يمدح بها الحسن بن وهب
(٢) أى المنصب المتتابع (٣) السغب : الجوع الشديد

وَأَشْهَى فِي ٱلْقُلُوبِ مِنَ ٱلْأَمَانِي

وَأَحْلَى فِي ٱلْعُيُونِ مِنَ ٱلْهُجُوعِ

وَجَلَا بِنُورِهِ ظَلَامَ ٱسْتِيحَاشِي ، وَحَشَرَ إِلَيَّ أَشْتَاتَ ٱلْمَسَرَّاتِ دُونَ أَنْ يُحَاشِي . وَوَجَدَنِي فِي مُكَابَدَةِ شُغُوبٍ[1] ، وَأَشْغَالٍ أَشْرَبَتِ ٱلْقَلْبَ ٱلْكَسَلَ وَٱللُّغُوبَ[2] . وَحَيَّرَتِ ٱلْخَوَاطِرَ ، وَصَيَّرَتْ سُحُبَ ٱلْأَقْلَامِ غَيْرَ مَوَاطِرَ . فَزَحْزَحَ عَنِّي ٱلْغُمُومَ وَسَلَّانِي ، وَأَوْلَانِي ـ شَكَرَ ٱللّٰهُ صَنِيعَهُ ـ فِي ٱلْمَسَرَّاتِ مَا أَوْلَانِي :

حَدِيثُهُ أَوْ حَدِيثٌ عَنْهُ يُطْرِبُنِي

هٰذَا إِذَا غَابَ أَوْ هٰذَا إِذَا حَضَرَا

كِلَاهُمَا حَسَنٌ عِنْدِي أُسَرُّ بِهِ

لٰكِنَّ أَحْلَاهُمَا مَا وَافَقَ ٱلنَّظَرَا

وَقَالَ آخَرُ :

لَسْتُ مُسْتَأْنِسًا بِشَيْءٍ إِذَا غِبْ

تَ سِوَى ذِكْرِكَ ٱلَّذِي لَا يَغِيبُ

---

(١) جمع شغب ، وهو تهييج الشر والفتنة والخصام والخلاف (٢) اللغوب : التعب الشديد

أَنْتَ دُونَ ٱلْجُلَّاسِ عِنْدِي وَإِنْ كُنْـ
تَ بَعِيدًا فَٱلْأُنْسُ مِنْكَ قَرِيب

وَضَمَّنْتُ فِيهِ لَمَّا وَرَدَ مَعَ جُمْلَةِ كُتُبٍ مِنْ تِلْكَ ٱلنَّاحِيَةِ، وَأَنْوَارُ أَهْلِهَا ذَوِي ٱلْفَضَائِلِ ٱلشَّهِيرَةِ أَظْهَرُ مِنْ شَمْسِ ٱلظَّهِيرَةِ فِي ٱلسَّمَاءِ ٱلصَّاحِيَةِ :

قُلْتُ لَمَّا أَتَتْ مِنَ ٱلشَّامِ كُتْبٌ   مِنْ أَجِلَّاءَ نُورُهُمْ يَتَأَلَّقْ
مَرْحَبًا مَرْحَبًا وَأَهْلًا وَسَهْلًا   بِعُيُونٍ رَأَتْ مَحَاسِنَ جِلَّقْ

وَقُلْتُ أَيْضًا :

قُلْتُ لَمَّا وَافَتْ مِنَ ٱلشَّامِ كُتْبٌ
وَٱللَّيَالِي تُتِيحُ قُرْبًا وَبُعْدَا
مَرْحَبًا مَرْحَبًا وَأَهْلًا وَسَهْلًا
بِعُيُونٍ رَأَتْ مَحَاسِنَ سُعْدَى

وَكَانَ مِنْ فُصُولِ هٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلْوَارِدِ، مِنَ ٱلْمَوْلَى ٱلشَّاهِينِيِّ ٱلَّذِي ٱقْتَنَصَ بِفَضْلِهِ كُلَّ شَارِدٍ، مَا نَصُّهُ: وَمِمَّا ٱسْتَخْلَصَ قَلْبِي مِنْ يَدَيْ تَرَحِي، وَجَدَّدَ سُرُورِي وَنَبَّهَ فَرَحِي، حَدِيثُ ٱلْكِتَابِ وَمَا حَدِيثُ ٱلْكِتَابِ؟ حَدِيثٌ نَسَخَ بِحَلَاوَتِهِ

مَرَارَةَ الْعِتَابِ ، وَأَنْسَانِي حَرَارَةَ الْمُصَابِ فِي الْأَنْسَالِ[1] وَالْأَعْقَابِ . وَقَضَى بِهِ مِنْ حَقٍّ لِسَانِ الدِّينِ ، دَيْنَهُ الَّذِي تَبَرَّعَ بِهِ غَرِيمٌ مَلِيءٌ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَهُوَ غَيْرُ مَدِينٍ ، حَتَّى كَأَنِّي يَاسَيِّدِي بِهٰذِهِ الْبُشْرَى ، أَحْرَزْتُ سِوَارَيْ كِسْرَى . وَكَانَ فِي مَسْمَعِي كُلُّ حَرْفٍ إِلَيْهَا مَنْسُوبٍ ، قَمِيصَ يُوسُفَ فِي أَجْفَانِ يَعْقُوبَ . وَحَتَّى كِدْتُ أَهْجُرُ أَهْلِي وَبَيْتِي ، وَأُسْرِجُ لِاسْتِقْبَالِ هٰذِهِ الْبُشْرَى أَشْهَبِي[2] وَكُمَيْتِي[3] . وَحَتَّى أَنِّي حَارَبْتُ نَوْمِي وَقَوْمِي ، وَعَزَمْتُ عَلَى أَنْ أُرْحِلَ نَاقَتِي فِي وَقْتِي وَيَوْمِي . وَإِنَّ ذٰلِكَ التَّغْلِيسَ[4] وَالتَّهْجِيرَ[5] ، فِي جَنْبِ مَا بُشِّرْتُ بِهِ لَحَقِيرٌ ، وَإِنَّ مَوْقِعَهَا لَدَى هٰذَا الْعَبْدِ الْحَقِيرِ لَخَطِيرٌ ، وَقَدْ كُنْتُ سَأَلْتُ شَيْخِي حِينَ وَرَدَ دِمَشْقَ الشَّامِ ، وَأُشْتَمُّ مِنْهَا الْعَرَارَ وَالْبَشَامَ[6] ، وَشَرَّفَنِي ، فَعَرَّفَنِي ، وَشَاهَدَنِي ، فَعَاهَدَنِي ، عَلَى

(١) جمع نسل . والأنسال والأعقاب : الذرية (٢) الفرس يغلب بياضه على سواده أو يخالط بياضه سواد (٣) الكميت من الخيل : الذى خالط حمرته سواد (٤) غلس القوم: ساروا بغلس وهو آخر الليل (٥) هجر القوم : ساروا في الهاجرة (٦) البشام بفتح الباء : شجر عطر الرائحة يستاك بعيدانه

أَنْ يُجْرِيَ مَا دَارَ بَيْنَنَا لَدَى الْمُجَاوَرَةِ ، مِنَ الْمُشَاوَرَةِ وَالْمُحَاوَرَةِ ، فِي دِيبَاجَةِ ذٰلِكَ الْكِتَابِ ، الَّذِي فَتَنَ الْعُقُولَ خَبَرُهُ وَسَحَرَ الْأَلْبَابَ ، وَمَا قَصَدْتُ إِلَّا أَنْ يُجْرِيَ اسْمِي عَلَى قَلَمِهِ ، وَيَرْقُمَ رَسْمِي فِي مَطَاوِي تَحْرِيرِهِ وَرَقْمِهِ ، وَيَكُونَ ذِكْرِي مُخْتَلِطًا بِذِكْرِهِ ، كَمَا أَنَّ سِرِّي مُرْتَبِطٌ فِي الْمَحَبَّةِ بِسِرِّهِ . فَرَأَيْتُ شَيْخِي لَمْ يَتَصَدَّ فِي أَثْنَاءِ هٰذِهِ الْبُشْرَى ، لِمَا يُفْهِمُنِي بِالذِّكْرَى لِأَنْتَظِرَ النَّجَاحَ فِي الْأُخْرَى . وَلَمْ يُسَاعِدْنِي عَلَى ذٰلِكَ الْمُلْتَمَسِ ، وَحَبَسَ عِنَانَ الْقَلَمِ فَاحْتَبَسَ . فَانْكَسَرَتْ سَوْرَةُ سُرُورِي بِفُتُورِي ، وَتَبَيَّنَ لِنَفْسِي عَنْ بُلُوغِ ذٰلِكَ الْأَمَلِ تَخَلُّفِي وَقُصُورِي : انْتَهَى

(ثُمَّ قَالَ) بَعْدَ كَلَامٍ طَوِيلٍ لَمْ نَذْكُرْهُ لِعَدَمِ تَعَلُّقِهِ بِهٰذَا الْغَرَضِ مَا صُورَتُهُ : وَحَسِبْتُ أَنَّ سَيِّدِي وَحَاشَاهُ ، نَسِيَ مَنْ لَيْسَ يَنْسَاهُ . وَظَنَنْتُ بِهِ الظُّنُونَ ، لِأُمُورٍ تَكُونُ أَوْلَا تَكُونُ . وَهَلْ يَكْرَهُ سَيِّدِي وَشَيْخِي أَنْ يُهْدِيَ الدُّنْيَا فِي طَبَقٍ ، ثُمَّ الْأُخْرَى عَلَى ذٰلِكَ النَّسَقِ . وَلَا شَكَّ

أَنَّ حَظَّهُ هُوَ الرَّوْضَةُ الْغَنَّا[1] ، لَا بَلْ جَنَّةُ الْمَأْوَى، فَطُوبَى لِنَفْسِي إِنْ جَنَتْ ثَمَرَتَهُ طُوبَى ، وَلَعَمْرُ شَيْخِي إِنِّي بِذَلِكَ لَجَدِيرٌ ، وَإِنِّي كُنْتُ أَمْلِكُ بِهِ الْخَوَرْنَقَ[2] وَالسَّدِيرَ . انْتَهَى مَا يَتَعَلَّقُ بِالْغَرَضِ مِنْ هَـذَا الرَّقِيمِ ، الَّذِي شَكْلُ مَنْطِقِهِ غَيْرُ عَقِيمٍ ، سَلَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِي وَبِمَنْ وَجَّهَهُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . وَأَتَى فِي الْمَكْتُوبِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ، مِمَّا تَرَكْتُ ذِكْرَهُ هُنَا لِعَدَمِ تَعَلُّقِهِ بِهَذَا الْأَمْرِ الْخَاصِّ الَّذِي يُيَسِّرُ لِكَارِعِ الْأَدَبِ مَسَاغَهُ . وَخَتَمَهُ بِقَصِيدَةٍ نَفِيسَةٍ مِنْ نَظْمِهِ يَسْتَنْجِزُ فِيهَا ذَلِكَ الْوَعْدَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ حَازَ فِيهَا قَصَبَ السَّبْقِ وَالْمَجْدِ ، وَمَا قُلْتُ إِلَّا بِالَّذِي عَلِمَتْ سَعْدُ[3] ، وَهَذِهِ صُورَتُهَا :

يَاسَيِّدًا أَفْدِيهِ بِالْأَكْثَرِ ... مِنْ أَصْغَرِ الْعَالَمِ وَالْأَكْبَرِ
وَيَا وَحِيدًا قَلَّ[4] قَوْلِي لَهُ: ... عُطَارِدٌ أَنْتَ مَعَ الْمُشْتَرِي
وَيَا مُجِيدًا لَيْسَ عِنْدِي لَهُ ... إِلَّا مَقَالُ الْمَادِحِ الْمُكْثِرِ

---

(١) الغناء : التي تغرد طيورها و (حظه) قد تكون محرفةعن (خطه) كما قال أبو الفتح البستي :

خطه روضة وألفاظه الأز ... هار يضحكن والمعاني الثمار

(٢) قصران . للنعمان بن المنذر (٣) عجز بيت للحطيئة صار مثلا في الصدق ،وصدره : وتعذلني أفناء سعد عليهم (٤) عطارد والمشتري : كوكبان سياران. وعطارد عند الأقدمين كوكب الكتاب

أَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ الَّذِي ... حَجَّتْ إِلَيْهِ النَّاسُ وَالْمَشْعَرِ

مَا لِلْعُلَا وَالْعِلْمِ إِلَّا أَبُو الْـ ... ـعَبَّاسِ شَيْخِي أَحْمَدُ الْمَقَّرِي

ذَاكَ الَّذِي آثَرَنِي مِنْهُ بِالْـ ... ـعِلْمِ الَّذِي لِلْغَيْرِ لَمْ يُؤْثَرِ

وَخَصَّنِي مِنْهُ بِأَشْيَاءَ لَمْ ... يَفُزْ بِهَا غَيْرِي وَلَمْ يَعْثُرِ

فَرُحْتُ عَبْدًا ذَا وَفَاءٍ لَهُ ... مُعْتَرِفًا بِالرِّقِّ لَا أَمْتَرِي(١)

فَيَا أَبَا الْعَبَّاسِ يَا مَنْ غَدَا ... أَعْظَمَ فِي نَفْسِيَ مِنْ مَعْشَرِي

وَمَنْ إِذَا مَا غَابَ عَنْ نَاظِرِي ... كَانَ سَمِيرَ الْقَلْبِ لِلْمَحْضَرِ

هَاتِ أَفِدْنِي سَيِّدِي عَنْ عُلَا الْـ ... ـمَوْلَى لِسَانِ الدِّينِ ذَاكَ السَّرِي

ذَاكَ الْوَحِيدُ الْفَذُّ فِي عَصْرِهِ ... بَلْ أَوْحَدُ الْأَدْهُرِ وَالْأَعْصُرِ

ذَاكَ الَّذِي أَخْبَرَنِي سَيِّدِي ... عَنْهُ مَزَايَا بَعْدُ لَمْ تُحْصَرِ

ذَاكَ الَّذِي الْعَيُّوقُ(٢) لَا يَعْتَلِي ... إِلَى مَعَالِيهِ وَلَا يَجْتَرِي

مَا قَدْ وَعَدْتَ الْعَبْدَ فِي جَمْعِهِ ... مِنْ خَبَرٍ عَنْ فَضْلِهِ مُسْفِرِ

بِخَطِّكَ الْوَضَّاحِ وَهْوَ الَّذِي ... مَخْبَرُهُ يُرْبِي عَلَى الْمَنْظَرِ

وَالشَّيْءُ لَا يُرْجَى إِذَا مَا غَدَا ... مَنْظَرُهُ يُرْبِي عَلَى الْمَخْبَرِ

---

(١) الامتراء : الشك والجدال على مذهب التشكك والريبة (٢) هو نجم أحمر مضيء فى طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها ويطلع قبل الجوزاء، سمى بذلك لأنه يعوق الدبران عن لقاء الثريا

نَقْشٌ[1] عَلَى طِرْسِ بَيَاضٍ كَمَا ... لَاحَتْ عُيُونُ الرَّشَإِ[2] الْأَحْوَرِ
وَأَسْطُرٌ قَدْ سُلْسِلَتْ مِثْلَ مَا ... لَاحَ عِذَارُ الشَّادِنِ[3] الْأَخْفَرِ
وَنُزْهَةُ الْأَنْفُسِ مَعْنًى غَدَا ... مَا بَيْنَهَا يَنْسَابُ كَالْكَوْثَرِ

عَــذْبٌ رَقِيقٌ مِثْلُ ظَبْيٍ غَدَا
يَلُوحُ طَاوِي الْكَشْحِ أَوْ جُؤْذُرِ[4]

آثَارُ أَقْلَامِكَ وَهْيَ الَّتِي ... أَغْنَتْ عَنِ الْأَبْيَضِ[5] وَالْأَسْمَرِ

يَرَاعُكَ الْجَامِعُ رَاوٍ غَــدَا
يَرْوِي اللُّغَى عَنْ لَفْظِكَ الْجَوْهَرِي

يَنْثُرُ مِسْكاً تَارَةً نَاظِماً ... وَيَنْظِمُ الْجَوْهَرَ بِالْعَنْبَرِ
هَذَا ابْنُ شَاهِينَ الْفَتَى أَحْمَدٌ ... عَنْ ذِكْرِكَ الْمَأْنُوسِ لَمْ يَفْتُرِ
فَاجْعَلْ لَهُ ذِكْرًا كَرِيمًا بِهِ ... يَزْدَانُ مَغْبُوطًا إِلَى الْمَحْشَرِ

---

(١) ويجوز أن يكون (نقس) أي حبر وهو المداد الذي يكتب به وهذا يناسب التشبيه بعده (٢) هو الغزال . والحور شدة بياض العين وشدة سوادها (٣) الشادن من أولاد الظباء الذي قوي واستغنى عن أمه . قال المتنبي :

رحلت فكم باك بأجفان شادن ... على وكم باك بأجفان ضيغم

(٤) هو ولد البقرة الوحشية وتشبه به الحسان لجمال عيونه . قال عدي بن الرقاع العاملي :

وكأنها بين النساء أعارها ... عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت ... في عينه سنة وليس بنائم

وقال الأخطل : ترنو بمقلة جؤذر بخميلة ... وبمشرق بهج وجيد غزال

(٥) يريد بالأبيض السيف ، وبالأسمر الرمح

وَاُذْكُرْ بُيُوتَاتِي وَكُلَّ ٱلَّذِي ... كَتَبْتُهُ نَحْوَكَ فِي دَفْتَرِي
أَنْتَ جَدِيرٌ بِمَدِيحِي فَكُنْ ... ذَاكِرَ عَبْدٍ بِالْوَفَا أَجْدَرِ
وَهَا كَهَا سَيَّارَةً أَعْنَقَتْ(١) ... عَلَى جَوَادٍ كَانَ لِلْبُحْتُرِي
طِرْفٍ كَرِيمٍ سَابِقٍ صَافِنٍ(٢) ... مُطَهَّمٍ(٣) ذِي أَدَبٍ أَوْفَرِ
وَرِثْتُهُ مِنْهُ وَلَكِنَّمَا ... مِنْ شَاعِرٍ وَافَى إِلَى أَشْعَرِ
مَا ٱللفَتَى ٱلطَّائِيِّ شَوْطُ ٱمْرِئٍ ... يَصْطَادُ نَسْرَ ٱلْجَوِّ بِالْمِنْسَرِ(٤)
وَاُسْلَمْ لِعَبْدٍ لَا يَرَى سَيِّدًا ... سِوَى ٱلَّذِي فِي ثَوْبِكَ ٱلْأَطْهَرِ
فِي كَرَمِ ٱلْعُنْصُرِ فَرْدًا غَدَا ... طَبْعُكَ فَاشْكُرْ كَرَمَ ٱلْعُنْصُرِ
مَا حَنَّ مُشْتَاقٌ أَخُو صَبْوَةٍ ... إِلَى خَلِيلٍ فِي ٱلْهَوَى مُفْكِرِ

فَلَمَّا وَصَلَنِي هَذَا ٱلْخِطَابُ ، ٱلَّذِي مَلَأَ مِنَ ٱلْفَصَاحَةِ ٱلْوِطَابَ ، وَحَلِيَ(٥) عَيْنِي وَقَلْبِي وَطَابَ ، تَحَرَّكَتْ دَوَاعِي ٱلْوَجْدِ لِذَلِكَ ٱلْمَجْدِ ، ٱلَّذِي وَلِعْتُ بِهِ وَلُوعَ ٱبْنِ ٱلدُّمَيْنَةِ(٦)

(١) العنق : السير السريع . قال الشاعر:
يا ناق سيري عنقا فسيحا ... الى سليمان فنستريحا
(٢) الطرف : الجواد الكريم من أصائل الخيل ، والصافن من الخيل : القائم على ثلاث (٣) الجواد المطهم : تام الحسن (٤) المنسر لسباع الطير بمنزلة المنقار لغيرها ، وقطعة من الجيش الكبير تمر قدامه ، والمنسر أيضا جماعة الخيل — وأظنه يريد بالفتى الطائي أبا تمام ، وبامرئ يصيد النسر امرأ القيس — فانظر
(٥) لعله : وحلى فى عينى ، يقال حلى الشيء بعينى وقلبى يحلى ، وحلا يحلو اذا أعجبك (٦) يشير الى قول ابن الدمينة :
ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ... فقد زادنى مسراك وجدا على وجد

بِصَبَا نَجْدٍ ، وَأَثَارَ مِنَ ٱلْهُيَامِ وَٱلْأُوَارِ ، مَا يَزِيدُ عَلَى مَا حَصَلَ لِلْفَرَزْدَقِ لَمَّا فَارَقَ[1] ٱلنَّوَارَ ، وَتَضَاعَفَ ٱلشَّوْقُ إِلَى تِلْكَ ٱلْأَنْجَادِ وَٱلْأَغْوَارِ ، مُنْشِدًا قَوْلَ ٱلْأَوَّلِ لَعَلَّ أَبِي ٱلْمِغْوَارِ .

وَتَذَكَّرْتُ ـ وَٱلذِّكْرَى شُجُونٌ وَأَطْوَارٌ ـ تِلْكَ ٱلْأَضْوَاءَ وَٱلْأَنْوَارَ ، ٱلْمُشْرِقَةَ بِقُطْرٍ أَزْهَرَ بِٱلْمَحَاسِنِ ، وَجَرَى نَهْرُهُ غَيْرَ آسِنٍ ، فَلَمْ يُذَمَّ فِيهِ ٱلْجِوَارُ

وَإِنَّ ٱصْطِبَارِي عَنْ مَعَاهِدِ جِلِّقٍ
غَرِيبٌ، فَمَا أَجْفَى ٱلْفِرَاقَ وَأَجْفَانِي!
سَقَى ٱللهُ أَرْضًا لَوْ ظَفِرْتُ بِتُرْبِهَا
كَحَلْتُ بِهَا مِنْ شِدَّةِ ٱلشَّوْقِ أَجْفَانِي

وَحَصَلَ ٱلتَّصْمِيمُ ، عَلَى ٱلتَّكْمِيلِ لِلتَّأْلِيفِ وَٱلتَّتْمِيمِ ، رَعْيًا لِهَذَا ٱلْوَلِيِّ ٱلْحَمِيمِ ، أَفَاضَ ٱللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ غَيْثَ ٱلْبِرِّ ٱلْعَمِيمِ . وَأَبْقَى ظِلَّ عِزِّهِ مَمْدُودًا ، وَحُلَى سُؤْدُدِهِ مَوْدُودًا ، وَأَنَالَهُ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ مَا لَيْسَ مَحْصُورًا وَلَا مَعْدُودًا ،

(١) نوار كانت زوجا للفرزدق فطلقها وتبعتها نفسه فندم، ثم قال فى ذلك:

ندمت ندامة الكسعى لما غدت منى مطلقة نوار
وكانت جنتى فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرار

وَجَمَعَنِي وَإِيَّاهُ ، وَأَطْلَعَنِي بِشْرَ مُحَيَّاهُ ، وَأَنْشَقَنِي عَرْفَ اُجْتِمَاعِهِ وَرَيَّاهُ ، وَكَيْفَ لَا أَسْتَدِيمُ أَمَدَ بُقْيَاهُ ، وَأَعْتَقِدُ الْبَشَائِرَ فِي لُقْيَاهُ ، وَأَسْقِي غُرُوسَ الْوُدِّ بِسُقْيَاهُ ؟ وَهُوَ الصَّدْرُ الَّذِي أَصْفَى لِي الْوِدَادَ ، وَالرُّكْنُ الَّذِي لِي بِثُبُوتِهِ اُعْتِمَادٌ وَاُعْتِدَادٌ

فَعَلَيْهِ مِنْ مُصْفِي هَوَاهُ تَحِيَّةٌ ... كَالْمِسْكِ لَمَّا فُضَّ عَنْهُ خِتَامُ

تَتْرَى بِسَاحَتِهِ السَّنِيَّةِ مَادَعَتْ ... فَوْقَ الْغُصُونِ هَدِيلَهُنَّ[1] حَمَامُ

وَدَامَتْ فَضَائِلُهُ ظَاهِرَةً كَالشَّمْسِ ، مَحْرُوسَةً بِالسَّبْعِ الْمَثَانِي[2] مُعَوَّذَةً بِالْخَمْسِ[3]

---

(١) الهديل : فيما زعم العرب حمام هلك من عهد بعيد ، فكل حمامة تبكي عليه حتى القيامة وتدعو هديلا هذا في بكائها وترجيعها ، والى هذا يشير المعري بقوله :

يابنات الهديل أسعدن أوعد ... ن قليل العزاء بالاسعاد

ايه لله دركن فأنتن م ... اللواتي يعرفن حفظ الوداد

مانسيتن هالكا في الزمان الـ ... خال أودى من قبل هلك اياد

(٢) هي الفاتحة . سميت بذلك لأنها سبع آيات بالاجماع ، ومثاني لأن نصفها ثناء على الله تعالى والنصف الآخر دعاء من العبد . وقيل لتثنية اياك في قوله اياك نعبد الخ وتثنية كلمة الصراط الخ (٣) لعله يريد بها الصلوات الخمس اذ أنها معاذ من النار، وقد ورد أن خير مايستعاذ به عند الكرب من القرآن المعوذتان ، وفي رواية « وقل هو الله أحد »وسورة الفلق آياتها خمس ، فلعله يريدها

وَلاأُنفكَّ مَا يَرْجُوهُ أَقْرَبَ مِنْ غَدٍ

وَلا زَالَ مَا يَخْشَاهُ أَبْعَدَ مِنْ أَمْسِ

وَبَقِيَ مِنَ الْعِنَايَةِ فِي حَرَمٍ أمِينٍ . آمِينَ .

وَلَمَّا حَصَلَ لِي كَمَالُ الِاغْتِبَاطِ ، بِمَا دَلَّ عَلَى صِحَّةِ حَالِ الِارْتِبَاطِ ، نُشِرَ بِسَاطُ الِانْبِسَاطِ ، وَحَدَثَتْ لِي قُوَّةُ النَّشَاطِ ، وَانْقَشَعَتْ عَنِّي سَحَائِبُ الْكَسَلِ وَانْجَابَتْ ، وَنَادَيْتُ فِكْرَتِي فَلَبَّتْ مَعَ ضَعْفِهَا وَأَجَابَتْ ، فَاقْتَدَحْتُ مِنَ الْقَرِيحَةِ زَنْدًا كَانَ شَحَاحًا ، وَجَمَعْتُ مِنْ مُقَيَّدَاتِي حِسَانًا وَصِحَاحًا ، وَكُنْتُ كَتَبْتُ شَطْرَهُ ، وَمَلَأْتُ بِمَا تَيَسَّرَ هَامِشَهُ وَسَطْرَهُ ، وَرَقَمْتُ مِنْ أَنْبَاءِ لِسَانِ الدِّينِ ابْنِ الْخَطِيبِ حُلَلًا لَا تُخْلِقُ[1] جِدَّتَهَا الْأَعْصُرُ ، وَسَلَكْتُ مِنَ التَّعْرِيفِ بِهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مَهَامِهَ[2] تَكِلُّ فِيهَا وَاسِعَاتُ الْخُطَا[3] وَتَقْصُرُ ، فَحَدَثَ لِي بَعْدَ ذَلِكَ عَزْمٌ عَلَى زِيَادَةِ ذِكْرِ الْأَنْدَلُسِ جُمْلَةً وَمَنْ كَانَ يُعْضَدُ بِهِ الْإِسْلَامُ وَيُنْصَرُ ؛ وَبَعْضِ مَفَاخِرِهَا الْبَاسِقَةِ، وَمَآثِرِ

(١) خلق الثوب: بلى وأخلقته: أبليته. أى لا تبلى جدتها الأزمان. وجدة الشيء كونه جديدا (٢) هو جمع مهمه : وهو الفلاة الواسعة (٣) واسعات الخطا : الابل الشديدة ، أو يريد الخطا الواسعة ، وأسند الكلل اليها مجازا

أَهْلِهَا الْمُتَنَاسِقَةِ، لِأَنَّ كُلَّ ذٰلِكَ لَا يَسْتَوْفِيهِ الْقَلَمُ وَلَا يُحْصَرُ، وَجِئْتُ مِنَ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ بِنُبْذَةٍ تُوَضِّحُ لِلطَّالِبِ سُبُلَهُ ، وَتُظْهِرُ عِلْمَهُ وَنُبْلَهُ ، وَتُتْرِعُ [1] كَأْسُ مَحَاسِنِهِ مِنْ رَاحِ الْمُذَاكَرَةِ وَإِنَاؤُهُ ، حَتَّى يَرَى حُسْنَ هٰذَا التَّأْلِيفِ أَبْنَاءُ هٰذَا التَّصْنِيفِ وَأُدَبَاؤُهُ . وَكُنْتُ فِي الْمَغْرِبِ وَظِلَالُ الشَّبَابِ ضَافِيَةٌ [2] ، وَسَمَاءُ الْأَفْكَارِ مِنْ قَزَعِ [3] الْأَكْدَارِ صَافِيَةٌ ، مُعْتَنِياً بِالْفَحْصِ عَنْ أَنْبَاءِ أَبْنَاءِ الْأَنْدَلُسِ ، وَأَخْبَارِ أَهْلِهَا الَّتِي تَنْشَرِحُ لَهَا الصُّدُورُ وَالْأَنْفُسُ . وَمَا لَهُمْ مِنَ السَّبْقِ فِي مَيْدَانِ الْعُلُومِ ، وَالتَّقَدُّمِ فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ الظَّلُومِ ، وَمَحَاسِنِ بِلَادِهِمْ ، وَمَوَاطِنِ جِدَالِهِمْ وَجِلَادِهِمْ [4] ، حَتَّى اقْتَنَيْتُ مِنْهَا ذَخَائِرَ يَرْغَبُ فِيهَا الْأَفَاضِلُ الْأَخَايِرُ [5] ، وَانْتَقَيْتُ جَوَاهِرَ فَرَائِدُهَا لِلْعُقُولِ بَوَاهِرُ ، وَاقْتَطَفْتُ أَزَاهِرَ أَنْجُمُهَا فِي أُفُقِ

---

(١) أترع الكأس: ملأها (٢) أى وارفة، وتقول ثوب ضاف أى طويل سابغ (٣) أى قطع من السحاب متفرقة رقاق كأنها ظل إذا مرت من تحت السحابة الكبيرة ، وما فى السماء قزعة : أى قطعة من الغيم (٤) الجلاد والمجالدة : المصادمة والمحاربة (٥) الأخاير جمع أخير نحو أفضل وأفاضل

ٱلْمُحَاضَرَةِ زَوَاهِرُ ، وَحَصَّلْتُ فَـوَائِدَ بَوَاطِنَ وَظَوَاهِرَ ، طَالَمَا كَانَتْ أَعْـيُنُ ٱلْأَلِبَّاءِ لِنَيْلِهَا سَـوَاهِرَ . وَجَمَعْتُ مِنْ ذَلِكَ كَلِماً عَالِيَةً لَوْ خَاطَبَ بِهَا ٱلدَّاعِي صُمَّ ٱلْجَلَامِدِ لَانْبَجَسَ[١] حَجَرُهَا ، وَحِكَماً غَالِيَةً لَوْ عَامَلَ بِهَا ٱلْأَيَّامَ رَبِـحَ مُتَّجِرُهَا ، وَأَسْجَاعًا تَهْتَزُّ لَهَا ٱلْأَعْطَافُ ، وَمَوَاعِظَ يَعْمَلُ بِمُقْتَضَاهَا مَنْ حَفَّتْ بِهِ ٱلْأَلْطَافُ . وَقَوَافِيَ ، مَوْفُورَةَ[٢] ٱلْقَوَادِمِ وَٱلْخَوَافِي، يُثْنِي عَلَيْهَا مَنْ سَلِمَ مِنَ ٱلْغَبَاوَةِ وَٱلصَّمَمِ ، وَيَعْتَرِفُ بِبَرَاعَتِهَا مَنْ لَا يَعْتَرِيهِ ٱللَّمَمُ[٣] . وَطَالَمَا أَعْرَضَ ٱلْجَاهِلُ ٱلْغُمْرُ بِوَجْهِهِ عَنْ مِثْلِهَا وَأَشَاحَ[٤] ، وَأَنْصَتَ لَهَا ٱلْحَبْرُ إِنْصَاتَ ٱلسِّوَارِ لِجَرْسِ[٥] ٱلْحُلِي وَنَغَمِ ٱلْوِشَاحِ . وَفَرِحَ إِنْ ظَفِرَ بِشَيْءٍ مِنْهَا فَرَحَ ٱلصَّائِدِ بِالْقَنِيصِ ، وَٱلسَّارِي ٱلْعَارِي ذِي ٱلْبَطْنِ ٱلْخَمِيصِ[٦] بِالزَّادِ وَٱلْقَمِيصِ. وَتَرَكْتُ ٱلْجَمِيعَ بِالْمَغْرِبِ ، وَلَمْ أَسْتَصْحِبْ مَعِي مِنْـهُ مَا يُبِينُ عَنِ ٱلْمَقْصُودِ وَيُعْرِبُ ، إِلَّا نَزْرًا يَسِيرًا عَلِقَ

(١) انبجس : تفجر منه الماء (٢) قد تـكون (موفورة) أى تامة كاملة قوية (٣) اللمم ، جنون خفيف يلم بالانسان، يقال به لمم أى جنون خفيف (٤) أشاح عنه : أعرض، والغمر : الجاهل الغر غير المجرب للأمور ، ومن لاغناء عنده ولا رأى (٥) الجرس : الصوت ، وأجرس الحلى : سمع له صوت مثل صوت الجرس (٦) الخميص : الجائع

بِحِفْظِي ، وَحَلَّيْتُ بِجَوَاهِرِهِ جِيدَ لَفْظِي ، وَبَعْضَ أَوْرَاقٍ سَعِدَ فِي جَوَابِ ٱلسُّؤَالِ بِهَا حَظِّي . وَلَوْ حَضَرَنِي ٱلْآنَ مَا خَلَّفْتُهُ ، مِمَّا جَمَعْتُ فِي ذَلِكَ ٱلْغَرَضِ وَأَلَّفْتُهُ ، لَقَرَّتْ بِهِ عُيُونٌ وَسُرَّتْ أَلْبَابٌ ، إِذْ هُوَ ـ وَٱللهِ ـ ٱلْغَايَةُ فِي هَذَا ٱلْبَابِ ، وَلَـكِنَّ ٱلْمَرْءَ ٱبْنُ وَقْتِهِ وَسَاعَتِهِ ، وَكُلٌّ يُنْفِقُ عَلَى قَدْرِ وُسْعِهِ وَٱسْتِطَاعَتِهِ . وَعُذْرُ مِثْلِي بَادٍ ، لِلْمُنْصِفِينَ مِنَ ٱلْعِبَادِ ، إِنْ قَصَّرْتُ ، فِيمَا تَبَصَّرْتُ ، أَوْ تَخَلَّفْتُ ، فِي ٱلَّذِي تَكَلَّفْتُ ، أَوْ أَضَعْتُ ، تَحْرِيرَ مَا وَضَعْتُ ، وَٱلْتَقَمْتُ ثَدْيَ ٱلتَّقْصِيرِ وَرَضَعْتُ ، أَوْ أَطَعْتُ دَاعِيَ ٱلتَّوَانِي فَتَأَخَّرْتُ عَمَّنْ سَبَقَ وَٱنْقَطَعْتُ « إِنْ أُرِيدَ إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ » وَمَنْ كَانَتْ بِضَاعَتُهُ مُزْجَاةً[1] ، فَهُوَ مِنَ ٱلْإِنْصَافِ بِمَنْجَاةٍ ، إِذَا أَتَى بِٱلْمَقْدُورِ ، وَتَبَرَّأَ مِنَ ٱلدَّعْوَى فِي ٱلْوُرُودِ وَٱلصُّدُورِ ، وَعَيْنُ ٱلرِّضَا[2] عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ، وَٱلسَّلَامَةُ مِنَ

---

(١) أى رديئة، تزجى وتدفع لرداءتها. والمزجاة أيضا القليلة ، وقيل فى قوله تعالى « وجئنا ببضاعة مزجاة » أى بنقود زائفة أو ببضاعة فيها اغماض لم يتم صلاحها (٢) صدر بيت عجزه :

كما أن عين السخط تبدى المساويا . والعين الكليلة: التى لا تبصر جيدا

ٱلْمَلَامَةِ مُتَعَذِّرَةٌ أَوْ قَلِيلَةٌ ، وَقَدْ قَالَ إِمَامُنَا مَالِكٌ صَاحِبُ ٱلْمَنَاقِبِ ٱلْجَلِيلَةِ : كُلُّ كَلَامٍ يُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُرَدُّ إِلَّا كَلَامَ صَاحِبِ هَذَا ٱلْقَبْرِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَزْكَى صَلَاةٍ وَأَتَمَّ سَلَامٍ . وَشَفَى بِجَاهِهِ مِنَ ٱلْآلَامِ قُلُوبَنَا ٱلْعَلِيلَةَ . وَجَعَلَنَا مِمَّنْ كَانَ ٱتِّبَاعُ سُنَّتِهِ رَائِدَهُ وَدَلِيلَهُ . آمِينَ .

وَٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي يَسَّرَ لِي هَـذَا ٱلْقَدْرَ ، مَعَ ضِيقِ ٱلصَّدْرِ ، وَقِلَّةِ بِضَاعَتِي ، وَكَثْرَةِ إِضَاعَتِي . فَإِنَّ حَمْدَهُ جَلَّ جَلَالُهُ تَتَضَوَّعُ (١) بِهِ ٱلْمَطَالِبُ طِيبًا ، وَتُقْضَى بِبَرَكَتِهِ ٱلْمَآرِبُ فَيَرْقَى صَاحِبُهَا عَلَى مِنْبَرِ ٱلْقَبُولِ خَطِيبًا ، وَتَعْذُبُ بِهِ ٱلْمَشَارِبُ فَتُنْبِتُ فِي أَرْضِ ٱلْقِرْطَاسِ مِنْ زَاكِي ٱلْغِرَاسِ مَا يَرُوقُ مَنْظَرًا نَضِيرًا وَيُورِقُ غُصْنًا رَطِيبًا ؛ وَقَدْ أَتَيْتُ مِنَ ٱلْمَقَالِ ، بِمَا يُقِرُّ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى عَيْنَ وَامِقٍ (٢) وَيُرْغِمُ أَنْفَ قَالٍ (٣) ، وَإِنْ كُنْتُ مِمَّنْ هُوَ فِي ثَوْبِ ٱلْعِيِّ رَافِلٌ ، وَعَنْ نِسْبَتِهِ لِلْقُصُورِ غَيْرُ غَافِلٍ ،

---

(١) أى تذكو وتعبق . قال الشاعر :

تضوع مسكا بطن نعمان اذ مشت ... به زينب فى نسوة خفرات

(٢) ومق : أحب . والوامق المحب (٣) القالى : المبغض الكاره . من قلا يقلو و يقلى

وَمِمَّنْ جَعَلَ ٱلنَّفْسَ هَدَفًا ، وَصَيَّرَ مَكَانَ ٱلدُّرِّ صَدَفًا . إِذْ لِسَانُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْخَطِيبِ إِمَامُ هَذِهِ ٱلْفُنُونِ ، ٱلْمُحَقِّقُ لِذَوِي ٱلْآمَالِ ٱلظُّنُونَ ، ٱلْمُسْتَخْرِجُ مِنْ بِحَارِ ٱلْبَلَاغَةِ دُرَّهَا ٱلْمَكْنُونَ ، وَلَهُ ٱلْيَدُ ٱلطُّولَى فِي ٱلْعُلُومِ عَلَى ٱخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا ، وَٱلْأَلْفَاظِ ٱلرَّائِقَةِ ٱلَّتِي تُزِيحُ وَحْشَةَ ٱلْأَنْفُسِ بِإِينَاسِهَا .

نَاهِيكَ مِنْ فَرْدٍ أَغَرَّ مُمَدَّحٍ رَحْبِ ٱلذِّرَاعِ ٱلْكَلَامِ مُحَسَّدِ

بَهَرَ ٱلْأَنَامَ رِيَاسَةً وَسِيَاسَةً وَجَلَالَةً فِي ٱلْمُنْتَمَى وَٱلْمَحْتِدِ[1]

وَأَتَى بِكُلِّ بَدِيعَةٍ فِي نَوْعِهَا لَمْ تُخْتَرَعْ وَغَرِيبَةٍ لَمْ تُعْهَدِ

مَاشِئْتَ مِنْ شِعْرٍ أَرَقَّ مِنَ ٱلصَّبَا

وَكِتَابَةٍ أَزْهَى مِنَ ٱلزَّهْرِ ٱلنَّدِي

وَبَدِيعِ قِرْطَاسٍ تَوَشَّحَ مَتْنُهُ بِمُنَمْنَمٍ[2] مِنْ رَقْمِهِ وَمُنَجَّدِ[3]

بَهِجٍ كَأَنَّ ٱلْحُسْنَ حَلَّ أَدِيمَهُ

فَكَسَاهُ رَيْعَانَ ٱلشَّبَابِ ٱلْأَغْيَدِ[4]

(١) المحتد : الأصل والنسب (٢) منمنم: منقوش مرقش مزخرف ، وثوب منمنم : مرقوم موشى (٣) نجد البيت : زينه . وعبارة اللسان نجدت البيت : بسطته بثياب موشية (٤) الأغيد من النبات الناعم المتثنى ، وشجرة غادة وغيداء : ريا غضة

كَالْبُرْدِ فِى تَوْشِيعِهِ[1] وَالسِّلْكِ فِى
تَرْصِيعِهِ[2] وَالْوَشْيِ نُمِّقَ بِالْيَدِ
وَكَأَنَّمَا سَالَ الْعِذَارُ عَلَيْهِ أَوْ
خَطَّتْهُ أَيْدِى الْغَانِيَاتِ بِإِثْمِدِ[3]
يَخْتَالُ بَيْنَ مُوَصَّلٍ وَمُفَصَّلٍ
وَمُطَرَّزٍ وَمُنَظَّمٍ وَمُنَضَّدِ
قَدْ قَيَّدَ الْأَبْصَارَ وَالْأَفْكَارَ مِنْ
أَلْفَاظِهِ بِمُثَقَّفٍ[4] وَمُقَيَّدِ
مَا فِيهِ مَغْرِزُ إِصْبَعٍ إِلَّا وَفِيهِ
نَتِيجَةٌ لِمُفَرَّعٍ وَمُوَلَّدِ
وَلِكُلِّ جُزْءٍ حِكْمَةٌ أَوْ مُلْحَةٌ[5]
أَوْ بِدْعَةٌ لِمُرَسَّلٍ[6] وَمُقَصَّدِ[7]

(١) وشع الثوب: أعلمه وجعل فى طرفه زخرفة (٢) رصع الصائغ الذهب بالجواهر: أنزلها فيه . والمراد من هذا كله التزيين والتحلية (٣) الأثمد: الكحل (٤) أى مهذب. تقول ثقف الرمح: سواه وقومه، وثقف الولد: هذبه (٥) أى فكاهة وطرفة (٦) المرسل من الكلام: المنثور (٧) المقصد: المنظوم

أَوَ لَيْسَ مِثْلِي قَاصِرًا عَنْ وَصْفِهِ
وَٱلْحَقُّ نُورٌ وَاضِحٌ لِلْمُهْتَدِى

وَكَمَا قُلْتُ وَقَدْ عَجَزْتُ عَنْ أَدَاءِ ٱلْوَاجِبِ وَحَاوَلْتُ ٱلْمَسْنُونَ ، وَفَضْلُ ٱللهَ سُبْحَانَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لَيْسَ بِمَمْنُوعٍ وَلَا مَمْنُونٍ[1] :

لَيْتَ شِعْرِى أَىُّ ٱلْعِبَارَاتِ تُوفِى
وَاجِبَ ٱبْنِ ٱلْخَطِيبِ مِمَّا أَرُومُ ؟
وَأَنَا عَاجِزٌ عَنِ ٱلْبَعْضِ مِنْهَا
لِقُصُورِى وَمَا ٱلْعَيُّ مَلُومُ
وَهُوَ يُدْعَى لِسَانَ دِينٍ وَنَاهِيـ
ـكَ ٱفْتِخَارًا بِهِ تَتِمُّ ٱلرُّسُومُ
فَبِأَىِّ ٱلْحُلَى أُحَلِّى عُلَى مَنْ
نَالَ فَضْلًا رَوَتْهُ عُرْبٌ وَرُومْ ؟
وَعَلَى ٱلْفَرْضِ مَا ٱلَّذِى أَنْتَحِى مِنْـ
ـهُ لَدَى ٱلْوَصْفِ إِنْ يَخُصَّ ٱلْعُمُومُ

(١) ممنون : مقطوع

أَلِحِفْظٍ قَدِ ٱرْتَوَى مِنْ مَعِينٍ لِصَوَابٍ عَلَيْهِ كُلٌّ يَحُومُ ؟

أَمْ لِفَهْمٍ يَسْتَخْرِجُ ٱلدُّرَّ غَوْصًا

مِنْ بِحَارٍ يَخْشَى بِهَا مَنْ يَعُومُ ؟

أَمْ لِفِكْرٍ مُؤَلِّفٍ فِي فُنُونٍ

عَنْ دَهَاءٍ بِهِ تُدَاوَى ٱلْكُلُومُ(١) ؟

أَمْ لِنَظْمٍ كَأَنَّهُ جَوْهَرُ ٱلسِّلْـ

كِ غَلَا قَدْرُهُ عَلَى مَنْ يَسُومُ(٢) ؟

تَتَبَاهَى بِهِ ٱلصُّدُورُ حُلِيًّا وَتَرُوقُ ٱلْعُيُونَ مِنْهُ نُجُومُ(٣)

أَمْ لِنَثْرٍ وَافَى بِسِحْرِ بَيَانٍ فَهْوَ كَالرُّوحِ وَٱلْمَعَانِي جُسُومُ

وَأَظَلَّتْهُ لِلْبَدِيعِ سَمَاءٌ تَتَلَالَا فِي جَانِبَيْهَا ٱلْعُلُومُ

فَاسْتَزَادَتْ مِنْهُ ٱلنُّفُوسُ رَشَادًا

وَٱسْتَزَانَتْ مِنْهُ ٱلنُّهَى وَٱلْحُلُومُ(٤)

---

(١) جمع كلم: وهو الجرح ، والدهاء: العقل والبصر بالأمور ، وجودة الرأى (٢) سام السلعة : قدر ثمنها وساوم بائعها (٣) من معانى النجم الكلمة (وجمعه نجوم) وقال أبو العباس أحمد بن يحيى (ثعلب) فى قوله تعالى « فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم » انه ما نجم من كلامهم لما سألوه أن يخرج معهم الى عيدهم ، و (نظر) أى تفكر ليدبر حجة ، فقال: انى سقيم ، أى من كفركم ـ وقيل فى الآية غير ذلك . ويقال فلان ينظر فى النجوم : اذا فكر فى أمر لينظر كيف يدبره (٤) أى العقول

أَمْ لِخَطٍّ مُنَمْنَمٍ فَاقَ حُسْناً مِثْلَ وَشْيٍ تَلُوحُ مِنْهُ ٱلرُّقُومُ

أَوْ كَزَهْرٍ فِي بَهْجَةٍ وَرُوَاءٍ وَأَرِيجٍ بِهِ تُزَاحُ ٱلْغُمُومُ

وَٱلْغُصُونُ ٱلْأَقْلَامُ وَٱلطِّرْسُ[1] رَوْضٌ

نَاضِرٌ وَٱلْمِدَادُ غَيْثٌ سَجُومُ

تِلْكَ سِتٌّ أَعْجَزْنَ وَصْفِي فَأَنَّى بِسِوَاهَا مِمَّا يَجِلُّ أَقُومُ؟!

- وَلَمْ يَكُنْ جَمْعِي -عَلِمَ ٱللهُ- هٰذَا ٱلتَّأْلِيفَ لِرِفْدٍ أَسْتَهْدِيهِ، أَوْ عَرَضٍ[2] نَائِلٍ أَسْتَجْدِيهِ، بَلْ لِحَقِّ وُدٍّ أُؤَدِّيهِ، وَدَيْنِ وَعْدٍ أُقَدِّمُهُ وَأُبَدِّيهِ[3]، وَوُقُوفٍ عِنْدَ حَدٍّ لَا يَجُوزُ تَعَدِّيهِ، وَتَلْبِيَةِ دَاعٍ أُجِيبُهُ وَأُفَدِّيهِ.

إِنَّ مَنْ يَرْجُو نَوَالًا وَنَدًى مِنْ بَنِي ٱلدُّنْيَا لَذُو حَظٍّ غَبِينْ[4]

فَلَقَدْ كَانَ عَلَى غَيْرِ ٱلْهُدَى مَنْ يُسَوِّيهِمْ بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينْ

وَيُرَجِّي مِنْهُمُ ٱلرِّزْقَ فَهَلْ خَالِقُ ٱلْكُلِّ فَقِيرٌ أَوْ ضَنِينْ[5]؟

أَنُخَلِّي قَصْدَ رَبٍّ مَالِكٍ وَنُرَى لِلْخَلْقِ جَهْلًا قَاصِدِينْ

(١) الطرس: الورق (٢) قد تكون (غرض) (٣) يقال: بديت بالشيء أي قدمته وابتدأت به (لغة أنصارية) وبدى الشيء: أبداه وأظهره، والعامة تستعمله بمعنى تقديم الشيء وإيثاره على غيره (٤) أي مغبون ذي وكس ونقص، والمغبون هو الذي غش في الشراء وغلب وخدع (٥) أي بخيل. من ضن يضن ضنا: بخل

مَالَنَا مِنْ مَخْلَصٍ نَأْتِي بِهِ
غَيْرَ جَاهِ ٱلْمُصْطَفَى ٱلْهَادِي ٱلْأَمِينْ

سَيِّدِ ٱلْخَلْقِ ٱلْعِمَادِ ٱلْمُرْتَجَى ... لِلْمُلِمَّاتِ شَفِيعِ ٱلْمُذْنِبِينْ
فَعَلَيْهِ صَلَوَاتٌ تَنْتَحِي ... حَضْرَةً حَلَّ بِهَا فِي كُلِّ حِينْ
وَٱلرِّضَا مِنْ بَعْدُ عَنْ أَرْبَعَةٍ[1] ... هُمْ بِحَقٍّ أُمَرَاءُ ٱلْمُؤْمِنِينَ
فَيَمِيناً إِنَّ مَنْ يَهْوَاهُمُ ... لَيَكُونَنَّ مِنَ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينْ

وَسْطَ جَنَّاتٍ تُحَيِّيهِ بِهَا
آنِسَاتٌ قَاصِرَاتُ[2] ٱلطَّرْفِ عِينْ[3]

بِقَوَارِيرِ لُجَيْنٍ[4] شُرْبُهُ ... وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِن مَّعِينْ

وَٱلَّذِي شَرَّفَهُمْ يَمْنَحُنَا
حُبَّهُمْ وَٱلْكَوْنَ[5] مَعَهُمْ أَجْمَعِينْ

فَدُونَكَ أَيُّهَا ٱلنَّاظِرُ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ ، ٱلْمُتَجَافِي عَنْ مَذْهَبِ ٱلنَّقْدِ وَٱلْعِتَابِ ، كَلِمَاتٍ سَوَانِحَ ، أُخْتُلِسَتْ مَعَ

(١) يريد الخلفاء الراشدين : الصديق . والفاروق وذا النورين ، وعليا رضوان الله عليهم (٢) قاصرات الطرف : لاينظرن لغير بعولتهن (٣) عين : جمع عيناء : واسعة العين (٤) اللجين : الفضة . والقوارير — جمع قارورة — وهي الزجاجة . والمراد الأكواب . أي يشرب بأكواب من فضة (٥) أي الوجود

اُشْتِغَالِ اُلْجَوَانِحِ ، وَتَضَادِّ اُلْأُمُورِ اُلْمَوَانِعِ وَاُلْمَوَانِحِ ، وَأَلْفَاظًا بَوَارِحَ اُقْتُنِصَتْ بَيْنَ أَشْغَالِ[1] اُلْجَوَارِحِ ، وَطُرَفًا أَسَمْتُ[2] اُلطَّرْفَ فِي مَرْعَاهَا وَكَانَتْ هَمَلًا غَيْرَ سَوَارِحَ ، وَتُحَفًا يَحْصُلُ بِهَا لِنَاظِرِهِ اُلإِمْتَاعُ ، وَلَا يَعُدُّهَا مِنْ سَقَطِ[3] اُلْمَتَاعِ اُلْمُبْتَاعُ ، وَيَلْهَجُ بِهَا اُلْمُرْتَاحُ وَيَسْتَانِسُ اُلْمُسْتَوْحِشُ اُلْمُرْتَاعُ[4] .

وَبَعْدَ أَنْ خَمَّنْتُ[5] تَمَامَ هٰـذَا اُلتَّصْنِيفِ ، وَأَمْعَنْتُ اُلنَّظَرَ فِيمَا يَحْصُلُ بِهِ اُلتَّقْرِيطُ[6] لِسَامِعِهِ وَاُلتَّشْنِيفُ ، قَسَّمْتُهُ قِسْمَيْنِ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا مُسْتَقِلٌّ بِالْمَطْلُوبِ فَيَصِحُّ أَنْ يُسَمَّيَا بِاُسْمَيْنِ :

***

(اُلْقِسْمُ اُلْأَوَّلُ)

أخبار الأندلس

فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَنْدَلُسِ مِنَ اُلْأَخْبَارِ اُلْمُتْرَعَةِ اُلْأَكْوَابِ ، وَاُلْأَنْبَاءِ اُلْمُنْتَحِيَةِ صَوْبَ[7] اُلصَّوَابِ ، اُلرَّافِلَةِ مِنَ اُلْإِفَادَةِ فِي

---

(١) يمكن أن تكون (اشتغال) (٢) سامت الابل : رعت ، وأسامها : أرعاها أى أخرجها الى المرعى ترعى حيث تشاء ، والهمل : المهملة لا راعى لها . وفى المثل (اختلط المرعى بالهمل) (٣) السقط : المتاع الحقير . والمبتاع : المشترى (٤) أى الخائف (٥) التخمين : الحدس والتقدير الظنى (٦) القرط ما علق فى أسفل الاذن والشنف ما علق فى أعلاها (٧) صوب : ناحية

سَوَابِغِ[١] الْأَثْوَابِ، وَفِيهِ بِحَسَبِ الْقَصْدِ وَالِاقْتِصَارِ، وَتَحَرِّى التَّوَسُّطِ فِى بَعْضِ الْمَوَاضِعِ دُونَ الِاخْتِصَارِ، ثَمَانِيَةٌ مِنَ الْأَبْوَابِ:

***

(الْبَابُ الْأَوَّلُ)

وصف الأندلس

فِى وَصْفِ جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ وَحُسْنِ هَوَائِهَا، وَاعْتِدَالِ مِزَاجِهَا وَوُفُورِ خَيْرِهَا وَكَمَالِهَا وَاسْتِوَائِهَا، وَاشْتِمَالِهَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَحَاسِنِ وَاحْتِوَائِهَا، وَكَرَمِ نَبَاتِهَا الَّذِى سَقَتْهُ سَمَاءُ الْبَرَكَاتِ مِنْ جَنَبَاتِهَا بِنَافِعِ[٢] أَنْوَائِهَا[٣]، وَذِكْرِ بَعْضِ مَآثِرِهَا الْمَجْلُوَّةِ الصُّوَرِ، وَتَعْدَادِ كَثِيرٍ مِمَّا لَهَا مِنَ الْبُلْدَانِ وَالْكُوَرِ[٤] الْمُسْتَمِدَّةِ مِنْ أَضْوَائِهَا.

***

(١) سوابغ: جمع سابغ، وهو من الثياب والدروع: الواسع الطويل، تقول درع سابغة، ونعمة سابغة على المجاز. وفى التنزيل قال تعالى لداود عليه السلام «أن اعمل سابغات» أى دروعا سابغات (٢) وقد يكون (بنافع) محرفة عن (بناقع) (٣) أى أمطارها (٤) الكورة: البقعة التى يجتمع فيها قرى ومحال. يقال لكل مصر كورة، والجمع كور

(الْبَابُ الثَّانِي)

فتح الأندلس

فِي إِلْقَاءِ بَلَدِ الْأَنْدَلُسِ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْقِيَادِ ، وَفَتْحِهَا عَلَى يَدِ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ وَمَوْلَاهُ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ ، وَصَيْرُورَتِهَا مَيْدَانًا لِسَبْقِ الْجِيَادِ ، وَمَحَطِّ رِحَالِ الِارْتِيَاءِ وَالِارْتِيَادِ ، وَمَا يَتْبَعُ ذٰلِكَ مِنْ خَبَرٍ حَصَلَ بِازْدِيَانِهِ زِيَادٌ[1] ، وَنَبَإٍ وَصَلَ إِلَيْهِ اعْتِيَامٌ[2] وَتَقَرَّرَ بِمِثْلِهِ اعْتِيَادٌ .

***

(الْبَابُ الثَّالِثُ)

الدين بالأندلس

فِي سَرْدِ بَعْضِ مَا كَانَ لِلدِّينِ بِالْأَنْدُلُسِ مِنَ الْعِزِّ السَّامِي الْعِمَادِ ، وَالْقَهْرِ لِلْعَدُوِّ ، فِي الرَّوَاحِ وَالْغُدُوِّ ، وَالتَّحَرُّكِ لِلْهُدُوِّ الْبَالِغِ غَايَةَ الْآمَادِ . وَأَعْمَالِ أَهْلِهَا لِلْجِهَادِ ، بِالْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ ، فِي الْجِبَالِ وَالْوِهَادِ ، بِالْأَسِنَّةِ الْمُشْرَعَةِ وَالسُّيُوفِ الْمُسْتَلَّةِ مِنَ الْأَغْمَادِ.

***

(١) لعله : ازدياد (٢) أى اختيار . اعتام الشى : اختاره واصطفاه . قال طرفة بن العبد فى معلقته :

أرى الموت يعتام الكرام و يصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

(الْبَابُ ٱلرَّابِعُ)

قرطبة

فِي ذِكْرِ قُرْطُبَةَ ٱلَّتِي كَانَتْ ٱلْخِلَافَةُ بِعِصْرِهَا لِلْأَعْدَاءِ قَاهِرَةً ، وَجَامِعِهَا ٱلْأُمَوِيِّ ذِي ٱلْبَدَائِعِ ٱلْبَاهِيَةِ ٱلْبَاهِرَةِ ، وَٱلْإِلْمَاعِ بِحَضْرَتَيِ ٱلْمُلْكِ : ٱلزَّهْرَاءِ ٱلنَّاصِرِيَّةِ وَٱلْعَامِرِيَّةِ ٱلزَّاهِرَةِ، وَوَصْفِ جُمْلَةٍ مِنْ مُتَنَزَّهَاتِ تِلْكَ ٱلْأَقْطَارِ وَمَصَانِعِهَا ذَاتِ ٱلْمَحَاسِنِ ٱلْبَاطِنَةِ وَٱلظَّاهِرَةِ، وَمَا تَجُرُّ إِلَيْهِ شُجُونُ ٱلْحَدِيثِ مِنْ أُمُورٍ تَقْضِي بِحُسْنِ إِيرَادِهَا ٱلْقَرَائِحُ ٱلْوَقَّادَةُ وَٱلْأَفْكَارُ ٱلْمَاهِرَةُ

***

(الْبَابُ ٱلْخَامِسُ)

رجال الأندلس

فِي ٱلتَّعْرِيفِ بِبَعْضِ مَنْ رَحَلَ مِنَ ٱلْأَنْدَلُسِيِّينَ إِلَى بِلَادِ ٱلْمَشْرِقِ ٱلذَّاكِيَةِ ٱلْعَرَارِ[1] وَٱلْبَشَامِ ، وَمَدْحِ جَمَاعَةٍ مِنْ أُولٰئِكَ ٱلْأَعْلَامِ ، ذَوِي ٱلْأَلْبَابِ ٱلرَّاجِحَةِ وَٱلْأَحْلَامِ ، لِشَامَةِ[2] وَجْنَةِ ٱلْأَرْضِ دِمَشْقِ ٱلشَّامِ ، وَمَا ٱقْتَضَتْهُ ٱلْمُنَاسَبَةُ مِنْ

(١) العرار والبشام من نبات بلاد العرب (٢) الشامة: نقطة سوداء قيل هي الخال ، فكأن دمشق في وجه الأرض خال في وجنة حسناء

كَلام أَعْيَانِهَا وَأَرْبَاب بَيَانِهَا ، ذَوِى ٱلسُّؤْدُدِ وَٱلِاحْتِشَام ، وَمُخَاطَبَاتِهِمْ لِلْمُؤَلِّفِ ٱلْفَقِيرِ حِينَ حَلَّهَا عَامَ سَبْعَةٍ وَثَلَاثِينَ وَأَلْفٍ وَشَاهَدَ بَرْقَ فَضْلِهَا ٱلْمُبِينَ وَشَامَ .

***

(ٱلْبَابُ ٱلسَّادِسُ)

من وفد على الأندلس

فِي ذِكْرِ بَعْضِ ٱلْوَافِدِينَ عَلَى ٱلْأَنْدَلُسِ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ ، ٱلْمُهْتَدِينَ فِي قَصْدِهِمْ إِلَيْهَا بِنُورِ ٱلْهِدَايَةِ ٱلْمُضِيءِ ٱلْمُشْرِقِ، وَٱلْأَكَابِرِ ٱلَّذِينَ حَلَّوْا مِنْهَا بِحُلُولِهِمْ فِيهَا ٱلْجِيدَ(١) وَٱلْمَفْرِقَ(٢) . وَٱفْتَخَرُوا بِرُؤْيَةِ قُطْرِهَا ٱلْمُونِقِ عَلَى ٱلْمُشْئِمِ (٣) وَٱلْمُعْرِقِ(٤) .

***

(ٱلْبَابُ السَّابِعُ)

منة الله على أهل الأندلس

فِي نُبْذَةٍ مِمَّا مَنَّ ٱللهُ تَعَالَى بِهِ عَلَى أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنْ تَوَقُّدِ ٱلْأَذْهَانِ ، وَبَذْلِهِمْ فِي ٱكْتِسَابِ ٱلْمَعَارِفِ وَٱلْمَعَالِي

(١) الجيد : العنق (٢) مفرق الشعر: وسط الرأس (٣) أى داخل الشام
(٤) أى داخل العراق

مَا عَزَّ أَوْ هَانَ، وَحَوْزِهِمْ فِي مَيْدَانِ الْبَرَاعَةِ مِنْ قَصَبِ السَّبْقِ خَصْلَ[١] الرِّهَانِ، وَجُمْلَةٍ مِنْ أَجْوِبَتِهِمُ الدَّالَّةِ عَلَى لَوْذَعِيَّتِهِمْ[٢]، وَأَوْصَافِهِمُ الْمُؤْذِنَةِ بِأَلْمَعِيَّتِهِمْ[٣]، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِمُ الَّتِي لَهَا عَلَى فَضْلِهِمْ أَوْضَحُ بُرْهَانٍ.

***

(الْبَابُ الثَّامِنُ)

حالة الجزيرة وتغلب الأعداء عليها

فِي ذِكْرِ تَغَلُّبِ الْعَدُوِّ الْكَافِرِ عَلَى الْجَزِيرَةِ بَعْدَ صَرْفِهِ وُجُوهَ الْكَيْدِ إِلَيْهَا وَتَضْرِيبِهِ[٤] بَيْنَ مُلُوكِهَا وَرُؤَسَائِهَا بِمَكْرِهِ، وَاسْتِعْمَالِهِ فِي أَمْرِهَا حِيَلَ فِكْرِهِ، حَتَّى اسْتَوْلَى - دَمَّرَهُ اللهُ - عَلَيْهَا. وَمَحَا مِنْهَا التَّوْحِيدَ وَاسْمَهُ، وَكَتَبَ عَلَى مَشَاهِدِهَا وَمَعَاهِدِهَا وَسْمَهُ، وَقَرَّرَ مَذْهَبَ التَّثْلِيثِ وَالرَّأْيَ الْخَبِيثَ لَدَيْهَا، وَاسْتِغَاثَةِ مَنْ بِهَا بِالنَّظْمِ وَالنَّثْرِ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْعَصْرِ مِنْ سَائِرِ الْأَقْطَارِ، حِينَ تَعَذَّرَتْ

---

(١) الخصل فى النضال الخطر الذى يخاطر عليه . والخصلة الاصابة فى الرمى والغلبة فى الرهان ، وخصل القوم خصلا : نضلهم وغلبهم . وأحرز فلان خصلة اذا غلب (٢) اللوذعى: الأريب الحاذق اللبيب

(٣) الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

(٤) أظنها محرفة (وتضريته) من ضراه بالأمر عوده اياه ودربه به، وضرى بالشىء اذا اعتاده فلا يكاد يصبر عنه ، وضرى الكلب بالصيد : اعتاده وتطعم بلحمه ودمه ، وأضراه صاحبه وضراه : أغراه به وعوده

بِحِصَارِهَا مَعَ قِلَّةِ حُمَاتِهَا وَأَنْصَارِهَا الْمَآرِبُ وَالْأَوْطَارُ ، وَجَاءَهَا الْأَعْدَاءُ مِنْ خَلْفِهَا وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا . أَعَادَ اللّٰهُ تَعَالَى إِلَيْهَا كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ ، وَأَقَامَ فِيهَا شَرِيعَةَ سَيِّدِ الْأَنَامِ ، - عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ - وَرَفَعَ يَدَ الْكُفْرِ عَنْهَا وَعَمَّا حَوَالَيْهَا . آمِينَ . وَلَمْ أُخْلِ بَابًا فِي هٰذَا الْقِسْمِ مِنْ كَلَامٍ لِلِسَانِ الدِّينِ ابْنِ الْخَطِيبِ وَإِنْ قَلَّ ، مَعَ أَنَّ الْقِسْمَ الثَّانِيَ بِذٰلِكَ كَمَا سَتَقِفُ عَلَيْهِ قَدِ اسْتَقَلَّ . وَهٰذَا آخِرُ مَا تَعَلَّقَ بِالْقِسْمِ الْأَوَّلِ ، وَعَلَى اللّٰهِ سُبْحَانَهُ الْمُتَّكَلُ وَالْمُعَوَّلُ .

***

(الْقِسْمُ الثَّانِي)

التعريف بابن الخطيب

فِي التَّعْرِيفِ بِلِسَانِ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ ، وَذِكْرِ أَنْبَائِهِ الَّتِي يَرُوقُ سَمَاعُهَا وَيَتَأَرَّجُ نَفْحُهَا وَيَطِيبُ . وَمَا يُنَاسِبُهَا مِنْ أَحْوَالِ الْعُلَمَاءِ الْأَفْرَادِ ، وَالْأَعْلَامِ الَّذِينَ اقْتَضَى ذِكْرَهُمْ شُجُونُ الْكَلَامِ وَالِاسْتِطْرَادُ ، وَفِيهِ أَيْضًا مِنَ الْأَبْوَابِ ثَمَانِيَةٌ ، مُوَصِّلَةٌ إِلَى جَنَّاتِ أَدَبٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ، وَكُلُّ غُصْنٍ مِنْهَا رَطِيبٌ .

***

(الْبَابُ الْأَوَّلُ)

فِي ذِكْرِ أَوَّلِيَّةِ لِسَانِ الدِّينِ وَذِكْرِ أَسْلَافِهِ ، الَّذِينَ وَرِثَ عَنْهُمُ الْمَجْدَ وَارْتَضَعَ دَرَّ أَخْلَافِهِ[1] ، وَمَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَذْهَبُ الْمُنْصِفُ إِلَى خِلَافِهِ .

***

(الْبَابُ الثَّانِي)

فِي نَشْأَتِهِ وَتَرَقِّيهِ وَوِزَارَتِهِ وَسَعَادَتِهِ ، وَمُسَاعَدَةِ الدَّهْرِ لَهُ ثُمَّ قَلْبِهِ لَهُ ظَهْرَ[2] الْمِجَنِّ عَلَى عَادَتِهِ ، فِي مُصَافَاتِهِ وَمُنَافَاتِهِ . وَارْتِبَاكِهِ، فِي شِبَاكِهِ،وَمَا لَقِيَ مِنْ إِحَنِ[3] الْحَاسِدِ، ذِي الْمَذْهَبِ الْفَاسِدِ ، وَمِحَنِ الْكَائِدِ الْمُسْتَأْسِدِ[4] وَآفَاتِهِ . وَذِكْرِ قُصُورِهِ وَأَمْوَالِهِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِ فِي تَقَلُّبَاتِهِ عِنْدَ مَا قَابَلَهُ الزَّمَانُ بِأَهْوَالِهِ ، فِي بَدْئِهِ وَإِعَادَتِهِ إِلَى وَفَاتِهِ ،

***

(١) الدر : اللبن . والأخلاف : جمع خلف : وهو للناقة كالضرع للشاة
(٢) قلب الدهر لفلان ظهر المجن : عاداه وكدر صفوه . والمجن : الترس
(٣) احن : جمع احنة : الحقد (٤) استأسد: اجترأ وتشبه بالأسد في الشدة

(الْبَابُ ٱلثَّالِثُ)

فِي ذِكْرِ مَشَايِخِهِ ٱلْجِلَّةِ[1]، هُدَاةِ ٱلنَّاسِ وَنُجُومِ ٱلْمِلَّةِ ، وَمَا يَتَّصِلُ بِذَٰلِكَ مِنَ ٱلْأَخْبَارِ ٱلشَّافِيَةِ لِلْعِلَّةِ ، وَٱلْمَوَاعِظِ ٱلْمُنَجِّيَةِ مِنَ ٱلْأَهْوَاءِ ٱلْمُضِلَّةِ ، وَٱلْمُنَاسَبَاتِ ٱلْوَاضِحَةِ ٱلْبَرَاهِينِ وَٱلْأَدِلَّةِ .

***

(الْبَابُ ٱلرَّابِعُ)

فِي مُخَاطَبَاتِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْأَكَابِرِ ٱلْمُوَجَّهَةِ إِلَى حَضْرَتِهِ ٱلْعَلِيَّةِ ، وَثَنَاءِ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِ عَلَيْهِ ، وَصَرْفِ ٱلْقَاصِدِينَ وُجُوهَ ٱلتَّأْمِيلِ[2] إِلَيْهِ ، وَٱجْتِلَائِهِمْ أَنْوَارَ رِيَاسَتِهِ ٱلْجَلِيلَةِ .

***

---

(١) الجلة: العظماء ، وجمع جليل. وقوم جلة: ذو و أخطار (٢) التأميل: من الأمل وهو الرجاء

(الْبَابُ الْخَامِسُ)

فِي إِيرَادِ جُمْلَةٍ مِنْ نَثْرِهِ الَّذِي عَبِقَ أَرِيجُ الْبَلَاغَةِ مِنْ نَفَحَاتِهِ ، وَنَظْمِهِ الَّذِي تَأَلَّقَ[1] نُورُ الْبَرَاعَةِ مِنْ لَمَحَاتِهِ وَصَفَحَاتِهِ ، وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ مِنْ بَعْضِ أَزْجَالِهِ وَمُوَشَّحَاتِهِ ، وَمُنَاسَبَاتٍ رَائِقَةٍ مِنْ فُنُونِ الْأَدَبِ وَمُصْطَلَحَاتِهِ .

***

(الْبَابُ السَّادِسُ)

فِي مُصَنَّفَاتِهِ فِي الْفُنُونِ ، وَمُؤَلَّفَاتِهِ الْمُحَقِّقَةِ لِلْوَاقِفِ عَلَيْهَا الْآمَالَ وَالظُّنُونَ ، وَمَا كَمُلَ مِنْهَا أَوِ اخْتَرَمَتْهُ[2] دُونَ إِتْمَامِهِ الْمَنُونُ .

***

(الْبَابُ السَّابِعُ)

فِي ذِكْرِ بَعْضِ تَلَامِذَتِهِ الْآخِذِينَ عَنْهُ ، الْمُسْتَدِلِّينَ

---

(١) أي أضاء ، ولمح البرق : لمع (٢) اخترمته المنون : أخذته من بين أصحابه وأهلكته

بِهِ عَلَى ٱلْمِنْهَاجِ ، ٱلْمُتَلَقِّينَ أَنْوَاعَ ٱلْعُلُومِ مِنْهُ، وَٱلْمُقْتَبِسِينَ أَنْوَارَ ٱلْفُهُومِ مِنْ سِرَاجِهِ الْوَهَّاجِ .

***

(الْبَابُ ٱلثَّامِنُ)

فِي ذِكْرِ أَوْلَادِهِ ٱلرَّافِلِينَ فِي حُلَلِ ٱلْجَلَالَةِ ، ٱلْمُقْتَفِينَ أَوْصَافَهُ ٱلْحَمِيدَةَ وَخِلَالَهُ ، ٱلْوَارِثِينَ ٱلْعِلْمَ وَٱلْحِلْمَ وَٱلرِّيَاسَةَ وَٱلْمَجْدَ عَنْ غَيْرِ كَلَالَةٍ[1]؛ وَوَصِيَّتِهِ لَهُمُ ٱلْجَامِعَةِ لِآدَابِ ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا ، ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى ٱلنَّصَائِحِ ٱلْكَافِيَةِ وَٱلْحِكَمِ ٱلشَّافِيَةِ مِنْ كُلِّ مَرَضٍ بِلَا ثُنْيَا[2] ، ٱلْمُنْقِذَةِ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلضَّلَالَةِ. وَمَا يَتْبَعُ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمُنَاسَبَاتِ ٱلْقَوِيَّةِ، وَٱلْأَمْدَاحِ ٱلنَّبَوِيَّةِ ، ٱلَّتِي لَهَا عَلَى حُسْنِ ٱلْخِتَامِ أَظْهَرُ دَلَالَةٍ .

ـ وَقَدْ كُنْتُ أَوَّلًا سَمَّيْتُهُ « بِعَرْفِ[3] ٱلطِّيبِ ، فِي ٱلتَّعْرِيفِ بِالْوَزِيرِ ٱبْنِ ٱلْخَطِيبِ » ثُمَّ وَسَمْتُهُ حِينَ أَلْحَقْتُ أَخْبَارَ ٱلْأَنْدَلُسِ بِهِ « بِنَفْحِ ٱلطِّيبِ، مِنْ غُصْنِ ٱلْأَنْدَلُسِ

(١) أي لم يرثوها عن بعد وعرض، بل عن قرب واستحقاق (٢) أي بلا استثناء
(٣) أي الأرج والرائحة الذكية

ٱلرَّطِيبِ ، وَذِكْرِ وَزِيرِهَا لِسَانِ ٱلدِّينِ ٱبْنِ ٱلْخَطِيبِ » وَلَهُ بِالشَّامِ تَعَلُّقٌ مِنْ وُجُوهٍ عَدِيدَةٍ ، هَادِيَةٍ لِمُتَأَمِّلِهِ إِلَى ٱلطُّرُقِ ٱلسَّدِيدَةِ . أَوَّلُهَا : أَنَّ ٱلدَّاعِيَ لِتَأْلِيفِهِ أَهْلُ ٱلشَّامِ ـ أَبْقَى ٱللّٰهُ مَآثِرَهُمْ وَجَعَلَهَا عَلَى مَرِّ ٱلزَّمَانِ مَدِيدَةً ـ . ثَانِيهَا : أَنَّ ٱلْفَاتِحِينَ لِلْأَنْدَلُسِ هُمْ أَهْلُ ٱلشَّامِ ذَوُو ٱلنَّجْدَةِ وَٱلشَّوْكَةِ ٱلْحَدِيدَةِ[1] . ثَالِثُهَا أَنَّ غَالِبَ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنْ عَرَبِ ٱلشَّامِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا بِالْأَنْدَلُسِ وَطَنًا مُسْتَأْنَفًا وَحَضْرَةً جَدِيدَةً . رَابِعُهَا : أَنَّ غَرْنَاطَةَ نَزَلَ بِهَا أَهْلُ دِمَشْقَ وَسَمَّوْهَا بِاسْمِهَا لِشَبَهِهَا بِهَا فِي ٱلْقَصْرِ وَٱلنَّهْرِ ، وَٱلدَّوْحِ وَٱلزَّهْرِ ، وَٱلْغُوطَةِ[2] ٱلْفَيْحَاءِ ، وَهٰذِهِ مُنَاسَبَةٌ قَوِيَّةُ ٱلْعُرَا شَدِيدَةٌ .

هٰذَا وَإِنِّي أَسْأَلُ مِمَّنْ وَقَفَ عَلَيْهِ ، أَنْ يَنْظُرَ بِعَيْنِ ٱلْإِغْضَاءِ[3] إِلَيْهِ ، كَمَا أَطْلُبُ مِمَّنْ كَانَ ٱلسَّبَبَ فِي تَصْنِيفِهِ ، وَٱلدَّاعِيَ إِلَى تَأْلِيفِهِ وَتَرْصِيفِهِ ، ٱسْتِنَادًا لِرُكْنِ ٱلثِّقَةِ ، وَٱعْتِمَادًا عَلَى ٱلْوُدِّ

---

(١) أى القوية (٢) الغوطة : موضع بالشام كثير الماء والشجر يعرف بغوطة دمشق ، و يعد من الجنان ، والفيحاء : الواسعة، وفاحت الريح « الطيبة » سطعت وأرجت (٣) الاغضاء : التغاضي

وَالْمِقَةِ، أَنْ يَصْفَحَ عَمَّا فِيهِ مِنْ قُصُورٍ وَيَسْمَحَ ، وَيُلاحِظَهُ بِعَيْنِ الرِّضَا الْكَلِيلَةِ وَيَلْمَحَ ، إِذْ رَكِبْتُ شَكْلَ مَنْطِقِهِ وَالْأَشْجَانُ غَالِبَةٌ ، وَقَضِيَّةُ الْغُرْبَةِ مُوجِبَةٌ لِلْكُرْبَةِ وَلِبَعْضِ الْآمَالِ سَالِبَةٌ ، وَهُوَ وَإِنْ لَمْ يُوَفِّ بِكُلِّ الْغَرَضِ ، فَلا يَخْلُو مِنْ فَائِدَةٍ وَقَدْ يُسْتَدَلُّ عَلَى الْجَوْهَرِ بِالْعَرَضِ .، فَإِنْ أَدَّيْتُ الْمُفْتَرَضَ وَذَاكَ[١] الْمَرَامُ الَّذِي أَرْتَضِيهِ، وَيُوجِبُ الْوُدُّ وَيَقْتَضِيهِ، وَإِلَّا فَحَسْبِي أَنْ بَذَلْتُ بِهِ جُهْدِي، وَأَنْفَقْتُ مِنْ وُجْدِي[٢] عَلَى قَدْرِ مَا عِنْدِي . وَقَدْ تَوَهَّمْتُ أَنِّي لَمْ أُسْبَقْ إِلَى مِثْلِهِ فِي بَابِهِ، إِذْ لَمْ أَقِفْ لَهُ عَلَى نَظِيرٍ أَتَعَلَّقُ بِأَسْبَابِهِ ، وَرَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ هَدِيَّةً مُسْتَمْلَحَةً مُسْتَعْذَبَةً، وَطُرْفَةً[٣] مَقْبُولَةً مُسْتَغْرَبَةً :

هَدِيَّتِي تَقْصُرُ عَنْ هِمَّتِي ... وَهِمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ مَالِي
وَخَالِصُ الْوُدِّ وَمَحْضُ الْإِخَا ... أَكْثَرُ مَا يُهْدِيهِ أَمْثَالِي

(١) قد يكون أصلها « فذاك » لتكون الجملة جواب الشرط ، والا فحذف الجواب فى مثل هذا الموضع كثير شائع سائغ (٢) أى مما أقدر عليه وأستطيعه (٣) الطرفة : الشيء النفيس تخص به من تحب

وَأَوْرَدْتُ فِيهِ مِنْ نَظْمٍ وَإِنْشَاءٍ، مَا يَكْفِي الْمُقْتَصِرَ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ، وَمِنْ أَخْبَارِ مُلُوكٍ وَرُؤَسَاءَ، وَطَبَقَاتِ مَنْ أَحْسَنَ أَوْ أَسَاءَ، مَا فِيهِ اعْتِبَارٌ لِلْمُتَأَمِّلِ، وَادِّكَارٌ لِلرَّاحِلِ الْمُتَحَمِّلِ، وَزِينَةٌ لِلذَّاكِرِ الْمُتَجَمِّلِ، وَتَنْكِيتٌ عَلَى أَهْلِ الْبَطَرِ[1]، وَتَبْكِيتٌ لِمَنْ خَرَجَ مِنْ دُنْيَاهُ وَلَمْ يَقْضِ مِنَ الطَّاعَةِ الْوَطَرَ[2]:

أَرَى أَوْلَادَ آدَمَ أَبْطَرَتْهُمْ ... حُظُوظُهُمُ مِنَ الدُّنْيَا الدَّنِيَّهْ
فَلِمْ بَطِرُوا وَأَوَّلُهُمْ مَنِيٌّ ... إِذَا نُسِبُوا[3] وَآخِرُهُمْ مَنِيَّهْ؟

وَفِيهِ إِيقَاظٌ لِمِثْلِي مِنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ، وَحَثٌّ عَلَى عَدَمِ الِاغْتِرَارِ بِالْمُهْلَةِ[4]، وَتَنْبِيهٌ لِلَابِسِ بُرْدِ الشَّبَابِ الْقَشِيبِ، أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ حَادِثِ الْمَوْتِ قَبْلَ أَوْ بَعْدَ الْمَشِيبِ:

لِلّٰهِ دَرُّ الشَّيْبِ مِنْ وَاعِظٍ ... وَنَاصِحٍ مِنْهَاجُهُ وَاضِحُ
كُلُّ امْرِئٍ يُعْجِبُهُ شَأْنُهُ ... وَحَادِثُ الدَّهْرِ لَهُ فَاضِحُ

---

(١) البطر: الكبر: والنكات الطعان فى الناس، والنكيت المطعون فيه
(٢) الوطر: الحاجة والبغية (٣) ويروى: اذا افتخروا ـ وهو من قول أبى العتاهية:

مابال من أوله نطفة ... وجيفة آخره يفخر

وأصل هذا كله قول الامام على رضى الله عنه: مالابن آدم والفخر، وانما أوله نطفة وآخره جيفة (٤) المهلة: الانظار والتأخير

فَكَمْ بَاكٍ عَلَى عَصْرِ الشَّبَابِ، وَشَاكٍ لِفِرَاقِ عَهْدِ الصِّبَا وَالْأَحْبَابِ، أَنْسَاهُ طَارِقُ الزَّمَانِ سُلَيْمَى[1] وَالرَّبَابِ

مَضَى عَصْرُ الشَّبَابِ كَلَمْحِ بَرْقٍ
وَعَصْرُ الشَّيْبِ بِالْأَكْدَارِ شِيبَا[2]
وَمَا أَعْدَدْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ زَادًا
لِيَوْمٍ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا[3]

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ بَعْضِ الْأَعْلَامِ :

مَضَى مَا مَضَى مِنْ حُلْوِ عَيْشٍ وَمُرِّهِ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا كَأَضْغَاثِ أَحْلَامِ

وَقَوْلَ مَنْ أَرْشَدَ سَفِيهًا :

إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ مَتَاعٌ فَالْجَهُولُ الْجَهُولُ مَنْ يَصْطَفِيهَا
مَا مَضَى فَاتَ وَالْمُؤَمَّلُ غَيْبٌ وَلَكَ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا

وَفِي مَعْنَاهُ لِغَيْرِهِ :

دُنْيَاكَ شَيْئَانِ فَانْظُرْ مَاذَانِكَ الشَّيْئَانِ

---

(١) سلمى : اسم يستعمل للنساء وكذلك سليمى والرباب . والرباب : بنت امرىء القيس ، وكانت من أحسن النساء وجها وأفضلهن عقلا وأدبا (٢) من الشوب وهو الخلط (٣) جمع أشيب : وأصله شيب بضم الشين . كسر أوله لمناسبة الياء ،لأن أفعل يجمع على فعل، كأحمر وحمر

مَافَاتَ مِنْهَا فَحُلْمٌ   وَمَا بَقِى فَأَمَانِى

وَمَا أَحْكَمَ قَوْلَ ابْنِ حِطَّانَ[١] مَعَ وُقُوعِهِ مِنَ الْبِدْعَةِ فِى أَشْطَانٍ[٢]

يَأْسَفُ الْمَرْءُ عَلَى مَا فَاتَهُ   مِنْ لُبَانَاتٍ[٣] إِذَا لَمْ يَقْضِهَا

وَتَرَاهُ ضَاحِكاً مُسْتَبْشِرًا   بِالَّتِى أَمْضَى كَأَنْ لَمْ يُمْضِهَا

إِنَّهَا عِنْدِى كَأَحْلَامِ الْكَرَى[٤]

لَقَرِيبٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضِهَا

وَلِغَيْرِهِ :

وَاللّٰهِ لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا

تُبْقِى عَلَيْنَا وَيَأْتِى رِزْقُهَا رَغَدَا

مَا كَانَ مِنْ حَقِّ حُرٍّ أَنْ يَذِلَّ لَهَا

فَكَيْفَ وَهْىَ مَتَاعٌ يَضْمَحِلُّ غَدَا ؟

وَلِآخَرَ :

لَا حَظَّ فِى الدُّنْيَا لِمُسْتَبْصِرٍ   يَلْمَحُهَا بِالْفِكْرَةِ الْبَاصِرَهْ

(١) هو عمران بن حطان بن ظبيان بن لوذان بن عمرو بن الحرث ابن سدوس أحد بنى عمرو بن شيبان وقد كان رأس العقد من الخوارج الصفرية وخطيبهم وشاعرهم ـ وكان قبل ذلك رجل العلم والحديث ، وقد أدرك صدرا من الصحابة وروى عنهم (٢) الشطن : الحبل الطويل . والمراد : تقييده بها وتغلبها عليه (٣) اللبانة : الحاجة والوطر (٤) أى النوم

إنْ كَدَّرَتْ مَشْرَبَهُ مَلَّهَا ... وَإنْ صَفَتْ كَدَّرَتِ الْآخِرَهْ

وَيُعْجِبُنِي قَوْلُ الْوَزِيرِ ابْنِ الْمَغْرِبِيِّ :

إنِّي أَبُثُّكَ(١) مِنْ حَدِيـــثِي وَالْحَدِيثُ لَهُ شُجُونْ

فَارَقْتُ(٢) مَوْضِعَ مَرْقَدِي ... لَيْلًا فَفَارَقَنِي السُّكُونْ

قُلْ لِي فَأَوَّلُ لَيْلَةٍ ... لِلْقَبْرِ كَيْفَ تُرَى أَكُونْ ؟

وَقَوْلُ مَامِيَّهْ :

تَأَمَّلْ فِي الْوُجُودِ بِعَيْنِ فِكْرٍ ... تَرَ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةَ كَالْخَيَالِ

وَمَنْ فِيهَا جَمِيعاً سَوْفَ يَفْنَى

وَيَبْقَى وَجْهُ(٣) رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ

وَقَوْلُ بَعْضِ الْعَارِفِينَ :

اسْتَعِدِّي يَا نَفْسُ لِلْمَوْتِ وَاسْعَيْ

لِنَجَاةٍ فَالْحَـــازِمُ الْمُسْتَعِـــدُّ

قَدْ تَبَيَّنْتُ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْحَيِّ م خُلُودٌ وَمَا مِنَ الْمَوْتِ بُدُّ

---

(١) أبثك : أطلعك على سرى (٢) و يروى : غيرت ـ والوزير المغربى هو أبو القاسم الحسين بن على بن الحسين .... من أصل فارسى، كان من الدهاة العارفين والأذكياء النابغين ، كاتبا شاعرا أديبا عالما ـ وله مع الحاكم الفاطمى صاحب مصر قصة طويلة فى أيام الخليفة العباسى الامام القادر بالله ، وانتهى به الأمر الى أن وزر لمشرف الدولة البويهى ببغداد ... ثم توفى سنة ٤١٨ بميافارقين وحمل الى الكوفة ودفن بها (٣) وجه ربك : أى ذاته تعالى

إِنَّمَا أَنْتِ مُسْتَعِيرَةٌ مَا سَوْ　　فَ تَرُدِّينَ وَالْعَوَارِي تُرَدُّ

أَنْتِ تَسْهِينَ وَالْحَوَادِثُ لَا تَسْـــهُو وَتَلْهِينَ وَالْمَنَايَا تَجِدُّ

أَيُّ مِلْكٍ فِي الْأَرْضِ أَوْ أَيُّ حَظٍّ

لِامْرِئٍ حَظُّهُ مِنَ الْأَرْضِ لَحْدُ ؟ ؟

لَا تُرَجِّي الْبَقَاءَ فِي مَعْدِنِ الْمَوْ　　تِ وَدَارٍ حُتُوفُهَا لَكَ وِرْدُ

كَيْفَ يَرْجُو امْرُؤٌ لَذَاذَةَ أَيَّا　　مٍ عَلَيْهِ الْأَنْفَاسُ فِيهَا تُعَدُّ ؟

وَأَسْأَلُ مِنْ مُبَلِّغِ السَّائِلِينَ مَا يَرْجُونَ ، أَنْ يَصْفَحَ عَنْ زَلَّاتِي وَيُسَامِحَنِي فِيمَا أَوْرَدْتُ فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنَ الْهَزْلِ وَالْمُجُونِ[1] ، الَّذِي جَرَّتِ الْمُنَاسَبَةُ إِلَيْهِ وَالْحَدِيثُ شُجُونٌ. وَمَا الْقَصْدُ مِنْهُ إِلَّا تَرْوِيحُ قُلُوبِ الَّذِينَ يَسُوقُونَ عِيسَ الْأَسْمَارِ[2] وَيُزْجُونَ. وَفِيمَا أَوْرَدْتُ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالنَّصَائِحِ ، وَحِكَايَاتِ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ طِيبُ زَهْرِ مَنَاقِبِهِمْ فَائِحٌ ، وَالتَّوَسُّلُ بِمَحَاسِنِ الْأَمْدَاحِ النَّبَوِيَّةِ أَنْ يَسْتُرَ

(١) المجون : المزح والهزل (٢) السمر : الحديث ليلا . والعيس : الابل البيض . يريد قطع الليل بالحديث والفكاهة

بِفَضْلِهِ سُبْحَانَهُ ٱلْقَبَائِحَ ، وَيُرِينَا وَجْهَ ٱلْقَبُولِ بِلَا ٱكْتِتَامٍ .
وَيَمْنَحَنَا ٱلزُّلْفَى[1] وَحُسْنَ ٱلْخِتَامِ

وَمَنْ يَتَوَسَّلْ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
شَفِيعِ ٱلْبَرَايَا ٱلسَّيِّدِ ٱلسَّنَدِ ٱلْأَسْنَى
فَذَاكَ جَدِيرٌ أَنْ يُكَفَّرَ ذَنْبُهُ
وَيُمْنَحَ نَيْلَ ٱلْقَصْدِ وَٱلْخَتْمَ بِالْحُسْنَى

وَهَذَا أَوَانُ ٱلشُّرُوعِ ، فِي ٱلْأُصُولِ مِنْ هَذَا ٱلْكِتَابِ وَٱلْفُرُوعِ ، وَعَلَى ٱللهِ سُبْحَانَهُ أَعْتَمِدُ ، وَمِنْ مَعُونَتِهِ أَسْتَمِدُّ

***

(الْقِسْمُ الْأَوَّلُ)

أخبار الأندلس

فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَنْدَلُسِ مِنَ ٱلْأَخْبَارِ ٱلْمُتْرَعَةِ[2] ٱلْأَكْوَابِ وَٱلْأَنْبَاءِ ٱلْمُنْتَحِيَةِ صَوْبَ ٱلصَّوَابِ ، ٱلرَّافِلَةِ مِنَ ٱلْإِفَادَةِ فِي سَوَابِغِ ٱلْأَثْوَابِ ، وَفِيهِ بِحَسَبِ ٱلْقَصْدِ وَٱلِاقْتِصَارِ ، وَتَحَرِّي ٱلتَّوَسُّطِ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ دُونَ ٱلِاخْتِصَارِ ، ثَمَانِيَةٌ مِنَ ٱلْأَبْوَابِ

(١) أى القربى (٢) المترعة : المملوءة . والمراد : الكثيرة الجمة الشهية اللذيذة

***

(الْبَابُ الْأَوَّلُ)

وصف جزيرة الأندلس

فِي وَصْفِ جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ وَحُسْنِ هَوَائِهَا ، وَاعْتِدَالِ مِزَاجِهَا وَوُفُورِ خَيْرَاتِهَا وَاسْتِوَائِهَا ، وَاشْتِمَالِهَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمَحَاسِنِ وَاحْتِوَائِهَا ، وَكَرَمِ بُقْعَتِهَا الَّتِي سَقَتْهَا سَمَاءُ الْبَرَكَاتِ بِنَافِعِ أَنْوَائِهَا[1] ، وَذِكْرِ بَعْضِ مَآثِرِهَا الْمَجْلُوَّةِ الصُّوَرِ ، وَتَعْدَادِ كَثِيرٍ مِمَّا لَهَا مِنَ الْبُلْدَانِ وَالْكُوَرِ[2] ، الْمُسْتَمِدَّةِ مِنْ أَضْوَائِهَا . فَأَقُولُ : مَحَاسِنُ الْأَنْدَلُسِ لَا تُسْتَوْفَى بِعِبَارَةٍ ، وَمُجَارِي فَضْلِهَا لَا يُشَقُّ[3] غُبَارُهُ ، وَأَنَّى تُجَارَى وَهِيَ الْحَائِزَةُ قَصَبَ السَّبْقِ ، فِي أَقْطَارِ الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ

***

سبب التسمية بالأندلس

« قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ » إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِالْأَنْدَلُسِ بْنِ طُوبَالَ ابْنِ يَافِثَ بْنِ نُوحٍ لِأَنَّهُ نَزَلَهَا ، كَمَا أَنَّ أَخَاهُ سَبْتَ بْنَ يَافِثَ نَزَلَ الْعُدْوَةَ[4] الْمُقَابِلَةَ لَهَا وَإِلَيْهِ تُنْسَبُ سَبْتَةُ .

« قَالَ » وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ يُحَافِظُونَ عَلَى قِوَامِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ لِأَنَّهُمْ إِمَّا عَرَبٌ أَوْ مُتَعَرِّبُونَ . انْتَهَى

---

(١) الأنواء: جمع نوء، وهو المطر (٢) الكور: جمع كورة وهى الصقع والناحية

(٣) لا يشق غباره: مثل يضرب لمن لا قرن له يجاريه (٤) العدوة: الأرض المرتفعة

« وَقَالَ ابْنُ غَالِبٍ » : إِنَّهُ أَنْدَلُسُ بْنُ يَافِثَ . وَاللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

***

وصف بلاد الأندلس

« وَقَالَ الْوَزِيرُ » لِسَانُ الدِّينِ بْنُ الْخَطِيبِ ـ رَحِمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى ـ فِي بَعْضِ كَلَامٍ لَهُ أَجْرَى فِيهِ ذِكْرَ الْبِلَادِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ أَعَادَهَا اللّٰهُ تَعَالَى لِلْإِسْلَامِ ، بِبَرَكَةِ الْمُصْطَفَى عَلَيْهِ مِنَ اللّٰهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ ، مَا نَصُّهُ : خَصَّ اللّٰهُ تَعَالَى بِلَادَ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الرَّيْعِ [1] ، وَغَدَقِ [2] السُّقْيَا ، وَلَذَاذَةِ الْأَقْوَاتِ ، وَفَرَاهَةِ [3] الْحَيَوَانِ ، وَدُرُورِ الْفَوَاكِهِ ، وَكَثْرَةِ الْمِيَاهِ ، وَتَبَحُّرِ [4] الْعُمْرَانِ ، وَجَوْدَةِ اللِّبَاسِ ، وَشَرَفِ الْآنِيَةِ ، وَكَثْرَةِ السِّلَاحِ ، وَصِحَّةِ الْهَوَاءِ ، وَابْيِضَاضِ أَلْوَانِ الْإِنْسَانِ ، وَنُبْلِ الْأَذْهَانِ ، وَفُنُونِ الصَّنَائِعِ ، وَشَهَامَةِ الطِّبَاعِ ، وَنُفُوذِ الْإِدْرَاكِ ، وَإِحْكَامِ التَّمَدُّنِ وَالِاعْتِمَارِ [5] بِمَا حُرِمَهُ الْكَثِيرُ مِنَ الْأَقْطَارِ مِمَّا سِوَاهَا « انْتَهَى »

« قَالَ أَبُو عَامِرٍ السَّلِمِيُّ » فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِدُرَرِ

(١) أى النماء (٢) الغدق : الماء الكثير العام . وفى التنزيل «لأسقيناهم ماء غدقا» (٣) الفراهة : النشاط والخفة ، يقال غلام فاره ، ويوصف بها الحمار والبغل ، ولا يقال فرس فاره وإنما جواد ، ورائع (٤) أى سعته (٥) الاعتمار : القصد الى موضع عامر

الْقَلَائِدِ وَغُرَرِ الْفَوَائِدِ : الْأَنْدَلُسُ مِنَ الْإِقْلِيمِ الشَّامِيِّ ، وَهُوَ خَيْرُ الْأَقَالِيمِ وَأَعْدَلُهَا هَوَاءً وَتُرَابًا ، وَأَعْذَبُهَا مَاءً ، وَأَطْيَبُهَا هَوَاءً وَحَيَوَانًا وَنَبَاتًا ، وَهُوَ أَوْسَطُ الْأَقَالِيمِ ، وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا . انْتَهَى

***

وصف آخر

« قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ الْبَكْرِيُّ » : الْأَنْدَلُسُ شَامِيَّةٌ فِي طِيبِهَا وَهَوَائِهَا ، يَمَانِيَّةٌ فِي اعْتِدَالِهَا وَاسْتِوَائِهَا ، هِنْدِيَّةٌ فِي عِطْرِهَا وَذَكَائِهَا ، أَهْوَازِيَّةٌ فِي عِظَمِ جِبَايَتِهَا ، صِينِيَّةٌ فِي جَوَاهِرِ مَعَادِنِهَا ، عَدَنِيَّةٌ[1] فِي مَنَافِعِ سَوَاحِلِهَا ، فِيهَا آثَارٌ عَظِيمَةٌ لِلْيُونَانِيِّينَ أَهْلِ الْحِكْمَةِ وَحَامِلِي الْفَلْسَفَةِ ، وَكَانَ مِنْ مُلُوكِهِمُ الَّذِينَ أَثَّرُوا[2] الْآثَارَ بِالْأَنْدَلُسِ هِرَقْلِسُ ، وَلَهُ الْأَثَرُ فِي الصَّنَمِ بِجَزِيرَةِ قَادِسَ ، وَصَنَمِ جِلِّيقِيَّةَ ، وَالْأَثَرُ فِي مَدِينَةِ طَرَّكُونَةَ[3] الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ .

---

(١) أى كعدن وهى بلد بساحل اليمن مشهورة بالخصب (٢) أثروا : تركوا الآثار فيها (٣) طركونة : بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طرطوشة بينها و بين برشلونة ، وهى مدينة قديمة على شاطىء البحر ، وطركونة موضع آخر بالأندلس من أعمال لبلة ، غربى قرطبة ، ولبلة كورة خصبة غزيرة الزرع والشجر

***

تحديد بلاد الأندلس

« قَالَ ٱلْمَسْعُودِيُّ » : بِلَادُ ٱلْأَنْدَلُسِ تَكُونُ مَسِيرَةُ عَمَائِرِهَا وَمُدُنِهَا نَحْوَ شَهْرَيْنِ ، وَلَهُمْ مِنَ ٱلْمُدُنِ ٱلْمَوْصُوفَةِ نَحْوٌ مِنْ أَرْبَعِينَ مَدِينَةً . انْتَهَى بِاخْتِصَارٍ . وَنَحْوُهُ لِابْنِ ٱلْيَسَعَ إِذْ قَالَ : طُولُهَا مِنْ أَرْبُونَةَ إِلَى أَشْبُونَةَ[1] ، وَهُوَ قَطْعُ سِتِّينَ يَوْمًا لِلْفَارِسِ ٱلْمُجِدِّ . وَٱنْتُقِدَ بِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ يَقْتَضِي أَنَّ أَرْبُونَةَ دَاخِلَةٌ فِي جَزِيرَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ ، وَٱلصَّحِيحُ أَنَّهَا خَارِجَةٌ عَنْهَا ، وَٱلثَّانِي أَنَّ قَوْلَهُ سِتِّينَ يَوْمًا لِلْفَارِسِ ٱلْمُجِدِّ إِعْيَاءٌ وَإِفْرَاطٌ ، وَقَدْ قَالَ جَمَاعَةٌ : إِنَّهَا شَهْرٌ وَنِصْفٌ .

« قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ » وَهَذَا يَقْرُبُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْفَارِسِ ٱلْمُجِدِّ ، وَٱلصَّحِيحُ مَا نَصَّ عَلَيْهِ ٱلشَّرِيفُ مِنْ أَنَّهَا مَسِيرَةُ شَهْرٍ . وَكَذَا قَالَ ٱلْحِجَارِيُّ[2] : وَقَدْ سَأَلْتُ ٱلْمُسَافِرِينَ ٱلْمُحَقِّقِينَ عَنْ ذَلِكَ فَعَمِلُوا حِسَابًا بِالْمَرَاحِلِ ٱلْجَيِّدَةِ أَفْضَى إِلَى نَحْوِ شَهْرٍ بِنَيِّفٍ[3] قَلِيلٍ .

---

(١) ويقال أيضا : لشبونة ، وهي متصلة بشنترين قريبة من البحر المحيط
(٢) أظنه : الحجارى : نسبة الى وادى الحجارة « جمع حجر » كورة بالأندلس ينسب اليه محمد بن ابراهيم بن حيون الحجارى الأندلسى الأديب الشاعر المحدث . وينسب اليه أيضا أبو بكر عبد الباقى بن محمد ابن سعيد بن بَرْيال الحجارى توفى بمدينة بلنسية سنة ٥٠٢ (٣) النيف : الزائد ــ ولا يقال الا بعد عقد

***

تحديد آخر

« قَالَ ٱلْحِجارِىُّ » فِى مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ: إِنَّ طُولَ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنَ ٱلْحَاجِزِ إِلَى أَشْبُونَةَ أَلْفُ مِيلٍ وَنَيِّفٌ. انْتَهى.
وَبِالْجُمْلَةِ فَالْمُرَادُ ٱلتَّقْرِيبُ مِنْ غَيْرِ مُشَاحَّةٍ[1] كَمَا قَالَهُ ابْنُ سَعِيدٍ وَأَطَالَ فِى ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ كَلَامٍ: وَمَسَافَةُ ٱلْحَاجِزِ ٱلَّذِى بَيْنَ بَحْرِ ٱلزُّقَاقِ[2] وَٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ أَرْبَعُونَ مِيلًا، وَهَذَا عَرْضُ ٱلْأَنْدَلُسِ عِنْدَ رَأْسِهَا مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ وَلِقِلَّتِهِ سُمِّيَتْ جَزِيرَةً، وَإِلَّا فَلَيْسَتْ بِجَزِيرَةٍ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ لِاتِّصَالِ هَذَا ٱلْقَدْرِ بِالْأَرْضِ ٱلْكَبِيرَةِ. وَعَرْضُ جَزِيرَهِ ٱلْأَنْدَلُسِ فِى مُوَسَّطِهَا عِنْدَ طُلَيْطِلَةَ سِتَّةَ عَشَرَ يَوْمًا، وَٱتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ جَزِيرَةَ ٱلْأَنْدَلُسِ مُثَلَّثَةُ ٱلشَّكْلِ، وَٱخْتَلَفُوا فِى ٱلرُّكْنِ ٱلَّذِى فِى ٱلشَّرْقِ وَٱلْجَنُوبِ فِى حَيِّزِ أَرْبُونَةَ، فَمِمَّنْ قَالَ: إِنَّهُ فِى أَرْبُونَةَ، وَإِنَّ هَذِهِ ٱلْمَدِينَةَ تُقَابِلُهَا مَدِينَةُ بَرْدِيلَ[3] ٱلَّتِى فِى ٱلرُّكْنِ ٱلشَّرْقِىِّ ٱلشَّمَالِىِّ: أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلرَّازِىُّ، وَٱبْنُ حَيَّانَ، وَفِى كَلَامِ غَيْرِهِمَا أَنَّهُ فِى جِهَةِ أَرْبُونَةَ.

---

(١) مشاحة: أى جدال ولا معنى لفك الادغام فيها كما فى الأصل بل يجب ادغام المثلين (٢) بحر الزقاق: المراد به مضيق جبل طارق (٣) لم نعثر فى المعاجم على اسم هذه المدينة، وقد تكون محرفة عن (برذيش) وهى من مدن قرمونية بالأندلس. وقرمونية كورة يتصل عملها بأعمال إشبيلية غربى قرطبة

وَحقَّقَ ٱلْأَمْرَ ٱلشَّرِيفُ ، وَهُوَ أَعْرَفُ بِتِلْكَ ٱلْجِهَةِ لِتَرَدُّدِهِ فِي ٱلْأَسْفَارِ بَرًّا وَبَحْرًا إِلَيْهَا وَتَفَرُّغِهِ لِهَذَا ٱلْفَنِّ .

« قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ » : وَسَأَلْتُ جَمَاعَةً مِنْ عُلَمَاءِ هَـذَا ٱلشَّأْنِ فَأَخْبَرُونِي أَنَّ ٱلصَّحِيحَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ٱلشَّرِيفُ ، وَأَنَّ أَرْبُونَةَ وَبَرْشِلُونَةَ غَيْرُ دَاخِلَتَيْنِ فِي أَرْضِ ٱلْأَنْدَلُسِ ، وَأَنَّ ٱلرُّكْنَ ٱلْمُوفِيَ[1] عَلَى بَحْرِ ٱلزُّقَاقِ بِالْمَشْرِقِ بَيْنَ بَرْشِلُونَةَ وَطَرَّكُونَةَ فِي مَوْضِعٍ يُعْرَفُ بِوَادِي زَنْلَقْطُو ، وَهُنَالِكَ ٱلْحَاجِزُ ٱلَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْكَبِيرَةِ ذَاتِ ٱلْأَلْسُنِ ٱلْكَثِيرَةِ ، وَفِي هَـذَا ٱلْمَكَانِ جَبَلُ ٱلْبِرْتِ ٱلْفَاصِلِ فِي ٱلْحَاجِزِ ٱلْمَذْكُورِ ، وَفِيهِ ٱلْأَبْوَابُ ٱلَّتِي فَتَحَهَا مَلِكُ ٱلْيُونَانِيِّينَ بِالْحَدِيدِ وَٱلنَّارِ وَٱلْخَلِّ ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْأَنْدَلُسِ مِنَ ٱلْأَرْضِ ٱلْكَبِيرَةِ قَبْلَ ذَلِكَ طَرِيقٌ فِي ٱلْبَرِّ . وَذَكَرَ ٱلشَّرِيفُ أَنَّ هَـذِهِ ٱلْأَبْوَابَ يَقَعُ فِي مُقَابَلَتِهَا فِي بَحْرِ ٱلزُّقَاقِ ٱلْبَحْرُ ٱلَّذِي بَيْنَ جَزِيرَتَيْ مَيُورْقَةَ وَمَنُورْقَةَ . وَقَدْ أَخْبَرَ بِذَلِكَ جُمْهُورُ ٱلْمُسَافِرِينَ لِتِلْكَ ٱلنَّاحِيَةِ. وَمَسَافَةُ هَذَا ٱلْجَبَلِ ٱلْحَاجِزِ بَيْنَ ٱلرُّكْنِ ٱلْجَنُوبِيِّ وَٱلرُّكْنِ

(١) الموفى : المشرف

الشِّمالِيِّ أَرْبَعُونَ مِيلًا . قَالَ : وَشَمَالُ الرُّكْنِ الْمَذْكُورِ عِنْدَ مَدِينَةِ بَرْدِيلَ ، وَهِيَ مِنْ مُدُنِ الْإِفْرَنْجَةِ مُطِلَّةٌ عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي شَمَالِ الْأَنْدَلُسِ . قَالَ : وَيَتَقَهْقَرُ الْبَرُّ بَعْدَ تَمَيُّزِ هَذَا الرُّكْنِ إِلَى الشِّمالِ فِي بِلَادِ الْفِرَنْجَةِ ، وَلَهُمْ بِهِ جَزَائِرُ كَثِيرَةٌ،«وَدُوكْرا[١]»مِنَ الرُّكْنِ الشَّمالِيِّ عِنْدَ «شَنْتِ يَاقُوه[١]» مِنْ سَاحِلِ الْجَلَالِقَةِ فِي شَمَالِ الْأَنْدَلُسِ حَيْثُ تَبْتَدِئُ جَزِيرَةُ بِرِطَانِيَةَ الْكَبِيرَةُ فَيَتَصَوَّرُ هُنَالِكَ بَحْرٌ دَاخِلٌ بَيْنَ أَرْضَيْنِ . مِنَ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُهُ بَحْرًا مُفْرَدًا خَارِجًا عَنِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ لِطُولِهِ إِلَى الرُّكْنِ الْمُتَقَدِّمِ الذِّكْرِ عِنْدَ مَدِينَةِ بَرْدِيلَ .

« وَذَكَرَ الشَّرِيفُ » : أَنَّ عِنْدَ «شَنْتِ يَاقُوه[١]»فِي هَذَا الرُّكْنِ الْمَذْكُورِ عَلَى جَبَلٍ بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ صَنَمًا مُطِلًّا مُشَبَّهًا بِصَنَمِ قَادِسَ ، وَالرُّكْنُ الثَّالِثُ بِعَقْرَبَةٍ مِنْ جَبَلِ الْأَغَرِّ حَيْثُ صَنَمُ قَادِسَ ، وَالْجَبَلُ الْمَذْكُورُ يَدْخُلُ مِنْ غَرْبِهِ مَعَ جَنُوبِهِ بَحْرُ الزُّقَاقِ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مَارًّا مَعَ

(١) ينظر هذه الأسماء والا فالمعروف أن (دورقة) مدينة من بطن سرقسطة و (شنت ياقب) قلعة حصينة بالأندلس

سَاحِلِ الْأَنْدَلُسِ الْجَنُوبِيِّ إِلَى جَبَلِ الْبِرْتِ الْمَذْكُورِ. انْتَهَى.

وَالْكَلَامُ فِي مِثْلِ هٰذَا طَوِيلُ الذَّيْلِ

***

وصف اقليم الأندلس

« قَالَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُوسَى الرَّازِيُّ » : بَلَدُ الْأَنْدَلُسِ هُوَ آخِرُ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَهُوَ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ بَلَدٌ كَرِيمُ الْبُقْعَةِ، طَيِّبُ التُّرْبَةِ، خِصْبُ الْجَنَابِ، مُنْبَجِسُ[1] الْأَنْهَارِ الْغِزَارِ وَالْعُيُونِ الْعِذَابِ، قَلِيلُ الْهَوَامِّ ذَوَاتِ السُّمُومِ، مُعْتَدِلُ الْهَوَاءِ وَالْجَوِّ وَالنَّسِيمِ، رَبِيعُهُ وَخَرِيفُهُ وَمَشْتَاهُ وَمَصِيفُهُ عَلَى قَدَرٍ مِنَ الِاعْتِدَالِ، وَسِطَةٍ[2] مِنَ الْحَالِ، لَا يَتَوَلَّدُ فِي أَحَدِهَا فَصْلٌ يَتَوَلَّدُ مِنْهُ فِيمَا يَتْلُوهُ انْتِقَاصٌ، تَتَّصِلُ فَوَاكِهُهُ أَكْثَرَ الْأَزْمِنَةِ، وَتَدُومُ مُتَلَاحِقَةً غَيْرَ مَفْقُودَةٍ. أَمَّا السَّاحِلُ مِنْهُ وَنَوَاحِيهِ فَيُبَادِرُ بِبَاكُورِهِ[3]، وَأَمَّا الثَّغْرُ وَجِهَاتُهُ، وَالْجِبَالُ الْمَخْصُوصَةُ بِبَرْدِ الْهَوَاءِ فَيَتَأَخَّرُ بِالْكَثِيرِ مِنْ ثَمَرِهِ، فَمَادَّةُ الْخَيْرَاتِ بِالْبَلَدِ مُتَمَادِيَةٌ فِي كُلِّ الْأَحْيَانِ، وَفَوَاكِهُهُ عَلَى الْجُمْلَةِ

(١) منبجس الأنهار : متفجر الأنهار (٢) سطة : مصدر كالوسط بمعنى الاعتدال (٣) الباكور : المعجل المجيء والادراك من كل شيء

غَيْرُ مَعْدُومَةٍ فِي كُلِّ أَوَانٍ ، وَلَهُ خَوَاصٌّ فِي كَرَمِ ٱلنَّبَاتِ
تُوَافِقُ فِي بَعْضِهَا أَرْضَ ٱلْهِنْدِ ٱلْمَخْصُوصَةَ بِكَرَمِ ٱلنَّبَاتِ
وَجَوَاهِرِهِ ، مِنْهَا أَنَّ ٱلْمَحْلَبَ وَهُوَ ٱلْمُقَدَّمُ فِي ٱلْأَفَاوِيهِ[١] ،
وَٱلْمُفَضَّلُ فِي أَنْوَاعِ ٱلْأُشْنَانِ[٢] لَا يَنْبُتُ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْأَرْضِ
إِلَّا بِالْهِنْدِ وَٱلْأَنْدَلُسِ . وَلِلْأَنْدَلُسِ ٱلْمُدُنُ ٱلْحَصِينَةُ ،
وَٱلْمَعَاقِلُ ٱلْمَنِيعَةُ ، وَٱلْقِلَاعُ ٱلْحَرِيزَةُ ، وَٱلْمَصَانِعُ ٱلْجَلِيلَةُ ،
وَلَهَا ٱلْبَرُّ وَٱلْبَحْرُ ، وَٱلسَّهْلُ وَٱلْوَعْرُ ، وَشَكْلُهَا مُثَلَّثٌ ،
وَهِيَ مُعْتَمِدَةٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَرْكَانٍ : ٱلْأَوَّلُ هُوَ ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي
فِيهِ صَنَمُ قَادِسَ ٱلْمَشْهُورُ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَمِنْهُ مَخْرَجُ ٱلْبَحْرِ
ٱلْمُتَوَسِّطِ ٱلشَّامِيِّ ٱلْآخِذِ بِقِبْلِيِّ ٱلْأَنْدَلُسِ ، وَٱلرُّكْنُ
ٱلثَّانِي هُوَ بِشَرْقِيِّ ٱلْأَنْدَلُسِ بَيْنَ مَدِينَةِ بَرْبُونَةَ[٣] وَمَدِينَةِ
بَرْدِيلَ ، مِمَّا بِأَيْدِي ٱلْفِرَنْجَةِ ٱلْيَوْمَ بِإِزَاءِ جَزِيرَتَيْ مَيُورْقَةَ
وَمَنُورْقَةَ ، بِمُجَاوَرَةٍ مِنَ ٱلْبَحْرَيْنِ : ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ

(١) أى التوابل التى تدخل فى طهى الطعام لاصلاحه كالفلفل والدارصينى والقرفة والزنجبيل والدار فلفل (٢) الأشنان : الحرض ومنه العصفر الذى يصبغ به (٣) لعلها أربونة

وَالْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ، وَبَيْنَهُمَا الْبَرُّ الَّذِي يُعْرَفُ بِالْأَبْوَابِ، وَهُوَ الْمَدْخَلُ إِلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ عَلَى بَلَدِ إِفْرَنْجَةَ، وَمَسَافَتُهُ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ مَسِيرَةُ يَوْمَيْنِ، وَمَدِينَةُ بَرْبُونَةَ تُقَابِلُ الْبَحْرَ الْمُحِيطَ. وَالرُّكْنُ الثَّالِثُ مِنْهَا هُوَ مَا بَيْنَ الْجُوفِ[1] وَالْغَرْبِ مِنْ حَيِّزِ جِلِّيقِيَّةَ حَيْثُ الْجَبَلُ الْمُوفِي عَلَى الْبَحْرِ، وَفِيهَا الصَّنَمُ الْعَالِي الْمُشَبَّهُ بِصَنَمِ قَادِسَ، وَهُوَ الطَّالِعُ عَلَى بَلَدِ بِرِطَانِيَةَ. قَالَ: وَالْأَنْدَلُسُ أَنْدَلُسَانِ فِي اخْتِلَافِ هُبُوبِ أَرْيَاحِهَا وَمَوَاقِعِ أَمْطَارِهَا، وَجَرَيَانِ أَنْهَارِهَا: أَنْدَلُسٌ غَرْبِيٌّ، وَأَنْدَلُسٌ شَرْقِيٌّ، فَالْغَرْبِيُّ مِنْهُمَا مَا جَرَتْ أَوْدِيَتُهُ إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ الْغَرْبِيِّ، وَتُمْطِرُ بِالرِّيَاحِ الْغَرْبِيَّةِ، وَمُبْتَدَأُ هٰذَا الْحَوْزِ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ مَعَ الْمَفَازَةِ الْخَارِجَةِ مَعَ الْجَوْفِ إِلَى بَلَدِ شَنْتَمَرِيَّةَ[2] طَالِعًا إِلَى حَوْزِ أَغْرِيطَةَ الْمُجَاوِرَةِ لِطُلَيْطِلَةَ، مَائِلًا إِلَى الْغَرْبِ، وَمُجَاوِرًا

---

(١) الجوف: المطمئن من الأرض، والجوف أيضا أرض مطمئنة أو خارجة فى البحر فى غربى الأندلس مشرفة على البحر المحيط ـ والجوف أيضا من اقليم «أكشونية» من الأندلس يفصل عملها بعمل أشبونة غربى قرطبة، (٢) شنت مرية: حصن من أعمال «شنت برية» المتصلة بحوز مدينة سالم شرقى قرطبة

لِلْبَحْرِ ٱلْمُتَوَسِّطِ ٱلْمُوَازِي لِقَرْطَاجَنَّةَ ٱلْحلفَا(١)، ٱلَّتِي مِنْ بَلَدِ لُورَقَةَ ، وَٱلْحَوْزُ ٱلشَّرْقِيُّ ٱلْمَعْرُوفُ بِالْأَنْدَلُسِ ٱلْأَقْصَى ، وَتَجْرِي أَوْدِيَتُهُ إِلَى ٱلشَّرْقِ ، وَأَمْطَارُهُ بِالرِّيحِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ، وَهُوَ مِنْ حَدِّ جَبَلِ ٱلْبَشْكَنْشِ هَابِطًا مَعَ وَادِي «إِبرة» إِلَى بَلَدِ شَنْتَمَرِيَّةَ ، وَمِنْ جَوْفِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ وَغَرْبِهِ ٱلْمُحِيطُ ، وَفِي ٱلْقِبْلَةِ مِنْهُ ٱلْبَحْرُ ٱلْغَرْبِيُّ ٱلَّذِي مِنْهُ يَجْرِي ٱلْبَحْرُ ٱلْمُتَوَسِّطُ ٱلْخَارِجُ إِلَى بَلَدِ ٱلشَّامِ ، وَهُوَ ٱلْبَحْرُ ٱلْمُسَمَّى بِبَحْرِ تِيرَانَ ، وَمَعْنَاهُ ٱلَّذِي يَشُقُّ دَائِرَةَ ٱلْأَرْضِ ، وَيُسَمَّى ٱلْبَحْرَ ٱلْكَبِيرَ . انْتَهَى .

***

تقسيم الأندلس

قَالَ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ عَبْدِ ٱلْحَكَمِ ٱلْمَعْرُوفُ بِابْنِ ٱلنَّظَّامِ : بَلَدُ ٱلْأَنْدَلُسِ عِنْدَ عُلَمَاءِ أَهْلِهِ أَنْدَلُسَانِ : فَٱلْأَنْدَلُسُ ٱلشَّرْقِيُّ مِنْهُ مَا صَبَّتْ أَوْدِيَتُهُ إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ ٱلْمُتَوَسِّطِ ٱلْمُتَصَاعِدِ مِنْ أَسْفَلِ أَرْضِ ٱلْأَنْدَلُسِ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ ، وَذٰلِكَ مَا بَيْنَ مَدِينَةِ تُدْمِيرَ إِلَى سَرَقُسْطَةَ ، وَٱلْأَنْدَلُسُ ٱلْغَرْبِيُّ مَا صَبَّتْ أَوْدِيَتُهُ إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْكَبِيرِ ٱلْمَعْرُوفِ

(١) أظنها محرفة عن « قرطاجنة الحلفاء » قرية قريبة من آليش من أعمال تدمير ــ قال ياقوت : وقد خربت لأن ماء البحر استولى على أكثرها فبقي منها طائفة وبها الى الآن قوم ، وكانت عملت على مثال قرطاجنة التي بافريقية، و «تدمير» كورة شرقي قرطبة، ولورقة، أو لرقة مدينة من أعمال تدمير أيضا

بِالْمُحِيطِ أَسْفَلَ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْحَدِّ إِلَى سَاحِلِ ٱلْمَغْرِب ، فَالشَّرْقِيُّ مِنْهُمَا يُمْطَرُ بِالرِّيحِ ٱلشَّرْقِيَّةِ وَيَصْلُحُ عَلَيْهَا ، وَٱلْغَرْبِيُّ يُمْطَرُ بِالرِّيحِ ٱلْغَرْبِيَّةِ ، وَبِهَا صَلَاحُهُ ، وَجِبَالُهُ هَابِطَةٌ إِلَى ٱلْغَرْبِ جَبَلًا بَعْدَ جَبَلٍ ، وَإِنَّمَا قَسَّمَتْهُ ٱلْأَوَائِلُ جُزْءَيْنِ لِاخْتِلَافِهِمَا فِي حَالِ أَمْطَارِهِمَا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ مَهْمَا ٱسْتَحْكَمَتِ ٱلرِّيحُ ٱلْغَرْبِيَّةُ ، كَثُرَ مَطَرُ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلْغَرْبِيِّ ، وَقَحِطَ[1] ٱلْأَنْدَلُسُ ٱلشَّرْقِيُّ ، وَمَتَى ٱسْتَحْكَمَتِ ٱلرِّيحُ ٱلشَّرْقِيَّةُ ، كَثُرَ مَطَرُ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلشَّرْقِيِّ ، وَقَحِطَ ٱلْغَرْبِيُّ ، وَأَوْدِيَةُ هٰذَا ٱلْقِسْمِ تَجْرِي مِنَ ٱلشَّرْقِ إِلَى ٱلْغَرْبِ بَيْنَ هٰذِهِ ٱلْجِبَالِ .

وَجِبَالُ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلْغَرْبِيِّ تَمْتَدُّ إِلَى ٱلشَّرْقِ جَبَلًا بَعْدَ جَبَلٍ تَقْطَعُ مِنَ ٱلْجَوْفِ إِلَى ٱلْقِبْلَةِ ، وَٱلْأَوْدِيَةُ ٱلَّتِي تَخْرُجُ مِنْ تِلْكَ ٱلْجِبَالِ يَقْطَعُ بَعْضُهَا إِلَى ٱلْقِبْلَةِ وَبَعْضُهَا إِلَى ٱلشَّرْقِ ، وَتَنْصَبُّ كُلُّهَا إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ بِالْأَنْدَلُسِ ٱلْقَاطِعِ إِلَى ٱلشَّامِ ، وَهُوَ ٱلْبَحْرُ الرُّومِيُّ ، وَمَا كَانَ مِنْ بِلَادِ جَوْفِي ٱلْأَنْدَلُسِ مِنْ بِلَادِ جِلِّيقِيَّةَ وَمَا يَلِيهَا ، فَإِنَّ أَوْدِيَتَهُ تَنْصَبُّ إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْكَبِيرِ ٱلْمُحِيطِ بِنَاحِيَةِ ٱلْجَوْفِ .

(١) قحط : أصابه القحط والجدب من احتباس المطر

***

شكل الأندلس

« وَصِفَةُ الْأَنْدَلُسِ » شَكْلٌ مُرَكَّنٌ[1] عَلَى مِثَالِ الشَّكْلِ الْمُثَلَّثِ ، رُكْنُهَا الْوَاحِدُ فِيمَا بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالْمَغْرِبِ ، حَيْثُ اجْتِمَاعُ الْبَحْرَيْنِ عِنْدَ صَنَمِ قَادِسَ[2] ، وَرُكْنُهَا الثَّانِي فِي بَلْدَةِ جِلِّيقِيَّةَ ، حَيْثُ الصَّنَمُ الْمُشْبِهُ صَنَمَ قَادِسَ مُقَابِلَ جَزِيرَةِ بِرِطَانِيَةَ ، وَرُكْنُهَا الثَّالِثُ بَيْنَ مَدِينَةِ بَرْبُونَةَ وَمَدِينَةِ بَرْدِيلَ مِنْ بَلَدِ الْفِرَنْجَةِ ، بِحَيْثُ يَقْرُبُ الْبَحْرُ الْمُحِيطُ مِنَ الْبَحْرِ الشَّامِيِّ الْمُتَوَسِّطِ ، فَيَكَادَانِ يَجْتَمِعَانِ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ ، فَيَصِيرُ بَلَدُ الْأَنْدَلُسِ جَزِيرَةً بَيْنَهُمَا فِي الْحَقِيقَةِ ، لَوْلَا أَنَّهُ يَبْقَى بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ[3] بَرِّيَّةٌ صَحْرَاءُ وَعِمَارَةٌ مَسَافَةَ مَسِيرَةِ يَوْمٍ لِلرَّاكِبِ ، مِنْهُ الْمَدْخَلُ إِلَى الْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا الْأَبْوَابُ ، وَمِنْ قِبَلِهِ[4] يَتَّصِلُ بَلَدُ الْأَنْدَلُسِ بِتِلْكَ الْبِلَادِ الْمَعْرُوفَةِ بِالْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ ذَاتِ الْأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَةِ . قَالَ : وَأَوَّلُ مَنْ سَكَنَ بِالْأَنْدَلُسِ عَلَى قَدِيمِ

(١) مركن : أى ذو أركان (٢) قادس : جزيرة فى غربى الأندلس قريبة من البر بينها وبين البر الأعظم خليج صغير قد حازها إلى البحر عن البر (٣) البرزخ : جزء ضيق من الأرض يوصل بلدين ويقع بين بحرين (٤) قبله : جهته

ٱلْأَيَّامِ فِيمَا نَقَلَهُ ٱلْأَخْبَارِيُّونَ مِنْ بَعْدِ عَهْدِ ٱلطُّوفَانِ عَلَى مَا يَذْكُرُهُ عُلَمَاءُ عَجَمِهَا قَوْمٌ يُعْرَفُونَ بِالْأَنْدَلُشِ مُعْجَمَةَ ٱلشِّينِ ، بِهِمْ سُمِّيَ ٱلْمَكَانُ ، فَعُرِّبَ فِيمَا بَعْدُ بِالسِّينِ غَيْرِ ٱلْمُعْجَمَةِ ، كَانُوا ٱلَّذِينَ عَمَرُوهَا وَتَنَاسَلُوا فِيهَا ، وَتَدَاوَلُوا مُلْكَهَا دَهْرًا عَلَى دِينِ ٱلتَّمَجُّسِ[1] وَٱلْإِهْمَالِ وَٱلْإِفْسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ ، ثُمَّ أَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ فَحَبَسَ ٱلْمَطَرَ عَنْهُمْ ، وَوَالَى ٱلْقَحْطَ عَلَيْهِمْ ، وَأَعْطَشَ بِلَادَهُمْ حَتَّى نَضَبَتْ مِيَاهُهَا ، وَغَارَتْ عُيُونُهَا ، وَيَبِسَتْ أَنْهَارُهَا ، وَبَادَتْ أَشْجَارُهَا فَهَلَكَ أَكْثَرُهُمْ ، وَفَرَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى ٱلْفِرَارِ مِنْهُمْ ، فَأَقْفَرَتِ ٱلْأَنْدَلُسُ مِنْهُمْ ، وَبَقِيَتْ خَالِيَةً فِيمَا يَزْعُمُونَ مِائَةَ سَنَةٍ وَبِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَذَلِكَ مِنْ حَدِّ بَلَدِ ٱلْفِرَنْجَةِ إِلَى حَدِّ بَحْرِ ٱلْغَرْبِ ٱلْأَخْضَرِ ، وَكَانَ عِدَّةُ مَا عَمَرَتْهَا هَذِهِ ٱلْأُمَّةُ ٱلْبَائِدَةُ مِائَةَ عَامٍ وَبِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً ، ثُمَّ ٱبْتَعَثَ ٱللَّهُ لِعِمَارَتِهَا ٱلْأَفَارِقَةَ ، فَدَخَلَ إِلَيْهَا بَعْدَ إِقْفَارِهَا تِلْكَ ٱلْمُدَّةَ ٱلطَّوِيلَةَ قَوْمٌ مِنْهُمْ أَجْلَاهُمْ مَلِكُ إِفْرِيقِيَّةَ تَخَفُّفًا مِنْهُمْ لِإِمْحَالٍ[2]

(١) التمجس : الدخول فى دين المجوس (٢) الامحال : الجدب والقحط

تَوَالَى عَلَى أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ وَتَرَدَّدَ عَلَيْهِمْ حَتَّى كَادَ يُفْنِيهِمْ، فَحَمَلَ مِنْهُمْ خَلْقاً فِي ٱلسُّفُنِ مَعَ قَائِدٍ مِنْ قِبَلِهِ يُدْعَى أَبْطَرِيقسْ، فَأَرْسَوْا بِرِيفِ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلْغَرْبِيِّ، وَٱحْتَلُّوا بِجَزِيرَةِ قَادِسَ، فَأَصَابُوا ٱلْأَنْدَلُسَ قَدْ أُمْطِرَتْ، وَأَخْصَبَتْ فَجَرَتْ أَنْهَارُهَا، وَٱنْفَجَرَتْ عُيُونُهَا، وَحَيِيَتْ أَشْجَارُهَا، فَنَزَلُوا ٱلْأَنْدَلُسَ مُغْتَبِطِينَ، وَسَكَنُوهَا مُعْتَمِرِينَ، وَتَوَالَدُوا فِيهَا فَكَثُرُوا، وَٱسْتَوْسَعُوا فِي عِمَارَةِ ٱلْأَرْضِ مَا بَيْنَ ٱلسَّاحِلِ ٱلَّذِي أَرْسَوْا فِيهِ بِغَرْبِيِّهَا إِلَى بَلَدِ ٱلْإِفْرَنْجَةِ مِنْ شَرْقِيِّهَا، وَنَصَبُوا[1] مِنْ أَنْفُسِهِمْ مُلُوكاً عَلَيْهِمْ، ضَبَطُوا أَمْرَهُمْ، وَتَوَالَوْا[2] عَلَى إِقَامَةِ دَوْلَتِهِمْ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ عَلَى دِيَانَةِ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَتْ دَارُ مَمْلَكَتِهِمْ طَالِقَةَ ٱلْخَرَابُ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَرْضِ إِشْبِيلِيَةَ، ٱخْتَرَعَهَا مُلُوكُهُمْ وَسَكَنُوهَا، فَٱتَّسَقَ مُلْكُهُمْ بِٱلْأَنْدَلُسِ مِائَةً وَسَبْعَةً وَخَمْسِينَ عَامًا، إِلَى أَنْ أَهْلَكَهُمُ ٱللهُ تَعَالَى

(١) نصبوا : ولوا (٢) توالوا : تتابعوا

وَنَسَخَهُمْ[1] بِعَجَمِ رُومَةَ بَعْدَ أَنْ مَلَكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَفَارِقَةِ فِي مُدَّتِهِمْ تِلْكَ أَحَدَ عَشَرَ مَلِكاً ، ثُمَّ صَارَ مُلْكُ الْأَنْدَلُسِ بَعْدَهُمْ إِلَى عَجَمِ رُومَةَ ، وَمَلِكُهُمْ إِشْبَانُ بْنُ طِيطَسَ وَبِاسْمِهِ سُمِّيَتْ الْأَنْدَلُسُ إِشْبَانِيَةَ . وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ اسْمَهُ أَصْبَهَانُ فَأُحِيلَ بِلِسَانِ الْعَجَمِ وَقِيلَ : بَلْ كَانَ مَوْلِدُهُ بِأَصْبَهَانَ فَغَلَبَ اسْمُهَا عَلَيْهِ ، وَهُوَ الَّذِي بَنَى إِشْبِيلِيَةَ ، وَكَانَ أَشْبَانِيَةُ اسْمًا خَالِصًا لِبَلَدِ إِشْبِيلِيَةَ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُهُ إِشْبَانُ هَذَا ، ثُمَّ غَلَبَ الِاسْمُ بَعْدَهُ عَلَى الْأَنْدَلُسِ كُلِّهِ ، فَالْعَجَمُ الْآنَ يُسَمُّونَهُ إِشْبَانِيَةِ لِآثَارِ إِشْبَانَ هَذَا فِيهِ . وَكَانَ أَحَدَ الْمُلُوكِ الَّذِينَ مَلَكُوا أَقْطَارَ الدُّنْيَا فِيمَا زَعَمُوا ، وَكَانَ غَزَا الْأَفَارِقَةَ عِنْدَ مَا سَلَّطَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ فِي جُمُوعِهِ ، فَفَضَّ عَسَاكِرَهُمْ ، وَأَثْخَنَ[2] فِيهِمْ ، وَنَزَلَ عَلَيْهِمْ بِقَاعِدَتِهِمْ طَالِقَةَ وَقَدْ تَحَصَّنُوا فِيهَا مِنْهُ ، فَابْتَنَى عَلَيْهِمْ مَدِينَةَ

(١) نسخهم : أزالهم واستبدل بهم غيرهم (٢) أثخن فيهم : بالغ فى قتلهم

إشْبِيلِيَةَ ٱلْيَوْمَ ، وَٱتَّصَلَ حَصْرُهُ وَقِتَالُهُ لَهُمْ حَتَّى فَتَحَهَا ٱللهُ عَلَيْهِ وَغَلَبَهُمْ ، وَٱسْتَوَتْ لَهُ مَمْلَكَةُ ٱلْأَنْدَلُسِ بِأَسْرِهَا ، وَدَانَ لَهُ مَنْ فِيهَا ، فَهَدَّمَ مَدِينَةَ طَالِقَةَ وَنَقَلَ رُخَامَهَا وَآلَاتِهَا إِلَى مَدِينَةِ إِشْبِيلِيَةَ ، فَاسْتَتَمَّ بِنَاءَهَا وَٱتَّخَذَهَا دَارَ مَمْلَكَتِهِ وَٱسْتَغْلَظَ[١] سُلْطَانُهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَكَثُرَتْ جُمُوعُهُ ، فَعَلَا وَعَظُمَ عُتُوُّهُ[٢] ، ثُمَّ غَزَا إِيلِيَا وَهِيَ ٱلْقُدْسُ ٱلشَّرِيفُ مِنْ إِشْبِيلِيَةَ بَعْدَ سَنَتَيْنِ مِنْ مُلْكِهِ ، خَرَجَ إِلَيْهَا فِي ٱلسُّفُنِ فَغَنِمَهَا وَهَدَمَهَا ، وَقَتَلَ فِيهَا مِنَ ٱلْيَهُودِ مِائَةَ أَلْفٍ ، وَٱسْتَرَقَّ مِائَةَ أَلْفٍ ، وَنَقَلَ رُخَامَ إِيلِيَا وَآلَاتِهَا إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ ، وَقَهَرَ ٱلْأَعْدَاءَ وَٱشْتَدَّ سُلْطَانُهُ .

***

غرائب الأندلس

«وَذَكَرَ بَعْضُ ٱلْمُؤَرِّخِينَ » : أَنَّ ٱلْغَرَائِبَ ٱلَّتِي أُصِيبَتْ[٣] فِي مَغَانِمِ ٱلْأَنْدَلُسِ أَيَّامَ فَتْحِهَا[٤] كَمَائِدَةِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ، ٱلَّتِي أَلْفَاهَا طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ بِكَنِيسَةِ طُلَيْطِلَةَ ، وَقُلَيْلَةِ[٥] ٱلدُّرِّ ٱلَّتِي أَلْفَاهَا مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ بِكَنِيسَةِ

(١) أى قوى وعظم (٢) العتو : الاستكبار وتجاوز الحد (٣) أصيبت : أخذت ووجدت (٤) أى الفتح الاسلامى لها (٥) تصغير قلة

مَارِدَةَ وَغَيْرِهِمَا مِنْ طَرَائِفِ ٱلذَّخَائِرِ إِنَّمَا كَانَتْ مِمَّا صَارَ لِصَاحِبِ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنْ غَنِيمَةِ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ ، إِذْ حَضَرَ فَتْحَهَا مَعَ بُخْتَنَصَّرَ ، وَكَانَ ٱسْمُ ذٰلِكَ ٱلْمَلِكِ بِرْيَانَ ، وَفِي سَهْمِهِ وَقَعَ ذٰلِكَ وَمِثْلُهُ مِمَّا كَانَتْ ٱلْجِنُّ تَأْتِي بِهِ نَبِيَّ ٱللهِ سُلَيْمَانَ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ وَعَلَى جَمِيعِ ٱلْأَنْبِيَاءِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ . انْتَهَى .

***

اجتياز الاسكندر بالأندلس

« وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْمُؤَرِّخِينَ » : كَانَ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى يُضِرُّونَ بِأَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ لِاتِّصَالِ ٱلْأَرْضِ ، وَيَلْقَوْنَ مِنْهُمُ ٱلْجَهْدَ ٱلْجَهِيدَ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، إِلَى أَنِ ٱجْتَازَ بِهِمْ ٱلْإِسْكَنْدَرُ ، فَشَكَوْا حَالَهُمْ إِلَيْهِ ، فَأَحْضَرَ ٱلْمُهَنْدِسِينَ ، وَحَضَرَ إِلَى ٱلزُّقَاقِ ، فَأَمَرَ ٱلْمُهَنْدِسِينَ بِوَزْنِ سَطْحِ ٱلْمَاءِ مِنَ ٱلْمُحِيطِ وَٱلْبَحْرِ ٱلشَّامِيِّ[1] ، فَوَجَدُوا ٱلْمُحِيطَ يَعْلُو ٱلْبَحْرَ ٱلشَّامِيَّ بِشَيْءٍ يَسِيرٍ ، فَأَمَرَ بِرَفْعِ ٱلْبِلَادِ ٱلَّتِي عَلَى سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ ٱلشَّامِيِّ وَنَقْلِهَا مِنَ ٱلْحَضِيضِ إِلَى ٱلْأَعْلَى ، ثُمَّ أَمَرَ

(١) البحر الأبيض المتوسط

بِحَفْرِ مَا بَيْنَ طَنْجَةَ وَبِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنَ ٱلْأَرْضِ ، فَحُفِرَتْ حَتَّى ظَهَرَتِ ٱلْجِبَالُ ٱلسُّفْلِيَّةُ ، وَبَنَى عَلَيْهَا رَصِيفًا بِالْحَجَرِ وَٱلْجَيَّارِ[1] بِنَاءً مُحْكَمًا ، وَجَعَلَ طُولَهُ ٱثْنَي عَشَرَ مِيلًا ، وَهِيَ ٱلْمَسَافَةُ ٱلَّتِي كَانَتْ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ ، وَبَنَى رَصِيفًا آخَرَ يُقَابِلُهُ مِنْ نَاحِيَةِ طَنْجَةَ . وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلرَّصِيفَيْنِ سَعَةَ سِتَّةِ أَمْيَالٍ ، فَلَمَّا كَمَلَ ٱلرَّصِيفَانِ حَفَرَ مِنْ جِهَةِ ٱلْبَحْرِ ٱلْأَعْظَمِ وَأَطْلَقَ فَمَ ٱلْمَاءِ بَيْنَ ٱلرَّصِيفَيْنِ فَدَخَلَ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلشَّامِيِّ ، ثُمَّ فَاضَ مَاؤُهُ فَأَغْرَقَ مُدُنًا كَثِيرَةً ، وَأَهْلَكَ أُمَمًا عَظِيمَةً كَانَتْ عَلَى ٱلشَّطَّيْنِ ، وَطَفَا[2] ٱلْمَاءُ عَلَى ٱلرَّصِيفَيْنِ إِحْدَى عَشْرَةَ قَامَةً . فَأَمَّا ٱلرَّصِيفُ ٱلَّذِي يَلِي بِلَادَ ٱلْأَنْدَلُسِ فَإِنَّهُ يَظْهَرُ فِي بَعْضِ ٱلْأَوْقَاتِ إِذَا نَقَصَ ٱلْمَاءُ ظُهُورًا بَيِّنًا مُسْتَقِيمًا عَلَى خَطٍّ وَاحِدٍ ، وَأَهْلُ ٱلْجَزِيرَتَيْنِ يُسَمُّونَهُ ٱلْقَنْطَرَةَ . وَأَمَّا ٱلرَّصِيفُ ٱلَّذِي مِنْ جِهَةِ ٱلْعُدْوَةِ فَإِنَّ ٱلْمَاءَ حَمَلَهُ فِي صَدْرِهِ ، وَٱحْتَفَرَ مَا خَلْفَهُ مِنَ ٱلْأَرْضِ ٱثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا ، وَعَلَى

---

(١) الجيار : الجص اذا خلط بالنورة (٢) طفا الماء : علا، وقد تكون طغى

طَرَفِهِ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ قَصْرُ الْجَوَازِ وَسَبْتَةُ، وَطَنْجَةُ، وَعَلَى طَرَفِهِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى جَبَلُ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ، وَجَزِيرَةُ طَرِيفٍ، وَغَيْرُهُمَا، وَالْجَزِيرَةُ الْخَضْرَاءُ، وَبَيْنَ سَبْتَةَ وَالْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ عَرْضُ الْبَحْرِ. انْتَهَى مُلَخَّصًا. وَقَدْ تَكَرَّرَ بَعْضُهُ مَعَ مَا جَلَبْنَاهُ وَالْعُذْرُ بَيِّنٌ لِارْتِبَاطِ الْكَلَامِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ.

« وَقَالَ ابْنُ سَعِيدٍ »: ذَكَرَ الشَّرِيفُ أَنْ لَا حَظَّ لِأَرْضِ الْأَنْدَلُسِ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ، قَالَ: وَيَمُرُّ بِجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ الْإِقْلِيمُ الرَّابِعُ عَلَى سَاحِلِهَا الْجَنُوبِيِّ وَمَا قَارَبَهُ مِنْ قُرْطُبَةَ وَإِشْبِيلِيَةَ، وَمُرْسِيَةَ، وَبَلَنْسِيَةَ، ثُمَّ يَمُرُّ عَلَى جَزِيرَةِ صِقِلِّيَةَ وَعَلَى مَا فِي سَمْتِهَا[1] مِنَ الْجَزَائِرِ، وَالشَّمْسُ مُدَبِّرَةٌ لَهُ. وَالْإِقْلِيمُ الْخَامِسُ يَمُرُّ عَلَى طُلَيْطِلَةَ، وَسَرَقُسْطَةَ، وَمَا فِي سَمْتِهِمَا إِلَى بِلَادِ أَرْغُونَ الَّتِي فِي جَنُوبِيِّهَا بَرْشِلُونَةُ، ثُمَّ يَمُرُّ عَلَى رُومِيَةَ وَبِلَادِهَا وَيَشُقُّ بَحْرَ الْبَنَادِقَةِ، ثُمَّ يَمُرُّ عَلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَمُدَبِّرَتُهُ الزُّهْرَةُ. وَالسَّادِسُ يَمُرُّ عَلَى سَاحِلِ الْأَنْدَلُسِ الشَّمَالِيِّ الَّذِي عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَمَا قَارَبَهُ وَبَعْضِ الْبِلَادِ

(١) سمتها: طريقها

الدَّاخِلَةِ فِي قَشْتَالَةَ وَبُرْتقَالَ وَمَا فِي سَمْتِهَا[١]، وَعَلَى بِلَادِ بُرْجَانَ[٢] وَالصَّقَالِبَةِ وَالرُّوسِ، وَمُدَبِّرُهُ عُطَارِدُ. وَيَمُرُّ الْإِقْلِيمُ السَّابِعُ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ الَّذِي فِي شَمَالِيِّ الْأَنْدَلُسِ إِلَى جَزِيرَةِ أَنْقلْطِرَةَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْجَزَائِرِ وَمَا فِي سَمْتِهَا مِنْ بِلَادِ الصَّقَالِبَةِ وَبُرْجَانَ. قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: وَفِيهِ تَقَعُ جَزِيرَةُ تُولِي وَجَزِيرَتَا أَجْبَالَ وَالنِّسَاءِ، وَبَعْضُ بِلَادِ الرُّوسِ الدَّاخِلَةِ فِي الشَّمَالِ وَالْبُلْغَارُ، وَمُدَبِّرُهُ الْقَمَرُ. انْتَهَى.

«وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ»: إِنَّ النَّصَارَى حُرِمُوا جَنَّةَ الْآخِرَةِ، فَأَعْطَاهُمُ اللهُ جَنَّةَ الدُّنْيَا بُسْتَانًا مُتَّصِلًا مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَى خَلِيجِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَعِنْدَهُمْ عُمُومُ شَاهَ[٣] بَلُّوطَ وَالْبُنْدُقُ وَالْجَوْزُ وَالْفُسْتُقُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يَكُونُ أَكْثَرَ وَأَمْكَنَ فِي الْأَقَالِيمِ الْبَارِدَةِ، وَالتَّمْرُ عِنْدَهُمْ مَعْدُومٌ، وَكَذَا الْمَوْزُ وَقَصَبُ السُّكَّرِ، وَرُبَّمَا يَكُونُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِي السَّاحِلِ لِأَنَّ هَوَاءَ الْبَحْرِ يُدْفِئُ. انْتَهَى.

---

(١) السمت: الجهة والطريق، ويقال: خذ في هذا السمت أي النحو والطريق (٢) بنواحي الخزر، وكان المسلمون قد غزوه في أيام عثمان رضي الله عنه (٣) الشجر المعروف بالكستنة أو «أبو فروة»

****

الخضر واشبان

« قَالَ ابْنُ حَيَّانَ فِي الْمُقْتَبَسِ » : ذَكَرَ رُوَاةُ الْعَجَمِ أَنَّ الْخِضرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَفَ عَلَى إِشْبَانَ الْمَذْكُورِ وَهُوَ يَحْرُثُ الْأَرْضَ بِفُدُنٍ(١) لَهُ أَيَّامَ حِرَاثَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا إِشْبَانُ إِنَّكَ لَذُو شَأْنٍ ، وَسَوْفَ يُحْظِيكَ زَمَانٌ ، وَيُعْلِيكَ سُلْطَانٌ ، فَإِذَا أَنْتَ غَلَبْتَ عَلَى إِيلِيَا(٢) فَارْفُقْ بِذُرِّيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ . فَقَالَ لَهُ إِشْبَانُ : أَسَاخِرٌ(٣) بِي ـ رَحِمَكَ اللهُ ـ؟ أَنَّى يَكُونُ هٰذَا مِنِّي وَأَنَا ضَعِيفٌ مُمْتَهَنٌ حَقِيرٌ فَقِيرٌ؟ لَيْسَ مِثْلِي يَنَالُ السُّلْطَانَ . فَقَالَ لَهُ : قَدْ قَدَّرَ ذَلِكَ فِيكَ مَنْ قَدَّرَ فِي عَصَاكَ الْيَابِسَةِ مَا تَرَاهُ ، فَنَظَرَ إِشْبَانُ إِلَى عَصَاهُ فَإِذَا بِهَا قَدْ أَوْرَقَتْ ، فَرِيعَ(٤) لِمَا رَأَى مِنَ الْآيَةِ ، وَذَهَبَ الْخِضرُ عَنْهُ وَقَدْ وَقَعَ الْكَلَامُ بِخَلَدِهِ ، وَوَفُرَتْ(٥) فِي نَفْسِهِ الثِّقَةُ بِكَوْنِهِ ، فَتَرَكَ الِامْتِهَانَ مِنْ

(١) فدن. جمع فدان : وهو الثور أو الثوران يقرن بينهما للحرث عليهما . والفدان أيضا : مايجمع أداة الثورين فى القران للحرث ، ولا يقال للواحد فدان (٢) ايلياء بيت المقدس قال الفرزدق :

وبيتان بيت الله نحن ولاته وقصر بأعلى ايلياء مشرف

(٣) سخر به : هزأ به (٤) أى خاف (٥) وفرت : كثرت .ولعله وقرت أى ثبتت وقرت وسكنت

وَقْتِهِ ، وَدَاخَلَ ٱلنَّاسَ وَصَحِبَ أَهْلَ ٱلْبَأْسِ مِنْهُمْ ، وَسَمَا بِهِ جَدُّهُ فَارْتَقَى فِي طَلَبِ ٱلسُّلْطَانِ[1] ، حَتَّى أَدْرَكَ مِنْهُ عَظِيماً وَكَانَ مِنْهُ مَا كَانَ ، ثُمَّ أَتَى عَلَيْهِ مَا أَتَى عَلَى ٱلْقُرُونِ قَبْلَهُ، وَكَانَ مُلْكُهُ كُلُّهُ عِشْرِينَ سَنَةً ، وَتَمَادَى مُلْكُ ٱلْإِشْبَانِيِّينَ بَعْدَهُ إِلَى أَنْ مَلَكَ مِنْهُمُ ٱلْأَنْدَلُسَ خَمْسَةٌ وَخَمْسُونَ مَلِكاً ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَى هَؤُلَاءِ ٱلْإِشْبَانِيِّينَ مِنْ عَجَمِ رُومَةَ أُمَّةٌ يُدْعَوْنَ ٱلْبَشْتُولُقَاتِ، وَمَلِكُهُمْ طَلْوِيشُ بْنُ بَيْطَةَ ، وَذَلِكَ زَمَنَ بَعْثِ ٱلْمَسِيحِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أَتَوُا ٱلْأَنْدَلُسَ مِنْ قِبَلِ رُومَةَ ، وَكَانُوا يَمْلِكُونَ إِفْرَنْجَةَ ، مَعَهَا وَيَبْعَثُونَ عُمَّالَهُمْ إِلَيْهَا، فَاتَّخَذُوا دَارَ مَمْلَكَتِهِمْ بِالْأَنْدَلُسِ مَدِينَةَ مَارِدَةَ[2]، وَاسْتَوْلَوْا عَلَى مَمْلَكَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ ،وَاتَّصَلَ مُلْكُهُمْ بِهَا مُدَّةً إِلَى أَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ مَلِكاً ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَى هٰؤُلَاءِ ٱلْبَتْشُولُقَاتِ أُمَّةُ ٱلْقُوطِ[3] مَعَ مَلِكٍ لَهُمْ ، فَغَلَبُوا عَلَى ٱلْأَنْدَلُسِ وَاقْتَطَعُوهَا مِنْ يَوْمَئِذٍ مِنْ صَاحِبِ رُومَةَ ،وَتَفَرَّدُوا بِسُلْطَانِهِمْ، وَاتَّخَذُوا مَدِينَةَ طُلَيْطِلَةَ دَارَ مَمْلَكَتِهِمْ، وَأَقَرُّوا بِهَا سَرِيرَ

(١) أي الملك والغلبة (٢) كورة واسعة من أعمال قرطبة ، احدى القواعد التى تخيرتها الملوك للسكنى من القياصرة والروم (٣) القوط الغربيون (الوندال)

مُلْكِهِمْ، فَبَقِيَ بِإِشْبِيلِيَةَ عَلَمُ الْإِشْبَانِيِّينَ وَرِيَاسَةُ أَوَّلِيَّتِهِمْ

***

عيسى عليه السلام والحواريون

«وَقَدْ كَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ» بَعَثَ الْحَوَارِيِّينَ[1] فِي الْأَرْضِ يَدْعُونَ الْخَلْقَ إِلَى دِيَانَتِهِ، فَاخْتَلَفَ النَّاسُ عَلَيْهِمْ وَقَتَلُوا بَعْضَهُمْ، وَاسْتَجَابَ لَهُمْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ، وَكَانَ مِنْ أَسْرَعِهِمْ إِجَابَةً لِمَنْ جَاءَهُ مِنْ هٰؤُلَاءِ الْحَوَارِيِّينَ خَشَنْدَشُ مَلِكُ الْقُوطِ، فَتَنَصَّرَ وَدَعَا قَوْمَهُ إِلَى النَّصْرَانِيَّةِ، وَكَانَ مِنْ صَمِيمِ أَعَاظِمِهِمْ، وَخَيْرِ مَنْ تَنَصَّرَ مِنْ مُلُوكِهِمْ، وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَعْدَلُ مِنْهُ حُكْمًا، وَلَا أَرْشَدُ رَأْيًا، وَلَا أَحْسَنُ سِيرَةً، وَلَا أَجْوَدُ تَدْبِيرًا، فَكَانَ الَّذِي أَصَّلَ[2] النَّصْرَانِيَّةَ فِي مَمْلَكَتِهِ، وَمَضَى أَهْلُهَا عَلَى سُنَّتِهِ إِلَى الْيَوْمِ، وَحَكَمُوا بِهَا. وَالْإِنْجِيلَاتُ فِي الْمَصَاحِفِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي يَخْتَلِفُونَ فِيهَا مِنَ انْتِسَاخِهِ وَجَمْعِهِ وَتَثْقِيفِهِ. فَتَنَاسَقَتْ مُلُوكُ الْقُوطِ بِالْأَنْدَلُسِ بَعْدَهُ إِلَى أَنْ غَلَبَتْهُمُ الْعَرَبُ عَلَيْهَا، وَأَظْهَرَ اللَّهُ تَعَالَى دِينَ الْإِسْلَامِ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ.

---

(١) حوارى الرجل : خلصاؤه وأتباعه (٢) أصل الخ : أى جعلها أصلا ثابتا

« فوَقَعَ فِي توَارِيخِ ٱلْعَجَمِ ٱلْقَدِيمَةِ » أَنَّ عِدَّةَ مُلُوكِ هٰؤُلَاءِ ٱلْقُوطِ بِالْأَنْدَلُسِ ـ مِنْ عَهْدِ أَتَانَاوِينُوسَ ، ٱلَّذِي مَلَكَ فِي ٱلسَّنَةِ ٱلْخَامِسَةِ مِنْ مَمْلَكَةِ فَلِبْشَ ٱلْقَيْصَرِيِّ لِمُضِيِّ أَرْبَعِمِائَةٍ وَسَبْعٍ مِنْ تَارِيخِ ٱلصِّفْرِ ٱلْمَشْهُورِ عِنْدَ ٱلْعَجَمِ إِلَى عَهْدِ لُذَرِيقَ آخِرِهِمْ ، ٱلَّذِي مَلَكَ فِي ٱلسَّنَةِ ٱلتَّاسِعَةِ وَٱلْأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ مِنْ تَارِيخِ ٱلصِّفْرِ ، وَهُوَ ٱلَّذِي دَخَلَتْ عَلَيْهِ ٱلْعَرَبُ فَأَزَالَتْ دَوْلَةَ ٱلْقُوطِ ـ سِتَّةٌ وَثَلَاثُونَ مَلِكاً ، وَأَنَّ مُدَّةَ أَيَّامِ مُلْكِهِمْ بِالْأَنْدَلُسِ ثَلَثُمِائَةٍ وَٱثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً . انْتَهَى .

« وَقَالَ جَمَاعَةٌ » : إِنَّ ٱلْقُوطَ غَيْرُ ٱلْبَشْتُولْقَاتِ ، وَإِنَّ ٱلْبَشْتُولْقَاتِ مِنْ عَجَمِ رُومَةَ ، وَإِنَّهُمْ جَعَلُوا دَارَ مُلْكِهِمْ مَارِدَةَ ، وَٱتَّصَلَ مُلْكُهُمْ إِلَى أَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ مَلِكاً ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُوطُ وَٱتَّخَذُوا طُلَيْطِلَةَ دَارَ مَمْلَكَةٍ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَنَصُّرَ مَلِكِهِمْ خَشَنْدَشَ مِثْلَ مَا تَقَدَّمَ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ عِدَّةَ مُلُوكِ ٱلْقُوطِ سِتَّةٌ وَثَلَاثُونَ مَلِكاً .

« وَذَكَرَ ٱلرَّازِى » : أَنَّ ٱلْقُوطَ مِنْ وَلَدِ يَأْجُوجَ بْنِ يَافِثَ بْنِ نُوحٍ ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ . ٱنْتَهَى .

« وَذَكَرَ ٱلرَّازِىُّ » فِي مَوْضِعٍ آخَرَ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ وَزِيَادَةً ، وَنَصُّهُ : إِنَّ ٱلْأَنْدَلُسَ فِي آخِرِ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ مِنَ ٱلْأَقَالِيمِ ٱلسَّبْعَةِ ٱلَّتِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا ، ٱلَّتِي هِيَ رُبُعُ مَعْمُورِ ٱلدُّنْيَا ، فَهِيَ مُوَسَّطَةٌ مِنَ ٱلْبُلْدَانِ ، كَرِيمَةُ ٱلْبُقْعَةِ بِطَبْعِ ٱلْخِلْقَةِ ، طَيِّبَةُ ٱلتُّرْبَةِ ، مُخْصِبَةُ ٱلْقَاعَةِ[1] ، مُنْبَجِسَةُ ٱلْعُيُونِ ٱلثِّرَارِ[2] ، مُنْفَجِرَةُ ٱلْأَنْهَارِ ٱلْغِزَارِ ، قَلِيلَةُ ٱلْهَوَامِّ ذَوَاتِ ٱلسُّمُومِ ، مُعْتَدِلَةُ ٱلْهَوَاءِ أَكْثَرَ ٱلْأَزْمَانِ ، لَا يَزِيدُ قَيْظُهَا[3] زِيَادَةً مُنْكَرَةً تَضُرُّ بِٱلْأَبْدَانِ ، وَكَذَا سَائِرُ فُصُولِهَا فِي أَعَمِّ سِنِيهَا ، تَأْتِي عَلَى قَدَرٍ مِنَ ٱلِاعْتِدَالِ ، وَتَوَسُّطٍ فِي ٱلْحَالِ ، وَفَوَاكِهُهَا تَتَّصِلُ طُولَ ٱلزَّمَانِ فَلَا تَكَادُ تُعْدَمُ ، لِأَنَّ ٱلسَّاحِلَ وَنَوَاحِيَهُ يُبَادِرُ بِبَاكُورِهِ ، كَمَا أَنَّ ٱلثَّغْرَ وَجِهَاتِهِ وَٱلْجِبَالَ ٱلَّتِي يَخُصُّهَا بَرْدُ ٱلْهَوَاءِ وَكَثَافَةُ

(١) القاعة : الأرض الواسعة المطمئنة قد انفرجت عنها الآكام (٢) جمع ثرة : غزيرة الماء (٣) أى الحر

اُلْجوِّ ، تَسْتَأْخِرُ بِمَا فِيهَا مِنْ ذَلِكَ ، حَتَّى يَكَادَ طَرَفَا فَا كِهَتِهَا يَلْتَقِيَانِ ، فَمَادَّةُ اُلْخَيْرَاتِ فِيهَا مُتَّصِلَةٌ كُلَّ أَوَانٍ . وَمِنْ بَحْرِهَا بِجِهَةِ اُلْغَرْبِ يَخْرُجُ اُلعَنْبَرُ اُلْجَيِّدُ اُلْمُقَدَّمُ عَلَى أَجْنَاسِهِ فِي اُلطِّيبِ وَاُلصَّبْرِ عَلَى اُلنَّارِ ، وَبِهَا شَجَرُ اُلْمَحْلَبِ اُلمَعْدُودِ فِي اُلْأَفَاوِيهِ ، اُلْمُقَدَّمِ فِي أَنْوَاعِ اُلْأُشْنَانِ كَثِيرٌ وَاسِعٌ . وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْهِنْدِ وَبِهَا فَقَطْ ، وَلَهَا خَوَاصٌّ نَبَاتِيَّةٌ يَكْثُرُ تَعْدَادُهَا . انْتَهَى .

***

أفاويه ومعادن الأندلس

« وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُهُ تَفْصِيلَ بَعْضِ ذَلِكَ فَقَالَ » : يُوجَدُ فِي نَاحِيَةِ دَلَايَةَ[١] مِنْ إِقْلِيمِ اُلْبَشَرَةِ عُودُ اُلْأَلَنْجُوجِ[٢] ، لَا يَفُوقُهُ اُلْعُودُ اُلْهِنْدِيُّ ذَكَاءً وَعِطْرَ رَائِحَةٍ ، وَقَدْ سِيقَ مِنْهُ إِلَى خَيْرَانَ اُلصَّقْلَبِيِّ صَاحِبِ اُلْمَرِيَّةِ ، وَأَنَّ أَصْلَ مَنْبَتِهِ

---

(١) دلاية : بلدقريب من المرية (٢) عودالطيب أوشجرآخر يتبخر به ، ويسمى يلنجوج قال حميد بن ثور :

لاتصطلى النار الا مجمرا أرجا　　قد كسرت من يلنجوج لهوقصا

وقال عبد الرحمن بن حسان :

تجعل الند واليلنجوج والمسـ　　ـك صلاء لها على الكانون

كَانَ بَيْنَ أَحْجَارٍ هُنَالِكَ ، وَبِأَكْشُونِيَةَ جَبَلٌ كَثِيرًا مَا يَتَضَوَّعُ[١] رِيحُهُ رِيحَ الْعُودِ الذَّكِيِّ إِذَا أُرْسِلَتْ فِيهِ النَّارُ. وَبِبَحْرِ شَذُونَةَ[٢] يُوجَدُ الْعَنْبَرُ الطِّيبُ الْغَرْبِيُّ . وَفِي جَبَلِ مُنْتِ لِيُونَ[٣] الْمَحْلَبُ . وَيُوجَدُ بِالْأَنْدَلُسِ الْقُسْطُ[٤] الطَّيِّبُ وَالسُّنْبُلُ الطَّيِّبُ، وَالْجِنْطِيَانَةُ[٥] تُحْمَلُ مِنَ الْأَنْدَلُسِ إِلَى جَمِيعِ الْآفَاقِ وَهُوَ عُقَّارٌ[٦] رَفِيعٌ ، وَالْمُرُّ الطَّيِّبُ بِقَلْعَةِ أَيُّوبَ[٧] وَأَطْيَبُ كَهْرُبَاءِ[٨] الْأَرْضِ بِشَذُونَةَ ، دِرْهَمٌ مِنْهَا يَعْدِلُ دَرَاهِمَ مِنَ الْمَجْلُوبَةِ . وَأَطْيَبُ الْقِرْمِزِ[٩] قِرْمِزُ الْأَنْدَلُسِ ، وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ بِنَوَاحِي إِشْبِيلِيَةَ وَلَبْلَةَ وَشَذُونَةَ وَبَلَنْسِيَةَ ، وَمِنَ الْأَنْدَلُسِ يُحْمَلُ إِلَى الْآفَاقِ . وَبِنَاحِيَةِ لُورَقَةَ مِنْ عَمَلِ

---

(١) يتضوع : ينتشر (٢) ويقال شذونة (بفتح فسكون ففتح الواو) من أعمال أشبيلية (٣) حصن من نواحي جيان و (منت) اسم للجبل mont وهناك أيضا منت أشيون من أعمال أشبونة ، ومنت شون حصن من حصون لاردة ملكه الافرنج سنة ٤٨٢ (٤) القسط : بضم القاف : عود هندى وعربى يتداوى به (٥) الجنطيانة : نبات يشبه ورقه ورق الجزر (٦) عقار : أى دواء والجمع عقاقير (٧) مدينة عظيمة من أعمال سرقسطة بقعتها كثيرة الأشجار والأنهار والمزارع ، وكانت جليلة القدر لها عدة حصون . وبقربها مدينة لبلة (٨) هو ما يعرف : بالكهرمان تتخذ منه العقود والمسابح (٩) صبغ أحمر

تُدْمِيرَ يَكُونُ حَجَرُ اللَّازَوَرْدِ[1] الْجَيِّدُ ، وَقَدْ يُوجَدُ فِي غَيْرِهَا . وَعَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ حَضْرَةِ لُورَقَةَ مِنْ عَمَلِ قُرْطُبَةَ مَعْدِنُ الْبِلَّوْرِ ، وَقَدْ يُوجَدُ بِجَبَلِ شُحَيْرَانَ وَهُوَ شَرْقِيُّ بَيْرَةَ[2] ، وَحَجَرُ النَّجَادِي يُوجَدُ بِنَاحِيَةِ مَدِينَةِ الْأُشْبُونَةَ فِي جَبَلٍ هُنَالِكَ يَتَلَأْلَأُ فِيهِ لَيْلًا كَالسِّرَاجِ . وَالْيَاقُوتُ الْأَحْمَرُ يُوجَدُ بِنَاحِيَةِ حِصْنِ مَنْتِ مُيُورَ مِنْ كُورَةِ مَالَقَةَ ، إِلَّا أَنَّهُ دَقِيقٌ جِدًّا لَا يَصْلُحُ لِلِاسْتِعْمَالِ لِصِغَرِهِ . وَيُوجَدُ حَجَرٌ يُشْبِهُ الْيَاقُوتَ الْأَحْمَرَ بِنَاحِيَةِ بَجَّانَةَ[3] فِي خَنْدَقٍ يُعْرَفُ بِقَرْيَةِ نَاشِرَةَ أَشْكَالًا مُخْتَلِفَةً ، كَأَنَّهُ مَصْبُوغٌ ، حَسَنُ اللَّوْنِ ، صَبُورٌ عَلَى النَّارِ . وَحَجَرُ الْمَغْنَاطِيسِ الْجَاذِبُ لِلْحَدِيدِ يُوجَدُ فِي كُورَةِ تُدْمِيرَ . وَحَجَرُ الشَّادِنَةِ بِجِبَالِ

---

(١) اللازورد : معدن مشهور ، وأجوده الصافى الشفاف الضارب الى خضرة وحمرة يتخذ للحلى ، وينتفع به فى الطب . (٢) بيرة : بليدة قريبة من ساحل البحر ، كان لها مرسى ترسو فيه السفن مابين مرسية والمرية (٣) مدينة من أعمال كورة البيرة كانت قد خربت فانتقل أهلها الى المرية ، و بينهما نحو فرسخين

قُرْطُبَـةَ كَثِيرٌ ، وَيُسْتَعْمَلُ ذَلِكَ فِي ٱلتَّذَاهِيبِ . وَحَجَرُ ٱلْيَهُودِيِّ[1] فِي نَاحِيَةِ حِصْنِ ٱلْبُونْتِ[2] ، وَهُوَ أَنْفَعُ شَيْءٍ لِلْحَصَاةِ . وَحَجَرُ ٱلْمَرْقِيشِينَا ٱلذَّهَبِيَّةِ فِي جِبَالِ أُبَّدَةَ[3] لَا نَظِيرَ لَهَا فِي ٱلدُّنْيَا ، وَمِنَ ٱلْأَنْدَلُسِ تُحْمَلُ إِلَى جَمِيعِ ٱلْآفَاقِ لِفَضْلِهَا . وَٱلْمَغْنِيسِيَا بِالْأَنْدَلُسِ كَثِيرٌ ، وَكَذَلِكَ حَجَرُ ٱلطَّلْقِ ، وَيُوجَدُ حَجَرُ ٱللُّؤْلُؤِ بِمَدِينَةِ بَرْشِلُونَةَ . إِلَّا أَنَّهُ جَامِـدُ ٱللَّوْنِ . وَيُوجَدُ ٱلْمَرْجَانُ بِسَاحِلِ بَيْرَةَ مِنْ عَمَلِ ٱلْمَرِيَّةِ مَا لُقِطَ مِنْهُ فِي أَقَلَّ مِنْ شَهْرٍ نَحْوُ ثَمَانِينَ رُبْعًا ، وَمَعْدِنُ ٱلذَّهَبِ بِنَهْرِ لَارِدَةَ يُجْمَعُ مِنْهُ كَثِيرٌ ، وَيُجْمَعُ أَيْضًا فِي

(١) قال ابن البيطار : هو حجر بفلسطين شبيه فى شكله بالبلوط أبيض خشن الشكل جدا فيه خطوط متوازية كأنها خطت بالبيكار ، وهو حجر ينماع بالماء لاطعم له ، واذا أخذ منه مقدار حمصة وحك على مسن الماء وشرب بماء حار نفع من عسر البول وفتت الحصاة المتولدة فى المثانة . جالينوس : لما جربت هذا الحجر فيمن به حصاة فى مثانته مانفع شيئا ، ولكنه فى الحصاة المتولدة فى الكليتين قوى جدا . اه ملخصا (٢) بُنت : بلد من ناحية بلنسية ينسب اليه الشاعر الأديب أبو عبد الله محمد البنتى البلنسى (٣) أبدة : مدينة من كورة جيان تعرف بأبدة العرب اختطها عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك وأتمها ابنه محمد

سَاحِلِ ٱلْأُشْبُونَةِ[١] . وَمَعَادِنُ ٱلْفِضَّةِ فِي ٱلْأَنْدَلُسِ كَثِيرَةٌ فِي كُورَةِ تُدْمِيرَ وَجِبَالِ جَمَّةٍ بِبِجَّانَةَ . وَبِإِقْلِيمِ كِرْتِشَ مِنْ عَمَلِ قُرْطُبَةَ مَعْدِنُ فِضَّةٍ جَلِيلٌ . وَبِأَشْكُونِيَةَ مَعْدِنُ ٱلْقَصْدِيرِ لَا نَظِيرَ لَهُ يُشْبِهُ ٱلْفِضَّةَ . وَلَهُ مَعَادِنُ بِنَاحِيَةِ إِفْرَنْجَةَ وَلِيُونَ ، وَمَعْدِنُ ٱلزِّئْبَقِ فِي جَبَلِ ٱلْبَرَانِسِ ، وَمِنْ هُنَالِكَ يُتَجَهَّزُ بِهِ إِلَى ٱلْآفَاقِ ، وَمَعَادِنُ ٱلْكِبْرِيتِ ٱلْأَحْمَرِ وَٱلْأَصْفَرِ بِٱلْأَنْدَلُسِ كَثِيرَةٌ . وَمَعْدِنُ ٱلتُّوتِيَا ٱلطَّيِّبَةِ بِسَاحِلِ إِلْبِيرَةِ[٢] بِقَرْيَةٍ تُسَمَّى بَطَرْنَةَ ، وَهِيَ أَزْكَى تُوتِيَا وَأَقْوَاهَا فِي صَبْغِ ٱلنُّحَاسِ ، وَبِجِبَالِ قُرْطُبَةَ تُوتِيَا وَلَيْسَتْ كَالْبَطَرْنِيَّةِ . وَمَعْدِنُ ٱلْكُحْلِ ٱلْمُشَبَّهِ بِٱلْأَصْفَهَانِيِّ بِنَاحِيَةِ مَدِينَةِ طَرْطُوشَةَ يُحْمَلُ مِنْهَا إِلَى جَمِيعِ ٱلْبِلَادِ . وَمَعَادِنُ ٱلشَّبُوبِ وَٱلْحَدِيدِ وَٱلنُّحَاسِ بِٱلْأَنْدَلُسِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى . وَمَا ذَكَرْتُ هُنَا وَإِنْ تَكَرَّرَ بَعْضُهُ مَعَ مَا سَبَقَ أَوْ يَأْتِي فَهُوَ لِجَمْعِ ٱلنَّظَائِرِ ، وَمَا لَمْ نَذْكُرْهُ أَكْثَرُ . وَٱللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

---

(١) هي عاصمة البرتقال الآن (Lisbonne) ويذكرها العرب باسم لشبونة، أشبونة ، والأشبونة (٢) كورة كبيرة ومدينة متصلة بأراضي كورة قبرة

***

خواص طليطلة

« وَمِنْ خَوَاصِّ طُلَيْطِلَةَ » أَنَّ حِنطَتَهَا لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تُسَوِّسُ عَلَى طُولِ ٱلسِّنِينَ، يَتَوَارَثُهَا ٱلْخَلَفُ عَنِ ٱلسَّلَفِ. وَزَعْفَرَانُ طُلَيْطِلَةَ هُوَ ٱلَّذِي يَعُمُّ ٱلْبِلَادَ، وَيَتَجَهَّزُ بِهِ ٱلرِّفَاقُ إِلَى ٱلْآفَاقِ، وَكَذَلِكَ ٱلصِّبْغُ ٱلسَّمَاوِيُّ. ٱنْتَهَى.

« وَقَالَ ٱلْمَسْعُودِيُّ » فِي مُرُوجِ ٱلذَّهَبِ بَعْدَ كَلَامٍ مَا نَصُّهُ: وَٱلْعَنْبَرُ كَثِيرٌ بِبَحْرِ ٱلْأَنْدَلُسِ يُجَهَّزُ إِلَى مِصْرَ وَغَيْرِهَا، وَيُحْمَلُ إِلَى قُرْطُبَةَ مِنْ سَاحِلٍ لَهَا، يُقَالُ لَهُ شَنْتَرِينُ(١) وَشَذُونَةُ تَبْلُغُ ٱلْأُوقِيَّةُ مِنْهُ بِالْأَنْدَلُسِ ثَلَاثَةَ مَثَاقِيلَ ذَهَبًا، وَٱلْأُوقِيَّةُ بِالْبَغْدَادِيِّ، وَتُبَاعُ بِمِصْرَ أُوقِيَّتُهُ بِعِشْرِينَ دِينَارًا، وَهُوَ عَنْبَرٌ جَيِّدٌ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا ٱلْعَنْبَرُ ٱلْوَاقِعُ إِلَى بَحْرِ ٱلرُّومِ ضَرَبَتْهُ ٱلْأَمْوَاجُ إِلَى بَحْرِ ٱلْأَنْدَلُسِ إِلَى هَذَا ٱلْبَحْرِ لِاتِّصَالِ ٱلْمَاءِ. وَبِالْأَنْدَلُسِ مَعْدِنٌ عَظِيمٌ لِلْفِضَّةِ، وَمَعْدِنٌ لِلزِّئْبَقِ لَيْسَ بِالْجَيِّدِ، يُجَهَّزُ إِلَى سَائِرِ بِلَادِ ٱلْإِسْلَامِ

---

(١) مدينة غربي قرطبة على نهر تاجه قرب مصبه فى البحر المحيط. ملكها الافرنج سنة ٥٤٣

وَٱلْـكُفْرِ . وَكَذَلِكَ يُحْمَلُ مِنْ بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلزَّعْفَرَانُ وَعُرُوقُ ٱلزَّنْجَبِيـلِ . وَأُصُولُ ٱلطِّيبِ خَمْسَةُ أَصْنَافٍ : ٱلْمِسْكُ ، وَٱلْـكَافُورُ ، وَٱلْعُودُ ، وَٱلْعَنْبَرُ ، وَٱلزَّعْفَرَانُ . وَكُلُّهَا تُحْمَلُ مِنْ أَرْضِ ٱلْهِنْدِ وَمَا ٱتَّصَلَ بِهَا ، إِلَّا ٱلزَّعْفَرَانَ وَٱلْعَنْبَرَ . انْتَهَى . وَهُوَ وَإِنْ تَـكَرَّرَ مَعَ مَا ذَكَرْتُهُ عَنْ غَيْرِهِ فَلَا يَخْلُو مِنْ فَائِدَةٍ. وَٱللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

« وَذَكَرَ ٱلْبَعْضُ » أَنَّ فِي بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ جَمِيعَ ٱلْمَعَادِنِ ٱلْـكَائِنَاتِ عَنِ ٱلنَّيِّرَاتِ ٱلسَّبْعَةِ وَهِيَ ٱلرَّصَاصُ مِنْ زُحَلَ ، وَٱلْقَصْدِيرُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْمُشْتَرِى ، وَٱلْحَدِيدُ مِنْ قِسْمِ ٱلْمَرِّيخِ ، وَٱلذَّهَبُ مِنْ قِسْمِ ٱلشَّمْسِ ، وَٱلنُّحَاسُ مِنَ ٱلزُّهْرَةِ ، وَٱلزِّئْبَقُ مِنْ عُطَارِدَ ، وَٱلْفِضَّةُ مِنَ ٱلْقَمَرِ .

***

وصف أهل الأندلس

« وَذَكَرَ ٱلْكَاتِبُ إِبْرَاهِيمُ ٱبْنُ ٱلْقَاسِمِ ٱلْقَرَوِيُّ ٱلْمَعْرُوفُ بِالرَّقِيقِ » بَلَدَ ٱلْأَنْدَلُسِ فَقَالَ : أَهْـلُهُ أَصْحَابُ جِهَادٍ مُتَّصِلٍ ، يُحَارِبُونَ مِنْ أَهْلِ ٱلشِّرْكِ ٱلْمُحِيطِينَ بِهِمْ أُمَّةً

يُدْعَوْنَ الْجَلَالِقَةَ يُتَاخِمُونَ حَوْزَهُمْ[1] مَا بَيْنَ غَرْبٍ إِلَى شَرْقٍ ، قَوْمٌ لَهُمْ شِدَّةٌ وَلَهُمْ جَمَالٌ وَحُسْنُ وُجُوهٍ ، فَأَكْثَرُ رَقِيقِهِمُ الْمَوْصُوفِينَ بِالْجَمَالِ وَالْفَرَاهَةِ[2] مِنْهُمْ، لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ دَرْبٌ[3]، فَالْحَرْبُ مُتَّصِلَةٌ بَيْنَهُمْ مَا لَمْ تَقَعْ هُدْنَةٌ[4] .

وَيُحَارِبُونَ بِالْأُفُقِ الشَّرْقِيِّ أُمَّةً يُقَالُ لَهُمُ الْفَرَنْجَةُ[5]، هُمْ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ جَمِيعِ مَنْ يُحَارِبُونَهُ مِنْ عَدُوِّهِمْ ، إِذْ كَانُوا خَلْقاً عَظِيماً فِي بِلَادٍ كَثِيرَةٍ وَاسِعَةٍ جَلِيلَةٍ ، مُتَّصِلَةِ الْعِمَارَةِ آهِلَةٍ ، تُدْعَى الْأَرْضَ الْكَبِيرَةَ ، هُمْ أَكْثَرُ عَدَدًا مِنَ الْجِلِّيقِيِّينَ وَأَشَدُّ بَأْسًا، وَأَحَدُّ شَوْكَةً[6]، وَأَعْظَمُ إِمْدَادًا . وَهَذِهِ الْأُمَّةُ يُحَارِبُونَ أُمَّةَ الصَّقَالِبَةِ الْمُتَّصِلِينَ بِأَرْضِهِمْ ، لِمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُمْ فِي الدِّيَانَةِ ، فَيَسْبُونَهُمْ وَيَبِيعُونَ رَقِيقَهُمْ بِأَرْضِ الْأَنْدَلُسِ،فَلَهُمْ هُنَالِكَ كَثْرَةٌ ،وَتَخْصِيهِمْ لِلْفَرَنْجَةِ يَهُودُ ذِمَّتِهِمُ الَّذِينَ بِأَرْضِهِمْ وَفِي ثَغْرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَّصِلِ بِهِمْ ، فَيُحْمَلُ

---

(١) يتاخمون : يلاصقون والحوز : الناحية (٢) الفراهة : الصباحة ، والحذق ، والمهارة (٣) الدرب : السكة وكل مدخل الى الروم درب من دروبها . وأصل الدرب المضيق فى الجبال ، والمراد أنه ليس بينهم حواجز طبيعية (٤) أى مصالحة (٥) يريد فرنسة (٦) الشوكة : حدة السلاح

خِصْيَانُهُمْ مِنْ هُنَالِكَ إِلَى سَائِرِ الْبِلَادِ. وَقَدْ تَعَلَّمَ الْخِصَاءَ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ هُنَاكَ، فَصَارُوا يَخْصُونَ وَيَسْتَحِلُّونَ الْمُثْلَةَ(١).

***

بعض جزائر الأندلس

«قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ»: وَمَخْرَجُ بَحْرِ الرُّومِ الْمُتَصَاعِدِ إِلَى الشَّامِ هُوَ بِسَاحِلِ الْأَنْدَلُسِ الْغَرْبِيِّ بِمَكَانٍ يُقَالُ لَهُ الْخَضْرَاءُ مَا بَيْنَ طَنْجَةَ مِنْ أَرْضِ الْمَغْرِبِ وَبَيْنَ الْأَنْدَلُسِ، فَيَكُونُ مِقْدَارُ عَرْضِهِ هُنَاكَ - كَمَا زَعَمُوا - ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِيلًا، وَهَذَا عَرْضُ جَزِيرَةِ طَرِيفٍ إِلَى قَصْرِ مَصْمُودَةَ بِالْقُرْبِ مِنْ سَبْتَةَ، وَهُنَاكَ كَانَتْ الْقَنْطَرَةُ الَّتِي يَزْعُمُ النَّاسُ أَنَّ الْإِسْكَنْدَرَ بَنَاهَا لِيَعْبُرَ عَلَيْهَا مِنَ الْأَنْدَلُسِ إِلَى بَرِّ الْعُدْوَةِ(٢).

---

(١) اسم من التمثيل أى التنكيل وتشويه الخلقة، يقال: مثلت بالحيوان أمثل به مثلا اذا قطعت أطرافه وشوهت به. ومثلت بالقتيل اذا جدعت أنفه وأذنه أومذا كيره أوشيئا من أطرافه (٢) العدوة: المكان المتباعد، ويطلق العرب بر العدوة على ماسامت الأندلس من شمالى افريقية و بعد عن بلادهم و يقصدون بها بلاد مراكش والجزائر وتونس: أى المغرب الأقصى والأوسط والأدنى

وَيُعْرَفُ هَذَا ٱلْمَوْضِعُ بِالزُّقَاقِ[1]، وَهُوَ صَعْبُ ٱلْمَجَازِ. لِأَنَّهُ مَجْمَعُ ٱلْبَحْرَيْنِ لَا تَزَالُ ٱلْأَمْوَاجُ تَتَطَاوَلُ فِيهِ وَٱلْمَاءُ يَدُورُ. وَطُولُ هٰذَا ٱلزُّقَاقِ ٱلَّذِي عَرْضُهُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِيلًا مُضَاعَفُ ذَلِكَ إِلَى مِينَاءِ سَبْتَةَ، وَمِنْ هُنَاكَ يَأْخُذُ ٱلْبَحْرُ فِي ٱلِاتِّسَاعِ إِلَى ثَمَانِمِائَةِ مِيلٍ وَأَزْيَدَ، وَمُنْتَهَاهُ مَدِينَةُ صُورَ مِنَ ٱلشَّامِ، وَفِيهِ عَدَدٌ عَظِيمٌ مِنَ ٱلْجَزَائِرِ.

« قَالَ بَعْضُهُمْ » إِنَّهَا ثَمَانٌ وَعِشْرُونَ جَزِيرَةً مِنْهَا صِقِلِّيَّةُ وَمَالِطَةُ وَغَيْرُهُمَا. انْتَهَى، وَبَعْضُهُ بِالْمَعْنَى

« وَقَالَ بَعْضُهُمْ » عِنْدَ وَصْفِهِ ضِيقَ بَحْرِ ٱلزُّقَاقِ قُرْبَ سَبْتَةَ مَا صُورَتُهُ: ثُمَّ يَتَّسِعُ كُلَّمَا ٱمْتَدَّ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى مَا لَا ذَرْعَ لَهُ وَلَا نِهَايَةَ.

---

(١) يريد به مضيق جبل طارق وهو مجاز البحرين طنجة والجزيرة الخضراء. وقال الفقيه المرادى المتكلم الغير وأنى بعد خلاصه من بحر الزقاق ووصوله الى مدينة سبتة:

سمعت التجار وقد حدثوا ... لشدة أهوال بحر الزقاق
فقلت لهم قربونى اليه ... أنشفه من حر يوم الفراق
فلما فعلت جرت أدمعى ... فعاد كما كان قبل التلاقى

* * *

خراج الأندلس

« وَقَالَ بَعْضُهُمْ » : وَكَانَ مَبْلَغُ خَرَاجِ[1] ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلَّذِي كَانَ يُؤَدَّى إِلَى مُلُوكِ بَنِي أُمَيَّةَ قَدِيمًا ثَلٰثَمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ دَرَاهِمَ أَنْدَلُسِيَّةً كُلَّ سَنَةٍ قَوَانِينَ[2]، وَعَلَى كُلِّ مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِهِمْ مَالٌ مَعْلُومٌ ، فَكَانُوا يُعْطُونَ جُنْدَهُمْ وَرِجَالَهُمُ ٱلثُّلُثَ مِنْ ذَلِكَ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ ، وَيُنْفِقُونَ فِي أُمُورِهِمْ وَنَوَائِبِهِمْ وَمُؤَنِ أَهْلِيهَا مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ ، وَيَدَّخِرُونَ لِحَادِثِ أَيَّامِهِمْ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ فِي ٱلسَّنَةِ

« وَذَكَرَ غَيْرُهُ » أَنَّ ٱلْجِبَايَةَ كَانَتْ بِالْأَنْدَلُسِ أَيَّامَ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلْأَوْسَطِ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ فِي ٱلسَّنَةِ ، وَكَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ لَا تَزِيدُ عَلَى سِتِّمِائَةِ أَلْفٍ ، حَكَاهُ ٱبْنُ سَعِيدٍ ، وَقَالَ إِنَّ ٱلْأَنْدَلُسَ مَسِيرَةُ شَهْرٍ مُدُنًا وَعَمَائِرَ.

* * *

سكان الأندلس

وَقَالَ قَاضِي ٱلْقُضَاةِ ٱبْنُ خَلْدُونٍ ٱلْحَضْرَمِيُّ فِي تَارِيخِهِ

---

(١) أي الضرائب الأميرية (٢) القانون : مقياس كل شيء وطريقه . وهي كلمة دخيلة

ٱلْكَبِيرِ مَا صُورَتُهُ : كَانَ هَـذَا ٱلْقُطْرُ ٱلْأَنْدَلُسِيُّ مِنَ ٱلْعُدْوَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنْ عُدْوَتَيِ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ ، وَبِالْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ مِنْهَا يُسَمَّى عِنْدَ ٱلْعَجَمِ ٱلْأَنْدَلُوشَ ، وَتَسْكُنُهُ أُمَمٌ مِنْ إِفْرَنْجَةِ ٱلْمَغْرِبِ أَشَدُّهُمْ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْجَلَالِقَةُ ، وَكَانَ ٱلْقُوطُ قَدْ تَمَلَّكُوهُ وَغَلَبُوا عَلَى أَهْلِهِ لِمِئِينَ مِنَ ٱلسِّنِينَ قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ بَعْدَ حُرُوبٍ كَانَتْ لَهُمْ مَعَ ٱللَّطِينِيِّينَ(١) ، حَاصَرُوا فِيهَا رُومَةَ ، ثُمَّ عَقَدُوا مَعَهُمُ ٱلسِّلْمَ عَلَى أَنْ يَنْصَرِفَ ٱلْقُوطُ إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ ، فَصَارُوا إِلَيْهَا وَمَلَكُوهَا . وَلَمَّا أَخَذَ ٱلرُّومُ وَٱللَّطِينِيُّونَ بِمِلَّةِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ ، حَمَلُوا مَنْ وَرَاءَهُمْ بِالْمَغْرِبِ مِنْ أُمَمِ ٱلْفِرَنْجَةِ وَٱلْقُوطِ عَلَيْهَا فَدَانُوا بِهَا . وَكَانَ مُلُوكُ ٱلْقُوطِ يَنْزِلُونَ طُلَيْطِلَةَ ، وَكَانَتْ دَارَ مُلْكِهِمْ ، وَرُبَّمَا تَنَقَّلُوا مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ قُرْطُبَةَ وَإِشْبِيلِيَةَ وَمَارِدَةَ ، وَأَقَامُوا كَذَلِكَ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ إِلَى أَنْ جَاءَ ٱللهُ بِالْإِسْلَامِ وَٱلْفَتْحِ ، وَكَانَ مَلِكُهُمْ لِذَلِكَ ٱلْعَهْدِ يُسَمَّى لُذَرِيقَ ، وَهُوَ سِمَةٌ لِمُلُوكِهِمْ ، كَمَا أَنَّ جَرْجِيرَ سِمَةٌ لِمُلُوكِ صِقِلِّيَةَ . انْتَهَى .

(١) أي الروم اللاتين

« وَمِنْ أَشْهَرِ بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ » غَرْنَاطَةُ ، وَقِيلَ إِنَّ ٱلصَّوَابَ إِغَرْنَاطَةُ بِالْهَمْزِ وَمَعْنَاهُ بِلُغَتِهِمْ ٱلرُّمَّانَةُ ، وَكَفَاهَا شَرَفًا وِلَادَةُ لِسَانِ ٱلدِّينِ بِهَا .

« وَقَالَ ٱلشَّقَنْدِيُّ » : أَمَّا غَرْنَاطَةُ فَإِنَّهَا دِمَشْقُ بِلَادُ ٱلْأَنْدَلُسِ ، وَمَسْرَحُ ٱلْأَبْصَارِ وَمَطْمَحُ ٱلْأَنْفُسِ ، وَلَمْ تَخْلُ مِنْ أَشْرَافٍ أَمَاثِلَ[1] ، وَعُلَمَاءَ أَكَابِرَ ، وَشُعَرَاءَ أَفَاضِلَ ، وَلَوْلَمْ يَكُنْ لَهَا إِلَّا مَا خَصَّهَا ٱللهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ ٱلْمَرْجِ[2] ٱلطَّوِيلِ ٱلْعَرِيضِ وَنَهْرِ شِنِيلَ لَكَفَاهَا .

« وَفِي بَعْضِ كَلَامِ لِسَانِ ٱلدِّينِ » مَا صُورَتُهُ : وَمَا لِمِصْرَ تَفْخَرُ بِنِيلِهَا ، وَأَلْفٌ مِنْهُ فِي شِنِيلِهَا ، يَعْنِي أَنَّ ٱلشِّينَ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ عَدَدُهَا أَلْفٌ ، فَقَوْلُنَا شِنِيلُ : إِذَا ٱعْتَبَرْنَا عَدَدَ شِينِهِ كَانَ أَلْفَ نِيلٍ ، وَفِيهَا قِيلَ :

غَرْنَاطَةٌ مَا لَهَا نَظِيرُ ... مَا مِصْرُ[3] مَا ٱلشَّامُ مَا ٱلْعِرَاقْ ؟
مَا هِيَ إِلَّا ٱلْعَرُوسُ تُجْلَى ... وَتِلْكَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلصَّدَاقْ[4]

---

(١) أماثل جمع أمثل : أى أفاضل (٢) هو أرض واسعة فيها نبت كثير تمرح فيه الدواب أى ترعى حيث شاءت (٣) استفهام يراد به تصغير الشأن (٤) أى المهر

وَتُسَمَّى كُورَةُ ٱلْبِيْرَةِ ٱلَّتِي مِنْهَا غَرْنَاطَةُ دِمَشْقَ لِأَنَّ جُنْدَ دِمَشْقَ نَزَلُوهَا عِنْدَ ٱلْفَتْحِ ، وَقِيلَ إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِشَبَهِهَا بِدِمَشْقَ فِي غَزَارَةِ ٱلْأَنْهَارِ ، وَكَثْرَةِ ٱلْأَشْجَارِ ، حَكَاهُ صَاحِبُ مِنْهَاجِ ٱلْفِكَرِ . وَقَالَ : وَلَمَّا ٱسْتَوْلَى ٱلْفَرَنْجُ عَلَى مُعْظَمِ بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱنْتَقَلَ أَهْلُهَا إِلَيْهَا فَصَارَتِ ٱلْمِصْرَ ٱلْمَقْصُودَ ، وَٱلْمَعْقِلَ ٱلَّذِي تَنْضَوِي[1] إِلَيْهِ ٱلْعَسَاكِرُ وَٱلْجُنُودُ ، وَيَشُقُّهَا نَهَرٌ عَلَيْهِ قَنَاطِرُ يُجَازُ عَلَيْهَا ، وَفِي قِبْلِيِّهَا جَبَلُ شَلِيرَ ، وَهُوَ جَبَلٌ لَا يُفَارِقُهُ ٱلثَّلْجُ صَيْفاً وَلَا شِتَاءً ، وَفِيهِ سَائِرُ ٱلنَّبَاتِ ٱلْهِنْدِيِّ ، لَكِنْ لَيْسَ فِيهِ خَصَائِصُهُ . ٱنْتَهَى .

***

قطر لوشة

« وَمِنْ أَعْمَالِ غَرْنَاطَةَ » قُطْرُ لَوْشَةَ ، وَبِهَا مَعْدِنٌ لِلْفِضَّةِ جَيِّدٌ ، وَمِنْهَا - أَعْنِي لَوْشَةَ - أَصْلُ لِسَانِ ٱلدِّينِ بْنِ ٱلْخَطِيبِ ، وَهَذَا ٱلْقُطْرُ ضَخْمٌ يَنْضَافُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْحُصُونِ وَٱلْقُرَى كَثِيرٌ ، وَقَاعِدَتُهُ لَوْشَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ غَرْنَاطَةَ مَرْحَلَةٌ

(١) تنضوى : تجتمع وتلجأ

وَهِىَ ذَاتُ أَنْهَارٍ وَأَشْجَارٍ ، وَهِىَ عَلَى نَهْرِ غَرْنَاطَةَ الشَّهِيرِ بِشِنِيلَ.[١]

***

عمل باغة

« وَمِنْ أَعْمَالِ غَرْنَاطَةَ الْكِبَارِ » عَمَلُ بَاغَةَ ، وَالْعَامَّةُ يَقُولُونَ بَيْغَةُ ، وَإِذَا نَسَبُوا إِلَيْهِ قَالُوا بَيْغِيٌّ ، وَقَاعِدَتُهُ بَاغَةُ[٢] طَيِّبَةُ الزَّرْعِ ، كَثِيرَةُ الثِّمَارِ ، غَزِيرَةُ الْمِيَاهِ ، وَيَجُودُ فِيهَا الزَّعْفَرَانُ

***

وادى آش

« وَمِنْ أَعْمَالِ غَرْنَاطَةَ » وَادِى آشٍ[٣] ، وَيُقَالُ وَادِى الْأَشَاتِ ، وَهِىَ مَدِينَةٌ جَلِيلَةٌ قَدْ أَحْدَقَتْ بِهَا الْبَسَاتِينُ وَالْأَنْهَارُ ، وَقَدْ خَصَّ اللّٰهُ أَهْلَهَا بِالْأَدَبِ وَحُبِّ الشِّعْرِ ، وَفِيهَا يَقُولُ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ نِزَارٍ :

(١) Jenil(Xenil) (٢) باغة : مدينة من كورة البيرة جنوبى قرطبة . منها عبد الرحمن بن أحمد بن أبى المطرف عبد الرحمن قاضى الجماعة بقرطبة استقضاه بها الخليفة هشام بن الحكم فى دولته الثانية سنة ٤٠٢ وكان أديبا فاضلا عدلا ، توفى سنة ٤٠٧ (٣) Cuadix

وَادِى الْأَشَاتِ يَهِيجُ وَجْدِى كُلَّمَا
أَذْكَرْتُ مَا أَفْضَتْ بِكَ النَّعْمَاءِ

لِلهِ ظِلُّكَ وَالْهَجِيرُ(١) مُسَلَّطٌ
قَدْ بَرَّدَتْ لَفَحَاتِهِ الْأَنْدَاءِ(٢)

وَالشَّمْسُ تَرْغَبُ أَنْ تَفُوزَ بِلَحْظَةٍ
مِنْهُ فَتَطْرِفُ طَرْفَهَا الْأَفْيَاءِ(٣)

وَالنَّهْرُ يَبْسِمُ بِالْحَبَابِ(٤) كَأَنَّهُ
سِلْخٌ(٥) نَضَتْهُ حَيَّــةٌ رَقْشَاءِ

فَلِذَاكَ تَحْذَرُهُ الْغُصُونُ فَمَيْلُهَا
أَبَدًا عَلَى جَنَبَاتِهِ(٦) إِيمَاءِ

***

حصن جليانة

« وَمِنْ أَعْمَالِ وَادِى آشٍ » حِصْنُ جِلْيَانَةَ ، وَهُوَ كَبِيرٌ

(١) الهجير : شدة الحر ، ولفحة النار والحر : الهبةمن حرها وقيظه (٢) جمع ندا : وهو الطل (٣) أى الظلال، وطرفه: أصاب طرفه ، يعنى أن الظل يرد الشمس أن تسطع فى موضعه فكأن طرفها يطرف عنه فتغمضه ولا تقدر أن تفتحه (٤) حباب الماء : نفاخاته التى تعلوه (٥) السلخ بالكسر : الجلد ، وقشر الحية ، ونضته : نزعته . والرقشاء المنقطة بسواد وبياض (٦) أى حوافيه

يُضَاهِي ٱلْمُدُنَ ، وَبِهِ ٱلتُّفَّاحُ ٱلْجِلْيَانِيُّ ٱلَّذِي خَصَّ ٱللهُ بِهِ ذَلِكَ ٱلْمَوْضِعَ ، يَجْمَعُ عِظَمَ ٱلْحَجْمِ ، وَكَرَمَ ٱلْجَوْهَرِ ، وَحَلَاوَةَ ٱلطَّعْمِ ، وَذَكَاءَ ٱلرَّائِحَةِ ، وَٱلنَّقَاءَ ، وَبَيْنَ ٱلْحِصْنِ ٱلْمَذْكُورِ وَوَادِي آشٍ ٱثْنَا عَشَرَ مِيلًا .

***

غرائب الأندلس

« وَمِنْ غَرَائِبِ ٱلْأَنْدَلُسِ » أَنَّ بِهِ شَجَرَتَيْنِ مِنْ شَجَرِ ٱلْقَسْطَلِ ، وَهُمَا عَظِيمَتَانِ جِدًّا ، إِحْدَاهُمَا بِسَنَدِ[1] وَادِي آشٍ ، وَٱلْأُخْرَى بِبَشَرَةِ[2] غَرْنَاطَةَ ، فِي جَوْفِ كُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا حَائِكٌ يَنْسِجُ ٱلثِّيَابَ ، وَهَـذَا أَمْرٌ مَشْهُورٌ قَالَهُ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ بْنُ جُزَيٍّ وَغَيْرُهُ . وَكَانَتْ إِلْبِيرَةُ هِيَ ٱلْمَدِينَةَ قَبْلَ غَرْنَاطَةَ ، فَلَمَّا بَنَى ٱلصِّنْهَاجِيُّ مَدِينَةَ غَرْنَاطَةَ وَقَصَبَتَهَا وَأَسْوَارَهَا ٱنْتَقَلَ ٱلنَّاسُ إِلَيْهَا ، ثُمَّ زَادَ فِي عِمَارَتِهَا ٱبْنُهُ بَادِيسُ بَعْدَهُ .

---

(١) السند : ماقابلك من الجبل وعلا عن السفح ، وجمعه أسناد (٢) أصل البشرة ظاهر الجلد ، ومن المجاز : بشرة الأرض ماظهر من نباتها وما يبدو من زرعها فيلبسها

« وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ » أَنَّ فِي كُورَةِ سَرَقُسْطَةَ ٱلْمِلْحَ ٱلْأَنْدَرَانِيَّ(١) ٱلْأَبْيَضَ ٱلصَّافِيَ ٱلْأَمْلَسَ ٱلْخَالِصَ ، وَلَيْسَ لِلْأَنْدَلُسِ مَوْضِعٌ فِيهِ مِلْحٌ مِثْلُ هَذَا ٱلْمِلْحِ

***

سرقسطة

وَقَالَ وَسَرَقُسْطَةُ بَنَاهَا قَيْصَرُ مَلِكُ رُومَةَ ٱلَّذِي تُؤَرَّخُ مِنْ مُدَّتِهِ مُدَّةُ ٱلصُّفْرِ قَبْلَ مَوْلِدِ ٱلْمَسِيحِ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ ٱلْأَنْبِيَاءِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ . وَتَفْسِيرُ ٱسْمِهَا : قَصْرُ ٱلسَّيِّدِ ، لِأَنَّهُ ٱخْتَارَ ذَلِكَ ٱلْمَكَانَ بِالْأَنْدَلُسِ .

***

نهر جلق

« وَقِيلَ إِنَّ مُوسَى بْنَ نُصَيْرٍ » شَرِبَ مِنْ مَاءِ نَهْرِ جِلِّقٍ بِسَرَقُسْطَةَ ، فَاسْتَعْذَبَهُ وَحَكَمَ أَنَّهُ لَمْ يَشْرَبْ بِالْأَنْدَلُسِ أَعْذَبَ مِنْهُ ، وَسَأَلَ عَنِ ٱسْمِهِ فَقِيلَ جِلِّقُ وَنَظَرَ إِلَى مَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلْبَسَاتِينِ فَشَبَّهَهَا بِغُوطَةِ جِلِّقِ ٱلشَّامِ ، وَقِيلَ إِنَّهَا مِنْ بِنَاءِ ٱلْإِسْكَنْدَرِ . وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ .

---

(١) في ياقوت : الملح الذرآني

***

برجة

وَ بِمَدِينَةِ بَرْجَةَ ـ وَهِيَ مِنْ أَعْمَالِ الْمَرِيَّةِ ـ مَعْدِنُ الرَّصَاصِ وَهِيَ عَلَى وَادٍ مُبْهِجٍ يُعْرَفُ بِوَادِي عَذْرَاءَ ، وَهُوَ مُحْدَقٌ[1] بِالْأَزْهَارِ وَالْأَشْجَارِ. وَتُسَمَّى بَرْجَةُ بَهْجَةً لِبَهْجَةِ مَنْظَرِهَا، وَفِيهَا يَقُولُ أَبُو الْفَضْلِ بْنُ شَرَفٍ الْقَيْرَوَانِيُّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ:

رِيَاضٌ تَعَشَّقَهَا سُنْدُسٌ ... تَوَشَّتْ مَعَاطِفُهَا بِالزَّهَرْ

مَدَامِعُهَا فَوْقَ خَدَّيْ رُبًا ... لَهَا نَظْرَةٌ فَتَنَتْ مَنْ نَظَرْ

وَكُلُّ مَكَانٍ بِهَا جَنَّةٌ ... وَكُلُّ طَرِيقٍ إِلَيْهَا سَقَرْ[2]

وَفِيهَا أَيْضًا قَوْلُهُ :

حُطَّ الرِّحَالَ بِبَرْجَهْ ... وَارْتَدْ لِنَفْسِكَ بَهْجَهْ

فِي قَلْعَةٍ كَسِلَاحٍ[3] ... وَدَوْحَةٍ مِثْلِ لُجَّهْ

فَحِصْنُهَا لَكَ أَمْنٌ ... وَرَوْضُهَا لَكَ فُرْجَهْ

كُلُّ الْبِلَادِ سِوَاهَا ... كَعُمْرَةٍ وَهْيَ حَجَّهْ[4]

---

(١) أحدق به استدار وأحاط . والحديقة من الرياض كل أرض استدرات وأحدق بها حاجز وأرض مرتفعة (٢) أى فيه مشقة وحر شديد (٣) ويروى : كسلام : فالمعنى أن القلعة التى جعلت موضع خوف وحذر صارت محل أمن وسلام (٤) أى بمنزلة النفل من الفرض

وَبِمَالَقَةَ ٱلتِّينُ ٱلَّذِى يُضْرَبُ ٱلْمَثَلُ بِحُسْنِهِ ، وَيُجْلَبُ حَتَّى لِلْهِنْدِ وَٱلصِّينِ ، وَقِيلَ إِنَّهُ لَيْسَ فِي ٱلدُّنْيَا مِثْلُهُ .

وَفِيهِ يَقُولُ أَبُو ٱلْحَجَّاجِ يُوسُفُ[١] بْنُ ٱلشَّيْخِ ٱلْبَـلَوِىُّ ٱلْمَالَقِىُّ حَسْبَمَا أَنْشَدَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ ، مِنْهُمْ ٱبْنُ سَعِيدٍ :

مَالَقَةٌ حُيِّيتَ يَا تِينَهَا ٱلْفُلْكُ[٢] مِنْ أَجْلِكَ[٣] يَاتِينَهَا

نَهَى طَبِيبِي عَنْهُ فِي عِلَّتِي مَا لِطَبِيبِي عَنْ حَيَاتِي نَهَى ؟

وَذَيَّلَ عَلَيْهِ ٱلْإِمَامُ ٱلْخَطِيبُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ ٱلْوَهَّابِ ٱلْمُنْشِي[٤] بِقَوْلِهِ :

وَحِمْصُ لَا تَنْسَ لَهَا تِينَهَا وَٱذْكُرْ مَعَ ٱلتِّينِ زَيَاتِينَهَا[٥]

---

(١) هو يوسف بن محمد صاحب كتاب ألف با و يعرف بابن الشيخ، و بلوى : نسبة الى بلى ناحية بالأندلس (٢) يطلق على المفرد والجمع (٣) أى أن السفن يأتين اليها من أجلك، و يقرأ بحذف همزة الفعل : يأتينها ليكون فى البيت جناس تام بين عروضه وضرب به وكذلك بينهما و بين آخر البيت الثانى وكذلك مع البيت المذيل به ، وقد كان لشعراء هذا العصر ولوع بأنواع الجناس يتكلفونها و يقسرون المعانى عليها (٤) أظنه القيسى . وهو الخطيب الفقيه الأديب أبو محمد عبد الوهاب بن على القيسى من شيوخ أبى الحجاج البلوى وأصحابه ، وكثيرا مايذكره و ينقل شيئا من كلامه فى كتابه ألف با (٥) جمع زيتون

وَفِى بَعْضِ ٱلنُّسَخِ :

لَا تَنْسَ لِإشْبِيْلِيَةٍ تِينَهَا وَٱذْكُرْ مَعَ ٱلتِّينِ زَيَا تِينَهَا

وَهُوَ نَحْوُ ٱلْأَوَّلِ لِأَنَّ حِمْصَ هِىَ إِشْبِيلِيَةُ لِنُزُولِ أَهْلِ حِمْصَ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ بِهَا حَسْبَمَا سَنَذْكُرُهُ

« وَنَسَبَ » ٱبْنُ جُزَىّ فِى تَرْتِيبِهِ لِرِحْلَةِ ٱبْنِ بَطُّوطَةَ ٱلْبَيْتَيْنِ ٱلْأَوَّلَيْنِ لِلْخَطِيبِ أَبِى مُحَمَّدٍ عَبْدِ ٱلْوَهَّابِ ٱلْمَالَقِىّ ، وَٱلتَّذْيِيلَ لِقَاضِى ٱلْجَمَاعَةِ أَبِى عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ . فَٱللهُ أَعْلَمُ .

***

مالقة

وَقَالَ ٱبْنُ بَطُوطَةَ[1] : وَبِمَالَقَةَ يُصْنَعُ ٱلْفَخَّارُ ٱلْمُذَهَّبُ ٱلْعَجِيبُ وَيُجْلَبُ مِنْهَا إِلَى أَقَاصِى ٱلْبِلَادِ ، وَمَسْجِدُهَا كَبِيرُ ٱلسَّاحَةِ كَثِيرُ ٱلْبَرَكَةِ شَهِيرُهَا ، وَصَحْنُهُ لَا نَظِيرَ لَه فِى ٱلْحُسْنِ ، وَفِيهِ أَشْجَارُ ٱلنَّارَنجِ ٱلْبَدِيعَةُ . ٱنْتَهَى. وَقَالَ قَبْلَهُ إِنَّ مَالَقَةَ إِحْدَى قَوَاعِدِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَبِلَادِهَا ٱلْحِسَانِ ، جَامِعَةً بَيْنَ

---

(١) هو الامام المؤرخ الرحالة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن على اللواتى الطنجى صاحب الرحلة المشهورة : واختصرها ابن جزى البلنسى

مَرَافِقِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ، كَثِيرَةُ ٱلْخَيْرَاتِ وَٱلْفَوَاكِهِ، رَأَيْتُ ٱلْعِنَبَ يُبَاعُ فِي أَسْوَاقِهَا بِحِسَابِ ثَمَانِيَةِ أَرْطَالٍ بِدِرْهَمٍ صَغِيرٍ ، وَرُمَّانُهَا ٱلْمُرْسِيُّ ٱلْيَاقُوتِيُّ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي ٱلدُّنْيَا . وَأَمَّا ٱلتِّينُ وَٱللَّوْزُ فَيُجْلَبَانِ مِنْهَا وَمِنْ أَحْوَازِهَا إِلَى بِلَادِ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ . انْتَهَى .

***

أشبونة

« وَبِكُورَةِ أُشْبُونَةَ » ٱلْمُتَّصِلَةِ بِشَنْتَرِينَ مَعْدِنُ ٱلتِّبْرِ ، وَفِيهَا عَسَلٌ يُجْعَلُ فِي كِيسِ كَتَّانٍ فَلَا يَكُونُ لَهُ رُطُوبَةٌ كَأَنَّهُ سُكَّرٌ ، وَيُوجَدُ فِي رِيفِهَا ٱلْعَنْبَرُ ٱلَّذِي لَا يُشْبِهُهُ إِلَّا ٱلشِّحْرِيُّ(١)

***

قرطبة

« وَمِنْ أَشْهَرِ مُدُنِ ٱلْأَنْدَلُسِ » مَدِينَةُ قُرْطُبَةَ أَعَادَهَا ٱللهُ تَعَالَى لِلْإِسْلَامِ ، وَبِهَا ٱلْجَامِعُ ٱلْمَشْهُورُ ، وَٱلْقَنْطَرَةُ ٱلْمَعْرُوفَةُ بِالْجِسْرِ .

الجسر الأكبر

« وَقَدْ ذَكَرَ ٱبْنُ حَيَّانَ » أَنَّهُ بُنِيَ عَلَى أَمْرِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَنَصُّهُ :

---

(١) نسبة الى بلاد الشحر التى بقرب عمان ببلاد العرب

وَقَامَ فِيهَا بِأَمْرِهِ عَلَى ٱلنَّهَرِ ٱلأَعْظَمِ بِدَارِ مَمْلَكَتِهَا قُرْطُبَةَ ٱلْجِسْرُ ٱلأَكْبَرُ ٱلَّذِى مَا يُعْرَفُ فِى ٱلدُّنْيَا مِثْلُهُ. انْتَهى

وَفِيهَا يَقُولُ بَعْضُ عُلَمَاءِ ٱلأَنْدَلُس :

بِأَرْبَعٍ فَاقَتِ ٱلأَمْصَارَ قُرْطُبَةٌ
مِنْهُنَّ قَنْطَرَةُ ٱلْوَادِى وَجَامِعُهَا

هَاتَانِ ثِنْتَانِ وَٱلزَّهْرَاءُ ثَالِثَةٌ
وَٱلْعِلْمُ أَعْظَمُ شَىْءٍ وَهْوَ رَابِعُهَا

***

وصف قرطبة

« وَقَالَ ٱلْحِجارِىُّ فِى ٱلْمُسْهِبِ » : كَانَتْ قُرْطُبَةُ فِى ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمَرْوَانِيَّةِ قُبَّةَ ٱلإِسْلَامِ ، وَمُجْتَمَعَ أَعْلَامِ ٱلأَنَامِ ، بِهَا ٱسْتَقَرَّ سَرِيرُ ٱلْخِلَافَةِ ٱلْمَرْوَانِيَّةِ ، وَفِيهَا تَمَحَّضَتْ خُلَاصَةُ ٱلْقَبَائِلِ ٱلْمَعَدِّيَّةِ وَٱلْيَمَانِيَّةِ ، وَإِلَيْهَا كَانَتِ ٱلرِّحْلَةُ فِى ٱلرِّوَايَةِ ، إِذْ كَانَتْ مَرْكَزَ ٱلْكُرَمَاءِ وَمَعْدِنَ ٱلْعُلَمَاءِ ، وَهِىَ مِنَ ٱلأَنْدَلُسِ بِمَنْزِلَةِ ٱلرَّأْسِ مِنَ ٱلْجَسَدِ ، وَنَهْرُهَا مِنْ أَحْسَنِ ٱلأَنْهَارِ ، مُكْتَنَفٌ بِدِيبَاجِ ٱلْمُرُوجِ مُطَرَّزٌ بِالأَزْهَارِ ،

تَصْدَحُ فِي جَنَبَاتِهِ[١] ٱلْأَطْيَارُ ، وَتَنْعَرُ ٱلنَّوَاعِيرُ[٢] وَيَبْسِمُ ٱلنُّوَّارُ، وَقُرْطَاهَا ٱلزَّاهِرَةُ وَٱلزَّهْرَاءِ حَاضِرَتَا ٱلْمُلْكِ ، وَأُفُقَاهُ ٱلنَّعْمَاءِ وَٱلسَّرَّاءِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَخْنَى عَلَيْهَا ٱلزَّمَانُ ، وَغَيَّرَ بَهْجَةَ أَوْجُهِهَا ٱلْحِسَانِ ، فَتِلْكَ عَادَتُهُ وَسَلِ ٱلْخَوَرْنَقَ وَٱلسَّدِيرَ وَغُمْدَانَ[٣] ، وَقَدْ أَعْذَرَ[٤] بِإِنْذَارِهِ إِذْ لَمْ يَزَلْ يُنَادِي بِصُرُوفِهِ لَا أَمَانَ لَا أَمَانَ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَمَا زِلْتُ أَسْمَعُ أَنَّ ٱلْمُلُو كَ تَبْنِي عَلَى قَدْرِ أَخْطَارِهَا

وَقَالَ ٱلسُّلْطَانُ يَعْقُوبُ[٥] ٱلْمَنْصُورُ ٱبْنُ ٱلسُّلْطَانِ

---

(١) جنباته : نواحيه (٢) السواقي مفرده ناعورة ، وهي الدولاب يستقي بها ويديره الماء ،سميت بذلك لنعيرها وصوتها (٣) قصور للنعمان بن المنذر (٤) أعذر : أبدى عذرا ، وكان منه مايعذر به، وفى المثل : أعذر من أنذر (٥) هو صاحب بلاد المغرب والأندلس بايعه الموحدون عقب موت أبيه سنة ٥٨٠ ودعوه أمير المؤمنين ولقبوه المنصور فقام بالأمر أحسن قيام وهو الذى أظهر أبهة ملكهم ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل ، وكان من أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثا وأكثرهم اصابة الظن ، قد أحكمته التجارب وحنكته الخبرة ، وله مع الفرنج وقائع عظيمة ، وتقلبت به الأحوال حتى توفى سنة ٥٩٥ بمراكش . وكان من شعراء دولته أبو بكر يحي بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر الأندلسى المرسى المتوفى سنة ٥٨٧

يُوسُفَ بْنِ ٱلسُّلْطَانِ عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ لِأَحَدِ رُؤَسَاءِ أَجْنَادِهَا : مَا تَقُولُ فِي قُرْطُبَةَ ؟ فَخَاطَبَهُ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ كَلَامُ عَامَّةِ ٱلأَنْدَلُسِ بِقَوْلِهِ: جَوْفُهَا شِمَامٌ ، وَغَرْبِيُّهَا قُمَامٌ[1] ، وَقِبْلَتُهَا مُدَامٌ ، وَٱلْجَنَّةُ هِيَ وَٱلسَّلَامُ ، يَعْنِي بِالشِّمَامِ جِبَالَ ٱلْوَرْدِ ، وَيَعْنِي بِالْقُمَامِ مَا يُؤْكَلُ إِشَارَةً إِلَى مَحْرَثِ ٱلْكَنْبَانِيَةِ[2] ، وَيَعْنِي بِالْمُدَامِ ٱلنَّهْرَ . وَلَمَّا قَالَ وَالِدُهُ ٱلسُّلْطَانُ يُوسُفُ ٱبْنُ عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ لِأَبِي عِمْرَانَ مُوسَى بْنِ سَعِيدٍ ٱلْعَنْسِيِّ[3] : مَا عِنْدَكَ فِي قُرْطُبَةَ ؟ قَالَ لَهُ : مَا كَانَ لِي أَنْ أَتَكَلَّمَ حَتَّى أَسْمَعَ مَذْهَبَ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِيهَا ، فَقَالَ ٱلسُّلْطَانُ : إِنَّ مُلُوكَ بَنِي أُمَيَّةَ حِينَ ٱتَّخَذُوهَا حَضْرَةَ مَمْلَكَتِهِمْ لَعَلَى بَصِيرَةٍ ، ٱلدِّيَارُ ٱلْمُنْفَسِحَةُ ٱلْكَبِيرَةُ ، وَٱلشَّوَارِعُ ٱلْمُتَّسِعَةُ ، وَٱلْمَبَانِي ٱلضَّخْمَةُ ٱلْمُشَيَّدَةُ ، وَٱلنَّهْرُ ٱلْجَارِي ، وَٱلْهَوَاءُ

---

(١) يقال : قم ماعلى المائدة قما : أكله فلم يدع منه شيئا فهو رجل مقم (٢) ناحية من الأندلس قرب قرطبة ينسب اليها أبو عبد الله محمد بن القاسم ابن محمد الأموى القرطبي الفقيه الأديب ولى الصلاة والخطبة بجامع الزهراء وتوفى سنة ٤٠٣ (٣) أظنها القيسى: فهناك الأمام الفقيه الورع أبو عمران موسى بن عمران القيسى الميرتلى وله ذكر فى ألف با

ٱلْمُعْتَدِلُ، وَٱلْخَارِجُ ٱلنَّاضِرُ، وَٱلْمَحْرَثُ ٱلْعَظِيمُ ، وَٱلشَّعْرَاءُ[1] ٱلْكَافِيَةُ ، وَٱلتَّوَسُّطُ بَيْنَ شَرْقِيِّ ٱلْأَنْدَلُسِ وَغَرْبِيِّهَا . قَالَ فَقُلْتُ : مَا أَبْقَى لِي أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَا أَقُولُ .

(قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ) وَلِأَهْلِهَا رِيَاسَةٌ وَوَقَارٌ ، لَا تَزَالُ سِمَةُ ٱلْعِلْمِ وَٱلْمُلْكِ مُتَوَارَثَةٌ فِيهِمْ ، إِلَّا أَنَّ عَامَّتَهَا أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ فُضُولًا وَأَشَدُّهُمْ تَشْغِيباً[2] وَيُضْرَبُ بِهِمُ ٱلْمَثَلُ مَا بَيْنَ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي ٱلْقِيَامِ عَلَى ٱلْمُلُوكِ وَٱلتَّشْنِيعِ عَلَى ٱلْوُلَاةِ وَقِلَّةِ ٱلرِّضَا بِأُمُورِهِمْ ، حَتَّى إِنَّ ٱلسَّيِّدَ أَبَا يَحْيَى أَخَا ٱلسُّلْطَانِ يَعْقُوبَ ٱلْمَنْصُورِ قِيلَ لَهُ لَمَّا ٱنْفَصَلَ عَنْ وِلَايَتِهَا : كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَ قُرْطُبَةَ ؟ فَقَالَ : مِثْلُ ٱلْجَمَلِ إِنْ خَفَّفْتَ عَنْهُ ٱلْحِمْلَ صَاحَ ، وَإِنْ أَثْقَلْتَهُ صَاحَ ، مَا نَدْرِي أَيْنَ رِضَاهُمْ فَنَقْصِدَهُ ؟ وَلَا أَيْنَ سَخَطُهُمْ فَنَجْتَنِبَهُ ؟ وَمَا سَلَّطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ حَجَّاجَ ٱلْفِتْنَةِ ، حَتَّى كَانَ

(١) لعله يريد بالشعراء الأرض ذات الشجر الكثير ، والشعراء أيضا الأجمة والشجر الكثير الملتف ، ويقال : روضة شعراء : أى كثيرة الأشجار ، والشعراء : روضة يغطي رأسها الشجر لكثرته وتكاثفه ، وكثرة العشب فيها (٢) أى ثورة على الحكام واحداثا للفتن وتهييجا للشر

عَامَّتُهَا شَرًّا مِنْ عَامَّةِ الْعِرَاقِ ، وَإِنَّ الْعَزْلَ عَنْهَا لِمَا قَاسَيْتُهُ مِنْ أَهْلِهَا عِنْدِي وِلَايَةٌ ، وَإِنِّي وَإِنْ كُلِّفْتُ الْعَوْدَ إِلَيْهَا لَقَائِلٌ : لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ . انْتَهَى .

***

فضل قرطبة

« وَقَالَ أَبُو الْفَضْلِ التِّيفَاشِيُّ[1] » : جَرَتْ مُنَاظَرَةٌ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكِ الْمَغْرِبِ الْمَنْصُورِ يَعْقُوبَ بَيْنَ الْفَقِيهِ أَبِي الْوَلِيدِ ابْنِ رُشْدٍ ، وَالرَّئِيسِ أَبِي بَكْرِ بْنِ زُهْرٍ[2] ، فَقَالَ ابْنُ رُشْدٍ لِابْنِ زُهْرٍ فِي تَفْضِيلِ قُرْطُبَةَ : مَا أَدْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا مَاتَ عَالِمٌ بِإِشْبِيلِيَةَ فَأُرِيدَ بَيْعُ كُتُبِهِ حُمِلَتْ إِلَى قُرْطُبَةَ حَتَّى تُبَاعَ فِيهَا ، وَإِنْ مَاتَ مُطْرِبٌ بِقُرْطُبَةَ فَأُرِيدَ بَيْعُ آلَاتِهِ حُمِلَتْ إِلَى إِشْبِيلِيَةَ . قَالَ : وَقُرْطُبَةُ أَكْثَرُ بِلَادِ اللهِ كُتُبًا . انْتَهَى .

---

(١) تيفاش : مدينة قديمة بافريقية ذات عيون ومزارع كثيرة ، وهي في سفح جبل (٢) هو محمد بن أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر ابن عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الأيادي الأندلسي الاشبيلي ، كان من أهل بيت كلهم علماء حكماء ورؤساء وزراء ، وكان أبو بكر هذا أديبا لغويا وطبيبا نطاسيا وشاعرا مجيدا وله موشحات حسنة ، ولد سنة ٥٠٧ وتوفي سنة ٥٩٥

« وَحَكَى » ٱلإِمَامُ ٱبْنُ بَشْكُوَالَ عَنِ ٱلشَّيْخِ أَبِي بَكْرِ بْنِ سَعَادَةَ أَنَّهُ دَخَلَ مَدِينَةَ طُلَيْطُلَةَ مَعَ أَخِيهِ عَلَى ٱلشَّيْخِ ٱلْأُسْتَاذِ أَبِي بَكْرٍ ٱلمَخْزُومِيِّ ، قَالَ فَسَأَلَنَا مِنْ أَيْنَ ؟ فَقُلْنَا مِنْ قُرْطُبَةَ ، فَقَالَ مَتَى عَهْدُكُمَا بِهَا ؟ فَقُلْنَا ٱلْآنَ وَصَلْنَا مِنْهَا ، فَقَالَ ٱقْرُبَا إِلَيَّ أَشُمَّ نَسِيمَ قُرْطُبَةَ ، فَقَرُبْنَا مِنْهُ فَشَمَّ رَأْسِي وَقَبَّلَهُ وَقَالَ لِي ٱكْتُبْ :

أَقُرْطُبَةُ ٱلْغَرَّاءُ هَلْ لِي أَوْبَةٌ[1] إِلَيْكِ وَهَلْ يَدْنُو لَنَا ذَلِكَ ٱلْعَهْدُ

سَقَى ٱلْجَانِبَ ٱلْغَرْبِيَّ مِنْكِ غَمَامَةٌ
وَقَعْقَعَ[2] فِي سَاحَاتِ دَوْحَاتِكِ[3] ٱلرَّعْدُ

لَيَالِيكِ أَسْحَارٌ وَأَرْضُكِ رَوْضَةٌ
وَتُرْبُكِ فِي ٱسْتِنْشَاقِهَا عَنْبَرٌ وَرْدُ

وَكَتَبَ ٱلرَّئِيسُ ٱلْكَاتِبُ أَبُو بَكْرِ بْنُ ٱلْقَبْطَرْنِيَّةِ[4]

(١) أى رجعة وعودة (٢) قعقع : صوت (٣) جمع دوحة : الشجرة العظيمة المظلة (٤) الوزراء بنو القبطرنية من أهل بطليوس (فى القرنين الخامس والسادس) من أشهرهم الوزير أبو محمد ، وبينه وبين الوزير ابن عبدون والفتح بن خاقان مراسلات أدبية ، وكان أخوه أبو بكر هذا شاعرا أديبا ، وكذلك أخوهما أبو الحسن . والأبيات أرسلها الوزير أبو بكر الى الوزير أبي الحسن بقرطبة يذكر له من اخوانه ، وهى أربعة عشر بيتا مذكورة فى قلائد العقيان

لِلْعَالِمِ أَبِى ٱلْحُسَيْنِ بْنِ سِرَاجٍ بِقَوْلِهِ :

يَاسَيِّدِى وَأَبِى هَوًى وَجَلَالَةً
وَرَسُولَ وُدِّى إِنْ طَلَبْتُ رَسُولَا

عَرِّجْ بِقُرْطُبَةٍ إِذَا بُلِّغْتَهَا ... بِأَبِى ٱلْحُسَيْنِ وَنَادِهِ تَعْوِيلَا[1]

وَإِذَا سَعِدْتَ بِنَظْرَةٍ مِنْ وَجْهِهِ ... فَاهْدِ ٱلسَّلَامَ لِكَفِّهِ تَقْبِيلَا

وَٱذْكُرْ لَهُ شَوْقِى وَشُكْرِى مُجْمَلًا
وَلَوِ ٱسْتَطَعْتُ شَرَحْتُهُ تَفْصِيلَا

بِتَحِيَّةٍ تُهْدَى إِلَيْهِ كَأَنَّمَا
جَرَّتْ عَلَى زَهْرِ ٱلرِّيَاضِ ذُيُولَا

وَفِى بَابِ ٱلْيَهُودِ بِقُرْطَبَةَ يَقُولُ أَبُو عَامِرِ بْنُ شُهَيْدٍ[2] :

لَقَدْ أَطْلَعُوا عِنْدَ بَابِ ٱلْيَهُو ... دِ بَدْرًا أَبَى ٱلْحُسْنُ أَنْ يُكْسَفَا

تَرَاهُ ٱلْيَهُودُ عَلَى بَابِهَا ... أَمِيرًا فَتَحْسَبُهُ يُوسُفَا

(١) لعلها تمويلا ، أى معولا عليه ولائذا به ، ومموله صيره ذا مال

(٢) هو أحمد بن أبى مروان بن شهيد حفيد ذى الوزارتين أحمد بن عبد الملك بن شهيد وزير الناصر . ولد أبو عامر سنة ٣٨٢ وتوفى سنة ٤٢٦ وكان عالما أديبا ناظما ناثرا وكانت له براعة فائقة فى أسلوب الرسائل القصصية النادرة المثال فى الكتابه العربية

وَاسْتَقْبَحُوا قَوْلَهُمْ بَابَ الْيَهُودِ فَقَالُوا بَابَ الْهُدَى ؛ وَسَنَذْكُرُ قُرْطُبَةَ وَالزَّهْرَاءَ وَالزَّاهِرَةَ وَمَسْجِدَهَا فِي الْبَابِ الْمُنْفَرِدِ بِهَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، وَكَذَلِكَ الْقَنْطَرَةُ

***

اشبيلية

« وَمِنْ أَعْظَمِ مُدُنِ الْأَنْدَلُسِ إِشْبِيلِيَةُ » قَالَ الشَّقَنْدِيُّ: مِنْ مَحَاسِنِهَا اعْتِدَالُ الْهَوَاءِ ، وَحُسْنُ الْمَبَانِي ، وَنَهْرُهَا الْأَعْظَمُ الَّذِي يَصْعَدُ الْمَدُّ فِيهِ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ مِيلاً ثُمَّ يَحْسِرُ،[١] وَفِيهِ يَقُولُ ابْنُ سَفَرٍ :

شَقَّ النَّسِيمُ عَلَيْهِ جَيْبَ قَمِيصِهِ

فَانْسَابَ[٢] مِنْ شَطَّيْهِ يَطْلُبُ ثَارَهُ

فَتَضَاحَكَتْ وُرْقُ الْحَمَامِ بِدَوْحِهَا

هُزْءًا فَضَمَّ مِنَ الْحَيَاءِ إِزَارَهُ[٣]

وَقِيلَ لِأَحَدِ مَنْ رَأَى مِصْرَ وَالشَّامَ: أَيُّهُمَا رَأَيْتَ أَحْسَنَ ؟، أَهَذَانِ أَمْ إِشْبِيلِيَةُ ؟ فَقَالَ بَعْدَ تَفْضِيلِ إِشْبِيلِيَةَ : شَرَفُهَا[٤] غَابَةٌ بِلاَ أَسَدٍ، وَنَهْرُهَا نِيلٌ بِلاَ تِمْسَاحٍ . انْتَهَى .

---

(١) حسر الماء عن موضعه : نضب وغار (٢) انساب الماء : جرى وذهب كل مذهب (٣) ضم ازاره : كناية عن انحساره عن الشاطىء (٤) جبل بها كثير الغياض

وَيُقَالُ : إِنَّ ٱلَّذِى بَنَى إِشْبِيلِيَةَ ٱسْمُهُ تُورِيسُ ؛ وَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سُمِّىَ قَيْصَرَ ؛ وَإِنَّهُ لَمَّا دَخَلَ ٱلْأَنْدَلُسَ أُعْجِبَ بِسَاحَاتِهَا وَطِيبِ أَرْضِهَا ؛ وَجَبَلِهَا ٱلْمَعْرُوفِ بِالشَّرَفِ ؛ فَرَدَمَ عَلَى ٱلنَّهْرِ ٱلْأَعْظَمِ مَكَانًا وَأَقَامَ فِيهِ ٱلْمَدِينَةَ ، وَأَحْدَقَ عَلَيْهَا بِأَسْوَارٍ مِنْ صَخْرٍ صَلْدٍ ؛ وَبَنَى فِى وَسَطِ ٱلْمَدِينَةِ قَصَبَتَيْنِ بَدِيعَتَىِ ٱلشَّكْلِ تُعْرَفَانِ بِالْأَخَوَيْنِ ؛ وَجَعَلَهَا أُمَّ قَوَاعِدِ ٱلْأَنْدَلُسِ ؛ وَٱشْتَقَّ لَهَا ٱسْماً مِنْ رُومِيَةَ وَمِنِ ٱسْمِهِ فَسَمَّاهَا رُومِيَةَ تُورِيسَ. ٱنْتَهَى .

(وَقَدْ تَقَدَّمَ) شَىْءٌ مِنْ هَذَا . وَكَانَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنْ مُلُوكِ ٱلْأَعَاجِمِ يَتَدَاوَلُونَ بِسُكْنَاهُمْ أَرْبَعَةَ بِلَادٍ مِنْ بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ إِشْبِيلِيَةَ وَقُرْطُبَةَ ، وَقَرْمُونَةَ ، وَطُلَيْطِلَةَ ، وَيُقَسِّمُونَ أَزْمَانَهُمْ عَلَى ٱلْكَيْنُونَةِ بِهَا . وَأَمَّا شَرَفُ[1] إِشْبِيلِيَةَ فَهُوَ شَرِيفُ ٱلْبُقْعَةِ كَرِيمُ ٱلتُّرْبَةِ ، دَائِمُ ٱلْخُضْرَةِ ، فَرْسَخٌ فِى فَرْسَخٍ طُولًا وَعَرْضًا ، لَا تَكَادُ تُشْمِسُ فِيهِ بُقْعَةٌ لِالْتِفَافِ زَيْتُونِهِ

(١) أى جبلها المعروف بذلك الاسم

(وَأَعْلَمْ) أَنَّ إِشْبِيلِيَةَ[1] لَهَا كُوَرٌ جَلِيلَةٌ ، وَمُـدُنٌ كَثِيرَةٌ ، وَحُصُونٌ شَرِيفَةٌ ، وَهِيَ مِنَ الْـكُوَرِ الْمُجَنَّدَةِ نَزَلَهَا جُنْدُ حِمْصَ وَلِوَاؤُهُمْ فِي الْمَيْمَنَةِ بَعْدَ لِوَاءِ جُنْدِ دِمَشْقَ . وَانْتَهَتْ جِبَايَةُ إِشْبِيلِيَةَ أَيَّامَ الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ إِلَى خَمْسَةٍ وَثَلاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَمِائَةِ دِينَارٍ . وَفِي إِقْلِيمِ طَالِقَةَ مِنْ أَقَالِيمِ إِشْبِيلِيَةَ وُجِدَتْ صُورَةُ جَارِيَةٍ مِنْ مَرْمَرٍ مَعَهَا صَبِيٌّ وَكَأَنَّ حَيَّةً تُرِيدُهُ . وَلَمْ يُسْمَعْ فِي الْأَخْبَارِ ، وَلَا رُئِيَ فِي الْآثَارِ صُورَةٌ أَبْدَعُ مِنْهَا ، جُعِلَتْ فِي بَعْضِ الْحَمَّامَاتِ ، وَتَعَشَّقَهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْعَوَامِّ . وَفِي كُورَةِ مَارِدَةَ حِصْنُ شَنْتِ[2] أَفْرَجَ فِي غَايَةِ الِارْتِفَاعِ لَا يَعْلُوهُ طَائِرٌ أَلْبَتَّةَ لَا نَسْرٌ وَلَا غَيْرُهُ

« وَمِنْ عَجَائِبِ الْأَنْدَلُسِ » الْبَلَاطُ الْأَوْسَطُ مِنْ مَسْجِدِ جَامِعِ أُقْلِيشَ[3] فَإِنَّ طُولَ كُلِّ جَائِزَةٍ مِنْهُ مِائَةُ شِبْرٍ وَأَحَدَ عَشَرَ شِبْرًا ، وَهِيَ مُرَبَّعَةٌ مَنْحُوتَةٌ مُسْتَوِيَةُ الْأَطْرَافِ

« وَقَالَ بَعْضُ مَنْ وَصَفَ إِشْبِيلِيَةَ » إِنَّهَا مَدِينَةٌ عَامِرَةٌ

---

(١) معناها : المدينة المنبسطة (٢) قال ياقوت : شنتفروش حصن من أعمال ماردة (٣) أقليش : بلدة من أعمال طليطلة

عَلَى صَفَّةِ ٱلنَّهْرِ ٱلْكَبِيرِ ٱلْمَعْرُوفِ بِنَهْرِ قُرْطُبَةَ، وَعَلَيْهِ جِسْرٌ مَرْبُوطٌ بِالسُّفُنِ، وَبِهَا أَسْوَاقٌ قَائِمَةٌ وَتِجَارَاتٌ رَابِحَةٌ وَأَهْلُهَا ذَوُو أَمْوَالٍ عَظِيمَةٍ، وَأَكْثَرُ مَتَاجِرِهِمُ ٱلزَّيْتُ وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ إِقْلِيمِ ٱلشَّرَفِ. وَإِقْلِيمُ ٱلشَّرَفِ عَلَى تَلٍّ عَالٍ مِنْ تُرَابٍ أَحْمَرَ مَسَافَتُهُ أَرْبَعُونَ مِيلًا فِي مِثْلِهَا يَمْشِي بِهِ ٱلسَّائِرُ فِي ظِلِّ ٱلزَّيْتُونِ وَٱلتِّينِ. وَلَهَا فِيمَا ذَكَرَ بَعْضُ ٱلنَّاسِ قُرًى كَثِيرَةٌ، وَكُلُّ قَرْيَةٍ عَامِرَةٌ بِالْأَسْوَاقِ وَٱلدِّيَارِ ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْحَمَّامَاتِ وَغَيْرِهَا مِنَ ٱلْمَرَافِقِ

***

وصف اشبيلية

« وَقَالَ صَاحِبُ مِنْهَاجِ ٱلْفِكَرِ » عِنْدَ ذِكْرِ إِشْبِيلِيَةَ : وَهَذِهِ ٱلْمَدِينَةُ مِنْ أَحْسَنِ مُدُنِ ٱلدُّنْيَا، وَبِأَهْلِهَا يُضْرَبُ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْخَلَاعَةِ[1] وَٱنْتِهَازِ فُرْصَةِ ٱلزَّمَانِ ٱلسَّاعَةَ بَعْدَ ٱلسَّاعَةِ، وَيُعِينُهُمْ عَلَى ذَٰلِكَ وَادِيهَا ٱلْفَرِجُ[2]، وَنَادِيهَا[3] ٱلْبَهِجُ، وَهَٰذَا ٱلْوَادِي

(١) الخلاعة : التهتك والاستخفاف واللهو والمجون (٢) والفرج هي المدينة المعروفة بوادي الحجارة وهي بين الجوف والشرق من قرطبة . واشبيلية واقعة على شاطئ النهر العظيم المعروف بالوادي الكبير تسير فيه المراكب المثقلة .وأصل الوادي : كل مفرج بين جبال وآكام وتلال يكون مسلكا للسيل أو منفذا (٣) ناحيتها وقاصيتها، وقد يكون (باديها) أي ظاهرها وما يبدو منها ويبرز ، والبهجة الحسن والنضارة

يَأْتِيهَا مِنْ قُرْطُبَةَ وَيَجْزُرُ فِي كُلِّ يَوْمٍ . وَلَهَا جَبَلُ الشَّرَفِ وَهُوَ تُرَابٌ أَحْمَرُ طُولُهُ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنُوبِ أَرْبَعُونَ مِيلًا، وَعَرْضُهُ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ اثْنَا عَشَرَ مِيلًا، يَشْتَمِلُ عَلَى مِائَتَيْنِ وَعِشْرِينَ قَرْيَةً قَدِ الْتَحَفَتْ بِأَشْجَارِ الزَّيْتُونِ وَاشْتَمَلَتْ . انْتَهَى

وَلِكُورَةِ بَاجَةَ - مِنَ الْكُوَرِ الْغَرْبِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مِنْ أَعْمَالِ إِشْبِيلِيَةَ أَيَّامَ بَنِي عَبَّادٍ - خَاصِّيَّةٌ فِي دِبَاغَةِ الْأَدِيمِ وَصِنَاعَةِ الْكَتَّانِ ، وَفِيهَا مَعْدِنُ فِضَّةٍ ، وَبِهَا وُلِدَ الْمُعْتَمِدُ[1] ابْنُ عَبَّادٍ ، وَهِيَ مُتَّصِلَةٌ بِكُورَةِ مَارِدَةَ . وَلِجَبَلِ طَارِقٍ حَوْزُ قَصَبِ السَّبْقِ بِنِسْبَتِهِ إِلَى طَارِقٍ مَوْلَى مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ ، إِذْ كَانَ أَوَّلَ مَا حَلَّ بِهِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ عِنْدَ الْفَتْحِ ، وَلِذَا شُهِرَ بِجَبَلِ الْفَتْحِ ، وَهُوَ مُقَابِلُ الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ ، وَقَدْ تَجَوَّنَ[2] الْبَحْرُ هُنَالِكَ مُسْتَدِيرًا حَتَّى

---

(١) من ملوك الطوائف (٢) أحدث جونا وفرضة، ولعلها من الجونة وهى سليلة مستديرة « بالتصغير » مغشاة بالأدم

صَارَ مَكَانُ هَذَا ٱلْجَبَلِ كَالنَّاظِرِ لِلْجَزِيرَةِ ٱلْخَضْرَاء ، وَفِيهِ يَقُولُ مُطَرِّفٌ شَاعِرُ غَرْنَاطَةَ :

وَأَقْوَدَ[1] قَدْ أَلْقَى عَلَى ٱلْبَحْرِ مَتْنَهُ
فَأَصْبَحَ عَنْ قُودِ[2] ٱلْجِبَالِ بِمَعْزِلِ
يُعَرِّضُ نَحْوَ ٱلْأُفْقِ وَجْهاً كَأَنَّمَا
تُرَاقِبُ عَيْنَاهُ كَوَاكِبَ مَنْزِلِ[3]

وَإِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ ٱلْمُسَافِرُونَ مِنْ جِهَةِ سَبْتَةَ فِي ٱلْبَحْرِ بَانَ كَأَنَّهُ سَرْجٌ . قَالَ أَبُو ٱلْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى بْنِ سَعِيدٍ : أَقْبَلْتُ عَلَيْهِ مَرَّةً مَعَ وَالِدِي فَنَظَرْنَا إِلَيْهِ عَلَى تِلْكَ ٱلصِّفَةِ فَقَالَ وَالِدِي أَجِزْ ، فَقُلْتُ :

انْظُرْ إِلَى جَبَلِ ٱلْفَتْـ ـحِ رَاكِباً مَتْنَ لُجِّ
وَقَدْ تَفَتَّحَ مِثْلَ ٱلْـ أَفْنَانِ[4] فِي شَكْلِ سَرْجِ

« وَأَمَّا جَزِيرَةُ طَرِيفٍ » فَلَيْسَتْ بِجَزِيرَةٍ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ ٱلْجَزِيرَةُ ٱلَّتِي أَمَامَهَا فِي ٱلْبَحْرِ مِثْلَ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْخَضْرَاء.

(١) الأقود : الجبل الطويل (٢) جمع أقود (٣) كواكب من ذات المنازل والمطالع (٤) الأفنان : جمع فنن : وهو الغصن .

وَطَرِيفٌ ٱلْمَنْسُوبَةُ إِلَيْهِ بَرْبَرِيٌّ مِنْ مَوَالِي مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ، وَيُقَالُ إِنَّ مُوسَى بَعَثَهُ قَبْلَ طَارِقٍ فِي أَرْبَعِمِائَةِ رَجُلٍ ، فَنَزَلَ بِهَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ إِحْدَى وَتِسْعِينَ ، وَبَعْدَهُ دَخَلَ طَارِقٌ . وَٱللهُ أَعْلَمُ

« وَمِنْ أَعْظَمِ كُوَرِ ٱلْأَنْدَلُسِ » كُورَةُ طُلَيْطُلَةَ ، وَهِيَ مِنْ مُتَوَسِّطِ ٱلْأَنْدَلُسِ ، وَكَانَتْ دَارَ مَمْلَكَةِ بَنِي ذِي ٱلنُّونِ مِنْ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ ، وَكَانَ ٱبْتِدَاءُ مُلْكِهِمْ صَدْرَ ٱلْمِائَةِ ٱلْخَامِسَةِ ، وَسَمَّاهَا قَيْصَرُ بِلِسَانِهِ بُزْلَيْطِلَةَ[1]، وَتَأْوِيلُ ذَلِكَ ، أَنْتَ فَارِحٌ ، فَعَرَّبَتْهَا ٱلْعَرَبُ وَقَالَتْ طُلَيْطُلَةُ ، وَكَانُوا يُسَمُّونَهَا وَجِهَاتِهَا فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالثَّغْرِ ٱلْأَدْنَى، وَيُسَمُّونَ سَرَقُسْطَةَ وَجِهَاتِهَا بِالثَّغْرِ ٱلْأَعْلَى . وَتُسَمَّى طُلَيْطُلَةُ مَدِينَةَ ٱلْأَمْلَاكِ لِأَنَّهَا ـ فِيمَا يُقَالُ ـ مَلَكَهَا ٱثْنَانِ وَسَبْعُونَ إِنْسَانًا ،وَدَخَلَهَا سُلَيْمَانُ ٱبْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وَعِيسَى بْنُ مَرْيَمَ وَذُو ٱلْقَرْنَيْنِ ، وَفِيهَا وَجَدَ طَارِقٌ مَائِدَةَ سُلَيْمَانَ، وَكَانَتْ مِنْ ذَخَائِرِ أَشْبَانَ

(١) أظنها : توليطه ـ بضم التاء والطاء ـ ، مثل التسمية الاسبانية Toledo وكانت تسمى عند الرومانيين Toletula ومنه الاسم العربي طليطلة

مَلِكِ ٱلرُّومِ ٱلَّذِي بَنَى إِشْبِيلِيَةَ، أَخَذَهَا مِنْ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ كَمَا مَرَّ، وَقُوِّمَتْ هٰذِهِ ٱلْمَائِدَةُ عِنْدَ ٱلْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ، وَقِيلَ: إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ زُمُرُّدٍ أَخْضَرَ. وَيُقَالُ: إِنَّهَا ٱلْآنَ بِرُومَةَ، وَٱللهُ أَعْلَمُ بِذٰلِكَ. وَوَجَدَ طَارِقٌ بِطُلَيْطُلَةَ ذَخَائِرَ عَظِيمَةً: مِنْهَا مِائَةٌ وَسَبْعُونَ تَاجًا مِنَ ٱلدُّرِّ وَٱلْيَاقُوتِ وَٱلْأَحْجَارِ ٱلنَّفِيسَةِ، وَإِيوَانٌ[1] مُمْتَلِئٌ مِنْ أَوَانِي ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ، وَهُوَ كَبِيرٌ حَتَّى قِيلَ إِنَّ ٱلْخَيْلَ تَلْعَبُ فِيهِ فُرْسَانُهَا بِرِمَاحِهِمْ لِوُسْعِهِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ أَوَانِيَ ٱلْمَائِدَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَصِحَافَهَا مِنَ ٱلْيَشْمِ[1] وَٱلْجَزْعِ[2]. وَذَكَرُوا فِيهَا غَيْرَ هٰذَا مِمَّا لَا يَكَادُ يُصَدِّقُهُ ٱلنَّاظِرُ فِيهِ، وَبِطُلَيْطُلَةَ بَسَاتِينُ مُحْدِقَةٌ، وَأَنْهَارٌ مُخْتَرِقَةٌ، وَرِيَاضٌ وَجِنَانٌ، وَفَوَاكِهُ حِسَانٌ،

(١) الايوان: بناء فى مقدم المنزل مرفوع على حنايا غير مسدودة كايوان كسرى. (٢) اليشم وهو اليشب: حجر قريب من الزبرجد لكنه أصفى منه. فارسى (٣) الجزع. بالفتح: الخرز اليمانى والصينى، وهو الذى فيه سواد و بياض تشبه به الأعين، وسمى جزعا لأنه مقطع بألوان مختلفة، أى قطع سواده بياضه وصفرته. قال امرؤ القيس يصف سربا

فأدبرن كالجزع المفصل بينه ... بجيد معم فى العشيرة مخول

الواحدة جزعة

مُخْتَلِفَةُ ٱلطُّعُومِ وَٱلْأَلْوَانِ ، وَلَهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا أَقَالِيمُ رَفِيعَةٌ ، وَرَسَاتِيقُ[١] مَرِيعَةٌ ، وَضِيَاعٌ بَدِيعَةٌ ، وَقِلَاعٌ مَنِيعَةٌ ، وَبِالْجُمْلَةِ : فَمَحَاسِنُهَا كَثِيرَةٌ . وَلَعَلَّنَا نُلِمُّ بِبَعْضِ مُتَنَزَّهَاتِهَا فِيمَا يَأْتِي مِنْ هٰذَا ٱلْكِتَابِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى . وَطُلَيْطُلَةُ قَاعِدَةُ مُلْكِ ٱلْقُوطِيِّينَ ، وَهِيَ مُطِلَّةٌ عَلَى نَهْرِ تَاجُه ، وَعَلَيْهِ كَانَتِ ٱلْقَنْطَرَةُ ٱلَّتِي يَعْجِزُ ٱلْوَاصِفُونَ عَنْ وَصْفِهَا ، وَكَانَتْ عَلَى قَوْسٍ وَاحِدٍ تَكْنُفُهُ فُرْجَتَانِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . وَطُولُ ٱلْقَنْطَرَةِ ثَلَاثُمِائَةِ بَاعٍ ، وَعَرْضُهَا ثَمَانُونَ بَاعًا ، وَخُرِّبَتْ أَيَّامَ ٱلْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ لَمَّا عَصَى عَلَيْهِ أَهْلُهَا ، فَغَزَاهُمْ وَٱحْتَالَ فِي هَدْمِهَا ، وَفِي ذٰلِكَ يَقُولُ ٱلْحَكِيمُ عَبَّاسُ بْنُ فِرْنَاسٍ :

أَضْحَتْ طُلَيْطِلَةٌ مُعَطَّلَةً
مِنْ أَهْلِهَا فِي قَبْضَةِ ٱلصَّقْرِ
تُرِكَتْ بِلَا أَهْلٍ تُؤَهِّلُهَا
مَهْجُورَةَ ٱلْأَكْنَافِ كَٱلْقَبْرِ

(١) السواد والقرى ، ومريعة : خصيبة ممرعة

مَا كَانَ يُبْقِي اللهُ قَنْطَرَةً
نُصِبَتْ لِحَمْلِ كَتَائِبِ[1] الْكُفْرِ

وَسَيَأْتِي بَعْضُ أَخْبَارِ طُلَيْطِلَةَ :

***

وصف المرية

« وَمِنْ مَشْهُورِ مُدُنِ الْأَنْدَلُسِ الْمَرِيَّة » وَهِيَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، وَلَهَا الْقَلْعَةُ الْمَنِيعَةُ الْمَعْرُوفَةُ بِقَلْعَةِ خَيْرَانَ بَنَاهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ النَّاصِرُ ، وَعَظُمَتْ فِي دَوْلَةِ الْمَنْصُورِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ ، وَوَلَّى عَلَيْهَا مَوْلَاهُ خَيْرَانَ فَنُسِبَتِ الْقَلْعَةُ إِلَيْهِ، وَبِهَا مِنْ صَنْعَةِ الدِّيبَاجِ مَا تَفُوقُ بِهِ عَلَى سَائِرِ الْبِلَادِ ، وَفِيهَا دَارُ الصِّنَاعَةِ ، وَتَشْتَمِلُ كُورَتُهَا عَلَى مَعْدِنِ الْحَدِيدِ وَالرُّخَامِ ، وَمِنْ أَبْوَابِهَا بَابُ الْعُقَابِ[2]، عَلَيْهِ صُورَةُ الْعُقَابِ مِنْ حَجَرٍ قَدِيمٍ عَجِيبِ الْمَنْظَرِ

« وَقَالَ بَعْضُهُمْ » : كَانَ بِالْمَرِيَّةِ لِنَسْجِ طُرُزِ الْحَرِيرِ ثَمَانِمِائَةِ نَوْلٍ ، وَلِلْحُلَلِ النَّفِيسَةِ وَالدِّيبَاجِ الْفَاخِرِ أَلْفُ نَوْلٍ،

---

(١) الكتائب : جمع كتيبة وهو الجيش (٢) العقاب : من الطيور الجوارح وهو عاطل العنق والرأس من الريش ، وهو حاد البصر

وَلِلْإِسْقِلَاطُونِ[1] كَذَلِكَ ، وَلِلثِّيَابِ الْجُرْجَانِيَّةِ كَذَلِكَ ، وَلِلْأَصْفَهَانِيَّةِ مِثْلُ ذَلِكَ ، وَلِلْعُنَابِيِّ وَالْمَعَاجِرِ[2] الْمُدْهِشَةِ وَالسُّتُورِ الْمُكَلَّلَةِ ، وَيُصْنَعُ بِهَا مِنْ صُنُوفِ آلَاتِ الْحَدِيدِ وَالنُّحَاسِ وَالزُّجَاجِ مَالَا يُوصَفُ ، وَفَاكِهَةُ الْمَرِيَّةِ يَقْصُرُ عَنْهَا الْوَصْفُ حُسْناً ، وَسَاحِلُهَا أَفْضَلُ السَّوَاحِلِ ، وَبِهَا قُصُورُ الْمُلُوكِ الْقَدِيمَةُ الْغَرِيبَةُ الْعَجِيبَةُ . وَقَدْ أَلَّفَ فِيهَا أَبُو جَعْفَرٍ ابْنُ خَاتِمَةَ تَارِيخاً حَافِلاً سَمَّاهُ بِمَزِيَّةِ الْمَرِيَّةِ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْبِلَادِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ ، فِي مُجَلَّدٍ ضَخْمٍ تَرَكْتُهُ مِنْ جُمْلَةِ كُتُبِي بِالْمَغْرِبِ . وَاللهُ سُبْحَانَهُ الْمَسْئُولُ فِي جَمْعِ الشَّمْلِ ، فَلَهُ الْأَمْرُ مِنْ بَعْدُ وَمِنْ قَبْلُ . وَوَادِي الْمَرِيَّةِ طُولُهُ أَرْبَعُونَ مِيلًا فِي مِثْلِهَا كُلُّهَا بَسَاتِينُ بَهِجَةٌ ، وَجَنَّاتٌ نَضِرَةٌ ، وَأَنْهَارٌ مُطَّرِدَةٌ[3] ، وَطُيُورٌ مُغَرِّدَةٌ

---

(١) سقلاطون : بلد بالروم تنسب اليه الثياب السقلاطونية ، وقد تسمى الثياب نفسها سقلاطونا ــ وهى كلمة رومية . والى سقلاطون ينسب أبو على الحسن بن أحمد بن الحسن بن السماك السقلاطونى المعروف بابن البير توفى سنة ٥٠٤ (٢) المعاجر : جمع معجر : وهو نسيج تشده المرأة على رأسها وثوب يمنى يلتحف به و يرتدى (٣) أنهار مطردة : جارية .

« قَالَ بَعْضُهُمْ » : وَلَمْ يَكُنْ فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ أَكْثَرُ مَالًا مِنْ أَهْلِ الْمَرِيَّةِ ، وَلَا أَعْظَمُ مَتَاجِرَ وَذَخَائِرَ ، وَكَانَ بِهَا مِنَ الْحَمَّامَاتِ وَالْفَنَادِقِ نَحْوُ الْأَلْفِ ، وَهِيَ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ ، بَيْنَهُمَا خَنْدَقٌ مَعْمُورٌ ، وَعَلَى الْجَبَلِ الْوَاحِدِ قَصَبَتُهَا الْمَشْهُورَةُ بِالْحَصَانَةِ ، وَعَلَى الْآخَرِ رَبَضُهَا[1] ، وَالسُّورُ مُحِيطٌ بِالْمَدِينَةِ وَالرَّبَضِ ، وَغَرْبِيَّهَا رَبَضٌ لَهَا آخَرُ يُسَمَّى رَبَضَ الْحَوْضِ ، ذُو فَنَادِقَ وَحَمَّامَاتٍ وَخَنَادِقَ وَصِنَاعَاتٍ ، وَقَدِ اسْتَدَارَ بِهَا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ حُصُونٌ مُرْتَفِعَةٌ وَأَحْجَارٌ أَوَّلِيَّةٌ ، وَكَأَنَّمَا غُرْبِلَتْ أَرْضُهَا مِنَ التُّرَابِ ، وَلَهَا مُدُنٌ وَضِيَاعٌ[2] عَامِرَةٌ مُتَّصِلَةُ الْأَنْهَارِ . انْتَهَى

« وَقَالَ ابْنُ الْيَسَعِ » عِنْدَ ذِكْرِهِ مَدِينَةَ شَنْتَرَةَ[3] : إِنَّ مِنْ خَوَاصِّهَا أَنَّ الْقَمْحَ وَالشَّعِيرَ يُزْرَعَانِ فِيهَا وَيُحْصَدَانِ عِنْدَ مُضِيِّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا مِنْ زِرَاعَتِهِ ، وَأَنَّ التُّفَّاحَ فِيهَا

---

(١) ماحول المدينة من بيوت ومساكن (٢) الضياع : جمع ضيعة : الأرض المغلة (٣) هي من أعمال لشبونة ، وقد ملكها الافرنج سنة ٥٤٣

دَوْرُ كُلٍّ وَاحِدَةٍ ثَلَاثَةُ أَشْبَارٍ وَأَكْثَرُ. قَالَ لِى أَبُو عَبْدِ اللهِ الْبَاكُورِيُّ - وَكَانَ ثِقَةً: أَبْصَرْتُ عِنْدَ الْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ شَنْتَرَةَ أَهْدَى إِلَيْهِ أَرْبَعًا مِنَ التُّفَّاحِ مَا يُقِلُّ الْحَامِلُ عَلَى رَأْسِهِ غَيْرَهَا، دَوْرُ كُلٍّ وَاحِدَةٍ خَمْسَةُ أَشْبَارٍ، وَذَكَرَ الرَّجُلُ بِحَضْرَةِ ابْنِ عَبَّادٍ أَنَّ الْمُعْتَادَ عِنْدَهُمْ أَقَلُّ مِنْ هَذَا، فَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يَجِيءَ بِهَذَا الْعِظَمِ وَهَذَا الْقَدْرِ قَطَعُوا أَصْلَهَا وَأَبْقَوْا مِنْهُ عَشْرًا أَوْ أَقَلَّ وَجَعَلُوا تَحْتَهَا دِعَامَاتٍ[1] مِنَ الْخَشَبِ. انْتَهَى.

وَبِحِصْنِ شَنَشَ عَلَى مَرْحَلَةٍ مِنَ الْمَرِيَّةِ التُّوتُ الْكَثِيرُ، وَفِيهَا الْحَرِيرُ وَالْقِرْمِزُ، وَيُعْرَفُ وَادِيهَا بِوَادِى طَبَرْنَشَ. وَبِغَرْبِىِّ مَالَقَةَ عَمَلُ[2] سُهَيْلٍ، وَهُوَ عَمَلٌ عَظِيمٌ كَثِيرُ الضِّيَاعِ، وَفِيهِ جَبَلُ سُهَيْلٍ لَا يُرَى نَجْمُ سُهَيْلٍ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَّا مِنْهُ

(١) دعامات: جمع دعامة: الخشب المنصوب للتعريش (٢) ومن احدى قرى هذا العمل الامام عبدالرحمن بن عبدالله السهيلى شارح سيرة ابن هشام (الروض الأنف) ولد بمدينة مالقة سنة ٥٠٨ وتوفى بمراكش سنة ٥٨١

***

وصف تدمير

« وَمِنْ كُورِ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلشَّرْقِيَّةِ تُدْمِيرُ » وَتُسَمَّى مِصْرَ أَيْضًا لِكَثْرَةِ شَبَهِهَا بِهَا ، لِأَنَّ لَهَا أَرْضًا يَسِيحُ عَلَيْهَا نَهَرٌ فِي وَقْتٍ مَخْصُوصٍ مِنَ ٱلسَّنَةِ ، ثُمَّ يَنْضُبُ[1] عَنْهَا فَتُزْرَعُ كَمَا تُزْرَعُ أَرْضُ مِصْرَ ، وَصَارَتِ ٱلْقَصَبَةُ بَعْدَ تُدْمِيرَ مُرْسِيَةَ ، وَتُسَمَّى ٱلْبُسْتَانَ لِكَثْرَةِ جَنَّاتِهَا ٱلْمُحِيطَةِ بِهَا ، وَلَهَا نَهْرٌ يَصُبُّ فِي قِبْلِيِّهَا

***

مدن الأندلس

وَٱعْلَمْ أَنَّ جَزِيرَةَ ٱلْأَنْدَلُسِ ـ أَعَادَهَا ٱللهُ لِلْإِسْلَامِ ـ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى مُوَسَّطَةٍ وَشَرْقٍ وَغَرْبٍ . فَٱلْمُوَسَّطَةُ فِيهَا مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ ٱلْمُمَصَّرَةِ ، ٱلَّتِي كُلُّ مَدِينَةٍ مِنْهَا مَمْلَكَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ لَهَا أَعْمَالٌ ضِخَامٌ ، وَأَقْطَارٌ مُتَّسِعَةٌ : قُرْطُبَةُ وَطُلَيْطُلَةُ وَجَيَّانُ وَغَرْنَاطَةُ وَٱلْمَرِيَّةُ وَمَالَقَةُ . فَمِنْ أَعْمَالِ قُرْطُبَةَ إِسْتِجَةُ[2] ، وَبِلْكُونَةُ ، وَقَبْرَةُ ، وَرُنْدَةُ[3] ، وَغَافِقُ ، وَٱلْمُدَوَّرُ ، وَأُسْطُبَّةُ ،

---

(١) ينضب : ينحسر ويسفل ماؤه (٢) استجة : كورة متصلة بأعمال رية بين الجنوب والغرب من قرطبة وهى كورة قديمة واسعة الرساتيق والأراضى ، وأعمالها متصلة بأعمال قرطبة ـ ينسب إليها محمد بن الليث الأستجى من المحدثين توفى سنة ٣٢٨ (٣) رندة : بين اشبيلية ومالقة

وَبِيَّانَةُ وَالْبَسَّانَةُ وَالْقَصِيرُ وَغَيْرُهَا . وَمِنْ أَعْمَالِ طُلَيْطُلَةَ وَادِي الْحِجَارَةِ، وَقَلْعَةُ رَبَاحٍ ، وَطَلَمَنْكَةُ[١] وَغَيْرُهَا، وَمِنْ أَعْمَالِ جَيَّانَ أُبَّدَةُ ، وَبِيَّاسَةُ ، وَقَسْطَلَّةُ[٢] ، وَغَيْرُهَا . وَمِنْ أَعْمَالِ غَرْنَاطَةَ وَادِي آشٍ ، وَالْمُنَكَّبُ[٣] ، وَلَوشَةُ ، وَغَيْرُهَا . وَمِنْ أَعْمَالِ الْمَرِيَّةِ أَنْدَرَاشُ[٤] ، وَغَيْرُهَا. وَمِنْ أَعْمَالِ مَالَقَةَ : بَلَّشُ، وَالْحَامَّةُ وَغَيْرُهُمَا . وَبِبَلَّشَ مِنَ الْفَوَاكِهِ مَا بِمَالَقَةَ ، وَبِالْحَامَّةِ الْعَيْنُ الْحَارَّةُ عَلَى صَفَةِ وَادِيهَا . وَأَمَّا شَرْقُ الْأَنْدَلُسِ فَفِيهِ مِنَ الْقَوَاعِدِ مُرْسِيَةُ ، وَبَلَنْسِيَةُ ، وَدَانِيَةُ ، وَالسَّهْلَةُ ، وَالثَّغْرُ الْأَعْلَى . فَمِنْ أَعْمَالِ مُرْسِيَةَ : أُورِيُولَةُ[٥] ، وَلَقَنْتُ ، وَلُورْقَةُ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ . وَمِنْ أَعْمَالِ بَلَنْسِيَةَ : شَاطِبَةُ الَّتِي يُضْرَبُ بِحُسْنِهَا الْمَثَلُ ، وَيُعْمَلُ بِهَا الْوَرَقُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ ، وَجَزِيرَةُ

---

(١) مدينة اختطها محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، وأبوه هو الذى اختط مدينة أبدة

(٢) ينسب الى قسطلة الشاعر المشهور أبو عمر أحمد بن محمد بن درّاج القسطلي كاتب الانشاء للمنصور بن أبي عامر — ومن أعمال جيان أيضا قسطرة بينها و بين بياسة

(٣) المنكب : بلد على الساحل بينه و بين غرناطة أربعون ميلا

(٤) مدينة كانت مشهورة بصنع الكتان الفائق

(٥) مدينة قديمة كانت بساتينها متصلة ببساتين مرسية ، و ينسب اليها جماعة من ذوى العلم والأدب

شَقْرُ(١) ، وَغَيْرُ ذَلِكَ . وَأَمَّا دَانِيَةُ : فَهِيَ شَهِيرَةٌ وَلَهَا أَعْمَالٌ . وَأَمَّا السَّهْلَةُ : فَإِنَّهَا مُتَوَسِّطَةٌ بَيْنَ بَلَنْسِيَةَ وَسَرَقُسْطَةَ ، وَلِذَا عَدَّهَا بَعْضُهُمْ مِنْ كُوَرِ الثَّغْرِ الْأَعْلَى ، وَلَهَا مُدُنٌ وَحُصُونٌ . وَمِنْ أَعْمَالِ الثَّغْرِ الْأَعْلَى : سَرَقُسْطَةُ ، وَهِيَ أُمُّ ذَلِكَ الثَّغْرِ ، وَكُورَةُ لَارِدَةَ ، وَقَلْعَةُ رَبَاحٍ ، وَتُسَمَّى بِالْبَيْضَاءِ ، وَكُورَةُ تُطِيلَةَ(٢) ، وَمَدِينَتُهَا طَرَسُونَةُ(٣) ، وَكُورَةُ وَشْقَةَ ، وَمَدِينَتُهَا تَمْرِيطُ ، وَكُورَةُ مَدِينَةِ سَالِمٍ ، وَكُورَةُ قَلْعَةِ أَيُّوبَ ، وَمَدِينَتُهَا بَلْيَانَةُ . وَكُورَةُ بَرْبَطَانِيَةَ(٤) وَكُورَةُ بَارُوشَةَ(٥) . وَأَمَّا غَرْبِيُّ الْأَنْدَلُسِ فَفِيهِ إِشْبِيلِيَةُ ، وَمَارِدَةُ ، وَأَشْبُونَةُ ، وَشِلْبُ . فَمِنْ أَعْمَالِ إِشْبِيلِيَةَ شَرِيشُ ، وَالْخَضْرَاءُ ، وَلَبْلَةُ ، وَغَيْرُهَا .

---

(١) كانت من أنزه بلاد الله وأكثرها روضة وشجرا وماء ، وللأديب أبي عبدالله محمد بن عائشة الأندلسي قصيدة يذكرها ، منها :

وهيهات حالت دون شقر وعهدها ليال وأيام تخال لياليا

(٢) مدينة شرقي قرطبة غزيرة المياه كثيرة الأنهار والأشجار اختطت في أيام الحكم بن هشام (٣) قريبة من تطيلة كان يسكنها المقاتلة والعمال

(٤) مدينة كبيرة يتصل عملها بعمل لاردة شرقي الأندلس وكانت سدا بين المسلمين والروم ذات حصون ، وكان في أهلها قوة وجلادة وممانعة للعدو

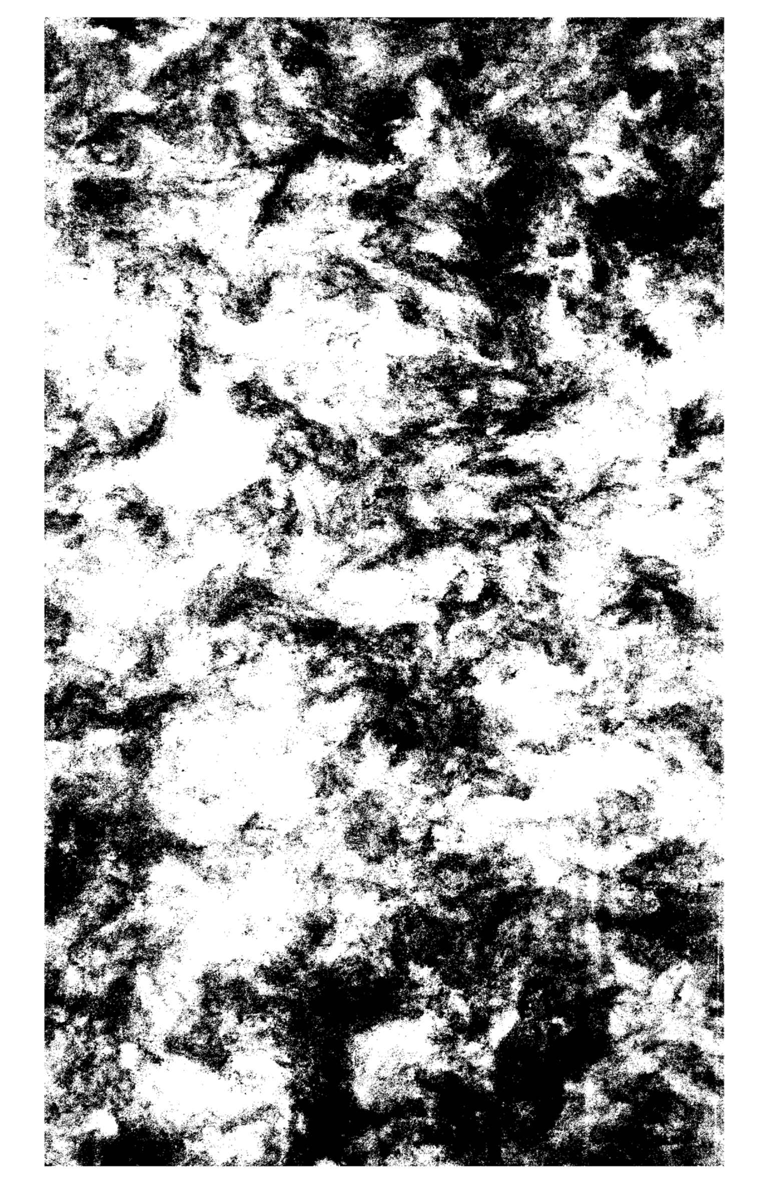
(٥) مدينة غربي سرقسطة وشرقي قرطبة

وَمِنْ أَعْمَالِ مَارِدَةَ بَطَلْيَوْسُ وَبَابِرَةُ وَغَيْرُهُمَا . وَمِنْ أَعْمَالِ أُشْبُونَةَ شَنْتَرِينُ وَغَيْرُهَا . وَمِنْ أَعْمَالِ شِلْبَ : شَنْتَ رِيَّةُ وَغَيْرُهَا .

﴿ انتهى الجزء الأول من كتاب نفح الطيب ﴾
ويليه الجزء الثانى وأوله « الجزر البحرية بالأندلس »

فهرس

الجزء الأول من كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب
تأليف العلامة احمد المقرى المغربى المالكى الأشعرى




Bibliotheca Alexandrina
04799928